أعمال
الجمعية العلمية السورية
١٨٦٨ - ١٨٦٩

مجموعة العلوم

إعداد وتحقيق
يوسف قزما خوري



الطبعة الأولى

١٩٩٠

دار الحمراء للطباعة والنشر

رأس بيروت، شارع الكويت، بناية مكارم، الطابق الخامس، تلفون: ٨٠١٦٨٨

التمهيد

١ ـ غايات «الجمعية العلمية السورية» ووسائطها:

تأسست «الجمعية العلمية السورية» في بيروت سنة ١٨٦٨ «للقيام بما يقتضي لانتشار المعارف من علوم وفنون»[١] تتمّ في عقد اجتماعات يتلا فيها ما يحرر ويقرر من الخطب والدروس والروايات، على ان يتقيد الأعضاء بملاحظة عدم إجراء شيء يضر بأعمال الجمعية وكل ما من شأنه «أن يؤثر في احساسات الغير تأثيراً سيئاً . . . ثم أن يتفضل كلٌ منهم بعدم التعرض فيما يريد تحريره أو تقريره للأمور الدينية أو السياسية جملة»[٢] كما جاء في مجموعة واجبات العمدة والأعضاء التي تعتبر بمثابة قوانين للجمعية. ولا شك بأن هذه الواجبات مشابهة في كثير من موادها إلى قوانين «الجمعية السورية لاكتساب العلوم والفنون» التي تأسست في بيروت سنة ١٨٤٧. وهذا التشابه لا يضيرها لأنه من البديهيات المسلم بها أن يكون لكل جمعية مبادىء عامة تحدد غايتها، ومن عمدة تنفيذية تدير شؤونها مؤلفة من رئيس ونائب للرئيس وأمين للصندوق وأمين للمكتبة، وان تعقد اجتماعات تلقى بها خطب وتقارير. هذه الأمور هي أوجه الشبه بين الجمعيتين.

يضيف الأمير محمد أمين أرسلان، أول رئيس للجمعية، في الكلام عن افتتاح جمعيتهم هذه توضيحات حول الوسائط التي «تتكفّل لهم بالمدارسة والممارسة فضلاً عن التفهيم والتعليم»[٣] حيث تجري أعمال الأعضاء «على طرق مفيدة، وإن كانت في ذاتها عديدة؛ وذلك بتلاوة الخطب لأنها في النفس أوقع، واملاء الدروس لأن ذلك في الفهم أنفع؛ مع جلب صحف صحيحة، واقتناء كتب مليحة؛ وتشخيص روايات ظريفة، وطبع مجموعات لطيفة؛ يحصل منها المراد، من انتشار المعارف بين أبناء البلاد؛ على انها تكون مع ذلك واسطة لتمكين علائق الاتحاد، بالاجتماع على أعمال الخير والرشاد»[٤]. ويحدّد سليم شحادة، مؤلف رواية نقض العهود، الغاية من تشخيص روايته بأنه لكون «أن النفس تميل طبعاً إلى المنزهات، استخدمت الجمعية لتنزيه المشتركين واسطة لذلك تقديم الروايات التي لا يوجد واسطة أحسن منها تناسب المقام. إذ انها مع تضمنها تحت طي الهزل آداباً سامية واصلاحات لازمة تشتمل أيضاً في ظاهرها على فكاهة ونزاهة تشوق إليها الخواطر وتلذ بها النواظر، فلّله درها من واسطة توصل إلى الجد بطريق الهزل، فإن الأول لازم للهيئة الاجتماعية، والثاني يوصل إلى اللازم بسهولة»[٥].

ويذكر سليم البستاني مترجم الروايتين اللتين نشرتا في مجموعات أعمال الجمعية بأن المأمول ان تكون كل منهما «كحديقة يتنزه بها من يطّلع على المجموعة المذكورة المملوءة من الخطب النفيسة والترجمات العقلية. إذ لا يخفى إنه بعد اشتغال القارىء في التأمل بالموضوعات الحكمية والعلمية يصبو إلى التنزه بتلاوة ما يتفكه به العقل وتميل إليه النفس من الأحاديث الخارجية، وانها تكون واسطة يرغب بها الجمهور في مطالعة ما يجاورها من الانشاءات العلمية»[٦]. ولقد قصدت عمدة الجمعية من طبع نشاطات الأعضاء الكتابية ليقرأها من لم تتح له الفرصة لحضور الاجتماعات ولتعم فائدتها الجميع[٧].

ورداً على منتقدي نشاطات الجمعية والمشككين بغاياتها العلمية المحضة والمتشدقين بعدم استقلاليتها واتهامها بالتبعية للغير وبأنها ممهدة الطريق لتأسيس غيرها، فنّد الأمير محمد أمين ارسلان بطلان هذه المزاعم الخاطئة مبيناً حقيقة حالها، بقوله: «ليتيقظ الذاهل لينتبه الغافل، وبالنهاية ليعلم الجاهل؛ فيؤكد من تيقظ وانتبه، ويحقق من شكّ واشتبه؛ بأن هذه الجمعية، إنما هي صرف علمية؛ وليست هي نتيجة عن غيرها، ولا مقدمة لغيرها، كيف كان ذلك الغير؛ وإنما هي مستقلة بذاتها، واحدة في صفاتها؛ يُراد منها نشر العلوم والفنون، دون دخول في شيء مما تقع عليه الظنون؛ فالقصد منها الاشتغال فيما ينفع العموم، من حيث انتشار الفنون والعلوم؛ لا سيما في الوجوه المعاشية، زراعية وصناعية وتجارية؛ دون تعرض لشيء من الأمور الدينية والدولية، فإن هذا أول شرط من شروطها الأصلية؛ وبناء على ذلك تكون أعمالها محدودة بحدود الآداب، فلا يُستطاع الخروج منها بأي باب كان من الأبواب»(٨).

وحول الانتقاد المتعلّق بقلّة عدد أعضاء الجمعية فقد وجّه الحكيم سوكه انتباههم بأن عددهم القليل ينبغي ألا يحزنهم وألا يثبط عزائمهم «حيث لا تبتعدوا من أن تتذكروا بأن اجتماع اثني عشر رجل [تلاميذ السيد المسيح] بإرادة خالصة متسلّحين بآداب سنية كفى إلى تغيير هيئة العالم الروماني، وان اجتماع عشرة رجال [صحابة النبي العربي الكريم] كذلك ظهروا من بلد لم تكن شهيرة في بلاد العرب كفى لتغيير هيئة عالم أكبر أقسام الأرض. نعم، ليس في فكركم ان تغيروا هيئة العالم، لا من حيث مللهم، ولا بالحري من حيث دولهم، وإنما قصدكم ان تمدوا حولكم أنوار المعارف التي تنير أفق العالم المتمدن»(٩). والملفت إلى النظر أن معظم الخطب التي ألقيت باجتماعات الجمعية العلمية السورية اعتمدت اسلوب السجع الذي له مؤيدوه ومحبذوه مع ان معارضيه يخشون على الافكار ان تضيع في متاهات الأكثار من السجاعة.

٢ ـ معالم النهضة الحديثة في أعمال هذه الجمعية:

أين نستطيع ان نتلمس ميدانياً معالم هذه النهضة الحديثة؟ هو أول سؤال يتبادر إلى الذهن. وللاجابة عليه نقول: يتبين من قراءة الخطب والقصائد التي تليت في الجمعية العلمية السورية أن أصحابها لم يقصدوا منها مجرد القاء تقارير علمية ودروس أولية لمبادىء عامة تتناول مواضيع مختلفة، بل إن غايتهم تعَدَّت ذلك إلى وجوب الاعتراف بولوج عصر الحضارة الحديث بكل وجوهه المتعدّدة. حيث نراهم يدعون إلى الحث على التقدم والاجتهاد بعد ذلك التأخر والانحطاط والتقاعد، والنهوض بعد ذلك السقوط، والصعود بعد ذلك الهبوط، والتيقظ من غفلة الوسن، واقتباس المعارف بعد طرح الجهل. وبناء ما انهدم وتعمير الأوطان، وإحياء اللغة العربية، وحماية المنتوجات الوطنية، واسترجاع التمدن لأنه قد آن لذلك الغريب أن يرجع إلى أهله، وشروق مآثر اجدادنا بعد غروبها، والدخول في عصر النور بعد تلك الظلمة الطويلة، والاعتراف بفضل السلف الصالح مع التشديد على اقتباس ما استجد من العلوم والفنون، والاطلاع على جميع المناحي المتعلقة بوطنهم الأم لان ذلك يهمهم أكثر من بقية أقسام الكرة الأرضية، والجد والاجتهاد والثبات والمثابرة والسعي الحثيث لأكتساب جميع وسائط المدنية الحديثة لأن القرائح الشرقية لا تقل عن القرائح الغربية ان لم تضاهيها جودة. من اجل ذلك اعتبروا من أوائل واضعي خميرة النهضة الحديثة.

وللدلالة على ابراز ما تقدم من معالم النهضة، لا بد من الاستشهاد بطائفة من أقوال المساهمين في أعمال الجمعية، لذلك اخترنا الاقتباسات التالية:

يعتقد الأمير محمد أمين أرسلان، أول رئيس للجمعية، ان الطريق الموصلة إلى الغاية التي ينشدونها تعتمد على تأسيس المعاهد العلمية أولاً، ومن ثم على عقد الاجتماعات العلمية ثانياً، حيث يقول:

«وهنا لا شك اذا تبصرنا بعد التفكير فيما ينهضنا من ذلك السقوط، فيصعدنا بعد ذاك الهبوط؛ لا نجد شيئاً أنسب في نوال هاتيك القضية، من عقد الاجتماعات العلمية؛ بعد تشييد المدارس والمكاتب، حيث هذه تكون من قبيل المسالك كما ان تلك تكون من قبيل المداخل لتلك المآرب؛ كيف لا؟ وان الجمعيات العلمية معامل العلوم التي بها تنسج مطارفها، ومصانع الفنون التي تصاغ زخارفها»[١٠].

ويحثّ موسى يوحنا فريج في خطابه عن التمدن أبناء وطنه أن يطلبوا التمدّن النافع عن الطريق الصواب بالبحث عن الوسائط الفعالة التي توصلهم إليه، حيث يقول:

«أما الآن أيها السادة، فإنه يجب علينا البحث عن الوسائط الفعالة؛ التي بواسطتها نقدر على التوصل إلى هذا التمدن النافع، رافعين العوائق والموانع؛ باسطين اليد، باذلين الجهد والجد؛ حتى ان العقول تتمرن، وشعب السوريين يتمدن . . . أما نحن السوريين، فإنما نرى ذواتنا من الصنائع خالين؛ الكل يرغب اقتباس معرفة اللغات، لامتداد التجارة إلى جميع الجهات؛ فماذا ينفع الانسان، المميز بالنطق عن الحيوان؛ معرفة اللغات دون العلوم، إذ إنه من المعلوم؛ ان اللغات تمرّن الذهن فقط دون العقل، وتنفع الفرع في الانسان دون الأصل؛ إذ إن الأصل، فيه هو العقل؛ فإن الذي حملني على تقدمة هذا الخطاب، هو معاينتي أبناء وطني طالبين التمدن على غير الصواب»[١١].

وفي الحث على التقدم يهيب الشيخ ابراهيم اليازجي بالعرب الكرام ببذل الجهد للنهوض مجدداً وعدم الاكتفاء والقناعة بذكر محامد أمجادهم القديمة، حيث يقول (علماً بأنها لم تنشر في ديوانه: **العقد**):

«سلامٌ أيها العَرَب الكرامُ ... وجادَ ربوعَ قطركم الغمامُ

. . .

تناثر عقدنا قدماً ولكن ... سيرجع بالبها ذاك النظامُ
وما غربت مآثرنا ولكن ... تعرض دون أوجهها لثامُ

. . .

سنرجع ما طوى غدر الليالي ... ونبني ما تداوله انهدامُ
لعمرك نحن مصدر كل فضلٍ ... وعن آثارنا أخذ الأنامُ

. . .

ولسنا القانعين بذكر هذا ... وليس لنا بعروته اعتصامُ
ولكنّا سنجهد في المعالي ... إلى أن يستقيم لها قوامُ»[١٢]

وفي عُرف إسبر شقير بأن المرء هو من يبرهن عن جدارته لا مَن يتغنّى بجده وأبيه، حيث يقول:

«تطبيقاً لمشروع جمعيتنا العظيم بتيقظ الناس من غفلة الوسن، وتنشيط إخواننا أبناء الوطن؛ . . . العلم انشروا ولا يبخل أحد به . . . أسيادي، الذين أسّستم والذين اشتركتم، تمّموا مشروعكم بكلّيا يتعلق به ويلزم له جهد طاقتكم؛ وأخبروا بأنه لا يكتفي، أن يقال كان جدي وكان أبي؛ فإن هذا عذر أقبح من ذنب وسبب للاحتقار لا للاعتبار. يقول: المرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت، المرء بنسبه لا بحسبه، بجِده لا بجَده»(١٣).

ويدعو عبدالرحيم بدران في خطبته عن «النحو» إلى احياء اللغة العربية، حيث يقول:

«فيجب علينا معاشر العرب ومعادن الأدب؛ إحياء هذه اللغة [العربية] التي هي أشرف اللغات وضعا وأتقنها صنعا . . . ألسنا أشد احتياجاً إليها من سواها، وأعرف بفضلها ممن عاداها، وألزم إليها من سائر الأوقات، وأعرف فيها بالمحاورات والمخابرات؛ وأضر إليها لدى فهم التأليف المفيد، والتكلّم وقت اجتماع كهذا الاجتماع سعيد. نعم، ثم نعم، نحن ذلك المحتاجون إليها، المعولون في أهم تكلمنا عليها؛ ولأكتفين الآن بهذا التشوق لها، والتعشق بها لمن عنها لهى»(١٤).

ويدعو عبدالله صوصه في خطبته عن التربية العمومية إلى طرح الجهل واقتباس المعارف لنصل إلى المكانة المرموقة التي وصل إليها أجدادنا بحسن جدهم وجودة عقلهم، حيث يقول:

«لما كانت الآداب والمعارف من أعظم الوسائط التي عليها يتوقف نمو البلاد وتوفيق العباد . . . ولكوني، كمحب للوطن، أريد أن أبين بقدر الإمكان كم أود متمنياً لو اننا نحن، معشر العرب، بوقت قريب نطرح عنا الجهل والغباوة، ونظهر منصبين نحو اقتباس المعارف والذكاوة حتى بذلك نصل لما اتصل إليه قدماؤنا بحسن جدهم وجودة عقلهم، ونستحق نظيرهم خلود الفكر الحميد بصفحات التواريخ.

. . . [وبعد أن عدّد فوائد التربية استخلص قائلاً:] «فهذه بالإختصار فوائد التربية الكاملة التي يجب علينا أن نجد بطلبها إذا أردنا [ان] نجتني ثمارها ونعيد اشراق أنوار التمدن الحقيقي في بلادنا»(١٥).

وفي مقدمة رواية نقض العهود يدعو مؤلفها سليم شحادة إلى استرجاع المعارف من غربتها الطويلة، حيث يقول:

«استعدوا لتخليص النفوس بسطوة العلم من أسر الجهل الذي ليس يرضى به من العقلاء أحد، ولا يلزم لكم زيادة حث لذلك، فإن غيرتكم العربية شهيرة فاظهروها باسترجاع معارفكم وعمروا بها أوطانكم. فقد آن أن يرجع ذلك الغريب لأهله»(١٦).

ويشدّد يوسف الشلمون في خطبته حول جغرافية الولاية السورية على الاطلاع بجميع ما يتعلق بالوطن قبل كل شيء آخر، حيث يقول:

«رأيت أن أتلو على مسامعكم الآن خطبة في جغرافية الولاية السورية، التي تم الاطلاع عليها، كما لا يخفى، يهمنا أكثر من بقية أقسام الكرة الأرضية»(١٧).

ولا بد من التنويه هنا بأن هذه الخطبة غنية بمعلوماتها المتعلقة بعدد السكان والألوية

والأقضية والقرى والأنهر والبحيرات والجبال، مستقاة من مصادرها الأولية من دفاتر الحكومة، تعتمد البحث والاستقراء في جمع المعلومات الدقيقة. وهي أولى التقارير الإحصائية الصادرة في القرن التاسع عشر.

إن خطبة سليم كساب حول الصناعة تعتبر بحق مشروعاً اصلاحياً لترقية الصناعة في بلادنا مع اقتراحات عملية لازدهارها، حيث يقول:

«فلماذا هذا التأخر والانحطاط؟ . . . أما يوجد عندنا عقول قابلة لتعلمها واتقانها؟ نعم، يوجد عندنا كغيرنا من الأمم الأوروبية، إذا كنت لا أقول أرفع وأكثر قابلية. فلماذا إذن هذا التقاعد؟ . . . نعم، أيها الأسياد، إن أسباب وعوائق امتداد الصناعة في بلادنا قوية وأعظم من أن تنكر. إلا ان جوهرة العقل التي ميزنا بها من باري الأكوان ووضع قطرنا السوري وارتفاع شأنه القديم والوصلة المتجرية التي متعتنا بها يد العناية وكثرة وسائط المعرفة وسهولة اقتناء الكتب وحالة تمدن العصر ومساواة وعدل الحقوق السياسية والوقت الثمين جميعها أسباب كافية تنادينا للمبادرة لملافاة ما فرط»[١٨]. كما نادى، مع زميله حنين خوري صاحب الخطاب في الزراعة، إلى حماية المنتوجات الوطنية وعدم شراء البضائع الأجنبية، «لأن ذلك مبني على مجرد خير الوطن ونفع العموم».

تمثل خطبة جرجس زوين في تاريخ سورية نموذجاً حياً لبزوغ النزعات القومية في القرن التاسع عشر، لا يمكن تجاهلها مهما تباينت الآراء حولها، جاء فيها:

«هذا، ولكل بلاد تواريخ، أما سورية فيخدمها كل تاريخ، فهل من شاعر ولا ترنم بها؟ وهل من نبي ولم يتكلم عنها؟ وهل من سائح ولا يلهج ببهاء جمالها؟ وهل من ذي أطماع ولا يتعرف إليها؟ . . . تضيق البلدان على سكانها، أما سورية فرحبة حتى وعلى من لم يكن منها، ولما لم يكن ما يجلي قلوب أهاليها سواها رضوا بها وجادوا على غيرهم باستنشاق هواءها . . . كل العوائد تتغير ولكل ما ادعته الناس من التمدن أعصار، أما عصر تمدننا العاري عن كل تمويه فهو ربيع دائم لا يشوبه أغيار. غيّرت الغزاة عوائد بلدان فتحوها لكنهم سجدوا لعوائد سورية حين دخلوها، بنوا على شرائعها واتصفوا بصفاتها. تمسكوا بني أمي بعوائد بلادكم فدونها كل ما تطلبون، شدوا بني أمي صدور مطيكم نحو العلوم فشادت الحكمة في دياركم أركانها، حافظوا على ما تملكون فكل ماء دون ماءكم سراب. فعن مدح سورية يقصر اللسان، وإذ لم يدرك فضلها سوى بنيها فأشاروا عنها، وحاشا من أن يكونوا تغالوا بالافتخار فيها»[١٩].

ويذكر حسين بيهم في أرجوزته حول افتتاح الجمعية ان التواني والكسل كانا من أسباب غربة علومنا عنا والتي حنّت لوطنها، لذلك لا بد من اعتماد العمل والجدّ لعودتها، حيث يقول:

«وعلمنا الغريب حن للوطن — وعاد عوداً أحمدا بعد زمن
. . .
فهذه الجمعية العلمية — غايتنا بها بدت جلية
. . .
وسوف ترقي الخطة السورية — بها لأسنى الرتب العلية
. . .
فقد جرى من التواني ما كفى — وقد كفى من كل ما قد جرى
. . .

فعمروا أوطانكم بالعمل واطرحوا عنكم شعار الكسل

فإنه قد قيل من جَدَّ وَجَد ولم يعد بخيبة مَن اجتهد»[٢٠]

٣ - الجمعية وأخبارها

إن المصادر التاريخية التي بين أيدينا تظهر تبايناً عظيماً في معلوماتها المتعلقة بالجمعية العلمية السورية، كما انها تبدو، في معظم الأحيان، متناقضة مع ما جاء في أعمال الجمعية الغنية بالمعلومات عن نشاطاتها. ولعل هذا التباين والتناقض وإهمال ذكر الجمعية يعود إلى عدم توفر مجموعات أعمال الجمعية بين أيدي هؤلاء المؤرخين بسبب ما كان يجري من اتلاف مثل هذه المطبوعات في عهد السلطان عبدالحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩) أكبر عدو للحرية الفكرية.

يذكر الشيخ محمد رشيد رضا، صاحب مجلة **المنار** (١٨٩٨ - ١٩٣٥)، إثر زيارة قام بها لطرابلس بعد خلع السلطان عبدالحميد الثاني سنة ١٩٠٩ أنه في السنين الأخيرة من حكم ذلك السلطان حدثت «بدعة تفتيش الحكومة لبيوت الناس وأخذ الكتب منها ومعاقبة أصحابها. فصار الناس يحرقون كتبهم بأيديهم، ومنهم من دفنها في الأرض، حتى أحرق في سورية عشرات الألوف من الأسفار القديمة والحديثة في سنة واحدة»[٢١].

لا شك ان إتلاف هذه الأسفار هو من أهم العوامل الرئيسية التي لم تمكن هؤلاء المؤرخين من ذكر معلومات دقيقة حول الحركات الفكرية في القرن التاسع عشر. وهذا ما يفسر لنا الأمر الذي جعل يوسف إليان سركيس، صاحب **معجم المطبوعات العربية والمعربة**، أن ينبه أفكار الأب لويس شيخو اليسوعي إلى ما سها عنه في كتابه **تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر** من ذكر «الجمعية المشرقية» التي تأسست في دير الآباء اليسوعيين في بيروت سنة ١٨٥٠[٢٢]. كما جعل عبداللطيف الطيباوي في مقالته عن بطرس البستاني والارساليات التبشيرية الأميركية ان ينبه مؤرخي النهضة الحديثة انه إطلع في أرشيف المجمع الأميركي للبعثات التبشيرية على رسالة بعثها المعلم بطرس البستاني إلى المرسل الأميركي عالي سميث يعلمه فيها عن انشاء جمعية أدبية تدعى «مجمع التهذيب»[٢٣]. علماً ان شاهين مكاريوس، أقرب المقربين من المعلم بطرس البستاني والدكتور كرنيليوس فانديك، سها عن ذكر هذا المجمع في خطابه عن «المعارف في سورية»[٢٤] الذي ألقاه في المجمع العلمي الشرقي في جلسة كانون الثاني سنة ١٨٨٣ قبيل وفاة البستاني بخمسة أشهر. كما يفسر النقص الحاصل في عدم توفر مجموعة كاملة لأعمال الجمعية بفقدان كل من المجموعة الخامسة والمجموعة السادسة من أعمال السنة الأولى (الصفحات ١١٥ إلى ١٧٠). لذلك لا بد من اعتماد مجموعات أعمال الجمعية كمصدر أولي لنشاطاتها.

المؤسسون هم[٢٥]:

إبراهيم فخري، بولس دباس، وحسين بيهم، وحبيب الجلخ، وحنين خوري، ورزق الله خضرا، وسليم البستاني، وسليم رمضان، وسليم شحادة، وعبدالرحيم بدران، والأمير محمد أمين ارسلان، وموسى يوحنا فريج.

قدم المؤسسون في أوائل شهر كانون الثاني سنة ١٨٦٨ إستدعاء إلى جانب الحكومة السنية بسعي من الأمير محمد أمين ارسلان وقابلوا دولة راشد باشا، والي ولاية سورية،

موضحين عزمهم على تأسيس جمعية علمية مع طلب الرخصة بالأذن بتأسيسها. فوافق الوالي على ذلك واصدر أوامره بتحرير أمر إلى سعادة كامل باشا، متصرف لواء بيروت، يتضمن اعطاء الرخصة بتأسيس الجمعية على ان يلي ذلك الاستئذان من الباب العالي في الآستانة[٢٦].

وفي مساء يوم الاربعاء الواقع في ١٥ كانون الثاني سنة ١٨٦٨ تم انتخاب عمدة لتدبير أعمال الجمعية على الشكل التالي: الأمير محمد أمين ارسلان رئيساً، حسين بيهم وسليم البستاني وحنين خوري مميزون؛ رزق الله خضرا أمين صندوق؛ سليم رمضان وموسى يوحنا فريج مصححان؛ عبدالرحيم بدران وسليم شحادة كاتبان؛ حبيب الجلخ مدير أشغال. ولم ينتخب نائب للرئيس ولا أمين للمكتبة[٢٧].

وفي يوم الأربعاء الواقع في ٢٠ كانون الثاني سنة ١٨٦٩ تم انتخاب العمدة المنوطة بها ادارة أعمال الجمعية على الشكل التالي: حسين بيهم رئيساً؛ سليم البستاني نائباً للرئيس؛ الياس كركبه وحنين خوري وعبدالرحيم بدران مميزون؛ سليم شحادة وموسى يوحنا فريج كاتبان؛ الشيخ ابراهيم اليازجي وسليم الخوري مصححان؛ عبدالأحد خضرا أميناً للصندوق؛ جرجس الجاهل أميناً للمكتبة؛ يوسف الشلفون مدير أشغال[٢٨].

عقدت الجمعية سبعة اجتماعات في سنتها الأولى، بتاريخ ١٥/١/١٨٦٨، و٢٢/١/١٨٦٨، و٥/٢/١٨٦٨، و٤/٣/١٨٦٨، و٢٢/٤/١٨٦٨، و١٥/٦/١٨٦٨، و٥/١٢/١٨٦٨؛ كما عقدت ستة اجتماعات أخرى في سنتها الثانية، بتاريخ ٢٠/١/١٨٦٩، و٤/٢/١٨٦٩، و١٩/٣/١٨٦٩، و٤/٤/١٨٦٩، و٢١/٤/١٨٦٩، و٢٥/٥/١٨٦٩. ألقي في هذه الاجتماعات الثلاث عشرة ١٩ خطبة و٦ قصائد، بالاضافة إلى نشر ترجمة رسائل سينكا، وذكر حياة سقراط، وروايتين من ترجمة سليم البستاني، ونادرة «الاخوان الصياميان»، وجزء من كتاب كيزو «التحفة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك الأوروبية»، من ترجمة حنين خوري. وجرى تشخيص رواية قيس وليلى من تأليف سليم البستاني، ورواية تمدن العصر ورواية نقض العهود من تأليف سليم شحادة، طبعت جميعها في ١٤ مجموعة بالإضافة إلى مجموعة خاصة بواجبات العمدة والأعضاء. وألقى الدكتور يوحنا ورتبات خطاباً شفوياً في الهواء والتنفس ولكنه لم يطبع[٢٩]. وقدم المعلم بطرس البستاني عدة نسخات من خطابه «في الهيئة الاجتماعية» لتوزع على المشتركين ولذلك لم يطبع في المجموعة[٣٠]. كما كلف السيد موسى يوحنا فريج بإلقاء خطاب حول «التجارة» لم ينشر. وذكر ان المعلم بطرس البستاني القى خطاباً شفوياً في الاجتماع المنعقد بتاريخ ٢٢/١/١٨٦٨ أثنى فيه «على همة الأشخاص الذين سعوا في تأسيس الجمعية محرضاً أياهم على الثبات في القيام بها مع حث الجمهور على مساعدتهم»[٣١]. ومن أدرى بما تحتاجه الجمعيات من المعلم بطرس البستاني، رئيس تحرير أعمال الجمعية السورية التي صدرت سنة ١٨٥٢. ويظهر انه قد تم فرط عقد الجمعية العلمية السورية بعد أقل من عامين على تأسيسها نتيجة لفقدان هذين الشرطين: ثبات الأعضاء وحث الجمهور على مساعدتهم.

بيروت، في ٢٩ أيار (مايو) ١٩٩٠

يوسف قزما خوري

هوامش التمهيد

(١) «واجبات العمدة والأعضاء». ص ١ أدناه.
(٢) المصدر ذاته. ص ٢ أدناه.
(٣) محمد أمين ارسلان. «في الكلام على فتح الجمعية». ص ٩ أدناه.
(٤) المصدر ذاته.
(٥) سليم شحادة. «مقدمة لرواية نقض العهود». ص ١٤٧ أدناه.
(٦) سليم البستاني. «رواية العروس البرازيلية». ص ٨٦ أدناه.
(٧) «الجمعية». ص ١٩٦ أدناه.
(٨) محمد أمين أرسلان. «في الكلام على فتح الحمعية». ص ١٠ أدناه
(٩) الحكيم سوكه. «في فوائد العلم». ص ٢٤ أدناه.
(١٠) محمد أمين أرسلان «في الكلام على فتح الجمعية». ص ٩ أدناه.
(١١) موسى يوحنا فريج. «في التمدن». ص ٣٨ ـ ٣٩ أدناه.
(١٢) ابراهيم اليازجي. «في الحث على التقدم». ص ٤١ ـ ٤٢ أدناه.
(١٣) اسبر شقير. «في الجمعيات». ص ٥٠ ـ ٥٤ أدناه.
(١٤) عبدالرحيم بدران. «في النحو». ص ٥٧ ـ ٥٨ أدناه.
(١٥) عبدالله صوصه. «في التربية العمومية». ص ٦٤ ـ ٦٩ أدناه.
(١٦) سليم شحاده. «مقدمة لرواية نقض العهود». ص ١٤٧ أدناه.
(١٧) يوسف الشلفون. «في جغرافية الولاية السورية». ص ١٥٣ أدناه.
(١٨) سليم كساب. «في الصناعة» ص ١٧٣ ـ ١٧٩ أدناه.
(١٩) جرس زوين. «في تاريخ سورية». ص ١٨٤ أدناه.
(٢٠) حسين بيهم. «في الكلام على فتح الجمعية» ص ١٢ ـ ١٤ أدناه.
(٢١) محمد رشيد رضا. «جناية عبدالحميد» المنار ج ١٢ (١٩٠٩) ص ٣١٢.
(٢٢) يوسف إليان سركيس. «الجمعية المشرقية في بيروت». **المشرق** ج ١٢ (١٩٠٩) ص ٣٢ ـ ٤١.
(٢٣) انظر مقالة عبداللطيف طيباوي: «المرسلون الأميركيون في بيروت» (أوراق سانت انطوني، رقم ١٦) ١٩٦٣، ص ١٦١ (بالانكليزية).
(٢٤) شاهين مكاريوس. «المعارف في سورية». **المقتطف** ج ٧ (١٨٨٣) ص ٣٨٥ ـ ٣٩٢.
(٢٥) «واجبات العمدة والأعضاء». ص ٥ أدناه.
(٢٦) المصدر ذاته.
(٢٧) المصدر ذاته، ص ٦ أدناه.
(٢٨) «الجمعية». ص ١٤٢ أدناه.
(٢٩) «الجمعية» ص ١٩٦ أدناه
(٣٠) المصدر ذاته.
(٣١) «الجمعية» ص ٦.

أعمال الجمعيّة العلميّة السوريّة
في بيروت

مجموعة العلوم
من ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٨٦٨
إلى ٢٥ أيار (مايو) ١٨٦٩

مجموع واجبات أعضاء وعمدة الجمعية العلمية السورية في بيروت

[بيروت: المطبعة العمومية، ١٨٦٨. ص ١ - ١٥].

بما أن هذه الجمعية في الحقيقة عبارة عن شركة مركّبة من أعضاء مختلفة محلّية وغير محلية للقيام بما يقتضي لانتشار المعارف من علوم وفنون تقوم تلك الشركة بتدبير عمدة منتخبة من الأعضاء فتكون أصلية وغير أصلية. الأصلية تنتخب من المحلية وهي عبارة عن رئيس ونائب رئيس وثلاثة مميزين وكاتبين ومصحّحين وأمين صندوق وأمين مكتبة ومدير أشغال وغير الأصلية من الغير محلية وهي عبارة عن الوكلاء الذين يعينوا في الجهات. يكون من الضروري في تلك الشركة للسعي بما يقتضي لذلك القيام بواجبات مختلفة على الأعضاء على العمدة عموماً وخصوصاً غير أنه لما كان القيام بذلك يقتضي عقد اجتماعات مفتوحة لكل من يريد الحضور من الأعضاء ويحتم عليه الحضور من العمدة يجب الكلام على الواجب في الاجتماعات ثم على واجبات الأعضاء، ثم العمدة بالعموم والخصوص فنقول:

الواجب في الاجتماعات

الاجتماعات تكون في نفس الأمر لاجراء أعمال الجمعية من تلاوة أو إملاء ما يحرّر أو يقرّر من الخطب والدروس. إلاّ أنه لما كان لا بد لاجراء تلك الأعمال من مذاكرات مختلفة وتكون الاجتماعات على شكلين: الواحد للتلاوة أو الإملاء وينبغي أن يكون الأصل في تركيبة الأعضاء. والآخر للمذكّرات التي تقتضي لذلك وينبغي أن يكون الأصل في تركيبة العمدة. والاجتماع الذي من الشكل الأول يجب أن لا يعتبر اجتماعاً ما لم يكن حاضراً به إثنا عشر فأكثر من الأعضاء عدا عن من يحضر من العمدة. والاجتماع الذي من الشكل الثاني يجب أن لا يُعتبر اجتماعاً ما لم يكن حاضراً به ستة فأكثر من العمدة عدا عن من يحضر من الأعضاء. ويكون الاجتماع مع ذلك اعتيادي وغير اعتيادي. فالاعتيادي يكون في الأوقات المعيّنة. ولا يحتاج إلى اعلامات خصوصية لكل من الأعضاء. وغير

الاعتيادي يكون في الأوقات الغير معيَّنة. ويحتاج إلى اعلانات خصوصية لكل من الأعضاء. ويمكن عقد اجتماع غير اعتيادي بطلب إثني عشر من الأعضاء أو ستة من العمدة. ثم إن الاجتماع يبتدىء بعد تكامل العدد المعين بدخول الوقت المخصص فتبتدىء الجلسة بقول الرئيس بعد تنبيه الحاضرين بما يشعر بالابتداء: الاجتماع قد فتح فيرجى الاصغاء لما هو مزمع أن يتلى أو يملى أو بالحري يعرض أو يقرر. ثم يقرأ الكاتب أعمال الاجتماع السابق غير انه إذا كان ذلك الاجتماع للتلاوة أو الإملاء يقرأ أعمال الاجتماع الذي سبق في ذلك وإن كان للمذاكرة يقرأ أعمال الاجتماع الذي سبق لذلك كذلك، ثم يبينّ ما هو مزمع أن يصير إجراءه في ذلك الاجتماع بعد أن يكون تعين ذلك من الرئيس برأي المميزين قبل فتح الاجتماع. ثم يحصل الابتداء في إجراء الأعمال التي تعينت الواحد بعد الآخر وحيث لا بد أن يكون من الأعمال التي تعين ما هو لبعض الذوات. يتقدم كل منهم فيجرى ما تعين عمله منه فإذا انتهي ذلك يعلن الرئيس النهاية. فيقول: بما أن الأعمال المعينة قد انتهت فإذا كان أحد يريد إبداء شيء يتعلق بأعمال الجمعية دون دخول فيما يخالف شروطها فليتفضل بالاشارة لذلك وعلى كل يرجى عدم التعرض لما يُفضي إلى الجدال. وحينئذٍ إذا كان أحد يريد التكلم يشير برفع اليد من مكانه. والرئيس يلاحظ ذلك ويعطي الرخصة بالتتابع حسب الاشارة بالطلب فإذا انتهى ذلك يقول الرئيس: الاجتماع قد قفل، فتنتهي الجلسة.

واجبـات الأعضـاء

الأعضاء في نفس الأمر إنما هم المشتركون الذين يقومون بأعمال الجمعية. وبناء على ذلك يُرجى منهم على العموم العناية بإبداء كلما يوافق بحسب أصولها. وكل طلب يتقدم من إثني عشر فأكثر منهم يكون حرياً بالقبول إذا لم يكن فيه مخالفة لأصول الجمعية. ثم يرجى منهم مع ذلك في ابتداء كل سنة أن يعلنوا إلى العمدة ما يستحسنونه أن يكون كما يعلنوا في انتهاء كل سنة ما استحسنوه مما كان ويحصل الاهتمام حينئذٍ في تجديد الإكتتاب. وعلى الخصوص القيام بدفع ما يعين من المرتب السنوي كل على السواء دون استثناء أحد. ويُكلف كل عضو بذلك تكليفاً حتمياً ثم القيام بتقديم ما يمكن من الخطب والدروس وكذا الروايات. كل بحسب إقتداره ويكلف كل عضو بذلك تكليفاً غير حتمي. وعلى كل منهم أن يتفضل بملاحظة ما يرجى من الذوات الذين يدخلون في هكذا جمعيات. وذلك من حيث ملاحظة عدم إجراء شيء يضر بأعمال الجمعية كتأخير دفع المرتب أو التكلم بما من شأنه أن يؤثر في إحساسات الغير تأثيراً سيئاً فيتكرم بالدفع حين الطلب وبالتكلم على طريق الأدب. ثم ان يتفضل كل منهم بعدم التعرض فيما يريد تحريره أو تقريره للأمور الدينية أو السياسية جملة. وكذا بعدم التعرض لمدح أو ذم إلاَّ إذا كان في ذلك فائدة تعود للجمعية ثم أن يتفضل كل منهم بالإصغاء عند التلاوة أو الإملاء ثم بالاشارة قبل التكلم. وذلك برفع اليد من مكانه مع انتظار الرخصة. فإذا حصل ذلك أن يتفضل بالوقوف. وإذا طلب منه قطع الكلام لكون ذلك أدى إلى جدال أو بالحري حصل به تعرض لأمر ديني أو دولي أن يتكرم بقبول ذلك. ثم بما أنه يحق لكل من الأعضاء الدخول إلى محل الجمعية في أي وقت شاء حيثما يباح له المطالعة في ما يوجد فيه من الصحف والكتب يُرجى إذا اشتبه مدير المحل في أحدهم أن يتكرم بإراءة الاعلام الذي يعطى في بيان الاشتراك. ثم بما أنه يباح لكل منهم أن يأخذ نسخة واحدة من الصحف والكتب على طريق الاستعارة فإذا أراد أحد ذلك يرجى أن يتفضل بتقديم الطلب إلى الرئيس ومتى أُعطي الرخصة بذلك أن يسلم أمين المكتبة بيـاناً يتضمن اسم وقيمة وهيئة ما يريد أخذه مع التعهد بإرجاعه في الوقت المعين ولا يكون أكثر من خمسة عشر يوماً. هذا فضلاً عن التعهد بصيانته وإذا فقد يدفع الثمن مضاعفاً. ثم بما أنه يحق لكل من الأعضاء أخذ نسخة مما يطبع في

الجمعية من المجموعة أو خلافها. يُرجى أن يتفضل كل من الأعضاء عند تقديم نسخة من ذلك أن يمضي الوصل الذي يتقدم له مشعراً بعلم وصول ذلك ثم بما أنه يعين اجتماعات مخصوصة لتشخيص الروايات التي يحق لكل من الأعضاء أن يحضر فيها مرة واحدة من تشخيص كل رواية. يتقدم لكل منهم حينئذٍ إعلام يشعر بالرخصة في الحضور فيرجى منهم تقديم ذلك عند الدخول. ثم إن من يريد من المشتركين تلاوة أو إملاء أو بالحري تشخيص ما يتفضل به من الخطب أو الدروس وكذا الروايات يُرجى منه أن يتكرم بإعطاء ذلك إلى أحد الكاتبين ليخبر الرئيس والمميزين عن ذلك ويُعَيِّن وقتاً لفحص ذلك ثم تقديمه على حسب التقدم بالطلب ومتى تَعينَّ وقت التلاوة أن يتفضّل بالحضور إلى المحل في الوقت الذي يُعين ثم ينبغي للأعضاء أن يعلنوا في الاجتماع الأخير من كل سنة ما رأوه وما يرون اجراءه موافقاً إلى العمدة. وغب ذلك أن يتكرم من يريد المداومة منهم بتحرير اسمه.

ثم ان كل ما ذكر يعتبر بالاصالة من جهة الأعضاء المحلية، وأما الأعضاء الغير المحلية فيكون عليهم اجراء ما يمكن اجراءه بطريق المراسلة. ووكيل الجمعية في كل محل يقوم مقام العمدة. وبناء على ذلك يُرجى من الأعضاء المذكورين أن يتكرموا بدفع المرتب. وكذا بإعطاء ما يحررونه إلى الوكيل لكي يقدمه إلى العمدة. وعند توزيع نسخ الطبع أن يتكرموا بإمضاء الوصولات. وبالطبع حيث عند تشريفهم إلى البلدة يعاملون معاملة المحلية تكريماً يتفضلون حينئذٍ بمراعاة الواجبات المطلوبة من الأعضاء المحلية على ما تبين.

واجبات العمدة

العمدة في نفس الأمر إنما هي الموظفون الذين يقومون بتدبير الجمعية. وبناء على ذلك يُرجى منهم على العموم العناية بإجراء كلما يوافق بحسب أصولها. وكل قرار يُعطى من ستة فأكثر منهم يكون حرياً بالعمل ما لم يكن فيه مخالفة للأصول. ثم يُرجى منهم مع ذلك في ابتداء وانتهاء كل سنة أن يعلنوا إلى الأعضاء في ابتداء كل سنة ما هم مزمعون عليه أن يكون كما يعلنون في انتهاء كل سنة ما أزمعوا عليه مما كان ويحصل الاهتمام حينئذٍ في تجديد الانتخاب وعلى الخصوص يُرجى من كل منهم القيام بواجبات وظيفته كما يأتي:

فالرئيس عليه تعيين كل ما يراد إجراءه من الأعمال في الجمعية بعد المذاكرة مع المميزين. ولذلك يقتضي أن يُرفع إليه كل عمل يراد اجراءه لإعطاء الرخصة فيكلف بالخصوص في تعيين ما يراد تقديمه من الخطب والدروس وكذا الروايات وكذا في تعيين ما يطلب من الكلام. وله حق منع ذلك إذا وجد فيه مخالفة لأصول الجمعية وعليه القيام بإجراء ما يقتضي لفتح وقفل الاجتماعات مع حفظ الترتيب كما ينبغي. ويكلف بإعطاء الرخصة فيما يقتضي صرفه من الصندوق أو إعطاؤه من المكتبة. واتفاقه مع واحد فأكثر من المميزين كافٍ لإعطاء الرخصة.

ونائب الرئيس عليه معاونة الرئيس في حضوره والقيام مقامه في غيبته فيكون عليه حينئذٍ ما يكون على الرئيس. **والمميزون** عليهم فحص كل ما يطلب اجراءه من الأعمال في الجمعية بعد المذاكرة مع الرئيس. ولذلك يقتضي أن يرفع اليهم كل عمل يطلب اجراءه لاعطاء القرار فيكلفون بالخصوص في فحص ما يطلب تقديمه من الخطب والدروس وكذا الروايات. وكذا في ملاحظة ما يطلب من الكلام. ولهم حق توقيف ذلك ما دام يوجد فيه مخالفة لأصول الجمعية وعليهم القيام بملاحظة ما يفضي في فتح وقفل الاجتماعات مع ملاحظة الترتيب. ويكلفون بإعطاء القرار فيما يقتضي صرفه من الصندوق وإعطاؤه من المكتبة. واتفاق واحد فأكثر منهم مع الرئيس كافٍ لإعطاء القرار.

والكاتبان عليهما تحرير وتقييد كل ما يقتضى في أعمال الجمعية من حيث الرسائل أو الدفاتر التي تلزم خصوصاً في تلخيص الأعمال التي تجري لنشرها أو ضبطها. وكل منهما يقوم مقام الآخر. إلاّ أنه يخص الواحد بأمر التحرير والآخر بأمر التقييد إذا اقتضى. فينبغي أن يبادر من يتسلم أمر التحرير إلى اجراء ذلك وكذا من يتسلم أمر القيد فيقيد في دفتر الأعمال بيان عمل كل اجتماع ملخصاً فيه ما حصل من الكلام مع الاشارة إلى موضوع ما تلي أو أملي. وعلى أحد الكاتبين أن يقرأ عمل الاجتماع الماضي في الاجتماع الحاضر وغب الخلاص من ذلك أن يقدمه إلى الرئيس ليصادق عليه. وعليهما أيضاً استلام ما يطبع من أعمال الجمعية لختمه بختمها ثم توزيعه على الأعضاء مع تحرير كل ما يقتضي من الاعلامات.

والمصححان عليهما تصحيح كل ما يصير تقديمه من أعمال الجمعية من جهة ما يراد طبعه فيكلفان بالخصوص في تصحيح ما يبادر إلى طبعه وكذا إلى تشخيصه مع ما يلزم في ذلك.

وأمين الصندوق عليه ضبط كل ما يقتضي في صندوق الجمعية من حيث ما يدفع أو يُصرف. مقيداً ذلك بأوقاته ولا ينبغي أن يدفع شيئاً إلاّ بإذن يُعطى بموجب وصل من الرئيس وواحد فأكثر من المميزين ولا يُعطى لأحد شيئاً إلاّ بسند يشتمل على القبض ويجب عليه حفظ تلك الوصولات والسندات إلى وقت الحساب ثم انه يقتضي في كل ثلاثة أشهر أن يعلن للعمدة حالة الصندوق بطريق إجمالي مع إبداء ما يلاحظه لكي إذا اقتضى يفيد عن ذلك للأعضاء. وفي نهاية السنة يقدم حساباً موضحاً في أعمال الصندوق بتلك السنة فإذا حصل عليه الاطلاع يصير التصديق على ذلك بعد الفحص من قبل العمدة مع أنه ينبغي أن يطلع الرئيس والمميزين على حساب ذلك في أي وقت أرادوا.

وأمين المكتبة عليه ضبط كل ما يقتضي لمكتبة الجمعية. من حيث ما يجلب أو يُعطى بطريق الاستعارة من الكتب والصحف مقيداً ذلك بأوقاته ولا ينبغي أن يعطى لأحد شيئاً إلاّ بإذن يُعطى بموجب إعلام ممضي من الرئيس وواحد فأكثر من المميزين ولا يعطى لأحد شيئاً إلاّ بسند يشتمل على بيان ما يأخذه من حيث اسمه وقيمته وهبته. ويجب عليه حفظ تلك الإعلامات والسندات إلى وقت الحساب ثم انه يقتضي في كل ثلاثة أشهر أن يعلن للعمدة حالة المكتبة بطريق إجمالي مع إبداء ما يلاحظه لكي إذا اقتضي يفيد عن ذلك للأعضاء. وفي نهاية السنة يقدم حساباً موضحاً في أعمال المكتبة بتلك السنة فإذا حصل الاطلاع عليه يصير التصديق على ذلك بعد الفحص من قبل العمدة ثم انه ينبغي ان يطلع الرئيس والمميزين على حساب ذلك في أي وقت أرادوا.

ومدير الأشغال عليه أن يبادر لإجراء كل ما يقتضي في محل الجمعية من حيث ترتيبه وذلك بحسبما يصير تعيينه من قبل العمدة. ولا ينبغي أن يجري شيئاً إلاّ بإذن يُعطى بموجب إعلام ممضي من الرئيس مع واحد من المميزين. ويجب عند نهاية كل سنة أن يقدم دفتراً موضحاً في بيان موجودات محل الجمعية إلى العمدة لكي بعد الفحص يحصل التصديق عليه من قبلهم.

ثم إن كل ما ذكر يعتبر بالإصالة من جهة العمدة الأصلية وأما الغير الأصلية أو الوكلاء في الجهات فيكون عليهم إجراء ما يمكن إجراءه بطريق المراسلة. والأعضاء الغير محلية في كل محل تعتبر اعتبار الأعضاء المحلية وبناء على ذلك يُرجى من الوكلاء المذكورين أن يتكرموا بقبض المرتب السنوي وأخذ ما يحرر من الأعضاء لكي يقدمونه إلى العمدة الأصلية وكذلك بتوزيع ما يرسل إليهم من نسخ ما يطبع.

(تنبيه)

إن الأصول العمومية صائرة المباشرة بنشرها على حدة.

(تمهيد)

لما صار العزم على تشكيل هذه الجمعية من الذوات الذين حركتهم الحمية على ذلك إيفاء بالواجبات الضرورية في هذا العصر للوطن اعتمدوا بعد المذاكرات العديدة التي حصلت بسعي الأمير محمد الأمين على تقديم الاستدعاء لجانب الحكومة السنية بإعطاء الرخصة بذلك. وحيث وافق على ذاك الوقت أنه شرف لهذه المدينة حضرة صاحب الدولة راشد باشا والي ولاية سورية الأفخم. الذي هو أعظم الناس رغبة في اجراء كل ما به نجاح العموم. بمقتضى المقصد العالي: تشرَّف اولئك الذوات بأعتاب دولته فأوضحوا لديه عزمهم بذلك مع تقديم عرضحال يشتمل على تفصيل ما عزموا عليه في تأسيس تلك الجمعية مع طلب الرخصة بالإذن في فتحها. فبعد أن حصلوا من قبل دولته على كامل الالتفات المقرون بالتنشيط مع الوعد بالمساعدات القوية خصوصاً من جهة طبع المجموعة. صدر أمره بتحرير أمر والي حضرة صاحب السعادة كامل باشا متصرف لواء بيروت المفخم يتضمن اعطاء الرخصة بذلك. وبما أن هذا الأمر الكريم يعتبر من قبيل أصل أول في حصول فتح هذه الجمعية مع تضمن أسماء مؤسسيها مرتبة حسب تقدم أوائل أحرف أسمائهم اقتضى ترجمته لفظياً ودرج تلك الترجمة في أول هذه المجموعة مع درج قصيدة نظمت في التبشر من عناية دولة الوالي المومى إليه بذلك

الأمر المنوه عنه

من كون ابراهيم فخري بك مع بولس دباس وحسين أفندي بيهم وحبيب الجلخ وحنين الخوري ورزق الله خضرا وسليم البستاني وسليم رمضان وسليم شحادة وعبدالرحيم بدران والأمير محمد الأمين وموسى يوحنا فريج الذوات الاثنا عشر وجدوا على أمل تشكيل جمعية علمية في بيروت واستدعوا بموجب عرضحال استحصال الارادة السنية بخصوص فتح الجمعية المذكورة وبما أنه يكون الاستئذان من الباب العالي بعده عن الكيفية فلتكن همتكم العلية مصروفة بخصوص إعطاء الرخصة إلى الذوات المومى إليهم بفتح الجمعية المذكورة من الآن والأمر لحضرتكم.

القصيدة المشار إليها

بادروا يا معاشر العلماء ... لانتشار العلوم في البيداء
وانهضوا فالنجاح أشرق بدراً ... في سماء الأفكار والآراء
وقفوا في عريضة الشكر في سا ... حة ذي المجد راشد الوزراء
واسبلوا كي تكافئوه عليه ... حلل الحمد من نسيج الثناء
وعلى سمعه الشريف أعيدوا ... ذكر فضل الجمعية الحسناء
فهي جمعية إليه انتماها ... وعليه قد عولت بانتشاء
بابها لو لم يأت بالعون لم يفـ ... ـتح ولم يدر منه نيل مناء
يا مشيراً حويت بالعدل وصفاً ... عنه قد صح أصدق الأنباء
إن تيار بحر فضلك أمسى ... كل فضل لديه قطرة ماء
حلمك الجم قد حسدت عليه ... من جميع الآباء والأبناء
ورياض الفنون طاب جناها ... منذ أحكمت غرسها باعتناء

حسب سورية برشدك رشداً ونجاحاً وبهجة باهتداء
سيما بيروت التي فيك أضحى ثغرها باسماً عن الآلاء
فأدام الاله فيك رياض الـ فضل والعدل يانع الأنواء
ما شدونا تشكرا ودعونا لك رب السماء بطول البقاء

أعمال الجمعية العلمية السورية في بيروت

[المجموعة الأولى من أعمال السنة الأولى.
بيروت: المطبعة العمومية، ١٨٦٨. ص ١ - ٥٨].

إنه في مساء يوم الأربعاء الواقع في ٢٠ رمضان سنة ١٢٨٤ و٣ و١٥ كانون ثاني سنة ١٨٦٨ صار فتح اجتماع من المشتركين تُلي به مجموع ما جمع من الأصول التي تحررت في قواعد أعمال الجمعية. ثم أُعلن به انتخاب من أُنتخب من العمدة التي تقررت لتدبير أعمال الجمعية. فالأمير محمد الأمين أرسلان رئيس، وحسين أفندي بيهم والخواجا سليم البستاني والخواجا حنين الخوري مميزون، والخواجا رزق الله خضرا أمين صندوق، وسليم أفندي رمضان والخواجا موسى فريج مصحّحان، وعبدالرحيم أفندي بدران والخواجا سليم شحادة كاتبان، والخواجا حبيب الجلخ مدير أشغال. وأوضح بأنه بقي من العمدة دون انتخاب نائب الرئيس وأمين المكتبة. ثم تقرر بالصوت العام انتخاب الرئيس وأمين الصندوق حسب الأصول التي اعتمدت.

وفي مساء يوم الاربعاء الواقع في ٢٧ رمضان و١٠ و٢٢ كانون الثاني صار فتح اجتماع من المشتركين وغيرهم شرفه حضرة صاحب السعادة كامل باشا متصرف بيروت الأفخم، وباقي الذوات الكرام، فتلى به الأمير محمد الأمين خطبة من إنشائه في الكلام على فتح الجمعية، ثم تلى حسين أفندي بيهم قصيدة من نظمه في الكلام تلى ذلك أيضاً، ثم تلى الأمير محمد المومى إليه خطبة من ترجمته في الكلام على فوائد العلم، والأصل فرنساوي للحكيم سوكه، ثم تلى الخواجا يوسف الشلفون قصيدة من نظمه في التشكر من فتح الجمعية، ثم قام المعلم بطرس البستاني فأثنى بخطاب شفاهي على همة الأشخاص الذين سعوا في تأسيس الجمعية محرضاً إياهم على الثبات في القيام بها مع حث الجمهور على مساعدتهم، ثم قام الأمير محمد الأمين فأثنى بخطاب شفاهي أيضاً على غيرة المعلم المومى إليه فيما أبداه مظهراً العزم الذي دعا إلى تأسيس هذه الجمعية مع الحزم على القيام به في أعمالها ثم أجزل الشكر على العناية التي حصلت من جانب الحكومة السنية مع الحميّة التي حصلت من قبل الجمهور في المساعدة على اجراء ذلك. وبعد ذلك صار الإعلان لجمهور المشتركين بأن محل الجمعية يكون مفتوحاً دائماً في النهار لدخول المشتركين، وانه صارت المبادرة لإحضار صحف مختلفة في اللغة العربية وسائر اللغات المشهورة، مع المبادرة بجمع كتب مختلفة في اللغات المذكورة، ذلك مع الاهتمام بتشخيص الروايات مع طبع المجموعات في كل مدة. فانحظّ كل من حضر مما شُوهد وسُمع بحيث كانت علامات السرور تلوح عليهم جميعاً. وبناء على ذلك نرجو بأن هذا المشروع الجديد المفيد يتلقى بالقبول من قبل الجميع ويحصل التكرم بالدخول في الاشتراك به. فإن قمر النجاح الذي لاح في أفق هذه البلاد يؤمل حصوله على التمام بواسطته. كما قال سليم أفندي رمضان مؤرخاً فتح هذه الجمعية:

قلت للدهر والنجاح تبدّى قمراً في بلادنا السورية
أي يوم يتمّ ذا قال أرّخ يوم فتح الجمعية العلمية

سنة ١٢٨٤ هـ

* * *

الخطبة التي تلاها الأمير محمد الأمين [أرسلان] في الكلام على فتح الجمعية

(المجموعة الأولى من أعمال السنة الأولى. ص ٣ - ١٥).

أبهى ما تُفتح به جوامع الكلام، في مجامع الكرام، فتسمو بافتتاحه معاني تلك الجوامع، كما تعلو مباني هاتيك المجامع.

الحمد لله المتفضل على الانسان بنعم خاصة دون سائر مكونات الأكوان، فسبحانه من مبدع حكيم، خلق الانسان في أحسن تقويم، ثم الصلاة على أنبيائه العظام، المميزين بارتفاع ذلك عن جميع الأنام. والسلام على آلهم أهل العلم الكامل وأصحابهم أصحاب الاجتماع الفاضل.

وبعد فإنه لأمر ظاهر، مُسلَّم عند أُولي البصائر، بأن لا شيء أسنى إجادة، وأسما إفادة، لأول خطاب بالعلم يسمو كلامه، في أول اجتماع بالعلماء يعلو مقامه، من كون ذلك الكلام، على ذاك المقام، حيث تتم بذلك إجادته، فتعمّ لذلك إفادته، ويصير كلّ بصيراً بما يجتمع إليه، فيعوّل على ما ينبغي أن يُعوَّل عليه. لذلك لم نجد أوفق اختياراً، لكونه أليق اعتباراً، من الكلام في هذا الخطاب، السالك مسلك الصواب على هذه الجمعية العظيمة الأهمية، متخلصين في ذلك من الأحوال العمومية، إلى الأحوال الخصوصية، بعد تقديم بحث في شأن الانسان من حيث العلم والاجتماع، ليكون أهم في الانتفاع، فنقول:

إذا تأمل الانسان بنفسه في نفسه تأملاً صادق على طريق موافق، يجد بلا شك ان لا شيء أعجب صُنعاً وأغرب وضعاً منه ذاتاً وصفة. تأملوا تجدوا ان هذا الهيكل المخصوص العجيب الغريب القائم على هذه البسيطة بين ما يدنوه وما يعلوه فضلاً عما يحيط به، لا أجمل ولا أكمل، بل لا أبدع منه كوناً، حتى انه عند التحقيق الدقيق، يُرى انه نهاية المكونات، بل غاية المخلوقات. ولذا يحق عند من تبصر ان يسمى بالعالم الأصغر. كيف لا؟ وإنّا إذا اعتبرناه ذاتاً وصفة أو بالحري صنعاً ووضعاً نجد أنه قد جمع ما اجتمع في غيره مع انه قد اختص بما يختص به سواه. أما جمعه فلأنه جسم نام وبالتالي متحرك مدرك وكذا معين مؤالف فهو جسم كالمعدن نام كالنبات وبالأخير متحرك مدرك وكذا معين مؤالف كالحيوان. وهي أصول مكونات الأكوان. وأما اختصاصه فلأنه مقتدر بحركته على العمل وبإدراكه على العلم كما انه قابل بعونه للاشتراك بتآلفه للاجتماع دون الحيوان الذي هو مشارك له في أصول تلك الأشياء مع امتيازه بها عن باقي مكونات الأكوان. فيكون الانسان قد استعد بحسب صُنعه الباهر العجيب أو بالحصر بمقتضى ذاته لقوتي العمل والعلم أو بالحري لقوة العلم الذي يقوم بالعمل، وبحسب وضعه الفاخر الغريب أو بالحصر بمقتضى صفته لحالتي الاشتراك والاجتماع أو بالحري لحالة الاجتماع الذي يقوم بالاشتراك.

فالعلم قوته الفريدة التي بها يعلو عن الأشباه والأمثال، والاجتماع حالته الوحيدة التي بها يسمو على الجميع في كل حال، فلا ألزم له من العلم، كما لا أشد لزوماً له من الاجتماع. كيف لا؟ وبالعلم يكون شرفه من حيث الذات، وبالاجتماع يكون شرفه من حيث الصفات. والكمال في كل حال، إنما يكون بما يحصل به الشرف في القوة والحال. وأين شأن الجاهل من العالم الكامل؟ وأين شأن المتوحش من المتمدن الفاضل؟ وكفى بحصول الشرف من حيث الذات والصفات، دليلاً على نفع العلم والاجتماع في جميع الأوقات.

ثم إذا كان شرف الانسان الذي به كماله إنما يكون بحصول تلك الخواص من علم واجتماع، لا يكون له شيء أسنى وأسما من العلم، كما لا يكون له شيء أرجح وأنجح من الاجتماع. الا وإن العلم حليته التي يتحلى بها والاجتماع كسوته التي يكتسي بها. وبالتحلي والاكتساء يحق أن يحوز الاعتبار، فيزهو على أقرانه مع الافتخار. وإذا لم يكن له شيء كذلك بالعموم فبالأولى أن يكون ذلك أجود وأفود بالخصوص. كذلك لا يكون أوفق بل أليق للانسان من القيام بالعلم على الاجتماع أو القيام بالاجتماع على العلم وقيامه بذلك في الخصوص ألزم بل أنفع للعموم، حيث يفهم بالخصوص لزوم ونفع ذلك بالعموم. فيعلم ما يقتضي أن يكون في دائرة الاجتماعات العمومية، من نقطة الاجتماعات الخصوصية.

لذلك اعتنت أصحاب الأنظار، في بعض الأقطار، بتأسيس جمعيات علمية حيث يكون لها بذلك أهمية، وأي أهمية. فأشادوا أركانها على دعائم مختلفة بحسب حال المكان والزمان، الواجب مراعاته على كل انسان، فإن لكل مكان حالاً كما إن لكل مقام مقالاً، فظهر فضلها واشتهر وامتد نفعها وانتشر.

ولما كنا نحن أهل هذه الديار من أفضل الأمم لذلك استعداداً، وجب أن نكون من أقربهم لذلك مراداً. كيف لا؟ وإنّا من أنشط الناس حركة وأسماهم فكرة، وأقومهم اعانة وأقربهم إلفة. فقومنا أهل العلوم السنية، أهل الاجتماعات البهيّة، وأمتنا ذات المكارم المشكورة، ذات المآثر المأثورة. فهي الأمة القريبة المعاناة البعيدة المجافاة. وبالجملة نحن أصحاب الأوصاف الموصوفة، أصحاب المعارف المعروفة، لكن إن يكن كر الأجيال حوّل منا الأحوال، فما من هابط إلاّ ارتقى، وكذا الدنيا نعيم وشقاء، لذلك يكون تقاعدنا عن تحصيل ذلك المراد مع ما بنا من الاستعداد، أقبح شيء يقبح، نذم به ولا نمدح.

ولم أر في عيوب الناس شيئاً   كنقص القادرين على التمام

كيف لا؟ وإن التمدن أو بالحري الاجتماع الفاضل القائم بالعلم الكامل، وصفنا الذي وصفنا به حيث هو نتيجة استعدادنا الذي خصصنا به، فذلك العلم ليس إلاّ بضاعتنا ونعم المتاع، وذاك الاجتماع ليس إلاّ سوقنا الذي به تشرى تلك البضاعة وتُباع. ألا، وإنّا إذا أعتبرنا شأننا في القديم، نجد انّا أهل التحضر القويم. ألسنا نحن اولئك الأقوام، الذين سموا على جميع الأنام. فكانوا أعلى الناس مقاماً وأسماهم ارتفاعاً، وبالجملة أكثرهم علماً وأكبرهم إجتماعاً. وأليست أمتنا العظيمة، ذات المآثر الكريمة. ألا نرى الآثار الأدبية، إن لم ننظر الآثار المادية، فإن الضوء يدل على النهار، كما ان النور يدل على النار.

إن آثارنا تدل علينا   فانظروا بعدنا إلى الآثار

وإذا جمعنا الكلام، نقول في هذا المقام: من أدب العلوم، من هذب الفنون، بل من اخترع كثيراً من مخترعاتها، بل من اصطنع كثيراً من مصطنعاتها، أليسوا العرب؟ ومن هم العرب؟ ألسنا نحن هم؟ إذن لماذا لا تستنهضنا الحمية، لا تستفزنا الغيرة، لا تحرضنا المروءة، لا تحثنا الهمة؟ على التأديب؟ على التهذيب، وبالجملة على التعليم؟ لنرجع لنعيد فخرنا عزنا. وبالأخير شرفنا. أفي قوانا شيء يصد يمنع من ذلك؟ حاشا، ثم حاشا. ما بنا إلاّ الملل والكسل، إذاً لأي شيء لا نستبدل الملل بالثبات والكسل بالنشاط فنسبق إلى حقنا من سبقنا إليه، معولين في ذلك على أنفسنا لا عليه.

مـا حـكّ جلدك مثـل ظفـرك فـتـولّ أنـت جمـيـع أمـرك

لا لشيء إلاّ لعدم التبصر في الأمور، وعدم تضحية الحاضر للمستقبل شأن الجاهل المغرور.

إذاً يجب أن نتبصر، بعد أن نتفكر، في اتخاذ الأسباب التي توصل إلى ذلك بلا ارتياب، لنرجع لنعيد ذلك المجد الطارف التليد، فنسعى في استعمال ما يجعل علمنا كاملاً واجتماعنا فاضلاً، لا سيما نحن أهل هذه المدينة المحمية فإننا أحوج الناس للحصول على تلك الأمنية.

وهنا لا شك إذا تبصرنا بعد التفكر فيما ينهضنا من ذلك السقوط فيصعدنا بعد ذاك الهبوط، لا نجد شيئاً أنسب في نوال هاتيك القضية من عقد الاجتماعات العلمية، بعد تشييد المدارس والمكاتب، حيث هذه تكون من قبيل المسالك كما أن تلك تكون من قبيل المداخل لتلك المآرب. كيف لا؟ وان الجمعيات العلمية معامل العلوم التي بها تنسج مطارفها، ومصانع الفنون التي بها تُصاغ زخارفها، وبالجملة معرض الآداب التي فيه تعرض معارفها، ولا ينبغي أن نلتفت إلى قول جاهل أحمق بنطقه يتشدق: إن ليس من الاجتماع بها انتفاع، وإنما ينبغي أن نعتبر الحقائق لنقف منها على الدقائق، كي نعلم أن الاجتماعات العلمية أعظم وسيلة للتقدم في الأحوال المعاشية، للتأديب للتهذيب في الأخلاق في العوائد للاجادة للاتقان في الأشغال في الأعمال، وبالنهاية للانتظام للأحكام في الترتيب في الإدارة، حيث تتساعد بها الأفكار، على إظهار الفوائد مع الاختبار. وبالاختصار فإن فوائدها كلية يعرفها من يبحث عن أحوالها في البلاد الأجنبية، ومن لم يقنعه دليل البيان، فعليه بدليل العيان، ومن لم يكفه شاهد الخبر فعليه بشاهد النظر.

فإذا تحققنا تلك المقدمات وهذه النتائج أو بالحري تأكدنا تلك الأسباب وهذه المسببات، نرى ان الاهتمام بل الاقدام، في عقدها صار متعيناً علينا، كيف لا؟ وإن أحوالها جميعاً أضحت واضحة لدينا، وقد آن لنا من حيث ذلك الأوان بحسب مجرى الزمان.

ولا تقعـدن عـما يـزين فـإنـه من العجز أن تحيى حياة البهائم
وها الوقت سيف فاغتنم فيه فرصة فما كـل وقت صـالـح للغنـائم

إلاّ وانه لولا اتضاح نفعها، فضلاً عن لزومها، لما كان حصل التشويق والشوق من جانب الحكومة والأهالي فتكاثر تحريض أرباب الغيرة من ولاة الأمور كما تكاثر حثّ أهل الحمية من أعيان الجمهور، على عقد تلك الجمعيات التي تحصل بها في ذلك الغايات.

حتى كانت تلك الأمور مع تشويق الحكومة وشوق الجمهور، وسائطاً دعت إلى تأسيس هذه الجمعية على طريقة مرضية، نافعة بحوله تعالى في أحوالنا المدنية، من حيث جميع الأمور العمومية. لأنه رُوعي بها حال المكان والزمان مع ملاحظات أخر خصوصية، فشيدت أركانها على دعائم العلم المتين، وفتحت أبوابها للراغبين الفتح المبين، حتى أضحت بذلك عمومية الافادة تستحق رضا العموم بالتكريم لا سيما كونها تتكفل لهم بالمدارسة والممارسة فضلاً عن التفهيم والتعليم، فتجري أعمالها الأكيدة على طرق مفيدة وان كانت في ذاتها عديدة، وذلك بتلاوة الخطب لأنها في النفس أوقع، وإملاء الدروس لأن ذلك في الفهم أنفع، مع جلب صحف صحيحة واقتناء كتب مليحة، وتشخيص روايات ظريفة وطبع مجموعات لطيفة، يحصل منها المراد من انتشار المعارف بين أبناء البلاد، على انها تكون مع ذلك واسطة لتمكين علائق الاتحاد بالاجتماع على أعمال الخير والرشاد، كما انها تكون واسطة لصرف

أوقات الفراغ فيها يفيد عوضاً من أن تصرف باللهو واللعب مع الكدر والتنكيد. وأليس من يصرف وقته قارئاً كاتباً بخير ممن يصرف وقته لاهياً لاعباً. وأليس من يشتغل بتقليب أوراق الأسفار بخير ممن يشتغل بتقليب ورق القمار. وبالأخير أليس من يقول تعالى نتواصل بالأفكار بخير ممن يقول تعالى نتقاطع بالأحجار. وهنا لا بد إذاً أن نقول: إن الدراهم التي تُصرف عليها لتحصيل الفنون والآداب أنفع من تلك التي تصرف على الملاهي والألعاب.

لكن لا بد بعد ذلك من أن نزيل الإشكال بإنتاج أوضح الأشكال، فنعلن للجمهور بصوت عال حدود هاتيك الأعمال، حيث لا يخلو الأمر من قيل وقال عند عدم الوقوف على حقائق الأحوال، لا سيما إن الجهل والغرض يقلبان الانسان في ظلمات وادي الوهم والخيال، فنقول:

ليتيقظ الذاهل، ليتنبه الغافل، وبالنهاية ليعلم الجاهل. فيؤكد من تيقظ وانتبه ويحقق من شك واشتبه، بأن هذه الجمعية إنما هي صرف علمية، وليست هي نتيجة عن غيرها ولا مقدمة لغيرها كيف كان ذلك الغير، وإنما هي مستقلة بذاتها، واحدة في صفاتها، يُراد منها نشر العلوم والفنون دون دخول في شيء مما تقع عليه الظنون. فالقصد منها الاشتغال فيما ينفع العموم من حيث انتشار الفنون والعلوم، لا سيما في الوجوه المعاشية، زراعية وصناعية وتجارية، دون تعرض لشيء من الأمور الدينية أو الدولية. فإن هذا أول شرط من شروطها الأصلية. وبناء على ذلك تكون أعمالها محدودة بحدود الآداب فلا يُستطاع الخروج منها بأي باب كان من الأبواب، لا سيما إلى جهة مذهب أو سياسة أو ولاية أو رئاسة، أو بالحري لذم أو مدح في شخص أو جنس حاشا التشكر ممن يُحسن إليها والتشكي ممن يُسيء كما يستحقه فعل ذاك المحسن أو المسيء. وبالجملة فإنه ممنوع بها التعرض لذلك حيث ليس القصد التقبيح أو التحسين بأمة أو ملة أو دولة أو دين، وإنما القصد الترفع والترقي في الفنون والآداب حسبما هو مشتهى الطلاب والرغاب، ولا يَصعب على القاصد كما لا يشق على الرائد، ان يبحث ويفحص جلياً وخفياً عن ذلك. لأنه لا مانع ولا مُعارض يمنع أو يُعارض من يقصد أو يريد أن يرى أو يسمع أعمال وأقوال هذه الجمعية ويطالع ويراجع أصولها العمومية والخصوصية، وبذلك يمكن أن تكون جميع الناس على بصيرة في أمرها عارفة بنفعها وضرها، فلا يدخل أحد إليها دخول عمياء كي يخبط خبط عشواء.

وإذا كانت برودها منسوجة على هذا المنوال، نرجو أن تكون مقبولة عند أولي البصائر ممن صفت منهم السرائر، حيث على مطلبهم وضعت وبمقتضى مشربهم صنعت، فيمدون إليها يد المساعدة لتكون القوة لها عاضدة. فإن التقدم في كافة الأمور موكول إلى اعتناء الجمهور، لذلك يكون أخر الأمل والرجاء من أهل الفضل والحجى، ان يتكرموا بالاشتراك فيها حيث عرفوا أن لا شيء من ظواهرها يخالف خوافيها، فإنها لأجلهم تفتح وعلومها لهم تمنح، فبهم قوامها ومنهم يحصل التئامها. لذلك نرجو أن يكون السعي بها أميناً فيكون الفتح مبيناً. ويحمد إذاً سعي من سعى كما يُذّم نعيُ من نعى، في الابتداء والانتهاء.

الأرجوزة التي تلاها حسين أفندي بيهم
في الكلام على فتح الجمعية

(المجموعة الأولى من أعمال السنة الأولى. ص ١٦ ـ ٢٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لمن علّمنا بالقلم ... وخصّنا بالنطق والتعلمِ
ثم الصلاة والسلام أبدا ... على جميع الرسل أصحاب الهدى
والأنبياء كلهم والعلما ... من كشفوا بالعلم جهلاً كالعما
ثم الدعاء لمليك العصرِ ... عبدالعزيز درّ تاج الفخرِ
من نشرتْ في عصره المعارفُ ... وظله على العباد وارفُ
واختار والخيرة فيما اختارا ... راشد باشا إذ علا اقتدارا
لحكم هذه الديار فغدتْ ... تزهو بما به البرايا شهدت
له من الحكمة في الأعمال ... مع رقة جلّت عن المثالِ
وخص بيروت بسامي المددِ ... فهي له شاكرة للأبدِ
كما سمتْ بحكم سامي العقلِ ... كامل باشا روح جسم الفضلِ
داموا لنشر الفضل في البريةْ ... ما فتحتْ جمعية علميةْ
وبعدَ هذا فمن المعلومِ ... أنّ انتظام الكون بالعلومِ
وأنّ كلَّ أُمّةٍ بقدْر ما ... تحوز منه تبليغ التقدُّما
إذ بالعلوم يُعبَد الله على ... حق العبادات تسامى وعلا
وبالعلوم تكثر الصنائعُ ... وتتقن الأعمال والبضائعُ
وتربح الأموال بالتجارةْ ... وتحسن الأقطار بالعمارةْ
ويسهل المرور والتواصلُ ... بين الورى فيكثر التعاملُ
وهي التي تفتح الأذهانا ... وتيقظ الجاهل والوسنانا
وتكشف الفوائد الجديدة ... وتلزم العوائد الحميدة
وتكسب الشعب الثنا والفخرا ... ويرفع الوضيع منها قدرا
فكم رأينا من وضيع بالنسبْ ... قد حاز بالعلم الكمال والرتبْ
وليس ذا عقل ولا بذي أدبْ ... من أنكر الفضل لأبناء العربْ
فقد رقوا بعلمهم أعلا الذرى ... فقل لمن ينكر ذا أطرق كرى
فالعلم قد كان بذي الأقطارِ ... مقره من غير ما انكارِ
وغالب العلوم والصنائعِ ... قد ظهرتْ من هذه المواضعِ
وأهلها قد بلغوا منها المنى ... وكل شيء بلغ الحدَّ انتهى
فبتوانينا وغير عللِ ... قد اعترتنا نائبات الفشلِ
والله قد غيّر فيما قد مضى ... حالتنا حسب الذي به قضى
حتى طفقنا في بحار الجهلِ ... نسبح من بعد الذكاء والفضلِ
فأصبحتْ حالتنا بين الورى ... إلى وراء إلى وراء إلى ورا
وحيث أن العلم مثل النورِ ... ودائماً يختص بالظهورِ

قد ظهرتْ شموسه في المغرب
وعن بلادنا غدت في حجبِ

وعلمنا السائب منا قد خُطفْ
لذا دموعنا عليه تنذرفْ

فاغتنمتْ ما ضاع تلك الأممُ
وشملها أضحى به ينتظمُ

واتقنتْهُ وَهِيَ الجديرة
وألبستْه حللاً كثيرة

فقد سمتْ به لأعلا منزلِ
وقبل كانتْ في الحضيض الأسفلِ

وأصبحتْ بلادنا تحتاجُ
منها لما لها به علاجُ

فجلَّ من يحول الأحوالا
ولا يحول ربُّنا تعالى

وحيث إن الله جلتْ قدرتُهْ
ونُزهتْ عن كل نقص حكمتُهْ

لا يرتضي لنا معاشر العربْ
بأن نكون دائماً تحت التعبْ

لأن أرضنا بلاد الأنبياء
ومسكن للأولياء الاتقياء

وجنسنا أشرف كل جنسِ
وصدق قولي ظاهر كالشمسِ

قد خصنا بأقوم اللغاتِ
الهنا وأحسن الهيئاتِ

وقد حبانا بالعقول الحاذقة
كما هدانا للخصال الفائقة

فجدَّد الرغبة لطفاً فينا
لردّ ما قد ضيعت أيدينا

واختار هذي الدولة العليّة
لتنشر العدل على الرعيّة

فأصبحت تسهل الصعابا
للعلم بل تُفتح الأبوابا

وتبذل الأموال والأفكارا
وتسهر الليل كذا النهارا

لذا أملنا بالنجاح والأملْ
في سائر الأحوال أُس للعملْ

وقد بذلنا في علومنا الهممْ
ومن يشابه أباه فما ظلمْ

معتقدين أنَّ كل مجتهدْ
له نصيب من مراد قد قصدْ

حتى بدا للعلم فجر صادقُ
وظهرت من حجبها الحقائقُ

وعلمنا الغريب حن للوطنْ
وعاد عوداً أحمداً بعد زمنْ

وحلّ في أرجائنا محلاّ
بحلل زاد بها محلاّ

فاستقبلته الأهل بالقبولِ
واستبشروا بالفوز بالمأمولِ

وحين لاح العلم فينا وانتشرْ
شعاعه نظير شمس وقمرْ

ومكنت روابط الودادِ
وزج بالأغراض والأحقادِ

وفتحت في ملكنا المدارسُ
وألفت من كتبنا نفائسُ

ووجدت ما بيننا المطابعُ
وابتدأت تنصلح الصنائعُ

وانتشرت صحائف الأخبارِ
تخبرنا عن سائر الأقطارِ

ووردت لهذه الأرجاء
كتب اختراع معظم الأشياء

لاح لنا قيد الأمور الشادرة
فذاك للبلاد خير فائدة

وبعد قيدها تصير خطبا
تتلى على من للسماع انتدبا

وبعد هذا بيسير تطبعُ
وللمريدين لها توزعُ

فإنَّ ما يكتب قطعاً قرّا
وان ما يترك جزماً فرّا

وهذه فائدة الكتابة
عند ذوي الألباب والنجابة

وحيث هذا الأمر مما يعسرُ
أفرادنا ليست عليه تقدرُ

إذ ليس في إمكان كل أحدِ ... جمع أمور ما لها من عددِ
كان ولا بدَّ من التعاونِ ... لذا وأخذ أقرب المساكنِ
كيما به تجتمع الفرسانْ ... للعلم حتى يكمل البرهانْ
فحركتنا الغيرة الأهليَّة ... حتى فتحنا هذه الجمعيَّة
تحت قوانين مهمات ترى ... لكل من يرغبها من الورى
من بعد أخذ الرخصة العليَّة ... من جانب الحكومة السنيَّة
فهذه الجمعية العلميَّة ... غايتنا بها بدت جليَّة
قد أسِّست لتظهر العلوما ... وتنفع الخصوص والعموما
من غير تعريض لأديان المللْ ... ولا لما يخص أحكام الدولْ
بل جُل قصدنا بها الإفادة ... لجنسنا كذاك الاستفادة
وإنما الأعمال بالنيات ... حسب الذي يروى عن الثقات
مشربها يعجب كل رهطِ ... فتقتضي رضاً بغير سخطِ
وربَّ شخص ذمَّ بغياً صنعنا ... حتى يفلَّ بالعناد جمعنا
لما علا بالجهل متن عميا ... أصبح بالخبط نظير عشوا
فذاك إما أن يكون جاهلاً ... حقيقة القصد فلن اجادلا
أو عاقلاً فليس ذمه سوى ... من حسد على فؤاده احتوى
لأنه لم يُسَرّ فيها أولا ... أو لم يكن عليه فيها عولا
ما ضر لو أحسن فيها الظنَّا ... أو جاء يستفهم عنها منَّا
أو صير الرد لها جميلا ... إن لم نقم لحسنها دليلا
والعاقل العاقل من لا يحكمُ ... قبل تصور وذا مسلمُ
وناطح الصخرة يدعى بالوعلْ ... ولا يضر الشمس أطباق الطفلْ
وقولة المرءِ بريد عقلهِ ... وكل شيء راجع لأصلهِ
فجل ربي خص من شاءَ بما ... شاء وقد حير عقل الحكما
وإننا لسنا لهذا نعجبُ ... فالابتداءُ في الأمور يصعبُ
وهي وأن تكن بهذا الآن ... قليلة الجدوى لدى العيان
فأول الغيث الشهي القطرُ ... وأول النهار يبدو الفجرُ
وأول البدر هلال الشكِ ... والتبر مثل الترب قبل السبكِ
لكنها بحول مولانا الصمدْ ... ونظر الدولة دامت للأبدْ
وهمة الحضار من أهل الذكا ... سوف تكون للمعالى مسلكا
وتنشر المعارف العلميَّة ... وتشهر الفوائد العصريَّة
ببحثها عن كل فن محرزِ ... تقرب الأقصى بلفظ موجزِ
وستكون مظهر التمدنِ ... ومعرض العلوم والتفننِ
وسيرنْ ذكرها وتطلعُ ... في جبهة العصر كبدر يلمعُ
وسوف ترقي الخطة السوريَّة ... بها لاسنا الرتب العليَّة
وسوف والله بغير مين ... يتضح الصبح لذي عينين
وتنجلي عن شمسها الغيومُ ... ولا يرى من أحد يلومُ

بل يرجع القادح فيها مادحا   حين يشم الفضل منها فائحا
فيا ذوي الغيرة يا أهل الوطنْ   الوقت فيها ذكروا غالي الثمنْ
وفرصة العمر قصيرة المدا   فلا تضيعوه باللهو سدا
فقد جرى من التواني ما كفى   وقد كفى من كسل ما قد جرى
فاتحدوا على الأمور النافعة   حتى ترى هذه الديار لامعة
وشمروا سواعد اجتهادكمْ   واظهروا براعة استعدادكمْ
فإننا معشر ابناء العربْ   بجدنا السابق أحرزنا الرتبْ
عقولنا كالسيف بالفعالِ   لكنها تحتاج للصقالِ
فكم أتى منا إمام كاملُ   وكم بدا فينا حكيم فاضلُ
كم ازهرت في أرضنا مدارسُ   كم أنورتْ في قطرنا مجالسُ
وكم وكم قد خضعت لنا أممْ   وفضلنا كان كنار في علمْ
وأرضنا خير الأراضي نفعا   زراعة معادنا ومرعى
وماءها أعذب كل ماء   واشتهرت بجودة الهواءِ
فعمروا أوطانكم بالعملِ   واطّرحوا عنكم شعار الكسلِ
واجتمعوا دوماً على المصالحِ   واجتهدوا في سائر الصوالحِ
وأظهروا الغيرة والحميَّةْ   واستعملوا قواكم العقليَّةْ
فإنه قد قيل من جد وجدْ   ولم يعد بخيبة من اجتهدْ
ولا يكن عندكم قط وجلْ   فإن من سار على الدر وصلْ
واغتنموا فرصة هذا العصرِ   فإنه إنسان عين الدهرِ
ففيه قد تجلتِ المعارفُ   مثل ثمار يجتنيها القاطفُ
وزينته الدولة العليَّةْ   بالرأفة الشاملة الجليَّةْ
وحبِّ نشر كل أمر نافعِ   وبذلها الغيرة في المنافعِ
وإنها ترغب في نجاحكمْ   وتصرف الأموال في اصلاحكمْ
لا زال بدر السعد دوما طالعا   في أفقها على الأنام ساطعا
ولا برحنا في حمى السلطانِ   عبد العزيز نجتني الأماني
فإنه بدر الملوك الأنور   وجامع الأفضال منه أزهر
وأمره في سائر الأحيان   يظهر بالعدل وبالإحسان
دام لنا مكتسياً ثوب الهنا   ظلًا ظليلًا نائلًا كل منى
وزاد ربُّ الخلق كل الوكلا   عزا وتوفيقاً لتعلو منزلا
لا سيما صدر المعالي عالي   مشيد الملك بفكر عالي
فهو الذي رنت حصاة فضلهِ   وأنعش الأكوان باهي عقلهِ
كذا فؤاد الملك ذو الأيادي   على الورى أخص ذي البلادِ
مولى بدا في جبهة الأيامِ   بدراً منيراً محكم الأحكامِ
وشيخ الإسلام الهمام الأعظمُ   مولى له السعد العظيم يخدمُ
وهو رفيق العدل والسدادِ   وذكره عطّر كل نادي
وكامل الفضل رئيس المجلسِ   بحكمه طابت جميع الأنفسِ

كذاك رشدي ناظر المال الأجل	مولى سيوف علمه تنفى العذل
شهم على عرش الكمالات استوى	ولم يدع فضلات فضل للسوى
كذاك صبحي ناظر المعارف	ذو الفضل والجاه التليد الطارف
رايات مجده على العبادِ	مرفوعة في سائر البلادِ
وأيد الله بذي الولايةْ	واليها من ساد بالدرايةْ
راشد كنز العدل والألطافِ	ومركز الحق مع الإنصافِ
حتى يتم عاجلاً عمرانُها	وتزدهي بحكمه سكانُها
والله يولي بجميل النعمِ	والفضل رب السيف ثم القلمِ
كامل ذا الفكر السديد السامي	والحزم والعزم الشديد النامي
لا زال روض العدل فيهم يانعا	ودام بدر الفضل منهم لامعا
ونسأل الله لنا جميعا	توفيقه حصنا لنا. منيعا
ومثلما أنعم في البدايةْ	أن يحسن الختام في النهايةْ

الخطبة التي تلاها الأمير محمد الأمين [أرسلان] في فوائد العلم

[«خطبة من ترجمته .. والأصل فرنساوي للحكيم سوكه». أنظر ص ٦ أعلاه].

(المجموعة الأولى من أعمال السنة الأولى. ص ٢٥ - ٥٦).

أسيادي :

أُريد بهذا المساء، كيف كان غده، أن أخاطبكم بطريق ليس أعم استعمالاً فقط وإنما أكثر قرباً وأشد تأثيراً، أعني بأسلوب المشافهة على طريق الخطاب، ومهما يكن قصوري يبعدني عنكم فإن حسن طوية الأكثر منكم يجعلني أن أكون قريباً. فاقول:

لقد عرفتم بأن القصد من جمعيتكم هذه هو أن تضعوا بدائرة الشركة قواكم وعقولكم لكي تهذبوا تأدبوا أو بالحري تنوّروا أنفسكم أولاً وباقي أهلكم ثانياً. فتقطفون هنا أثمار أشغالكم، بالمعاضدة بالمساعدة على وجه التبادل، كي تظهروا جودة حقيقة منفعة الأشياء اللائي هن في نفس الأمر مقصد العلم الأصلي مع تجنب الدخول في المسائل الدينية والسياسية. الأمر الذي لا أوفق لكم منه حيث تبقون بذلك في دائرة المعارف المملوكة بملكاتكم الذهنية، دائرة لا تكون الحقيقة بها مظلمة أبداً بالشهوات والأغراض، كيف لا وإنه مهما افترقت الناس مللاً ودولاً فإن العلم يجمعهم ليس يجمعهم فقط وإنما جمعهم خصوصاً وسيجمعهم عموماً. ألا وانّا إذا اعتبرنا حقيقة علمية نجد أنها لا تسئل: ما هو دينها؟ ما هي دولتها؟ ما هو جنسها؟ ما هي بلادُها؟ فضلاً عن أن تُسئل: ما هو اسمها؟ ما هي كنيتها؟ وما عدا ذلك لا يوجد قط حدود تمنع المسائل العلمية عن الدخول إلى أي بلاد كانت لأي جنس كان بدون تذكرة أو بالحري رخصة. غير محتاجة في الأكثر إلاّ للتزيّ بلباس لغة تلك البلاد أو بالحصر ذلك الجنس فقط. وبالجملة فإن الحقائق العلمية تدخل عند الجميع بغيرة فتقبل من الجميع بترحب، وإذا تعمقنا في الكلام نجد أن الانسان المستعد بحسب تكوينه لقبول مذاهب العلم هو نفسه الانسان القائم بحقائق العلم، فأعماله أو بالحري اكتشافاته هي للجميع وتتعلق بالجميع على السواء. ألا وإنه إذا كان يوجد جملة أسباب تفرق الناس فليس العلم فقط يجمعهم وإنما يجتمعون أيضاً

بالاشتراك في كل نوع. وإذا كان العلم وحده يكون وسيلة للجمع فبالأحرى أن يكون الاشتراك للعلم وسيلة له. ولذلك كان من عادة علماء كل بلاد أن يرتبوا جمعيات علمية هي جميعاً في الحقيقة تجري لقصد واحد. ما هو؟ هو تقوية أو بالحري مضاعفة رؤوس أموالهم العلمية لذلك نجد أن في تلك الجمعيات الانكليز، الفرنسيس، الروس، الالمان، الايطاليان، الترك، العرب تضع على حدة مخاصماتها التي وقعت في أيام ما. وبالجملة ليس من عادة الجمعيات العلمية أن تقبل دخول أي عالم كان من أي جنس كان وإنما من عادتها أن تفتش على العلماء وتمنح من يستحق منهم الجزاء الكافي على أعماله وخصوصاً على اكتشافاته. ولذلك نجد أن الجمعية العلمية السلطانية في باريس في أثناء الحرب العظيم بين فرنسا وانكلترا في عصر نابليون الأول سنة ١٨٠٧ أعطت عطية عظيمة إلى رجل انكليزي يسمى داوي وسمته مراسلاً لها، وذلك مكافأة له على اختراع المصباح الذي يمكن استعماله في حفر المعادن مع أنه لم يكن قبل ذلك ممكناً ادخال النور إليها بالمصابيح المعتادة. وليس فقط سموه مراسلاً وإنما بعد زمن قليل سموه عضواً أصلياً حتى صار له جميع حقوق أعضاء تلك الجمعية. ولا ينبغي أن نتعجب من ذلك لأننا لسنا في الزمن الذي كان يعيش به الانسان منفرداً فلا تلوح له حقيقة إلاّ وتخفى بسرعة أعني ذاك الزمن المظلم الذي كان يعتبر به ككفر شديد إعطاء غذاء العقول اللازم لها جداً إلى عموم الناس.

وإذا كان ذلك هكذا ينبغي أن نرجع نظرنا نحو ذلك الزمن القديم لنظهر بعض أحواله. وإنما لا ينبغي أن ننظر إلى الزمن الغير المعروف لكن ينبغي أن ننظر إلى زمن اجتماع الأمم الذي يعرفنا التاريخ معارفه علوماً وأعمالاً. فنقول:

متى نظرنا إلى ذلك الزمن نرى أن تلك الأمم وان وصلت في العلوم والفنون إلى درجة وإن امكنا الوصول إليها إلاّ انه لم يمكنّا أن نتجاوزها في الأكثر. إلاّ أن تلك الأمم مهما تكن تقدمت في ذلك غير انها لم تتقدم فيما يخص شؤون الانسانية. لأننا نجد انه كان يعيش بجنب أولئك الحكماء، المشهورين بمؤلفاتهم، أرقاء كانت تستعبد بصرامة بل تهلك بقساوة لأجل حظ أسيادهم. وها أنّا إذا ألقينا النظر نحو الرومانيين الذين هم أشهر من تقدم في التمدن. نجد أن آلافاً من الأرقاء كانت تقدم إلى الموت فتتساقط أجسادها على ساحته لأجل حظ أسيادهم أو تسليهم فقط، على انه ما عدا ذلك كانت الأحرار تخضع بعماء لفواسد الأفكار. وبالجملة فإن الانسان في ذلك الزمن كان كالطفل الماشي في الظلام فضلاً عن كونه لا يدرك بأي زمن هو لا يدري أيضاً بأي مكان كذلك. كيف لا؟ وان الانسان في ذلك الزمان كان يصدق مع تيقن حقيقة جميع الأشباح التي كانت تخيلاته الفاسدة تشخصها له. ولم يكن يفتش كي يحقق حركات فضلاً عن أصول الطبائع أو بالحصر العناصر. وإنما كان يظن أن كل حركة تحصل ليس في عموم الأشياء فقط وإنما في نفسه كذلك قائمة بقوة إله محسن أو مسيء بحسب تلك الحركة. فلم تكن الالهة تتناهى لذلك عنده. إله ينزل الصاعقة، آخر يفك الريح من سلسلتيه ليسري، آخر يحرك البحر ليموج، آخر يقود الشمس لتجري. إله يحكم في داخل الأرض على شعوب الأموات. الأبحر، الأنهر، الكواكب، الجبال، الأحراج، وبالتالي الحقول الصغيرة، كل له إله يخصه. لكن مهما تكن تلك الأوهام كانت عامة عند القدماء، إلاّ أن القسم الأعلى من الشعب لم يكن يقاسم القسم الأدنى من الشعب في جميع الأفكار الباطلة أو بالحري الآراء الفاسدة فإن بعض الرؤساء الحكماء الذين كانوا عرفوا حقيقة الوحدة الالهية كما عرفوا حقيقة الحالة الانسانية كانوا يحفظون تلك المعرفة المقدسة في أنفسهم نظير سر خاص لا يطلعون عليه إلاّ الخواص. على انه أيضاً جملة من الرؤساء الدينيين أو الكهنة والعلماء العالميين أو الحكماء اتصلوا بالملاحظات المختلفة إلى معرفة بعض حركات الطبيعة على ما هي

لكنهم كانوا يخفون أيضاً هذه المعرفة عن العموم . وبالحصر ان أهل الرئاسة أو الحكمة في تلك الأعصار كانت تحرس معارفها بحماية أسوار المعابد والمدارس فلا يعلنونها إلّا لبعض أشخاص من تابعيهم تحت الايمان الشديد على حفظها بعد ادخالهم فيها بينهم على طريق مخصوص . ولكن لا يخفى أن بعض تلك المعارف التي اتصلت إليها الأقدمون من الرؤساء والحكماء قد ظهر بطلانها بعد ذلك. اعتبروا ان القدماء كانت تعتبر التراب والماء والنار والهواء عناصر أصلية أي أجسام بسيطة ، منها تتركب بأشكال مختلفة جميع الأجرام الكونية. وكانت تعتبر أيضاً أن الشمس تدور حول الأرض. ولم تعتبر ذلك بعد التحقيق كذلك مع انه لم يكن خطأ القدماء في تعليل أفعال الطبائع فضلاً عنها إلّا أنهم كانوا يخطئون في تعليم أعمال الصنائع كذلك. فصعود الماء مثلاً في الطلنبه لم يكن يعلل عندهم بأنه يحصل عن ضغط الهواء وإنما لكون ليس من شأن الماء أن يترك شيئاً فارغاً تعليل ربما ليس بأقل بطلان من أوهام الأطفال. وليس العجب من بطلان تلك الأقوال وإنما العجب من دوام تحكمها مدة مئات من الأجيال.

لأنه مع كل جهد العلماء لا سيما في الأجيال الأخيرة لم يكن إسقاط تلك الآراء الفاسدة عن كراسي عظمتها الراكزة في أذهان العموم إلّا انه لما أمكن تنزيل بعض تلك الآراء عن كرسي سلطتها سهل تنزيل الباقي شيئاً فشيئاً إلى أن سقطت جملة. وإذا اعتبرنا نجد أن إسقاط وهم وجوب الاتباع والتقليد في كل شيء هو الذي سهل إسقاط الباقي. كيف لا وقد كان في تلك الأزمان يقال للانسان إخضع عقلك ليس للاعتقاد فقط وإنما لأقوال الرؤساء أيضاً في الشريعة في الحكمة بل في سائر العلوم سلم بالكل لأن عرفان حقائق ذلك مستحيل. ولا شك ان هذا القول تجاوز في الحد، لأن التسليم يجب فيما لا نقدر على البحث عنه بعقلنا لأنه فوق حواسنا كالإلهيات وأما في غيرها فلا.

فلما أسقطت سلطة ذلك الوهم العظيم تنبه الانسان من غفلته فقبض على عقله المسلوب منه فاستخدمه في حل تلك المشاكل. ولم يكن في الحقيقة شيء غير الشك يقظة لذلك. لكن ليس الشك الكاسل الذي يوصل إلى التعجب فقط هو الذي يقّظه إنما الشك النشط الذي يقود إلى البحث فيوصل إلى الحق. فالشك في نفس الأمر لا التعجب دون أن نخلط ذا بذا هو مبدأ الحكمة. لكن ليس الشك الضعيف الذي يقف إنما الشك القوي الذي يجري فيصل إلى المعرفة الصادقة بالتفتيش على الحقيقة.

وهنا أقول شيء: تعلمون كيف كان الانسان قبل سقوط تلك الأوهام، كان عبداً أسيراً لأنه كان مضطراً لاستعمال نفسه في كل عمل دون مساعد خارج إلّا ما قل إذ لم يكن عنده القوة البخارية ولا القوة الكهربائية ليستند إلى كل منهما، وبالجملة لم يكن يستعمل القوة البخارية ليقطع البحار بل القفار بالسفن بالعربات لنقل الأشياء بل لنقل الانسان نفسه بأسرع آن، ولا القوة الكهربائية ليقطع ذلك بالأسلاك لنقل الأخبار. فالتلغراف أحد عجائب هذا العصر لم يكن مكشوفاً له. فالآن بعد سقوطها صار سيداً حراً كيف لا وقد اتخذ لخدمته ليس القوة البخارية والقوة الكهربائية فقط، وإنما قوى أخر كيماوية لم يكن يستعملها قبلاً إلّا لأمور هزئية. وليس أنه قد أخضع القوى السفلى أو قوى العناصر الأرضية فقط وإنما أخضع القوى العليا أو قوى الأجرام الفلكية. وها إن الشمس وهي أعظمها قد سلمت له قوتها فهو يستعملها كمصور بسيط وبالجملة فإنه صار يحق للانسان الآن أن يقول: الطبيعة المادية والقوى التي تخضع لها الطبيعة ما هي أبداً خفية عني أو بالحري أسرار لا أعرفها أو لا سأعرفها يوماً ما.

ألعب وأتسلى بقوى الطبيعة وهي تخضع لي. ازن الشمس أعرف المواد التي تتركب منها.

وبالجملة أعرف الأنجم العليا جميعها. ليس من حيث جرمها فقط. وإنما من حيث المواد التي تتركب منها؛ وأعرف مع ذلك حركاتها سيرها. وبالنهاية مقادير بعدها حتى التي يحتاج في وصول نورها إليَّ ألوفاً من السنين. كذلك أعرف الحياة المادية التي تخرج من بيضة أو ذرة منذ خروجها منها إلى منتهى حياة الجسم الذي خرج. وبالجملة أعرف مجرى الدم الذي يسري من القلب تحريك الكبد تنفس الرئة. العروق التي تأمر. الشريانات التي تأخذ أوامرها. الأعصاب التي تطيعها. المعدة التي تهضم. الكيموس الذي يجدد الدم. أليس ذلك بحقيق نعم حقيق. إذاً أليس تلك المعرفة بعجيبة نعم هي عجيبة. بل كل منها عجيبة وهذه العجائب هي أعجب من عجائب الأزمنة القديمة التي كانت تدهش جهل آبائنا. ولكن تلك العجائب مع عجبها يوجد شيء أعجب منها، ما هو؟ هو العلم الذي كشفها. إذاً هي نتائج العلم بل فوائده.

ولا شك إذا كانت تلك المكتشفات عجائب نشتهي أن نعرف شيئاً من أحوالها إن لم نقل نشتهي أن نعرف أحوالها أجمع. وذلك وان كان ممكن الحصول لكنه صعب الوصول. بناء على ذلك أكتفي الآن أن أذكر لكم خبر مكتشفين جديدين مهمين في العصر الحاضر. مخترعين تعرفونهما أكثر تنظرون فعلهما تسمعون صوتهما ربما كل يوم. لأنهما قوتان أصبحتا عامتين في العالم أجمع. وبالجملة هما قوتان عظيمتان متسلطتان في الحاضر لكن يمكن أن يخلعا عن سلطتيهما في المستقبل. أريد أن أذكر لكم خبر القوة البخارية والقوة الكهربائية فأقول مبتدئاً في الكلام على الأولى ثم أنتقل إلى الكلام على الثانية.

الأصل الذي خرجت منه القوة البخارية هو حقير جداً ليس بحقير فقط من حيث قوته وإنما من حيث حالته، لماذا؟ لابتذاله أو بالحري لسهولة استعماله ما هو إذاً أصلها؟ هو وعاء صغير مستعمل من آلاف من السنين ليس عند الأغنياء بل عند أفقر العائلات البشرية وعاء تعرفونه جميعكم تستعمله يومياً نساءكم لأجل تحضير طعامكم ما هو إذاً الاسم الذي ندعو به هذا الوعاء الحقير الصغير العام الاستعمال هو القدر أو كما تقول العامية الطنجرة. هذا هو الأصل الذي خرجت منه القوة العظيمة البخارية التي تملأ العالم الآن بصوتها بحركتها. تظلم الشمس بدخانها تقهر البحر البر بشدتها تسابق الريح بسرعتها. قوة مع عظم قوتها تكبدت زماناً طويلاً رداءة مواقد البيوت غير معروف نفعها مثل أشياء كثيرة نافعة تحتقر في الأكثر لكن لا بد إذا سمعتم وصف أصل هذه القوة وما كانت به مع ما صارت إليه من العظم تتشوقون إلى معرفة كيفية ظهورها من الخفاء فنقول:

لا بد لاحظتم أنه حينما يوضع على النار قدر مملوء ماء يغلي الماء وإذا غلي يُصعد بخاراً أيضاً يذهب بسرعة ثم إذا صعد هذا البخار إلى سطح بارد يرتد على نفسه. ولذلك إذا وضع على القدر غطاء محكم فتكاثر صعود ذلك البخار وارتداده حتى يتكاثف. يصير كلما غلي الماء فأصعد بخاراً يرفع بصعوده الغطاء ثم إذا ارتد البخار يرجع الغطاء ولذلك يصير الغطاء يرتفع مرة بعد أخرى. وهكذا لا يزال الحال جارياً ما دام الماء غالياً. وإذا لاحظتم ذلك اعتبروا أن هذه الأحوال البسيطة هي أحوال القوة البخارية. ومن مجراها هذا ظهرت عظمتها الحالية. لكن اكتشاف شأن منفعتها احتاج إلى أزمنة بل دهور طويلة لأنه مهما كانت ترى منها تلك الأحوال لم يلاحظ فيها ذلك إلاَّ بعد آلاف من الأجيال على أنه وإن كان لُحظ أمرها إلاَّ أن تلك اللوائح التي كانت تلوح لبعض الناس منها لم تنكشف إلاَّ مع البطء.

وهنا نقول إن الشخص الأول الذي لاح له نفع القوة البخارية على ما عرفنا الحكيم هيرون الاسكندري الذي كان قبل المسيح بنحو مائة وعشرين سنة فإن هذا الحكيم لما لاحظ أن في البخار قوة

يمكن استخدامها في بعض الأشياء اخترع آلة توجد الآن في مخزن الآلات الطبيعية في باريس يسمونها ديولوبيل هيرون أي حاملة الهواء المنسوبة لهيرون وتلك الآن ليست إلاَّ كرة نحاسية مجوفة مثقوبة من طرفيها يتعلق في كل منهما أنبوب محنى بالتعاكس وموضوعة تلك الكرة على عمودين يمسكانها. فيوضع في جوفها ماء ويوقد تحتها نار فإذا غلى الماء بإيقاد النار تدور الكرة لكن إن أردتم أن تعلموا لماذا استعملت تلك الآلة وماذا نفعت أقول لكم مع الحياء عنها. إنها استعملت لتدوير سياخ اللحم ونفعت لشيه. لذلك لم تخرج من جنب والدتها الطنجرة. ولم يشتغل أحد بعد ذلك في تحسين تلك الآلة وبالجملة لم يجهد أحد في إظهار ما يلوح من قوة البخار إلى زمن طويل حينما ابتدأت حكماء الأعصار الأخيرة تشتغل بذلك. ويقال إن أول من حاول اخراج القوة البخارية من المطابخ قبطان بحري اسبانيولي يسمى بلاسكو دوكارا وذلك في أثناء سنة ١٥٤٣ للميلاد الموافقة سنة ٩٥٠ للهجرة فإنه يقال إن هذا القبطان أراد أن يمشي مركباً بالدواليب على النار ولم يعلم ما كان من أمر ذلك إلاَّ إنه يقال بأنه بعد ذلك بأثنين وسبعين سنة عالم فرنساوي يسمى سليمان دوكوس عمل تجاريب مختلفة لأجل إظهار شأن القوة البخارية حتى انه يزعم بأن سليمان المذكور اخترع الآلة البخارية كما هي إلاَّ ان عدم اقتداره لم يمكنه من اصطناعها كما ينبغي. وإنما عمل رسمها وعرضها على كثير من وزراء وأغنياء بلاده في عصره. فكان يطرد من كل من يعرض عليه ذلك. ويقال إنه وضع أخيراً في بيت من البيوت المعدة لسجن المجانين فمات به فهذا الخبر وان كان يغلب على الظن بأنه وضع لأجل إظهار حظ أصحاب الأفكار الذين يريدون أن يتكلموا على شيء لم تكن أزمانهم استعدت لقبوله إلاَّ انه ليس ببعيد التصديق. والحاصل ان جهد سليمان دوكوس لم يذهب سداً حيث انه ترك لمن بعده رسم آلة بخارية كانت مبدأ للاشتغال في ذلك وتلك الآلة ليست هي إلاَّ إناء مجوف مثقوب الأعلى وداخل في ثقبه انبوب ممتد إلى جوفه. وذاك الانبوب منحني من الخارج. فإذا وضع في ذلك الإناء ماء ووضع على النار يغلي الماء متى أوقد النار. فيتصاعد البخار في الإناء فإذا تكاثف كبس على الماء فيخرج الماء من الانبوب بعزم. وحينئذٍ إذا وضع أمام فم الانبوب دولاب دار بسرعة. فهذه الآلة وإن لم تستعمل في شيء كي تفيد إلاَّ إنها افادة شأن القوة البخارية ومن ملاحظة ذلك ابتدأت الحكماء تفتكر في شأنها. فلم يتم شيء إلى أن جاء بعد ذلك بخمس وسبعين سنة رجل فرنساوي يسمى دانيس بايان فأصلح شأن تلك الآلة، وصنع قدر تسمى به يمكن بها معرفة مقدار القوة البخارية حيث تحدد بواسطة ثقل يُسمى ثقل الأمنية لكن لم تستعمل تلك الآلة بشيء إلى أن ظهر رجل انكليزي يسمى القبطان سواري فاستعمل تلك الآلة في تدوير الطلنبات المائية إلاَّ انه مهما يكن اعتنى في جعلها تامة لكن لم يقدر على ذلك وإنما بقي في الآلة البخارية نقائص كثيرة إلى أن جاء رجل آخر انكليزي يسمى نيكمن فأصلح بعض تلك النقائص. ومنذ إذٍ تلاحق ظهور المخترعين لكن المخترع الأعظم منهم الذي وضع الآلة البخارية في مركز تام بالتقريب بحيث لم يزد على وضعه بعد إلاَّ القليل هو وتيد الانكليزي المولود سنة ١٧٣٦ والمتوفي سنة ١٨١٩ للميلاد. فإن هذا الرجل أكمل صنع القوة البخارية وسلمها إلى المعامل الصناعية. فقامت بها مقام القوى الحيوانية بهيمية وانسانية وبذلك حصل على فخر عظيم ولم يجز فقط الشرف السامي وإنما الغناء الجسيم. فإن ذاك المعلم الماهر لما استحق امتياز ذلك الاختراع أضحى عمله منوطاً به فكان له من ذلك انتفاع وأي انتفاع. وأعجب بل أغرب شيء وقع له في ذلك هو أنه بعد ان كان أوصل الحلة البخارية إلى المركز الذي به ابتدأت في اجراء حركتها العلمية. اهتدي إلى طريقة بها يمكن تقليل مقطوعيتها اليومية من الفحم. فلما تم ذلك صنع حلات كثيرة. وصار يعرض على كل من عنده حلة بخارية ان يبدلها بحلة من هذه الحلات وذلك بلا أخذ شيء في مقابلة ذلك البدل بل بإعطاء ما يمكن ان اقتضى وبهذه الطريقة صرف مبلغاً عظيماً ليس لأجل عمل الحلات فقط وإنما لأجل ارضاء

أصحاب الحلات القديمة على بدلها. وهذا العمل ربما يظن عمل مجنون فاسد الفكر كلا ثم كلا إنما هو عمل عاقل صحيح الفكر بصير بمجاري الأحوال، لماذا؟ لأن ذاك الرجل كان يشترط على أصحاب المعامل الذين يبدل لهم حلاتهم بأن يعطوه قيمة ربع ما يتوفر عليهم من ثمن الفحم باستعمال هذه الحلات الجديدة عما كان يقتضي في استعمال الحلات القديمة. فماذا تظنون أنه ربح بذلك ربح في أول سنة سبعين ألف فرنك ومن سنة إلى أخرى تضاعف إيراده إلى أن بلغ مليون فرنك سنوياً. والحاصل إن القوة البخارية باستعمال آلاته التي صنعها المعلم ويتد المذكور وصلت إلى مقامها الأسمى فصارت في جميع الأشياء تقوم مقام القوى المحركة الهواء في مراكب البحر. الخيل في عجلات البر. أيدي البشر في المعامل. لا يوجد شيء لا تعمله وإنما تعمل كل شيء. تصقل تنشر الحديد الخشب تغزل تطبع وبالجملة تتحرك كرجل عاقل. وبذلك خلصت الانسان من الأشغال الشاقة التي كان محكوماً عليه بها وبهذا تكون أظهرت نتيجة عظيمة. لأنها قللت لزوم الفعلة بحيث لو كانت الأعمال التي تقوم بها تلك القوة الآن قائمة بالقوى الحيوانية أو بالحصر البشرية لكان يلزم ألوف ألوف ألوف لا تعد من ملايين العملة. وبتقليل لزوم ذلك كانت كواسطة أولى لعتق العبيد حيث لم يعد يحتاج إلى تلك الألوف التي كانت تستعمل منهم في الأشغال التي كانوا يلزمون بها في القديم. فإن الآلات البخارية التي تشتغل الآن هي العبيد والأشخاص الذين يقومون بحسنها أحرار الأيدي والأفكار هم أسيادهم الذين كانوا يلاحظونهم بالعمل.

وهنا أذكركم شيئاً يذكركم بأنه رب شيء يظنه الحكيم مستحيلاً ثم الوقت يجعله ممكناً وهو أن أرسطو الحكيم قال في بعض مؤلفاته حتى صار المغزل يغزل بذاته العبيد تعتق من الرق. وها إن المغزل يغزل بذاته. والعبيد أضحت تعتق من الرق فهو يمحى شيئاً فشيئاً من العالم أجمع.

وبعد ذلك أريد أن أوضح لكم شيئاً ذكرته ربما تكونون استعظمتموه وهو قولي كان يلزم ألوف الوف من تلاميذ الفعلة فأقول: لا يخفى إن أهل الصناعة يقيسون قوة البخار على قوة الخيل. وهذا القياس وإن لم يكن شديد الضبط إلاّ انه قريب الحكم. ولذلك قبل عند الجميع فيقولون إنه بقوة عشرة مائة، مائتين رأس من الخيل. وقوة الرأس الواحد من الخيل في آلة البخار تشتغل شغل سبعة أشخاص أقوياء. وإذا علم ذلك يعلم من ضرب قوى الآلات البخارية المستعملة في عدد الأشخاص التي تقوم مقامهم فيعلم ما يلزم. وهنا أذكر لكم حساب مهندس انكليزي على آلات انكلترة فقط قوله فإن ذلك المهندس حسب بأن انكلترا فقط فيها آلات بقوة أحد عشر مليون حصان فتشتغل شغل سبعة وسبعين مليون فاعل. ومن ذلك يظهر بأنه إذا كان في مملكة واحدة اتصل ذلك القدر إلى هذا العدد فإلى كم وكم وكم يتصل في الدنيا جميعاً.

وأختم الكلام على هذه القوة بقولي إن هذه القوة العظيمة التي هي مقدمة ذاتها بخضوع عظيم للانسان. مع كونها لا تكلفه أكلاف كثيرة بل قليلة أيضاً. حيث ان يومية الفاعل البخاري لا تكلف أكثر من عشرة بارات. ليست بمشكورة عند الانسان وبالجملة ليس براض بها. فضلاً عن كونه ليس براض عنها. فإن الانسان حصل كثيراً ويريد أن يحصل أكثر. لذلك مهما يكن خضوع ونشاط تلك القوة عظيماً، الانسان يرى انها ربما تعجزه يوماً ما. هذا فضلاً عن كونه يرى انه يحتاج إلى قوة أجود. وهنا ربما يعجبون من قولي تعجزه حيث علمتم عظم خضوعها لا تعجبون من ذلك إنها تعجزه من حيث قوتها اليومي التي تحتاجه. فإن المهندسين حسبوا مقدار الفحم الذي تقطعه الآلات البخارية على العموم مع المقدار الموجود في معادن الأرض بالتقريب فظهر انه في زمان قريب ينتهي بحيث لا يوجد ما يقدم لها. ولا ترتعدوا من قولي في زمن غير بعيد لأن ذلك ربما يحتاج إلى ألف فأكثر من السنين.

بناء على ذلك الانسان يطلب من العلم الذي كشف له تلك القوة أن يكشف له قوة أخرى فضلاً عن كونها أقوى إلَّا انها أوفر حيث تكتفي بقوت سهل الوجود يتجدد يومياً. فاجتهد العلماء بذلك وجهدهم لم يذهب سدا فإنهم وجدوا القوة التي تشتمل على تلك الأوصاف إلَّا انهم لحد الآن لم يقدروا أن يخضعوا هذه القوة لإرادتهم وإنما هي تشتغل بإرادتها أو كما يقال على كيفها بحيث بينما تكون قائمة بعلمها تحنق فتثور. غير أنهم يؤملون حصول القدرة على اخضاعها يوماً ما وإذا أخضعت هذه القوة لإرادة الانسان لا شك تنزل القوة البخارية عن سلطتها وتدفعها إلى مدى وما هي هذه القوة؟ هي القوة الكهربائية التي تستعمل الآن في كثير من الأشغال إلَّا انها تشتغل مثل معلم ماهر أو بالحصر معجب بملكته لا يشتغل إلَّا الأشغال الدقيقة كتزويق أو تزيين تضرب النقد تصنع التماثيل المعدنية تفضض تذهب المواعين الصحف وبالجملة جميع الأواني أو الحلى الذي يراد استعماله من المعادن تنقل بسرعة رسائلنا لكن لا تريد أن تغزل أن تحيك ان تجر السفن العربات وما شاكل. وذلك يظهر انها لا تريد ان تنزل شرفها الذاتي فتشتغل كفاعل حقير.

وهذه القوة أي القوة الكهربائية هي التي أريد أن أنتقل إلى ذكر خبرها الآن كما وعدت فأقول:

أصل هذه القوة التي خرجت منه ليس كأصل القوة البخارية. على أن هذه القوة ليست كالقوة البخارية مع ذلك من حيث ذاتها. فإن القوة البخارية تظهر بنفسها ولكن هذه لا تظهر إلَّا بفعلها. ولذلك نستعملها ولا نعلم ما هي ومن ثمة نكون عند ذلك مرتعدين منها. لأنها تارة تتحرك بالبسط بدون حس وأخرى بنوع برقي رعدي مشتت مشتمل على أنه مع اختلاف نوع حركتها لا تكون أيضاً دائمة. ولكن مع ذلك يجد أن لأبعد بُعد لأجلها فهي تقطع المسافات أسرع من الضوء من الهواء فهذه أحوال تلك القوة التي يريد الانسان أن يخضعها لإرادته. وهي القوة التي إذا تصورناها الآن نتشخص لها أفعالاً عجيبة. وهذه القوة وإن يكن ظهور أثرها قديماً إلَّا أن استعمال خاصتها حديث وذلك يظهر مما نذكره من خبرها الآتي:

يقال بأن الحكيم تاليس الذي كان قبل المسيح بنحو ستة أجيال اهتدى إلى كون الكهرباء إذا فرك يجذب الأجسام الخفيفة إليه. فعرف ذلك بعده. إلَّا أن تلك المعرفة لم تفد سوى استعمال ذلك أحياناً للهزء أو بالجملة الهزل ولذلك مر نحو ألفي سنة من بعد تاليس دون أن يظهر شأن تلك القوة. وبالاختصار لم يحصل من ذلك أقل فائدة إلى زمن قريب حينما اكتشف أمرها. وهذا الانقطاع الذي حصل في تاريخ الكهربائية وجد كما أخبرتكم في تاريخ البخارية. على أنه كان في تاريخ أكثر المخترعات التي اهتدى إلى أثرها الأولي في الزمن القديم.

فإن قيل لأي سبب نسند ذلك التوقف الذي حصل في سير تلك الأشياء من جهة حال التمدن نقول: إلى انفصال الشعوب شعب من شعب. بأوهام كثيرة. مع انه لم يكن عندهم مع ذلك تلك الوسائط المادية التي تلزمهم إلى الاختلاط أو تقربهم إلى بعض وان وجدت فلم تكن بالصورة التي هي بها الآن. كيف لا؟ وان التجارة التي هي أعظم وسائط اتصال الشعوب كانت صعبة فضلاً عن كونها مخطرة. وبعد ذلك فإن الكتب التي تنقل الحوادث كانت قليلة وثمينة. بحيث إن الاكتشاف أو الاختراع كان يموت في المحل الذي يوجد به. وما عدا ذلك فإن الحكماء الذين كانوا علماء الأعصر القديمة كانوا يرون كل بحث يتعلق بالأشياء المادية دنيئاً لا يستحق اشتغال الفكر به. لذلك كانوا يتحاشون فضلاً عن كونهم يحتقرون البحث في ذلك. وبالجملة كانوا يعتقدون أن اشتغال العقول العلية الأدبية في الأشياء الدنية المادية إهانة لها أي للعقول. وهذا الرأي الفاسد أو بالحري الخطأ السيء

وقف التقدم البشري أزمنة طويلة. وبالحصر وقف ذلك إلى ظهور باكون مع غاليلي ثم ديكارت فإن هؤلاء الرجال العظام لما تحققوا ذلك الخطأ العام. اجتهدوا في هدمه وتأسيس طريق جديد فأسسوا مسلك الفلسفة الجديد الذي قلبوا به وجه العلوم. وكان مقدامهم باكون فإنه وضع أسس الأساس الأول لذلك. مشيداً ذلك على لزوم اجراء الملاحظة على كل شيء مع حصول التجربة حتى تنكشف الحقيقة على ما هي في نفس الأمر. وباستعمال هذه الطريقة اعتبر أولئك الحكماء ومن تبعهم أن جميع الحقائق العلمية التي اكتشفت إلى عصرهم ليست بصحيحة. وإنها جميعاً آراء فاسدة. ففتشوا الطبائع بملاحظة حركاتها مع التفتيش على نواميسها التي تحركها. والأسباب التي توجدها.

فلما جرى العمل على هذه الطريقة ابتدأ ظهور الاكتشافات الجديدة التي من جملتها القوة الكهربائية التي نحن بذكرها. فإن هذه القوة فحصت حينئذٍ فحصاً أصولياً حتى عرف أنها لا توجد فقط في الكهرباء وإنما توجد كذلك في الكبريت في القزاز وكذا في الحرير. فصنع الكيماويون حينئذٍ الآلة الكبيرة الكهربائية ثم اصطنعوا القناني المعروفة بقناني (ليد) «بلد في المانيا» وهي قناني متى جمعت وعلقت بالآلة الكهربائية تتشقق بصوت رعدي كالصاعقة. واكتشاف هذه القناني فتح باباً واسعاً للدخول في تجربات كثيرة معجبة بل مضحكة.

ثم ان الكيماويين لما لاحظوا ان شهب الكهربائية وصوت آلتها كالبرق والرعد تيقنوا انها والصاعقة شيء واحد. ولذلك بادروا لاستعمال بعض تجربات مختلفة جعلت فرنكلان الاميركاني ان يخترع سنة ١٧٦٠ للميلاد الموافقة سنة [١١٧٤] للهجرة قضيب الصاعقة الذي أدهش اختراعه عموم أهل عصره.

ولما كانت الآلة الكهربائية التي اصطنعت ثقيلة صعبة النقل وبالجملة عسيرة الاستعمال اجتهد رجل ايطالياني يسمى ولتاني بتحسينها مع التخفيف فتم له ذلك باختراع العمود الكهربائي سنة ١٨٠٠ وهو عمود يعطي الكهربائية بصف المعادن قطعة فوق أخرى في داخله. وأجود المعادن المناسبة لذلك النحاس والتوتياء.

واختراع هذا العمود الكهربائي الذي يعطي الكهربائية بمجرى غير منظور ويمكن توقيفه وتحريكه متى أريد ذلك قد حقق لنا كثيراً من العجائب التي نسمع بها أو بالحري الخرافات النقلية.

وعلى ذلك أقول لا بد قد قرأتم تلك الحكايات العجيبة المكتوبة في كتاب ألف ليلة وليلة. ووقفتم بها على وصف عجائب قديمة وهمية فتعجبتم منها وإذا كنتم تعجبتم من سماع خبر تلك العجائب القديمة الوهمية ألا تتعجبون من نظر أثر العجائب الحديثة الحقيقية.

أليس التلغراف والبالون بأعجب من تلك العجائب نعم يحق الاندهاش فضلاً عن التعجب من هذه المكتشفات التي أكثرها نتج عن اكتشاف ذلك العمود باختلاف الأوقات.

وبالجملة فإن اختراع ذلك العمود الذي يُعطي نوراً كهربائياً يشابه نور الشمس فيستعمل الآن لأجل إضاءة طرق البحر وربما بعد قليل من الزمان يستعمل لأجل إضاءة مسالك البر. الأمر الذي ربما إذا أرادت بعض المدن المتأخرة أن تعتذر عن عدم استعمال النور الغازي تجعل الأمل بحصول ذلك النور الكهربائي الذي لا شك يكون أضوء مع أنه أسهل استعمالاً حجة لها في ذلك. قد صار اختراعه أي اختراع ذلك العمود واسطة لاظهار أمور كثيرة معجبة منها اصطناع الآلة التي اخترعت في الحروب الأخيرة لاحراق السفن ومنها ذلك المخترع العجيب الغريب المدهش وهو التلغراف الذي كان أول من اهتدى اليه رجلان من كيماوية اميركا. ومنها الاختراع الأعظم نفعاً سيما من حيث الغنى البشري وهو

اكتشاف التفضيض والتذهيب. وذلك انه بواسطة تكرار اجراء التجاريب المختلفة بالعمود الكهربائي ظهر لعالم يسمى دولاريف بأن ذلك العمود متى تحرك على معدن موضوع في الماء يمكن أن ينقل مادته إلى معدن آخر وبهذا ظهر له أنه يمكن تفضيض تذهيب المعادن كالنحاس كالحديد كالتوتياء بذلك العمل بسهولة. ومن ثمة ظهرت صناعة التفضيض والتذهيب الكهربائي المعروفة الآن ثم إن ظهور هذه الصناعة كان واسطة لإظهار صناعة تقليد النقش أو بالحري الحفر المعدني حيث جاء بعد ذلك عالم مسكوبي يسمى جاكوبي فاخترع في سنة ١٨٣٢ م الموافقة سنة ١٢٤٨ هـ الشيء المسمى كالونو بلاستيك. واختراع هذا الشيء أنتج بطريق بسيط للغاية. تلك الصناعة التي بها يمكن تقليد كل منقوش معدني بضبط عظيم يعجز أكبر الصناع عن عمله. مع انه يمكن تقليد الشيء الواحد ليس على مرة واحدة فقط وإنما على قدر ما يراد. دون أن يحصل أقل تغيير في الأصل.

فهذه الاكتشافات العجيبة جعلت القوة الكهربائية أن تكون من قبيل فن وصناعة معاً. فهي فن لأن بها يمكن الرسم النقش وهي صناعة لأن بها يمكن تحصيل ذخائر كثيرة من مصنوعات مختلفة بأسهل وأوفر ما يكون.

وهنا أذكر لكم خبر معمل واحد من معامل فرنسا القائم بها وهو معمل كرستوفل فإن هذا المعمل الذي يشتغل في عمل الأواني والحلى وكان ما يمكن استعماله من المعادن مفضضاً يقطع سنوياً نحو أربع وسبعين ألف كيلو غرام من الفضة لأجل عمل ثماني ملايين قطعة من الأواني والحلى وما يتبعها. فيكون استعمل بقيمة عشرة ملايين فرنك من الفضة. مع انه لو كان اصطناع تلك القطع من الفضة جملة لكان يحتاج أن يستعمل لها بقيمة ثلاثمائة مليون فرنك. فلاحظوا مقدار هذا الفرق العظيم وقدر منفعته في العالم المعاشي.

وكل تلك الاكتشافات التي هي أغرب وأعجب من غرائب من عجائب الزمن القديم مع كونها مفيدة وأي مفيدة. لولا العلم لم يكتشف منها أي الشيء. فإذاً فوائد العلم عظيمة جسيمة فضلاً عن كونها ملذة ونافعة.

ولكن قبل نهاية الكلام لا بد أن أذكركم هنا بأنه لو كانت علماء الزمن الحديث بقيت منفصلة عن بعضها بعض كعلماء الزمن القديم لما كنا حصلنا على شيء من ذلك. وإنما اتصال علماء زماننا هذا مع بعضهم بعض هو في الحقيقة الأمر الذي أوجب حصول تلك الاكتشافات. لأنه صار بمجرد اكتشاف شيء أي كان من كيماوي أو طبيعي يتصل إلى جميع الناس فيقف عليه الداني والقاصي. وينضم إلى فكر ويد ذلك العالم المكتشف أفكار وايدي علماء أخر ربما أعظم منه قوة. وبذلك لا يمر زمن حتى يصل ذلك الشيء المخترع إلى درجة كماله. وكل ذلك في واقع الحال نتيجة الاتصال الذي يوجد الاشتراك في الأعمال.

وإلى هنا انتهى ما أردت إظهاره لكم من فوائد العلم كي تتضح لكم منافعها. وعلى كل إن لم أكن بخطابي هذا القصير حصلت على حصول إيضاح المنافع بعد إظهار الفوائد فإني أرجو أن يكون حسن الموضوع أثر في أذهانكم وذلك يجعلكم أن تبحثوا عن تأكيد ذلك.

وكيف لا أرجو ذلك حال كوني لا أشك بأنه منذ حصل عندكم الميل إلى الاجتماع على العلم دخلتم في أفق جديد من فلك التمدن الذي بلا ريب تظهر لكم به شموس المعارف فتسيرون في أنوارها على الطرق التي توصلكم إلى الحقائق.

وبالجملة إنني لا أشك انكم دخلتم في عصر جديد منذ افتتاح هذا الاجتماع الذي ربما كثير

منكم لا ينظر منظره الحقيقي كما هو إما لغشاء الجهل وربما الغرض ودون أن أدقر احساساتكم أقول: يمكن لغشاء البخل نعم هذا ربما يؤثر بكم حيث لم تعرفوا بهذا الوصف ولكن بما أن الكرم ليس إلاّ عادة. والعادة إنما تكون في الأمور المعتاد عليها. وأنتم لم تعتادوا على صرف الدراهم للمعارف من علوم وفنون لا يبعد أن يكون ذلك لذلك. وبناء على هذا لا ينبغي أن تتأثروا من ذلك. وهنا بعد طلب السماح منكم أقول: لا ريب متى ابتدأتم بصرف الدراهم على ذلك فعرفتم منافعها يسهل عليكم صرفها بل يصير ألذ وأشهى من تلك التي تصرفونها على غيرها.

وبناء على ذلك أرجو أن تتجه أفكاركم إلى القيام بها مع الأمل بالثبات وإبداء النشاط. وعددكم القليل لا ينبغي أن يحزنكم. حيث لا تبتعدوا من أن تتذكروا بأن اجتماع اثني عشر رجل بإرادة خالصة متسلحين بآداب سنية كفى إلى تغيير هيئة العالم الروماني وان اجتماع عشرة رجال كذلك ظهروا من بلد لم تكن شهيرة في بلاد العرب كفى لتغيير هيئة عالم أكبر أقسام الأرض. نعم، ليس في فكركم ان تغيروا هيئة العالم لا من حيث مللهم ولا بالحري من حيث دولهم. وإنما قصدكم أن تمدوا حولكم أنوار المعارف التي تنير أفق العالم المتمدن. إلاّ انه على ان لا يكون لكم مثال أفضل من ذلك يشجعكم.

وهنا أقول بأنه لا شك ان ذلك القصد إنما هو لطمعكم في اقتباس النور الممتد على غيركم. إلاّ ان هذا الطمع ممدوح لأنه من يعلم ان كان هذا النور الذي تطمعون باقتباسه لا يعينكم يوماً ما على كشف مناظر جديدة في عالم العلم وبذلك تجعلون ذلك النور المقتبس أن يمتد فيزيد نور ذلك المصباح المقتبس منه.

كيف لا وإنّا نرى بأن الصانع الشاطر يرجع إلى من اقترض منه رأس مال عمله مائة عوض الواحد.

فإذاً يقتضى أن تجتهدوا في عملكم لتنالوا أملكم. ولا تحصروا شغلكم في أمر واحد بمكان واحد في زمن واحد وإنما يلزم أن تمتدوا بذلك في كل أمر بكل مكان فضلاً عن كل زمان ولا تحجموا مما ربما تسمعونه من كثير منكم من الملام أو بالحري سوء الكلام فإن هذا شأن الأنام. تذكروا بأن كل أولئك المحسنين إلى الانسانية كانوا مضطهدين من أبناء أعصارهم لكن المستقبل كان لهم فأسماؤهم بقيت كأفعالهم غير قابلة الزوال على ممر الأجيال. نعم لا شك بأنكم لا تدّعون أنكم من صفوف هكذا رجال لكن لا ريب أن حسن قصدكم يضعكم في مرتبة ليست بالنسبة إلى مراتب أولئك بأقل جمال.

القصيدة التي أنشدها الخواجا يوسف الشلفون في التشكر من فتح الجمعية

(المجموعة الأولى من أعمال السنة الأولى. ص ٥٦ ـ ٥٨).

بشرى لنا اليوم نور العلم قد لمعا ... في أفقنا وضياء التهذيب قد سطعا
وفي بروج ربى بيروت بلدتنا ... بدر المعارف بالآداب قد طلعا
وبلبل الفضل في روض البيان بدا ... الا نراهُ على أفنانها سجعا
وقطرنا نال من حظ التمدن ما ... قد كان من نيلهِ بالأمس ممتنعا
وها بشير الأماني بالنجاح على ... أبواب ألبابنا في بشره قرعا
قد حان أن ينتسي ما عيرونا به ... يوماً بنو الغرب من جهل ويندفعا
ما ذاك إلّا لأن الكون أجمعه ... لهم بسطوة نور العلم قد خضعا
بعلمهم طاب عزاً عصرهم وغدا ... يتيهُ فخراً على الأعصار مرتفعا
سموا إلى أفق العليا بما عرفوا ... فخلت لما سموا نجم السهى اتضعا
كم حاذق جاز لج البحر في سفنٍ ... تسري بخاريةً لا يتقي جزعا
وكم شهدنا لصنع الكهرباء وكم ... من اختراع دهشنا فيه مصطنعا
وكم وكم حفظونا في معادنهم ... إذا الصواعق فينا جورها وقعا
هذا النجاح ولكن لم نحزه سوى ... بالاتحاد الذي في بدءهِ شرعا
فبادروا للذي فيه تقدمنا ... فالعلم أقبل صحبي نحونا وسعى
لئن تأخرتمُ وقتاً فإن لكمُ ... سعيٌ يقدمكم فاستنهضوا الزميعا
هذه حديقة علمٍ في مرابعنا ... بها المنى والهناء بعد العناء رجعا
قد أظهرت كل فنٍ كان مندرساً ... وأبرزت كل فضلٍ كان مندفعا
في ظل سلطاننا عبدالعزيز ومن ... منارة العلم بين النّاس قد رفعا
فاضت مكارمه كالبحر زاخرة ... على الملأ فارتووا من فيضها جرعا
وراشد العصر والينا الذي نظرت ... سوريةٌ منه فضلاً نورهُ سطعا
عليه ألف ثناءٍ من تشكرنا ... يبقى مدى الدهر ما بدر العلى طلعا
كذاك كامل باشا من ببلدتنا ... ساس الرعايا بوافي عدله ورعا
لا زال يوليهما المولى مزيد عليٍّ ... ما طائر الأيك في روض الهناء سجعا
وما تثنت غصون البان يانعةً ... وما سنا هذهِ الجمعية اتسعا
وما بدا عام تاريخ بهِ طلعت ... بشرى لنا اليوم نور العلم قد لمعا

سنة ١٨٦٨

«لما كان من أهم ما يعتمد عليه في تأسيس هذه الجمعية تقديم الرجاء لأهل الفضل خصوصاً من أصحاب المراتب السامية بقبول تشريف الجمعية بشرف اشتراكهم بها الأمر الذي يجعلها ان تستند مع الفخر على العنايات السنية يُرجى بواسطتها حفظ ودوام قوة الجمعية مع النمو والتقدم قد حصلت الهمة من قبل حضرة **صاحب السعادة فرانقو أفندي** مدير كمرك الغلطه في الآستانة العلية بعرض ذلك على الذوات العظام

فتفضل منهم إلى الآن بقبول الرجاء بتشريف الجمعية بشرف الدخول بها **حضرة صاحب الدولة والفخامة فؤاد باشا ناظر الخارجية . وحضرة صاحب الدولة والأبهة يوسف كامل باشا رئيس المجلس العالي وحضرة صاحب الدولة مصطفى فاضل باشا وحضرة صاحب الدولة محمد رشدي باشا ناظر المالية وحضرة صاحب السعادة مرزا حسين خان سفير دولة ايران لدى الباب العالي وحضرة صاحب السعادة البارون فراندل سفير دولة بلجيكا لدى الباب العالي** ومن كون تفضل مثل هؤلاء الذوات العظام بذلك يعد من أكبر العلائم على النجاح فضلاً عن أهمية هذه الجمعية وجب علينا بيان ذلك مع تقديم الشكر الجزيل على عناياتهم بذلك مع الثناء الجميل على همة الأفندي المومى إليه راجين حصول العناية من باقي أهل الفضل الذين يهمهم اتمام هكذا مقاصد التفضل بذلك أيضاً» .

طبعت بالمطبعة العمومية في بيروت سنة ١٨٦٨ .

المجموعة الثانية من أعمال السنة الأولى

[بيروت: المطبعة العمومية، ١٨٦٨. ص ١ - ٤٦].

إنه في مساء يوم الاربعاء الواقع في ١٢ شوال سنة ١٢٨٤ هـ و٢٤ و٥ شباط سنة ١٨٦٨ م. صار فتح اجتماع من المشتركين فتلى به الخواجا حنين الخوري خطبة في الكلام على احتياجات العقل ثم تلى الخواجا موسى يوحنا فريج خطبة في الكلام على التمدن ثم أنشد به الشيخ ابراهيم اليازجي قصيدة في الحث على التقدم.

الخطبة التي تلاها الخواجا حنين خوري في الكلام على احتياجات العقل

(المجموعة الثانية من أعمال السنة الأولى. ص ١ - ١٤).

إنه لأمر معلوم بأن الانسان فيه شيء غير الجسد مستقل عنه ذو خاصيات مخالفة خاصياته ويسمى هذا الشيء النفس أو الروح وهو أصل الحياة والفكر. ولئن كان الجنس الحيواني بوجه العموم يشارك الانسان في البعض من خاصيات ما يسمى بالنفس أو الروح إلاَّ انه مقرر واضح بأن نوعنا البشري يتميز بخاصية الفكر أو بالحري العقل لأن هذه اللفظة إنما هي المصطلح عليها في لغتنا وان كانت أعم بالمعنى فنرى الانسان قد أعطي موهبة النطق وتركيب الكلام دون غيره وما ذلك إلاَّ للتعبير عن الأفكار والتصورات التي خصّص بها ولم نر لها أثراً في الحيوان الغير ناطق حتى انه لم يكتف بذلك بل اخترع الحروف والخط لأجل حفظ أفكاره وقيدها في سجل التاريخ ونشرها إلى البعيد ولم يلبث أن استنبط آلة الطبع. فهذه دلائل كافية للاقناع بأن الانسان وحده حائز على موهبة العقل أو الفكر وتلك الموهبة لا ريب انها أسمى وأشرف المواهب ولنا على ذلك براهين حسيَّة وهي اننا إذا أمعنَّا النظر في هيئة الانسان وتركيبه بالنسبة إلى ما سواه من جنسه نرى أن إليه انتهى كمال الخلق والابداع سواء كان بالنظرة إلى اعتدال قامته أو نعومة بشرته أو حسن صورته أو غير ذلك فأعدَّ هذا التركيب المتميز لتلك الموهبة السامية التي بها نال الانسان أعلى مرتبة بين الخلائق. فإذ قد تقرر ذلك وجب على الناس جميعاً أن يهتموا على قدر جهدهم بأمر العقل الذي به يمتازون في جنسهم كما تقدم بأكثر من اهتمامهم بأمر الجسد الذي به يشاركون سائر الحيوانات وأن يسعوا في تحصيل احتياجاته أقلّه بقدر سعيهم في تحصيل احتياجات الجسد لكي يوفوا بفعلهم هذا حقوق الانسانية وشروطها. ولكن لسوء الحظ نرى ان البلاد الشرقية يُراعى بها العقل بأقل من مراعاة الجسد بما لا يوصف كما سيتضح ذلك جلياً من الشواهد الآتية. وهو إنه من مدة نحو عشر سنوات أو أكثر كان تعليم أولادنا محصوراً في قراءة كتاب القرآن والزبور والرسائل وربما رغب البعض أن أولادهم تقرأ ديوان [ابن] الفارض هذا مع تعليم الخط والسلام. وأما الآن فمع ما بذله من الجهد بعض الغرباء المفضلين وبعض أهل الوطن من ذوي الغيرة بفتحهم مدارس منتظمة لتعليم الأولاد ما يقتضي نرى الآباء لا يسمحون لأولادهم سوى بتعلم أصول لغتهم أي النحو والصرف مع شيء قليل من بعض اللغات الأجنبية وقواعد الحساب وبالاختصار أقول إنه متى مرَّ على الصبيان في المدارس نحو ثلاثة سنين بالكثير يظن آباؤهم أو أمهاتهم بوجه العموم أنهم قد اكتفوا علماً وازدادوا معرفة وتفقهاً فيخرجونهم من المدارس ويستخدمونهم في مكاتبهم التجارية أو في مصالح أخرى غير ضرورية. وهكذا البنات أيضاً لا يُعطى لهن أكثر من فسحة ثلاثة أو أربعة سنين

لأجل التعليم مع أن عليهن المعول وهن لتهذيب العقل الأساس الأول. هذا ما كان من أمر الأولاد وأما الرجال والنساء فقل من يسأل منهم إلاَّ على أشغاله ومكاسبه وزينة لبسه وترفهه فإننا عموماً إذا سمعنا عن كتاب طبع حديثاً أو عن صحيفة جديدة أو غير ذلك مما يحتاج العقل إليه لا نكترث به البتة ولا نظن العقل مستحقاً أن يصرف لأجله مصروفاً كهذا بل نرى أننا قد أهملناه إلى أقصى درجة ونسينا على نوع ما بأن لنا عقلاً. ولكن إذا رأى أحدنا في الدكاكين والمخازن لباساً مطرزاً أو قنديلاً مذهباً أو مقعداً من الأطلس أو سريراً منقشاً أو قطعة من الجواهر والحلى يبادر بالحال إلى تقبيض ثمنها واعداً نفسه بأن يفتخر بها على أقرانه. وهكذا كل منا يعتني الاعتناء الزائد في تقديم الأغذية الغزيرة والمشروبات الكثيرة مع الكلفة والمصروف على مائدة الجسد المزينة بالأواني الفضية والذهبية والبلورية. وأما العقل فقَلَّ من يفتكر بأن يكسيه وقلَّ من يعتني في قوته ومائدته اللذين هما العلم والكتب. فإن من يوجد عنده مكتبة تحتوي على خمسمائة مجلد في بلادنا هو نادر جداً وان كانت تلك المكتبة لا تساوي من الغروش أكثر من العشرة آلاف مع أن عدداً كبيراً منا يصرف على أواني وأوائل سفرة الطعام أضعاف هذا المبلغ. أليس ذلك أكبر دليل على إهمال العقل. فإهمالنا العقل هو ناتج من جهلنا فضله ومقامه حال كون جهل فضل العقل وعدم الاعتناء به مما يورث البلاد مصائب ورزايا عديدة كالفقر وقلّة الصنعة وقلّة المحاصيل ووقوع المخاصمات الأهلية ومقت العيشة وعدم الراحة والرفاهة إلى ما لا نهاية له، وسوف أذكر ما يستنتج منه البرهان على ذلك.

ولنأتي الآن إلى بيان احتياجات العقل إلى متى تمَّ الاعتناء بها والجهد بتحصيلها صار العقل خصباً وأعطى أثماراً لا تعدُّ ولا تحصى لأن العقل حريٌّ بأن يشبه ببستان كل ما زاد اعتناء صاحبه بحرثه وسقيه زاد محصوله من الأثمار والبقول بأضعاف ذلك. فأقول إن بلاد أوروبا التي هي الآن مركز لسيادة العقل وتسلّطه ومظهر لشأنه واقتداره وبرهان على سمو فضله ومقامه تصطلح في تهذيب العقول على ما يأتي من الأصول: **أولاً** يبتدىء الأولاد من سن الخمسة إلى السبعة سنين في تعلم لغتهم أي القراءة والكتابة وأصول اللغة وما أشبهه ثم المعاني والبيان مع فن الانشاء. ثم العروض وأوزان الشعر مع فن القريض ثم الفصاحة والمنطق وعلم اللغة اللاتينية واليونانية وبعض اللغات الغربية. ويتدرجون على ذلك مدة ثمان سنوات فيها يدرسون أيضاً مع ما تقدم بيانه علم التاريخ وينقسم إلى أربعة أقسام: **أولها** التاريخ القديم وله جملة فروع منها التاريخ المقدس أي التوراة وتاريخ المصريين وتاريخ اليونان وتاريخ فارس وتاريخ الرومان. **ثانيها** تاريخ القرون المتوسطة ويشتمل على تواريخ جميع الأمم الشهيرة منذ سقوط سلطنة الغرب الرومانية في سنة ٤٧٦ للمسيح حتى فتوح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ومن جملتها تاريخ الأمة العربية وحروب الصليبيين، الخ. **ثالثها** تاريخ القرون المتأخرة وهو أيضاً يعم جميع الأمم الشهيرة منذ فتوح القسطنطينية حتى الانقلاب الذي حصل في فرنسا سنة ١٧٨٩. **ورابعها** التاريخ الحديث وهو تاريخ العالم منذ الانقلاب المذكور إلى أيامنا الحاضرة. وعلم الجغرافية وأقسامه وعلم قواعد الحساب وعلم الجبر وعلم المساحة وأقسامها (والفضل إلى جناب الحكيم كرنيليوس فانديك وجناب المعلم بطرس البستاني بإدخال هذه الأربعة علوم إلى المدارس العربية مع أن الجبر هو اختراع عربي ولكن حوادث الدهر كانت قد نسخت وجود هذه الكتب من بلادنا) وعلم الفلك وأقسامه وعلم الطبيعيات وينقسم إلى عدة أقسام كل منها علم قائم بذاته كالميكانيك أي ما يتعلق بالآلات، والحرارة، والأبتيك أي ما يتعلق بكيفية النظر والألوان، والاكوستيك أي ما يتعلق بكيفية السمع والأصوات، والبرق والكهرباء، وعلم الكيمياء أي تحليل وتركيب الأجزاء وأغلب العلوم والصنائع تستقي من هذا العلم كالطب والزراعة وعلم الصحة وعلم استخلاص المعادن،

الخ. ثم علم تاريخ الطبيعة ويشتمل على معرفة الحيوانات والنباتات والمعادن وعلم الجيولوجية أي البحث عن طبقات الأرض والمواد المركبة منها، الخ. وعلم التكنولوجية وهو علم حديث في الأسماء المتعلقة بكامل العلوم والصنائع والشرح عن كافة الأعمال الصناعية، الخ. وعلم الارشيولوجية أي ما يختص في عوائد وطباع الأقدمين وأبنيتهم. وعلم تدبير المنزل أو بالحري التوفير السياسي كما يسميه الإفرنج لأنهم قد وسعوا دائرته عن ما أدركه سلفاءهم وعلم الموسيقى والأغاني. وفن السلاح أي كيفية استعماله، الخ. وبعد مرور تلك الثمان سنوات تتعلم الشبان ما وراء الطبيعيات والفلسفة ومن علم الشريعة ما يقتضي لكل امرىءٍ تعلمه لأجل معرفة حقوقه المدنية ثم ينتقلون إلى المدارس الكلية فيتعاطون دروس العلوم العملية والفنون كالطب والشريعة والهندسة والملاحة أي أسفار البحر والزراعة والتجارة والصنائع المتعددة والفنون الحربية، الخ. فها قد أوردت بالاختصار ما يقتضي أن يتعلمه الإفرنج لكي يقال عنهم أنهم أتموا علمهم فأين الفرق من هذه العلوم التي ينبغي لها انصباب الشبان على الدروس مدة إثني عشر عاماً إلى ما يتعلمه الشبان في بلادنا.

ومن جهة أخرى إذا وجهنا النظر نحو بلاد أوروبا بوجه العموم لا سيما في المدن نراهم على الدوام ملتفتين إلى العقل واحتياجاته ومهتمين به بأكثر من اهتمامهم بما سواه بعد انقضاء مدة التعليم أيضاً فإنه يوجد في كل فن وفي كل علم مئات أو ألوف من المصنفات التي يبادرون إلى مطالعتها. وكل ما طُبع تأليف جديد يهرع الجميع إلى ابتياعه بأي ثمن كان. فهناك تُرى في المدن الكبيرة على الخصوص ألوفاً من مخازن الكتب التي لا يعتري سوقها الكساد ولا يتشكى أهلها من عدم النفاد فضلاً عن المكاتب العمومية التي تحتوي على مئات ألوف من المجلدات جميعها تنتظر مطاليعها وهم يأتون كل يوم من كل فجٍّ لأجل المطالعة والنسخ. ويسوغ لي هنا أن أذكر شيئاً من نظم الصاحب الفاضل فرنسيس مراش في كتابه النفيس المسمى برحلة باريس عن المكتبة العامة.

ها قد نهينا الآن هذه المرتبة — وقد تقرَّبنا لدار المكتبة
هيَّا إليها فهي دار معجبة — فيها نرى كيف انصباب الكَتَبة
وكيف مجرى العلم في ذا القطرِ
هنا نلاقي ألف ألف قطعة — من كتبٍ كتابة أو طبعة
جامعة الألسن ذات السمعة — وكل تصنيف سنيّ اللمعة
لا سيما مصنفات الشعر
فالعين لا تنظر في ذي الدار — شيئاً سوى انكباب رأس القاري
كذاك لا تسمع أذن الساري — سوى خشيش الكتب الكبار
وصلصلات القلم المصر

وأما الصحف اليومية، والمجلدات الاسبوعية والشهرية فهي مما لا يدخل عدده بالحصر ولا يوجد أحد إلاَّ ويطالع البعض منها من ذوي المراتب العليا إلى الجزارين والحمالين والخضرية وما دونهم. وبالاختصار ان الجميع يقدمون قوتاً يومياً للعقل حتى العمي والصم والبُكم بالوسائط التي اخترعت لأجلهم. وأما الجمعيات والشركات العلمية والأدبية فكثير عددها جداً ولا يوجد أحد إلاَّ ومشترك بأحدها سوى ما ندر وأعرف منها في بلاد الانكليز التي عدد مشتركيها يزيد عن الألفين فلا يمكن لمن لم يرها أن يتصور حالة الترتيب والانتظام التام التي هي بها ولا شك انه من جراء الالتفات إلى العقل ومعرفة فضله حق المعرفة وتقديم القوت الدائم له قد أصبحت بلادهم زاهية زاهرة غامرة في المجد عامرة. فهناك الغنى والثروة، هناك الحب والاتفاق، هناك الراحة والرفاهة، هناك الترتيب

والنظام، والشرف وعلو المقام، والطرق السالكة، والترع المفتوحة، والسهول المغشاة بالزرع والنبات، والسكك الحديدية، والشرائط البرقية، برية وبحرية. وما ذلك جميعه إلاّ من نتائج العقل وأثماره. وأما إذا أهمل العقل ولم يعط قوتاً كافياً فكيف يثمر. وهل لا يقع به اليبس كالشجرة التي يقطع عنها الماء فتيبس وليس أنها لا تعطي ثمراً بل ولا زهراً ولا ورقاً. فما قد تقدم ايضاحه هو كافٍ للاقناع بأنه ينبغي عدم اهمال العقل بل مواظبته وملاحقته بلا فتور لكي تجنى أثماره.

فإذا نظرنا إلى بلادنا بالمقابلة إلى البلاد الافرنجية من حيث الزراعة والتجارة والصناعة بوجه العموم نرى بأنها لا تحصد من ثمار العقل إلاّ شيئاً يسيراً بالنسبة إلى ما تحصده أوروبا فإنها مثلاً لإهمالها علم الكيمياء تحتاج أن تطلب من أوروبا أشياء كثيرة من لوازمها الضرورية كالأدوية والعطورات وغيرها. ولاهمالها علم الميكانيك تلتزم إلى استحضار ما يقتضي لها من الأوائل من أوروبا أيضاً. ولاهمالها العلوم المتعلقة بالصنائع تضطر إلى استجلاب جميع أصناف المنسوجات من الخارج. ولاهمالها علم الملاحة لا يوجد لها مراكب في البحر ولا ملاحون ماهرون. ولاهمالها فن الزراعة تتكلف كثيراً من المصروف على الأراضي المزروعة ولا تستغل بنسبة ذلك فتهمل الزراعة لعدم الادارة ولأنه ينتج منها عوض الربح خسارة وكم من أشياء أخر تنقص في بلادنا وسبب ذلك اهمال العقل. وربما ظن البعض بأنه نظراً إلى ضيقة رأس المال لا يوافق اتلاف جانب كبير منه على العقل. فهذا لا شك أنه ظن من يجهل فوائد العقل. لأن الولد الذي بعد اتقانه العلوم الضرورية يُرى عنده الاستعداد الكافي لتعلم فن الشريعة مثلاً. لا ريب انه إذا تعلمه سيبرع به كما يبرع الافرنج وربما زاد عنهم نظراً لما يعهد من جودة القرائح الشرقية وهكذا لا يمضي قليل من الزمان إلاّ وقد عوض اضعاف ما بذل لأجله من المال وكذلك من يتعلم الزراعة وهي الأهم والطب والجراحة والهندسة العملية والملاحة والكيمياء وغير ذلك.

ثم اننا إذا تركنا الصالح جانباً واعتبرنا فقط اللذة التي يجدها الانسان في المطالعة نرى انها تستحق ان تصرف بها أوقات الفراغ وأن يصرف لأجلها ما يفيض من الدراهم عوض أن ينفق في ما لا يجدي نفعاً بل ربما يجلب ضرراً. سيما انه مع اللذة توجد الافادة. فكم من كتب إذا طالعها الانسان يلاقي بها من جودة الأفكار وغرابة الابتكار ما يسرُّ العقل ويبهجه. وكم أخرى تحتوي على مبادىء العلوم التي لا يستغني عنها مبسوطة معانيها لدى القارىء بأوضح بيان وأجلى تبيان بحيث لا يحتاج معها إلى أستاذ غير المثابرة والانتباه. هذا وإن العادة لا ينكر تأثيرها في المرء. فمن يرجح فوائد العقل ولذاته. ويقرّ بأنه مقصرٌ عن واجباته. فليخلع عنه ثوب الكسل المشين. وليشمّر عن ساعد الجد المتين. وليفرغ في المطالعة والدرس أوقاتاً قليلة مفضلاً على ما دونها هذه اللذة الجليلة. فتقبل العادة إلى لقياه. وتخفف عنه عناه. فيظفر بمناه. ويكتسب ثناء العقل ورضاه. ولم يطل عليه الأمر إلاّ وقد جنى أبهج الأزهار وأينع الأثمار. وكلل بأكليل الشهرة والاعتبار.

وما أحسن قول الشاعر:

ما الفضل إلاّ لأهل العلم إنهم	على الهدى لمن استهدي أدلاءُ
وقيمة المرء ما قد كان يحسنه	والجاهلون لأهل العلم أعداءُ
فقم بعلمٍ ولا تبغي بهِ بدلاً	فالناس موتى وأهل العلم أحياءُ

وقوله أيضاً:

حرِّض بنيك على الآداب في الصغر	كيما تُقر بهم عيناك في الكبرِ
وإنما مثل الآداب تجمعها	في عنفوان الصبا كالنقش في الحجر

هي الكنـوز التي تنمـو زخـائـرهـا ... ولا يخـاف عليهـا حـادث الغِـيَر

ثم اني اختم خطابي بتقدمة الشكر لهذه الجمعية التي سيحصل منها إن شاء الله فوائد قويَّة. فإنها تسدّ من العقل أقوى احتياجاته نظراً إلى تأخره في هذه البلاد وقهقراته. فقط يقتضي أن لا يفارقنا الصبر. حتى نغتصب النجاح من يد الدهر وقد قال الشاعر:

إني وجـدت وفي الأيـام تجـربـةً ... للصبـر عـاقبـة محمـودة الأثـرِ
فقـلَّ من جـدَّ في أمـرٍ يـطالبـهُ ... واستصحب الصبر إلاَّ فاز بالظفرِ

وأيضاً:

اصبـر قليـلاً فبعـد العسر تيسيـر ... وكـل أمـرٍ لـه وقت وتـدبـيرُ
والمهيـمـين في حـالاتـنـا نـظرٌ ... وفـوق تـدبـيـرنـا لله تقـديـرُ

الخطبـة التـي تلاهـا الخواجـا موسـى يوحنـا فريـج في الكـلام على التمـدن

[المجموعة الثانية من أعمال السنة الأولى. ص ١٤ - ٤٤].

١ - براعـةُ الاستهـلال

لمَ انكمـادكمُ بـالأمس زادَ لمـا ... واليـومَ ثغـركمُ قـد عـاد مبتسـما
مذ لحتمُ راق لي توريد وجهكمُ ... كـأنـهُ بيـدِ الأفـراج قـد لـطما
هيَّا اخبروني أرى في ربعكم عجباً ... فبشروني أديروا الكأس يا نـدما
مذ جئتكم طار قلبي فيكُم فرحاً ... لذاك رحت ولا أدري الذي علما
الآن خمـرٌ غـداً أمـرٌ سنـدركـه ... فهـا استعـدوا لقـولي أيهـا العلما
بـأي لُسنٍ أتـيتـم في مكـالمتي ... أبدي الجميل بها فاستنطقوا الكلما
كم من لسانٍ لبث الشكر ألزمني ... نحو اجتماعٍ له قد صرت ملتزما
وافي الهناء فهُنا لُسنٌ بـهِ نطقت ... وباتَ ثغرُ الحمى بـالسعدِ ملتثما
حتى الإشارةُ قد عادَ الكلامُ بها ... إن المسـرَّة حينـاً تلزمُ البـكـما
عمَّن أشـيرُ فلا زيـدٌ ولا عمـرٌ ... ومَن أدلُّ عليـهِ ذاك ليس همـا
مهلاً عليكم عليكم فانعشوا كبدي ... ها قد أتيتُ حماكم التقي النسما
أهدي اليكم فؤادي فابعثـوه إلى ... قـطر التمـدنِ فيه ظـلّ منغـرمـا
هاالعلم في طربٍ والجهل في كربٍ ... والعصر من ذهبٍ والفخر فيه كما
أيـامكم بـربيـع العلم مخصبـةٌ ... فارعوا بها نوقكم والخيـل والغنما
راق الزمان بحلم الحكم منبسطاً ... هذا ضجيج الدعاء نحو السماء سما
والله أنتم عـلى رغدٍ عـلى نعمٍ ... بالسلم والأمن فادعوا واحفظوا الزمما
من التمددِ سطرٌ ضمن طـرسكُم ... يُغني عن الوصلِ عنوانٌ بهِ ارتسما
هيَّـا اخفـوهُ لعيني أن تقـر بـهِ ... من بعد تعكيرِ دمعٍ بالجفونِ همَا
هيجتمُ الوجدَ حتى صاحَ مغرمكم ... بذا المساءِ وغنى فـاسمعوا النغما

الله أكبر قوموا صفقوا طرباً وثغركم آيةَ الاقبال قد لثما
الحمد للّهِ وجهُ العصر بشَّ لنا لذاكَ ثغركُم قد عادَ مبتسما

٢ - المقدمة

والحمد والشكر لمن أبدع الانسان، وميزه بالنطق عن الحيوان، الذي رتبَ للمخلوقات شرائع، ولكل شريعة منافع، يقوم الكون عليها، وجميع الحوادث تُفضي إليها، الحكيمُ العليمُ، الذي بسط اليابسة ومدها، ولنا قد أعدها، فاصلاً بين الأقاليم والبلاد، جاعلاً لكل وسائط فعالة ومواد، لنجاح الأماكن والعباد، غارساً في الانسان حمية الأصل والوطن، كي يبذل الجهد في العلوم والمهن، لتقدم بلاده، بثبات اعتماده، ويبسط يد الاجتهاد، لاقتباس كل ما من شأنه أن يعمر البلاد، البصير الخبير، الذي عوَّد الانسان على الائتلاف والاجتماع، لاقتطاف ما بدونها لا يستطاع، أما بعد فهذا خطاب موضوعه التمدن، جعلته قريحتي الضعيفة، تقدمة لجمعيتنا هذه المنيفة، يبحث فيه أولاً عن ماهية التمدن ومنافعه، وثانياً عن أصله وتاريخه، ثم ثالثاً وأخيراً عن الوسائط للتوصل إليه، قاصداً فيه نجاح وطننا المحبوب، مظهراً لذلك الأسلوب، وإن لم أكن أهلاً لهذا الميدان، فالقصد جيد وحب الوطن من الايمان.

ولو كان الخطيب قصير باع، فمهلاً يا عزيز عن الملام لأني عاشق وطني المفدَّى، وهذا العشق من شيم الكرام ولهذا أرجو يا أيها السادة المعذرة وعدم الملل، مما سأعثر به من التطويل والزلل، والله سبحانه المستعان في القول والعمل.

أولاً - في ماهية التمدن ومنافعه:

إن التمدن هو انتظام الهيئة الاجتماعية، لأن هذه الهيئة تشتمل على كل اجتماع بشري، جزئياً كان أم كلياً، وهكذا تكون قد عمت جميع الناس القاصدين العيشة مع أمثالهم، والاشتراك في أعمالهم، فيخرج عن ذلك الذين يقصدون الانفراد، ويرغبون الابتعاد، إذ إنهم يلتجئون إلى البراري المقفرة طالبين الفرار، من العالم والديار، فإنهم عائشون، ولكنهم عن العالم مائلون، إذ لا نفع منهم ولا ضرر، فيحسبون صفراً في اجتماع البشر، أما ما سوى هؤلاء من الناس، فإنهم يحتملون قبول التمدن وعدمه، إذ إنه لا بد لهم من الدخول ضمن دائرة الهيئة الاجتماعية وتأثرها منهم، ولما كانت الهيئة الاجتماعية في بلاد ما مركبة من جميع أشخاص تلك البلاد، الكائن بينهم تبادل الأفكار والأعمال، وكان نظام هذا التبادل متوقفاً على حسن الأفكار والأعمال أفراداً، وهذا على اتقان العلوم وانتشارها، وحسن الآداب وامتدادها، وكان جميع ذلك أسباب نظام الهيئة الاجتماعية، قلت إن التمدن هو انتظام الهيئة الاجتماعية، فإنه الطريق الوحيد المؤدي إلى تقدم ونجاح البلاد، وعليه بالحقيقة نتيجة انتشار المعارف والفنون والآداب بين العباد، كيف لا وهو نظام الإلفة والاتحاد، وعدو كل ما يؤول إلى الضرر والفساد، لأن العلم به ينتشر، وجلباب الجهل ينفطر، به تحصل الملوك على النصر، والعباد على الفخر، به الأمن يقوم، والسفن تعوم، به الطرق الصعبة تتسهل، وراحة العموم تتحصَّل، به العائلة تكثر وتنمو، والصنائع تزهو وتسمو، به التجارة تمتد، وقوة الزراعة تشتد، إذ ان الوسائط لذلك توجد ، والصعوبات تفقد، أما بدونه فيكون خراب الأمور، وتوحش الجمهور، بدونه ضعف الممالك والشعوب، بدونه اضمحلال الوطن المحبوب، بدونه التجارة تضعف، بدونه غصن الزراعة يُقصف، بدونه السهل يتصعَّب، بدونه النجاح يتجنب، بدونه امتداد الغباوة والجهالة، بدونه

الزيغان والضلالة، لأن بدون الاجتماع، تفسد الطباع، والاجتماع الغير المنتظم، يفضي إلى الندم، ويورث زلة القدم، فإنه سبحانه وتعالى خلق الانسان، وعلّمه البيان، فرتب كلاً بمكين، لنظام الهيئة الاجتماعية، وتحسين الإلفة الجمهورية، ولهذا أوجد في غريزتنا محبة أمثالنا، ورغبة اشراكهم في أعمالنا وآمالنا، لأن الكون على الاجتماع قائم، وتحسينه أمر مهم وملائم، فكم وكم من الشعوب المتبددة آثارها في عواصف الأهوال، قد حُفظ ذكر مجدها كالبدر في سائر الأجيال، وليس ذلك إلّا بسبب التمدن، هكذا مثلاً شعب العرب لقد فاح عرف طيبه في سائر الأزمان، وصار علَماً يشير إليه التاريخيون بالبنان، ولسببه حُسِدّ القرن التاسع من سائر الأقران، كيف لا وقد اتصل العرب من التمدن إلى درجة عليا، فنالوا بها من المجد والفخر الغاية القصيا، إذ إنهم اشحنوا المكاتب، وصعدوا إلى أعلى المراتب، اسماء علمائهم انتشرت في فلك العلم كالبدور، ورائحة معارفهم فاحت في كل قطر كالزهور، ما لي وذكر أولئك الآنام الشهيرين، الذين فضل علمهم لا ينتسى إلى يوم الدين، ما لي أن أذكر الخليفة أبا جعفر المنصور، الذي بواسطة حكمته قد انتظمت أمور الجمهور، أو خلفاءه محمد المهدي والمأمون ووالده هارون الرشيد، الذين بذلوا لنجاح العموم السعي المزيد، ما لي أن أذكر يحيى ابن أبي المنصور والبحتري، علي بن عيسى وابن يونس والعباس ابن سعيد الجوهري، الذين نالوا من عالم العلم ذكراً وفخراً، إذ انهم كشفوا له عن الأفلاك سترا، وكذلك أبو اسحق وأبو الوفا ، أعلنا من الحساب ما كان اختفى، وأحمد بن موسى وثابت ابن قرّة وحسن بن حاتم، سهَّلوا ما كان قد تصعب من الجبر والمقابلة على كل عالم، وأبو جعفر الكوفي وأبو بكر الرازي، اخترعا في علم الكيمياء ما كان مجهولاً في الزمان الماضي، أما في علم الأبدان، فحنين بن اسحق وجبريل بن بختيشوع وأبو علي ابن سينا علـوا جداً على أمثالهم في سائر الأقران، ما لي أن أذكر وأعدد الأسماء، من كثيرين من الأفاضل والعلماء، الذين أبدعوا من العلوم سحراً، وكشفوا عن كل غامض سترا، الذين أطنبوا بالفصاحة والبلاغة، وتعمقوا في جميع العلوم بالبراعة، الذين كانوا لتمدن زمانهم أقوى سبب، والمثل بعلمهم وغيرتهم انضرب، ما لي أن أردد على أفكاركم يا معشر الأكارم ذكر ذاك الزمان، زمان العلم والاكتشافات، زمان السعي في سعادة الجمهور زمان الاهتمامات، الزمان الذي كان سبباً لحفظ تمدن العالم بأسره، وكان ينبغي أن يكتبه بالذهب المؤرخون الذين تعرضوا لذكره، زمان به كانت المكاتب مزهرة، وليالي العلم مقمرة، به كانت المدارس تتشيد، والاختراعات تتقيد، زمان أهل تمدنه العرب الذين أوجدوا من الاختراعات عددا، منها علم الكيمياء فإنهم قد كانوا له سندا، منها ورق القطن والبارود والأسلحة النارية، منها البوصلة والأنبيق واختراعات أخرى جوهرية، ذات أهمية ونفع وافر، لا يسعني لتعدادها الوقت الحاضر، وهذا ما نصه المعلم سيديليو الفرنساوي عن هذا الصدد في مؤلفه تاريخ العرب إذ قال: وهكذا تمدن العرب قد أثّر في جميع فروع التمدن الحاضر من القرن التاسع إلى الخامس عشر، قد تألف مجموع علوم أدبية يُعدّ من أعظم علوم البشر، فالنتائج العديدة، والاختراعات الثمينة، تُعلن لنا نشاط عقول ذاك الزمان السعيد، وحال كونها مظهرة الآن في الأوروبا مفعولها تحقق القول بأن العرب قد علمونا كل شيء مفيد، فأولاً وجود مواد ثمينة جداً لقيام تاريخ القرون الوسطى وروايات أسفار عديدة، ومجموعات السيرة الجمهورية النافعة، وثانياً وجود صناعة لا نظير لها وأبنية أفكار وأعمال سامية مع اختراعات مهمة في الفنون يظهر بإزاء أعينا هذا الشعب المحتقر من زمان مستطيل للغاية، انتهى. إذاً إن كان لشعب العرب اسم، إن كان لهذا الشعب علم، إن كان له ذكر، إن كان له فخر، فبسبب تمدنه. أما الآن فإذا أمعنّا النظر في هذا الشعب المعتبر الذي كان لتمدن العالم دستورا، الذي أعطى عالم العلم جمهورا، نرى العرب في ظلام مريع بالنسبة إلى ذاك المجد الرفيع، لا ذكر لهم ولا أسماء، لا فن بهم ولا علماء، لا مكاتب مزهرة، ولا مدارس مثمرة، لا اختراعات، ولا اهتمامات، فإنهم قد أضحوا من

عقول البشر في دائرة النسيان، واسمهم عاد محتقراً بين الشعوب في كل مكان، إذاً فما هو سبب كل ذلك؟ وما هو هذا الظلام الحالك؟ يا أيها التمدن هنيئاً لمن تصاحب، وتباً لم لا تقارب.

ثانياً - في أصل التمدن وتاريخه:

بعد الفحص عن ماهية التمدن ومنافعه يجب علينا أن نبحث عن أصل هذا التمدن النافع وتاريخه فنقول:

إنه أول جواب يعطيه العقل الثاقب لمن سأل عن أصل التمدن هو العلوم والفنون والآداب لأنه كما أوضحت آنفاً هو نظام تبادل الأفكار والأعمال عند شعب ما أو بالحري نظام الهيئة الاجتماعية هي التمدن. وبما ان نظام هذا التبادل هو متوقف على نظام أفكار وأعمال كل من هذا الشعب خصوصاً. وإن نظام أفكار وأعمال الخصوص هو متوقف على انتشار العلوم والفنون والآداب قلت بالصواب: إن أصل التمدن هو العلوم والفنون والآداب، وبما أن الفنون هي نتيجة العلوم إذ انها مؤسسة عليها هكذا مثلاً فن الموسيقى هو نتيجة علم الطبيعيات إذ ان هذا العلم يبحث عن الأصوات وأنواعها. وفن التصوير هو نتيجة علمي الهندسة والكيمياء إذ ان ذاك يبحث عن قياس الأجسام عموماً وهذا عن تركيب الألوان ومفعوله وبما إن الآداب هي أيضاً نتيجة العلوم إذ ان هذه تظهر للانسان الفرق الكائن بين الجيد من الأمور وعكسه وهكذا يكون سبب وجود الآداب المؤسسة على معرفة الجيد هو العلوم. ولذلك أقول: إن أصل التمدن هو العلوم. وبما إن سائر العلوم تنحصر في علم الفلسفة أي الحكمة الذي هو أساسها إذ لا علم إلاَّ وقد توصل إليه بواسطة الفحص العقلي الذي هو موضوع هذا العلم الشريف أقول بالحصر: إن الحكمة هي ينبوع التمدن. وبالنتيجة التمدن نظراً لأصله هو تلك المبادىء الحكمية الموهوبة لعقول الأولين من البشر. وبما انه قد اتصل الآن إلينا أي إلى الزمان الذي نحن فيه يكون بلا بد صنيع جميع الشعوب إذ انه انتقل من يد إلى يد متسلسلاً من الأولين إلينا من دون انقطاع البتة نامياً بواسطة هذا التسلسل. قلت: أولاً - إن التمدن بالنظر لأصله هو تلك المبادىء الحكمية الموهوبة لعقول الأولين من البشر لأن لا بد لكل شيء من علة. فلا بد لهذه المبادىء التي هي اسُّ التمدن من علة. وبما إن هذه المبادىء ليست بطبيعية في الانسان بل مأخوذة بالتسلسل عن الأولين لأنه إذا أُفترض أن أناساً تربوا في القفر معتزلين عن بقية الناس منذ سن الطفولية نراهم بلا شك عديمي كل معرفة علمية وبحالة التوحش والأناس المتوحشون الذين إلى الآن في قارتي أميركا وافريقيا هم برهان واضح حسي عن ذلك فبما ان هذه المبادىء الحكمية التي هي أسُّ وأصل التمدن ليست بطبيعية لا بد لها إذاً من علة غير طبيعية ترجع إليها ومن مبدأ تتسلسل منه ولذلك قلت: إن أصل التمدن هو تلك المبادىء الحكمية الموهوبة لعقول الأولين من البشر. ثم بما اننا نرى الآن هذه المبادىء قد اتصلت إلينا لا بد إذاً من تسلسلها لنا مارة من شعب إلى آخر. وذلك مطابق للرشد إذ ان الخالق بما انه الحكيم العادل أراد ان هذه المبادىء تتسلسل إلى جميع البشر عموماً. ولو أن سلسلة هذا التسلسل انقطعت لكان يضطر الأمر لاعطائها ثانية الأمر الذي لا يطابق الرشد أصلاً. ولذلك قلت ان التمدن هو صنيع جميع الشعوب وانه قد اتصل إلينا منتقلاً من يد إلى يد متسلسلاً من الأولين إلينا بدون انقطاع البتة، وبالتالي بما انه لا بد لكل شيء من النمو هكذا جميع العلوم قد نمت وستنمو أيضاً. الحكمة التي هي أسُّ التمدن وبالنتيجة التمدن قد نما باتصاله إلينا إذ ان أصله أي الحكمة قد نما. ولذلك قلت أخيراً ان التمدن قد اتصل إلينا نامياً بواسطة تسلسله.

التـاريـخ :

ولأجل زيادة ما ذكر إيضاحاً وبرهاناً ها اننا مزمعون ان نأتي بتاريخ التمدن وكيفية تسلسله إلينا وذلك منذ الشعب العبراني إذ انه يحسب أول شعب متمدن عند عموم التاريخيين ولئن كان قد وجد قبله شعوب أخرى إلاَّ ان تاريخها باقٍ إلى الآن في الجهل والظلام غير معول عليه من أكثر التاريخيين فنقول:

إن الشعب العبراني ظهر للوجود حين خروج العبرانيين من مصر أرض فرعون فرعون تحت رئاسة موسى عليه السلام سنة ١٦٤٦ قبل الميلاد ومن ذلك الوقت أخذ الشعب العبراني في التقدم رويداً رويداً إلى أن اتصل إلى درجة قصوى من التمدن وذلك في زمان سليمان النبي الحكيم الذي كان متقلداً رئاسته سنة ١٠٠١ قبل الميلاد. فإن سليمان عليه السلام بسبب عظمته وحكمته الشهيرة فتح لشعبه أبواب الزراعة والصناعة والتجارة. فكانت جميع أجناس المعادن موجودة بكثرة في اسرائيل وكانت تتقاطر إلى سائر الجهات كما ان العلوم كانت قد امتدت في ذلك الحين بين شعب العبرانيين إذ ان ملكة سبأ أقبلت من مملكتها إلى سليمان كي تسأله عن غوامض كانت قد خفيت عنها. وينسب لهذا الملك الشهير مؤلفات عديدة في الحكمة والفصاحة محفوظة إلى الآن. ثم بعنايته أيضاً قد تشيد للعبرانيين معبد تحت اسم هيكل سليمان فإن هذا الهيكل الذي لا نظير له كان مزخرفاً بالمعادن الذهبية والفضية بما يفوق الوصف. وبالاجمال أقول إنه في القرن العاشر قبل الميلاد قد لمع برق تمدن نوره ساطع. أما بعد موت هذا الملك العظيم الذي كان قد امتد اسمه إلى جميع المسكونة أخذ تمدن الشعب العبراني في النقصان إلى أنه سنة ٩٦٢ قبل الميلاد انتقل التمدن إلى الفينيقيين الذين كانوا يتاجرون مع اليهود ومنذ ذلك الوقت ابتدأ الفينيقيون في التقدم والنجاح حتى انهم فاقوا على سلفائهم. فإنه ينسب إليهم اختراع صنعة الكتابة الكلية الأهمية والوصول إلى درجة عليا من الصناعة إذ انهم كانوا يعملون المعادن ويصبغون البرفير والأقمشة بحذاقة كلية. ويصنعون الزجاج ويهتمون بأمور زراعتهم وتجارتهم. فإن تجارتهم كانت توصل أعمال صناعتهم إلى كافة الأقطار. كما إنه ينسب إلى الفينيقيين اختراعات واتقانات ومهمات عديدة تختص بصناعة الملاحة (أي أسفار البحر) أما منذ الجيل التاسع قبل الميلاد فأخذت حال تمدنهم في الضعف حتى انه في أوائل القرن الثامن سارغون [سرجون] ملك الاشوريين كتب كعادة الملوك في ذلك الزمان النص الآتي المنقول عن كتابات منقوشة على بعض آثار الاشوريين المحفوظة الآن في باريس، «عابدليت الارفاديّ وفابعال الصيداوي وميتينتي الاسدودي وكاموز وناطبي الموابي ويورامون الادومي وجميع ملوك فينيقيا احضروا لي جزية وافرة وخرُّوا أمامي»، انتهى. وهكذا التمدن انتقل من الفينيقيين إلى الاشوريين. ولئن كان تاريخ هذا الشعب غامضاً إلاَّ اننا بعد البحث الكلي نجد انه سنة ٧٢٤ قبل الميلاد ثاغلات باليزير الثالث ملك الاشوريين بعد الحروب العديدة التي انشبها ضد بلاد سوريا ومصر حين رجوعه إلى نينوى يقول عنه المعلم ريانسي الفرنساوي في المجلد الثالث من تاريخه العمومي: «إنه شرعَ في اشغال كلية وحَفَر أقنية عديدة واستجلب حيوانات نافعة وأظهر أشجاراً مجهولة. وأخيراً صرح قائلاً: ها إنني قد ضممت ممالك إلى ممالك وشعوباً إلى شعوب. قد حسنت حالة شعبي وجعلته غنياً مطمئناً»، انتهى. فما هذه الدلائل والنتائج يا معشر الأكارم سوى أدلة التمدن ونتائجه. يتضح ان الاشوريين اتصلوا إلى درجة من التمدن ليست بقليلة، وسنة ٦٢٥ قبل الميلاد سياكسار ملك العجم في حربه ضد الاشوريين هدم نينوى العظمى وضم مملكة الاشوريين إلى مملكته. ومن ذلك الحين انتقل التمدن إلى شعب العجم حتى انه حين تملك قيروش صعد الأعاجم إلى درجة عليا من التمدن. فإن المعلم ريانسي المذكور يتكلم في المجلد الثالث من التاريخ نفسه عن

نظام أمور مملكة العجم تحت قيروش قائلاً: «إن كامل المشرق أصبح في قبضة الظافر المحبوب من الله إذ ان شبكة هذه المملكة المتسعة كانت مؤلفة من مائة وعشرين مرزبانة موجودة تحت حكم ثلاثين آيالة. أما تدبير الأمور المدنية والحربية فإنه كان مسلماً إلى أيدي شرفاء المملكة الأكثر اعتباراً لأن **المرزبان والكسترايافان** لكونهم ملوكاً في آيالاتهم كانوا يفرضون الجزية ويأمرون الجيوش وينصفون بالعدل ويسهرون على الزراعة التي كانت عندهم الأكثر أهمية. ولكنهم كانوا بصفة نواب الملك لا أكثر لأنهم كانوا مثابرين على إجراء أوامره وتقديم الطاعة له وإلاّ فكلمة واحدة من هذا المتسلط المطلق كانت تكفي لتقطيع أجسادهم إرباً إرباً بأيدي حراسهم. ومع ذلك وكلاء وضباط معينون كانوا يطوفون تحت اسم «أُذن واعين» الملك في المرازبة لأجل تمكين وتثبيت أحكام الأولياء وإجراء أوامر الشاه. كما ان الاخبار المهمة كانت تمتد في المملكة من قطر إلى آخر بسرعة وذلك بواسطة التبادل الذي كان يحصل بين سعاة كل منهم معين لمسافة معلومة. أما الديوان فإنه كان المحور الوحيد لكل هذا التدبير لأن الجزية مع مالية الرعايا كانت تُورَد إلى الكرسي الملوكي والملك كان يعلم جيداً ماهية هذه الحقيقة وهي ان القوة قائمة بالاتحاد ولذلك كانت دائماً أساس أعماله. وهكذا حالما وجد ذاته متقلداً رئاسة وإدارة جميع هذه الممالك المتسعة بذل كل جهده ليوجد فيها الاتحاد. وغالباً كان هو نفسه يطوف في المملكة ساهراً على الترتيب والنظام العمومي. ومع كل ذلك كل هذه العظمة ما كانت تشغله عن معرفة آخرته لأنه كان يُشاهد على تاجه الملوكي الكلمات الآتية: «ما هي فائدة عدد الجيوش وطول الحياة لأننا سوف نُداس بأرجل خلفائنا من البشر. وكما إن المملكة قد اتصلت إلينا مارة من يد إلى أخرى هكذا ستمر إلى أيدي آخرين»، انتهى. فجميع ما ذُكر يظهر لنا تمدن الفرس في ذلك الحين وسطوتهم، أما سنة ٤٩٠ قبل الميلاد انتشبت الحرب بين الفرس واليونان وانتصر اليونانيون. وأول انتصارهم كان في موقعة مرثون وحينئذٍ انتقل التمدن مع النصر إلى اليونان حتى اتصلوا منه إلى درجة عظيمة جداً. فإنه في القرن الخامس الملقب **بقرن بيريكليس** كثيرون من العلماء الفطاحل، والفصحاء الأفاضل، تعمقوا في كل العلوم والمعارف فألقوا نوراً عظيماً على ذلك الزمان. ولهذا اليونان فاقوا جداً على سلفائهم في تلك القرون. من هؤلاء العلماء هردوط الهاليكارنسيّ الملقب بأبي التاريخ ودمستين الملقب بالخطيب دون سواه. منهم فيثاغوروس وأفلاطون وأريسطو طاليس مخترع المنطق. منهم بقراط مخترع الطب وأبيقور وكثيرون آخرون. فلليونان فضل على المتأخرين في كثير من أنواع العلوم والفنون. ولكنهم فاقوا على المتقدمين في أغلب العلوم بطرق مستحسنة وباستكشافات نافعة، أما سنة ٣٣٨ قبل الميلاد لما ظفر **فيلبوس** ملك مقدونية على اليونان فاستجر للمقدونيين أهل مملكته تمدن المغلوبين. لأن **الاسكندر** بن فيلبوس وتلميذ المعلم دمستين اليوناني رفع أهل مقدونية إلى درجة قصوى من التمدن. وهكذا استحق أن يُلقب باسكندر الكبير أو ذي القرنين فإنه شيد مدينة الاسكندرية العظمى التي صارت بعد أثينا محوراً للعلوم والتمدن. وهذا ما نصه عن الاسكندر الوزير دوروي الفرنساوي في مؤلفه تاريخ اليونان إذ قال: «إن غلَبة الاسكندر زادت في عبودية اليونان ومع حريتهم هَلِكت تلك الحركة العقلية ثمر حريتهم السالفة. فإن اليونان قد شاهدوا انتقال محور عالم الآداب إذ انهم عاينوا فرعانة والاسكندرية خليفتي أثينا وأفسوس. وأزمير خليفة قرنتيه. ثم إن بلاد اليونان ليس فقط حُكم عليها بفقد اولئك الفطاحل من العلماء والشعراء والمتفننين الذين غيثهم كان يروي رياضها الأدبية منسكباً عليها من كل جهة، بل بفقدها أيضاً كلاً من رجالها القادرين على اسعافها لنظام الحكومة الغربية إذ ان وظائف حكومة المشرق الفاقدة الأهمية كان اليونان ملتزمين بالقيام بها. وهكذا كل روح. كل دم كريم. كل علم. كل سعي. قد حكم على بلاداليونان بفقده. حكم عليها بفقد الحياة لاعطائها إياها ثانية إلى جماعة اليونان المستقرين في آسيا وافريقيا. لأن الشعر انتقل إلى سيسيليا وسيرينا ثم فُقِد.

الصناعة والفصاحة انتقلتا إلى رودس الفلسفة إلى شاطىء النيل. أما العلوم فإلى سيراقوزا»، انتهى، وسيرقوزاقصبة سيسيليا أضحت بعد الاسكندر محور التمدن، فإنه سنة ٣٢٣ قبل الميلاد حين موت هذا الملك العظيم أخذ تمدن أهل مقدونية في الضعف وأزهر تمدن أهل سيسيليا فأثمر في القرن الثالث قبل الميلاد إذ ان أرخميدس الشهير الذي أوجد في الحسابيات اختراعات نفيسة وعديدة كان يفعل أموراً غريبة مع الرومانيين محاصري سيراقوزا في ذلك الحين. فإنه كان يُنهض سفنهم ثم يزجها في الغمر أو يحرقها عن بعد بواسطة آلات عجيبة كان يخترعها، إلّا انه حين تغلّب الرومانيون على أهل سيسيليا سنة ٢٦٤ قبل الميلاد وقُتل هذا المعلم البارع انتقل التمدن إلى الظافرين. لأنه من ذلك الحين ابتدأ الرومانيون في التقدم والنجاح حتى انهم فاقوا على سلفائهم في التمدن. فإن شيشرون رب الفصاحة عند الرومانيين. وفيرجيليوس وكثيرين من الفصحاء والمعلمين أفاضوا على هذا الشعب غيث المعارف والعلوم حتى انه تحت اغوسطوس قيصر اتصل الرومانيون إلى درجة قصوى من التمدن. لأن هيئتهم الاجتماعية كانت على أحسن نظام. كيف لا والعلوم كانت منتشرة. والفصاحة مزدهرة. فإن الفصحاء من الشعب كانوا يخطبون في الأزقة والشوارع. وكان الشعب أجمع لكلامهم صاغياً وسامعاً. وأمورهم الحربية كانت مرتبة على أحسن مرام. وهكذا بواسطة تمدنهم امتدت سلطتهم إلى المسكونة. أما صناعة الرومانيين وتجارتهم فكانتا على أحسن نظام. إذ ان متجرهم كان ممتداً من الأوقيانوس إلى نهر الفرات. فالاسكندرية ومرسيليا وقادس وبيزنطية وانطاكية وتدمر وجزائر ناكسوس وكوس ورودوس كانوا مراكز متجرهم الأكثر أهمية. وكانوا يتاجرون بمحصولات ومنسوجات جميع تلك البلاد.

وقسطنطين الأول ملك الرومانيين جعل بيزنطية قصبة مملكته عوضاً عن رومية مسمياً إياها بالقسطنطينية. وهكذا انتقل التمدن عند الرومانيين من مملكة المغرب إلى مملكة المشرق. لأن هذه المدينة العظمى أخذت تكون محور تمدن ذلك الزمان. وعن قليل عُوضت الخسارة التي كانت قد التحقت بالتمدن لسبب الانقسامات التي حصلت بعد أوغسطوس قيصر. فإن القسطنطينية حال كونها حائزة على مركز جميل من الكرة فاقت على رومية سالفتها إذ انها غدت مدة طويلة أم المتجر الأوروبي. كما ان يوستينيانوس الذي تملك سنة ٥٢٧ للميلاد بذل السعي بترتيب قانون محتوٍ على شرائع بلاده. إذ انه رتب لذلك اناساً متعمقين في الفقه تحت رئاسة المعلم تريبونينوس. ولذلك لقِّب القانون المذكور بقانون يوستينيانوس، أما بعد الرومانيين فالهنود كانوا الشعب الأكثر تمدناً. لأنه حديثاً أحد الفرنساويين المسمى شال اكتشف على براهين قوية يوضح بها أن الأرقام الحسابية وجدت عند الهنديين قبل العرب. وتسمية الحساب بالهندي تشير إلى نسبة أصل الأرقام إلى الهنود وإذا كان ذلك كذلك فلا بد للهنديين ان يكونوا قد اتصلوا إلى درجة من العلوم ليست بقليلة. بل لا بد لهم من أن يكونوا فاقوا على الرومانيين حتى انهم اخترعوا تلك الأرقام المهمة التي أوصلتنا إلى التعمق في الحسابيات وهكذا إلى ما نحن فيه الآن من هذا العلم المهم، وسنة ٦٥٠ للميلاد أخذ العرب في التمدن حتى انهم اتصلوا إلى ما ذكرته آنفاً. فلا يلزم تكراره هنا، وسنة ٧١٠ حين دخول العرب مملكة اسبانيا امتدت أشعة العلوم إليها وأخذت في التقدم والنجاح حتى انه في الجيل الحادي عشر حينما كان عرب أهل المشرق في حالة الضعف والنقصان كان تمدن عرب المغرب أي اسبانيا في حالة النمو والنجاح. لأن العلم كان منتشراً في تلك الأقطار. إذ ان النحو والصرف والشعر، والطب وعلم الفلك والجبر، والجغرافيا وعلم الطبيعيات، والكيميا والهندسة والحسابيات، كانت موضوعاً للتعليم في مدارس العرب. فإن مدينة قرطبة عاصمة الاندلس كانت محتوية على مليون نسمة وعلى عدد وافر من المدارس والمكاتب ومآوي الغرباء والجوامع. كما إن الزراعة والصناعة والتجارة كانت في اسبانيا على أحسن حال. فإن العرب في

المغرب شيدوا معامل عديدة، واستخرجوا معادن ثمينة، وأوجدوا في الأوروبا أشجاراً غريبة. كما أن كثيرين من المعلمين الشهيرين ظهروا في ذاك الحين. منهم: علي بن رضوان، والمليحي، وعبدالرزاق، والشيخ علي الاشبيلي، وابن هاني، وابن خلوف وغيرهم. وهذا ما نصه عن هذا الصدد الأب داربو في مؤلفه تاريخ فرنسا والقرون الوسطى إذ قال: «إن خلفاء مدينة قرطبة فاقوا على خلفاء بغداد في بذل الجهد لتحصيل العلوم والفنون. وهكذا أضحت بلاد اسبانيا هي الأحسن صناعة والأكثر غناء بين بلاد الأوروبا. فإن أرضها أعطت بواسطة الزراعةمحصولاتوافرة. لأن مناخ البلاد وافق جداً المزروعات الغريبة التي أستجلبت إليها واستناداً على ذلك أضحت الصناعة والتجارة لأهالي البلاد ينبوع غناء غير منقطع. أما مدينة قرطبة فإنها غدت محوراً للعلوم والفنون إذ انها كانت محتوية على سبعين مكتبة وسبع عشرة مدرسة لاقتطاف الفوائد عند الشعب. كما ان جمعية مؤلفة من علماء البلاد كانت توضح ما كان قد غمض من المسائل العلمية. وهكذا مدن عديدة تبعت آثار العاصمة فأخذت العلوم والفنون بالنمو المتساوي في كل تلك البلاد. أما أهل المغرب فقد تأثروا ضرورة من وجود نور ساطع بهذا المقدار بالقرب منهم. ولهذا يكون للعرب الفضل العظيم في تمدن الأوروبا»، انتهى. أما بعد فخلف الاسبانيوليون العرب حين ضعفهم في التمـدن وذلك منذ الجيل السادس عشر من الميلاد. فإنهم اكتسبوا كل ما كان عند العرب من علوم وفنون وآداب حتى انهم جعلوا بلادهم مركزاً لتمدن ذاك الزمان المركز الذي انبثقت منه أشعة تمدن الأوروبا بأسرها. وذلك حين تسلط فيلبوس الثاني ابن كارلوس الخامس الذي شيد دير اسكوريال الشهير ذكرى لموقعة سين كانيين سنة ١٥٥٧ لكي يفي نذراً كان عليه. وهذا الدير العظيم كان محتوياً على سبع عشرة دائرة مع بساتين عديدة وبحيرة متسعة وعلى تصاوير ثمينة ومكتبة شهيرة غنية جداً في الكتب العربية وعلى قبور عظيمة لملوك اسبانيا ثم ان هذا الملك الشهير هو الذي جعل مدريد عاصمة بلاد اسبانيا، وفي أوائل الجيل السابع عشر سنة ١٦١٠ استجر الأوروبيون التمدن إليهم فحصلوا على أعلى درجة من التمدن إذ ان لغاتهم أخذت وقتئذٍ أن تنتشر في العالم كله وأضحوا الأكثر تمدناً على وجه الكرة الأرضية. فها إننا نرى لهم الاختراعات العديدة، والاهتمامات المزيدة؛ الطرق الحديدية، والاشائر البرقية، الغنى الوافر؛ والاقبال الزاهر؛ العمارات المشيدة، والشرائع المقيدة؛ المكاتب والمدارس، والمعامل والمجالس؛ القلع الحصينة، والسفن المصفحة المتينة؛ الجيوش القادرة؛ والاسلحة القاهرة. أما علماؤهم ومعلموهم، فصحاؤهم ومؤلفوهم، فقد أضحوا كالشمس في رابعة النهار بين سلفائهم من العلماء الذين يحتسبون في فلك العلم كالأقمار. وبالاجمال الأوروبيون هم إلى الآن في أقصى درجة من التمدن. ومعرض سنة ١٨٦٧ الذي كان محتوياً بنوع ما على جميع ما تولد من جوهر العقل البشري هو برهان كافٍ واضح حسي للدلالة على عظيم تمدنهم الرفيع.

فها إننا قد سردنا بالاختصار. تاريخ التمدن في سائر الأعصار منذ الشعب العبراني إلى الآن فوجدناه كالسلسلة المركبة من حلقات معلومة كل منها أوسع من سالفتها. فإن الحلقات المركبة منها سلسلة التمدن هي الشعوب المذكورة تتابعاً، وتمدن كل من هؤلاء الشعوب هو أعظم من تمدن سالفه.

ثالثاً وأخيراً - في الوسائط للتوصل إلى التمدن:

أما الآن يا أيها السادة، فإنه يجب علينا البحث عن الوسائط الفعالة التي بواسطتها نقدر على التوصل إلى هذا التمدن النافع رافعين العوائق والموانع، باسطين اليد، باذلين الجهد والجد، حتى ان العقول تتمرن، وشعب السوريين يتمدن. فنقول:

إن الواسطة الفريدة، والطريقة الوحيدة، للتوصل إلى شيء ما، مجهولاً كان أو معلوماً، هي التوصل إلى سببه، أي أصله. فلما كان أسُّ التمدن هو العلوم، كما صار هذا لديكم يا أيها السادة من المعلوم، بالصواب أحتم، وبالحق أجزم، إن الواسطة الفريدة والطريقة الوحيدة للتوصل إلى التمدن هي انتشار واتقان العلوم، وحيث العلم يكون هناك التمدن، إذاً ما هو الذي يحثنا على اقتباس العلوم واتقانها لأنه ينبغي للانسان وجود منفعة أو صالح خصوصي يحثه على ذلك. فإن العمل في شيء ما يحث على اقتباس ما من شأنه أن يوصل إلى معرفة هذا الشيء واتقانه. هكذا مثلاً العمل في صنعة النجارة، يحث على البحث عن آلات فعّالة، يُتوصل بها إلى اتقان هذه الصناعة. فإن كل الاكتشافات هي نتيجة البحث المسبب عن العمل. لأن ارخميدس الشهير بدون العمل، أي بدون شيء يضطره إلى البحث، لم يكن اخترع ما اخترعه. إذ ان لولا اقتراح الملك هيرون عليه الذي كان يحثه على معرفة كمية الذهب والفضة المحتوي عليها اكليل كان ملك السيسيليين قد صاغه من دون كسره لما كان اخترع الثقل النوعي المهم. وقس عليه. وما سبق ذكره في خطاب جناب الطبيب سوكه عن أصل القوة البخارية هو كافٍ لايضاح ذلك. إذ انه أفادنا به أن أصل اختراع هذه القوة المهمة هو القِدر أو الطنجرة. وما كان ذلك إلاّ بواسطة البحث المسبب عن العمل. أي وضع الماء في القِدر وتسخينها وما أشبه. فالعمل في الصنائع إذاً يحث بلا بد على اقتباس العلوم التي من شأنها أن توصل إلى اتقان هذه الصنائع. فالصنائع إذاً هي التي تظهر للانسان لزوم العلم. وتقتاده بنوع ما إلى اقتباس العلوم واتقانها رويداً رويداً. وذلك بلذة ورغبة لأنه يجد صالحاً لذاته، منفعة لنفسه. هكذا مثلاً صنعة الطب تحث الانسان على اقتباس العلوم القائمة عليها هذه المهنة والعمل بها يضطر الانسان إلى اتقان هذه العلوم. فتشييد معمل ما مثلاً يحث الانسان على اقتباس العلوم التي من شأنها اتقان الآلات اللازمة لقيام هذا المعمل، من حساب وهندسة وجبر وما أشبه. وهكذا تكون الطريقة الفريدة والواسطة الوحيدة لانتشار العلوم واتقانها في بلاد ما هي اشتغال أهالي تلك البلاد بالصنائع.

أما نحن السوريين فإنما نرى ذواتنا من الصنائع خالين. الكل يرغب اقتباس معرفة اللغات لامتداد التجارة إلى جميع الجهات. فماذا ينفع الانسان، المميز بالنطق عن الحيوان، معرفة اللغات دون العلوم. إذ انه من المعلوم ان اللغات تمرّن الذهن فقط دون العقل وتنفع الفرع في الانسان دون الأصل. إذ ان الأصل فيه هو العقل، فإن الذي حملني على تقدمة هذا الخطاب هو معاينتي أبناء وطني طالبين التمدن على غير الصواب. لأننا نرى كثيراً من شبان هذا العصر (أولهم أنا) خالين من العمل مع معرفتهم البعض من اللغات الأجنبية ولماذا؟ لأنهم لا يرغبون الصنائع التي هي أسّ الشرف والتمدن. إذ ان العلماء الفضلاء بالعمل اتصلوا من العلم إلى درجة عليا، فإن عدم وجود الصنائع هو لتمدن بلادنا من أعظم الموانع. إذ ان كل شيء لا يقتبس إلاّ بالحث عليه. وبدون الصنائع لا يوجد ما يحثنا على اقتباس العلوم. فبما إن هذا قد صار لدينا من المعلوم فلنشمرنَّ أيها السادة ذراع الجهد والجد لنشر الصنائع، وإزالة الموانع، التي تصد التمدن عن الوصول إلينا، لاسبال ثوب الفخر علينا، ولنفضلنَّ الصنائع على ما سواها. إذ انها هي هي الطريق الوحيدة الموصلّة إلى التمدن. وبما ان هذه الجمعية قد تألفت أعضاؤها من أهل الحمية تحت ظل الدولة العلية السنية، أيدها رب البرية، لغاية المساعدة من الجيد من الأمور، ولنجاح وتقدم الجمهور، ها إنني قد أعلنت لها بما طرق قريحتي عن هذا الصدد، لأخذ الوسائط الممكنة الفعالة لتمدن هذا الوطن المحبوب. لأنه بالمساعدة والمواظبة يُتوصل إلى المرغوب. ولي أمل عظيم وطيد، يا أيها السادة، بنجاح مقصدنا الحميد، ومساعينا في المستقبل، حين نرى خلفاؤنا في سلسلة شعوب المتمدنين، حلقة شعبنا هذا شعب السوريين، والسلام.

٣ - الوداع

أعيدوا الوصلَ من بعد آنفصالِ فما للأنس هجرٌ بارتحالِ
أعيدوا أحبتي زمن الوصالِ فللعلم آجتماعٌ قد حلا لي
وقد وجهتُ نحوَ الوصلِ بالي

إذا سمح الزمان على الفراقِ فمهلاً يا متيمُ ما تلاقي
لأنك قد شعلتَ من آحتراقِ ووجدكَ باللقاء والفصل باقي
ونار الحبِ فاقدةُ الزوالِ

سمعت وسوف تسمع ما أقولُ بهذا القول تبتهج العقولُ
ولي قلمٌ بهِ شهد العذولُ نَعمْ وبلاغتي فيهِ تطولُ
فيشرحُ بالفصاحةِ عن مآلي

خذوا مني الطويةَ بارتجالِ فحالي يا أحبَّةُ غيرُ حالِ
فتحتُ البابَ في هذا المجالِ دعوني فيهِ من دون انشغالِ
أجدُّ على جوابٍ أو سؤالِ

سلامي بحرهُ في الشعر وافر وروضي بالصبابةِ فيهِ زاهر
و في بحر الهيامِ أنا المسافر أقولُ وذكركم في القلب حاضر
أعيدوا الوصلَ من بعد آنفصالِ

[سلامٌ أيها العرب الكرام]

القصيدة التي أنشدها الشيخ ابراهيم اليازجي

[في الحث على التقدم]

[المجموعة الثانية من أعمال السنة الأولى. ص ٤٤ ـ ٤٦].

سلامٌ أيها العَرَبُ الكرامُ ... وجادَ ربوعَ قطركمُ الغمامُ
لقد ذكر الزمان لكم عهوداً ... مضت قِدَماً فلم يضع الذمامُ
تناثرَ عقدنا قدماً ولكن ... سيرجع بسالبها ذاك النظامُ
وما غربت مآثرنا ولكن ... تعرَّض دون أوجهها لثامُ
أرى بين الرماد وميضَ جمرٍ ... يلوح فلا ثقل خمد الضرامُ
إذا قطعت غصون الدوح يوماً ... فلا تيأس إذا بقيَ الحطامُ
وانَّ الجسم يهزله سقامٌ ... ولكن ليس يقنيهِ السقامُ
ونقصُ البدر ما لا بُدَّ منهُ ... ولكن بعدهُ يأتي التمامُ
وما بعد الظلام سوى نهارٍ ... يزول بنورهِ . ذاك الظلامُ
فحي على الفلاح فقد تجلَّى ... عمود الصبح وآرتحل القتامُ
قد آنعقدت مجالسنا ولاحت ... وصحَّ لها على الفضل التئام
مجالس للعلوم غدت مناراً ... بهِ لغياهب الجهل آنصرامُ
جلاها كلُّ أبلج إريَحيٍّ ... تقرُّ لهُ البلاغةُ والكلامُ
تُجرِّدُ من آياديهِ المواضي ... وتُرسَلُ من لواحظهِ السهامُ
رجالٌ في انتشار الفضل جدُّوا ... وفي حب العلوم صبوا وهاموا
تلاعبت الحميَّةُ في نهاهم ... كما لعبت بشاربها المدامُ
تهزُّ الأريحيَّةُ كلَّ يومٍ ... معاطفهم كما آهتزَّ الحسامُ
هُمُ الشُهُبُ المطيرةُ فوق أرضٍ ... يلوح لنوءِهم فيها غمامُ
غمامٌ قد تخلَّلَهُ بروقٌ ... يصافحها الرجاءُ متى تُشامُ
جهابذةٌ يقوم الفرد منهم ... بما أعيى بهِ الجيش اللهامُ
إذا آمتدَّت معاصمهم لأمرٍ ... فليس يفوتها منهُ مرامُ
كذلك جهدُ أهل الجهد حتى ... يصير بهم إلى الذهب الرَّغامُ
وما يُعيى الفتى استحصال أمرٍ ... إذا نهضت بهِ الهمم الجسامُ
سيعلمُ من يفاخرنا بأنَّنا ... من الدنيا الجهابذة العظامُ
وقد بَرِحَ الخفاءُ وكلُّ عينٍ ... لها من دون يقظتها منامُ
وما العَرَبُ الكرام سوى نصالٍ ... لها في أجفن العليا مقامُ

إذا غشَّى صفائحها صداءٌ ... فليس بحدِّها الماضي انثلامُ
سنرجعُ ما طَوَى غدر الليالي ... ونبني ما تداوَلَهُ انهدامُ
لعمرك نحن مصدر كل فضل ... وعن آثارنا أخذ الأنامُ

ونحن أُولُو المآثر من قديمٍ   وإن جحدت مآثرنا اللئَامُ
فقد علمَ العراقُ لنا قديماً   أياديَ ليس تنكرها الشامُ
وفي أرض الحجاز لنا فيوضٌ   يسيل لها إلى اليمن آنسجامُ
وفوق الأندَلس لنا بنودٌ   لهامات النجوم بها آعتمامُ
وسلْ في الغرب عن آثار فخرٍ   لها في جبهة الزَمَن آرتسامُ
ولسنا القانعين بذكر هذا   وليس لنا بعروته آعتصامُ
ولكنّا سنجهَدُ في المعالي   إلى أن يستقيمَ لها قوامُ
ونُرجع أعصُرَ الآداب تزهو   بدولة من هو الملك الهمامُ
مليكٌ بين أيديه الليالي   جوارٍ والزمانُ لهُ غلام
على عبدالعزيز صلاة ربٍّ   يقارنها رضاهُ والسلامُ
أقام لواء المراحم فوق بابٍ   به لركائب الحمد آزدحامُ
وشيَّد للتمدُّن كلَّ ركنٍ   لهُ بسنى عنايته قيامُ
تُوَالِي الشكر ألسنة البرايا   عليه والدعاء لهُ ختامُ

أعمال الجمعية العلمية السورية في بيروت
المجموعة الثالثة من أعمال السنة الأولى

[بيروت: المطبعة العمومية، ١٨٦٨. ص ٤٧ - ٨٦].

إنه في مساء الأربعاء الواقع في ٢٦ شوال سنة ١٢٨٤ هـ و٢٤ و٥ شباط سنة ١٨٦٨ م صار فتح آجتماع من المشتركين تلى به يوسف أفندي الجلخ خطبة في نبذة من علم الطبيعيات ثم على إسبر أفندي شقير خطبة في الكلام على الجمعيات ومنافعها.

الخطبة التي تلاها يوسف أفندي الجلخ
في نبذة من علم الطبيعيات
وفي تصوير الشمس

[المجموعة الثالثة من أعمال السنة الأولى. ص ٤٧ - ٧٠].

الحمد لله الذي أبدع الكائنات على أتم الكمال والجمال، وتنزَّه في سمو صفاته وبهاء ذاته عن المثيل والمثال. أما بعد فهذا خطاب وجيز قد ضمَّنته شيئاً من مهمات علم الطبيعة وأصوله على قدر ما أظن من احتمال سعة الوقت وأردفته بتفصيل وافٍ عن تصوير الشمس وكيفية العمل به على رأي البارعين في هذا الفن تاركاً اختلاف الأقوال والاصطلاحات التي لا طائل تحتها، كما سأذكر ذلك إن شاء الله، على اني أقرُّ بأنني لست من أرباب هذه الصهوة. فلا آمن من غائل الكبوة. ولكنني أرجو من أصحاب البصيرة سدَّ الخلل، والاغضاء عن الزلل، فإن الكمال لله وحده، ولا يوجد إلاَّ عنده. فأقول:

لا ريب إن الانسان هو أشرف المبروآت من كل نبات وحيوان نظراً لما وهبه الله من حسن هيئته وتركيب أعضائه. فخصه بالعقل الذي هو قوة بها تدرك المحسوسات ناتجة عن وظيفة الدماغ الذي هو جوهر لبيٌّ نخاعي محفوظ داخل العلبة العظيمة المسماة بالجمجمة مشتمل على تجاويف وارتفاعات وتقاعير وانبعاجات وتلافيف وتعريجات لكل منها وظيفة خاصة بها، بعضها معلوم لدينا وبعضها مجهول. وهو المتسلط على القوى الذهنية والفاعل للحركات الجسمية والمركز للحواس الباطنة التي هي الذكر والفكر والتصور والفهم والارادة. وللحواس الظاهرة التي هي السمع والبصر والشم والذوق واللمس. وهذان الفريقان، أي الحواس الباطنة والحواس الظاهرة، يتكفلان بالمحافظة على بقية أعضاء الجسيم فيمتعانه بالملذّات ويبعدانه عن الوقوع بالموبقات وبالتهذيب والتمرين يصير هذا العقل زكياً حسن التصور جيد الفهم ثابت الحكم والفاعل العظيم له هو العلم.

أما العلم فهو معرفة يقينية مأخوذة من أصول حقيقية أو يقال هو الادراكات المحققة بطريق البراهين. وينقسم إلى علم رياضي، كعلم الحساب والهندسة والجبر ونحوها، وإلى علم الطبيعيات او التاريخ الطبيعي الذي يبحث عن المعدن والنبات والحيوان. أما القسم الأول أي العلم الرياضي فهو ايجاد المجهولات بطريق البراهين والأقيسة ولا محل لذكره هنا. وأما علم الطبيعيات فيبحث فيه عن هيئة كل الأجسام الظاهرية لا عن تركيب أجزائها المادية الكيماوية. وهو أجل العلوم وأفضلها وألذُّها

للعقل وأجملها لأن به نعلم أفعال الطبيعة وخواصها التي خصها بها الخالق. وأول من تكلم في علم الطبيعة قدماء المصريين ثم قوم من اليونانيين الذين كانوا بمصر ثم رحلوا عنها واستوطنوا الأوروبا فأخذ أهلها عنهم وغاصوا في تيار بحره الزاخر حتى استخرجوا كل يتيمة. وفحصوا عن العلوم التجريبية أي الطبيعية واتصلوا إلى البحث عما وراء الطبيعة. والفيلسوف طاليس أظهر الكهربائية بحك الكهرباء، ولذلك نسب هذا البحث إليها. وفيثاغورس تكلم عن السماع وقوة التثاقل الصادر عن الجذب وعن البصر الصادر عن انعكاس الضوء وعن ألوانه المتنوعة. وديموقريت شرح عن نواميس سقوط الأجسام في الهواء والفراغ وعن الضوء والهواء والنار. ثم ظهر أفلاطون الذي أخذ عن سقراط. وبعده تلميذ ارسطو طاليس مربي الاسكندر بن فيلبوس المكدوني. ثم ظهر ارخنياس الذي هو من تكلم على صناعة الميكانيكا واخترع البكرة والبرمة. ثم رجعت العلوم الفلسفية والطبيعية والهندسة إلى الديار المصرية في أيام بطليموس الملك الذي كان ماهراً في علم الفلك والهندسة والجغرافيا وهو الذي أنشأ مدرسة الاسكندرية ومكتبتها الشهيرة التي كانت تشتمل على أكثر من أربعمائة الف مجلد. ثم ظهر ارشميدس الصقلي المهندس الطبيعي. ثم هيرون المخترع الآلة المعدة لرفع الأثقال من جحادة وغيرها وهي المسماة بالعيار وتكلم على تمدد الهواء بالحرارة، ثم ظهرت العلوم الهندسية والفلكية والكيمياء والنبات عند العرب في أيام الخلفاء العباسيين إلّا انهم توغلوا في التمسك بعرى الكيمياء الكاذبة التي سموها الحجر المكرم أو الكريم وانحط مقدار الكيمياء الحقيقية عندهم ثم أغربت شمس هذه العلوم عن أفق عقولهم وأشرقت في سماء أوروبا حتى بلغت حداً بعيداً فألقت أشعتها على قمم رؤوس أهلها فاستنارت قلوبهم وألفوا في هذه العلوم واخترعوا الآلات الجمَّة واتقنوا الصنائع بالحقائق واكتشفوا على الخفايا والدقائق حتى علموا ان العناصر تنقسم إلى قسمين منها ما هو غير قابل للوزن ومنها ما هو قابل له.

فالقسم الأول منها ويسمى بالسوائل الغير القابلة الوزن وهو أهم شيء تفتقر الموجودات عموماً إليه لأن بهذه السوائل المذكورة يقوم النمو والحياة الممنوحة لها من الخالق سبحانه. وتلك السوائل هي الضوء والحرارة والكهربائية أما الضوء فهو سائل لطيف لا يمكن حصره ولا يتأتى وزنه ينبعث طبيعياً من الأجرام المنيرة بذاتها كالشمس أو من الأجرام الفلكية المستمدة نورها منها كالقمر وبعض الكواكب وقد ينبعث الضوء من الأجسام بواسطة الإحراق الصناعي وهذا هو الاتقاد. ومن صفات الضوء انه يسري بسرعة فيقطع في كل ثانية سبعين ألف فرسخ فيكون الزمن اللازم لوصول ضوء الشمس إلينا ثمان دقائق وثلاث عشرة ثانية لأنها تبعد عنا أربعة وثلاثين مليون من الفراسخ. فلو فرضنا أن الشمس انمحقت عنا دفعة واحدة لبقيت مشاهدة عندنا ثمان دقائق وثلاث عشر ثانية. وعنه ينبلج الفجر الذي هو الضوء المبشر بقدوم طلائع جيش أشعة الشمس إلينا ثم يعقبه الشروق. والشفق هو الضوء الباقي بعد غياب الشمس عن أفقنا ويسبقه بالهزيمة ضوء الغروب ثم تتبعها عساكر الظلام. وإذا سقط الضوء على جسم شفاف نَفِذَ منه وإذا كان الجسم بين الشفاف وغيره أو كما يقال: نصف شفاف نفذ بعضه وانعكس بعضه وينعكس بتمامه إذا كان غير شفاف. ومن خواصه أن به يتم مفعول البصر ويستعمل في الطب كمنبه للعصبة البصرية في بعض أمراض الكمنة-المعروفة بالماء الأسود الصادر عن شلل العصبة المذكورة. وبالضوء ينمو النبات بسبب صعود اللينفا أي العصارة النباتية في الساق والفروع. وبواسطة الضوء يتحلل الحمض الكربوني أي الفحمي من أسطحة الأوراق فيفرز الأوكسيجين ويبقى الكربون والنامي والمغذّي للنبات. والحاصل إن الضوء يعدُّ من أهم الأشياء لقيام الطبيعة. وكان المصريون قديماً تكلموا عنه وبحثوا عن تأثيره الكيماوي على بعض النباتات. واليونانيون عن بعض مؤثرات الضوء على حجر الكركهن. وفيثاغورس تكلم عن الضوء وألوانه. وديموقريت الفيلسوف تكلم عنه أيضاً. والمعلم فيتروف الروماني الشهير كان يضع الصور في حجرته إلى جهة الشمال لأنه لحظ أن نور الشمس يؤثر

عليها. ثم مضي على ذلك مدة طويلة من الزمن ولم يظهر شيء من الاكتشافات الكيماوية عن الضوء إلى أواسط القرن السادس عشر فعرفوا أن كلودور الفضة الأبيض يتغير لونه من تأثير ضوء الشمس عليه. ثم تأكدوا أن الكلودور المذكور يسود لونه في برهة خمس عشرة ثانية، وان بعض الأملاح يسهل تبلرها في الضوء أكثر من الظلمة. والمعلم رومفور لما بحث عن خواص الضوء في أواخر القرن السادس عشر عرف تأثيره على المحلولات المعدنية أكثر من تأثير الحرارة الدائمة عليها. وفي السنة الواحدة بعد الثماني مائة والألف عرف المعلم ديتار أن الأشعة الضوئية تؤثر تأثيراً عجيباً على كلودور الفضة. ومن ذلك الحين شرعوا في العلم الجديد المسمى بالكيمياء الضوئية ومعناه البحث عن الحوادث الحاصلة من تأثير الضوء وظهر ان الاكسيد الأبيض للرصاص يحمرّ لونه من الطيف الأحمر للضوء ويسود من الطيف البنفسجي. وإذا غطست ورقة في محلول نترات الفضة فلا تسود ما دامت في الظلمة ويتغير لونها في ضوء النهار وتسود إذا طال مكثها فيه. وإذا نفذ الضوء من لوح زجاج أحمر ضعفت قوته أكثر مما إذا نفذ من لوح أزرق اللون أو بنفسجي. ثم توصلوا إلى انطباع الصور ونقلها بواسطة الميكروسكوب الشمسي على الورقة المجهزة بتغطيسها في محلول نترات الفضة فوجدوا أن مكان تأثير الصورة يبقى مرسوماً على الورقة بعد غسلها بالماء وأما الغير المتأثر فيزول عنه وتبقى الورقة بيضاء. وكان هذا الاكتشاف أسّاً للاختراع العجيب الجديد المسمى فوتوكراف وهي لفظة يونانية مركبة معناها الرسم بواسطة الضوء. ثم علموا ان الضوء بواسطة تحليله بالمنثور مركب من سبعة ألوان وهي الأحمر والبردقاني والأصفر والأخضر والكحلي والنيلي والبنفسجي. ولسهولة معرفة الألوان بالتتابع نظم بعضهم راجزاً هذين البيتين.

ألوان طيف الشمس سبع أحمرُ ... فبردقاني أصفرٌ فأخضرُ
كحلي فنيلي بعدهُ البنفسجي ... وفي انقلاب الطيف عكس ذائجي

وعرفوا أن الضوء النافذ من جهة اللون البنفسجي هو أشد مما سواه ويأخذ في الضعف تدريجاً كلما ذهب نحو اللون الأحمر فيكون أكثر الجميع ضعفاً. وعلموا ذلك من سرعة إسوداد الورقة المغطسة في محلول نترات الفضة. فإذا نفذ الطيف البنفسجي ووقع على الورقة المذكورة إسودت في أقل من عشر دقائق. ويطول هذا الزمن كلما ذهب نحو الأحمر حتى انه لا يظهر تأثيره ولو بعد مضيّ ساعتين. ثم ظهر المعلم نيابس ورسم الصور بواسطة بورة عدسات الخزانة المظلمة. وذلك بأنه أخذ صفيحة من نحاس مموهة بالفضة وطلاها بمحلول قفر اليود المسمى بالحمّر بعد انحلاله بروح اللوندا وعرض هذه الصفيحة المطلية لأشعة الضوء النافذة إلى داخل الخزانة المظلمة ثم غسلها بمزيج الزيت الحجري أي النقط مع روح اللوندا فكان هذا الغسل يذهب اللون الغير المتأثر من الضوء ويبقى محل الصورة فترى كأنها بيضاء، واللون الأسود منها ظلّ لتلك الصورة، إلاّ انها غير ظاهرة. فاستعمل لجلائها كبريتور البوتاس واليود مع ذلك لم يتم على احكامه لأنه لم يشعر بشدة تأثير يودور الفضة الذي هو أسّ لصناعة تصوير الشمس المستعمل الآن. والمعلم داكير اشترك مع المعلم نيابس في سنة ١٨٢٩ واشتغلا مدة عشر سنوات. وفي سنة ١٨٢٩ اخترع المعلم داكير المذكور الطريقة العجيبة التي هي انطباع الصور على الصفيحة المعدنية فسميت هذه الصنعة باسمه اي داكيريوتيب. ويتم ذلك بأخذ صفيحة نحاسية مموهة بالفضة أي مطلية جيدة الصقل والنظافة يفركها مراراً بمسحوق التراب المسمي تريبولي الناعم جداً مع بعض نقط من الكول في درجة ٣٨ بواسطة كرة من القطن المندوف الأبيض النقي جداً فتدار على وجه الصفيحة مع التحامل عليها قليلاً بلطف بحيث تجف بدون تسخين وتخفف الملامسة كلما قاربت النظافة. ثم بقطعة من القطن نظيفة مرشوش عليها من مسحوق الأحمر الانكليزي الذي هو أكسيد

الحديد الناعم جداً. ويحترس من عدم ملامسة الأصابع لوجه هذه الصفيحة. ويتحقق صدق نظافتها بنشر بخار زفير نفس الفم على كامل السطح المنظف مع استواء امتداده بشرط عدم وقوع شيء من اللعاب حين النفخ عليها. ثم تصقل بقطعة من الخشب مغطات بجلد الأرري الناعم أو بقطعة من الجوخ مرشوش عليها الأحمر الانكليزي ثم تعرض الصفيحة لأبخرة اليود في العلبة المعدة لذلك الموجود فيها جاروران كالدرج يمكن سحبهما إلى خارج العلبة المذكورة في أحدهما بعض قمحات من اليود وفي أعلاه حامل للصفيحة ينطبق على الجارور المذكور ليستقبل ابخرة اليود. ويمكث ذلك نحو ثلاث ثوانٍ في الصيف وخمس في الشتاء وأربع فيما بينهما بحسب الحرارة وتفتقد بعد كل هنيهة حتى يصير لون وجه الصفيحة أصفر ذهبياً فتنقل إلى الجارور الثاني لأجل تبخيرها على برومور الكلس الموجود فيه بعد انطباقها عليه. ويتم ذلك في مدة عشر ثوان حتى يصير لون وجه الصفيحة بنفسجياً فتخرج هذه الصفيحة المؤثرة وتوضع في علبة تسمى بالشاسي لها غطاء يفتح من الأمام بحيث يبقى الوجه المؤثر بالأبخرة مقابل صورة المرئي المراد أخذها المحمولة من الضوء النافذ من البلورات العدسية إلى الخزانة المظلمة الموفقة على حمالة ذات ثلاث أرجل موضوعة تلقاء الصورة. ولهذه الخزانة عنق في الجدار المقدم منها يسمى بالابجكتيف داخله عدسات مقعرة ومحدبة يطول ويقصر على مقتضى اللزوم لجلاء منظر الصورة بحسب بعدها وقربها. وعلى الجدار الخلفي للخزانة الذي هو أمام الصانع لوح من زجاج غير صقيل تقع عليه الصورة ظاهرة بلونها وشكلها إلّا انها منقلبة لخواص العدسات الموجودة ضمن الابجكتيف. فيرفع الحامل لهذا اللوح الغير الصقيل ويوضع مكانه علبة الشاسي التي فيها الصفيحة المبخرة بأبخرة اليود وبأبخرة برومور الكلس المذكورة وتفتح الطبقة الساترة لهذا الوجه. فالصورة التي كانت واقعة على اللوح الزجاجي الغير الصقيل تقع على وجه هذه الصفيحة بعينها ويبقى ذلك مدة نصف دقيقة أو دقيقة أو أقل أو أكثر وذلك بحسب شدة النور الواقع على المرئيات المراد نقل صورتها ثم يطبق غطاء العلبة لتستتر الصفيحة من الضوء لئلا تتعطل منه وتحمل ويذهب بها إلى علبة التبخير الزئبقي فتخرج وتوضع داخل العلبة الموجود بأسفلها طست فيه مقدار من الزئبق قليل أو كثير يسخن على مصباح موقد بالكول أي روح النبيذ موضوع تحت الطست المذكور حتى تصل حرارته إلى درجة خمسين أو ستين. ويعلم ذلك من درجات التيرموميتر الموضوع بحذائه داخل العلبة. وأما الصفيحة فتوضع في أعلاه موجهاً وجهها نحو الطست لاستقبال الأبخرة الزئبقية فتتحد مع اليود والبروم والفضة المطلية بها الصفيحة وحينئذٍ تظهر الصورة شيئاً فشيئاً للنظر ويعلم ذلك من الجدار الزجاجي للعلبة ويتم هذا في برهة دقيقتين أو ثلاث ثم تخرج الصفيحة وتغطس مراراً في محلول إيبوسولفيت الصودا لكي ينحل يودور الفضة مدة خمس دقائق وأخيراً ترفع وتغسل بالماء ثم تغطس وهي رطبة في المغطس الأخير المركب من جزء من كلورور الذهب مذاب بألف جزء من الماء المقطر. ثم تجفف بوضعها على حامل موقد تحته المصباح الكولي خفيف اللهب لتجفيفها ولإزالة اللون الأزرق الصادر عن مغطس الإيبوسولفيت فيظهر لها لون أبيض فتلون الصورة إذا شاء وتحفظ في برواز.

وبما أن هذه العملية عسرة ومتعبة كان استعمالها الآن قليلاً جداً. وفي تلك الأثناء أظهر المعلم تالبوت انطباع الصور على الورق فسميت هذه الصناعة تالبوتيبي نسبة إليه فكان يطلي الورقة أولاً بمحلول نترات الفضة ثم بمحلول يودور البوتاسيوم وأخيراً بمحلول كالونترات الفضة أعني محلول نترات الفضة بالماء المقطّر مع حمض الكاليك أي حمض العفص ويضيف حمض الخليك عليها. ثم يعرضها للضوء النافذ في الخزانة المظلمة مدة قليلة من الزمان. ثم يظهر الصورة التي على الورقة بالصب عليها من محلول كالونترات الفضة مع حمض الخليك المذكور آنفاً فتظهر الصورة جلية وتثبت بصب محلول

برومور البوتاسيوم عليها، ثم تغسل بالماء وهذه الورقة تسمى بالتكاتيف أي السالبة لأن الصورة يظهر عليها ما كان أبيض أسود وبالعكس فيحتاج إلى نقلها على ورقة أخرى مغطسة بمحلول كلورور الفضة. وهذه الطريقة غير حسنة وان كانوا أخيراً استعملوا طبع الصور على ورق مشمع فإن منظره لم يرق لأعين الجميع. ثم اتقنوا هذا الفن وتعمقوا في استقصاء غوامض أسراره حتى ظهر انطباع الصور على لوح الزجاج الممدود عليه طبقة زلالية. وهذه الطريقة أيضاً تفننوا فيها ونجحت. ثم في سنة ١٨٥١ كشف المعلم لاجرا الكولوديون وهو سائل لزج القوام كالغراء المذاب من خواصه أن تظهر عليه الصورة بسرعة ويسهل النقل عليه بكثرة فانتشر هذا السائل وكثر الفحص عنه ونوعوه إلى انواع وهو أسُّ هذه الصناعة وركنها. وطريقة العمل به أحسن مما تقدم من فروع صناعة الفوتوكراف فعلينا أن نشرحها لاتمام الفائدة ونختار أحسن تراكيبه وأسهل طريقة استعماله فنقول: إنه مركب من ستين جراماً من الايثر الكبريتي المركز ومن أربعين جراماً من الكول المركز أيضاً ومن قطن البارود الذي هو قطن المندوف المغلي بحمض الكبريتيك والنتريك وربما استعملوا ملح البارود عوض حمض النتريك فإنه يقوم مقامه. فيؤخذ من القطن جرام واحد ومن يودور الكادميوم نصف جرام ومثله من يورور النوشادر ومن برمور النوشادر ربع جرام وهو يعادل نحو خمس قمحات. فيذاب القطن أولاً ثم الأملاح ويوضع هذا المركب في محل مظلم نحو يومين أو أكثر حتى يروق ثم يصفى من قمع في أسفله قطعة من القطن ويستعمل صباً على لوح من الزجاج يكون قد نظف بمحلول كربونات الصودا ثم يغسل بماء محمض بحمض النتريك ثم ينشف ويفرك بناعم التراب المسمى تريبولي بواسطة قطعة من خرقة ناعمة أو بجلد الأررى مراراً حتى يمكن أن يمتد عليه بخار زفير نفس الفم امتداداً متساوياً. وبعد ذلك يمسك هذا اللوح الزجاجي المسمى بالكليشي من احدى زواياه وذلك في محل مظلم ينوَّر بضوء شمعة ضعيف. أو ينفذ إليه ضوء النهار من لوح من الزجاج الأصفر في كوَّة من جدار المحل المذكور لأن النور النافذ منه لا يؤذي الكولوديون. فيجعل على الكليشي طبقة رقيقة من الكولوديون. ثم يغطس في طست من الصيني أو من الصمغ الأسود المرن ضمنه محلول نترات الفضة بالماء المقطر المفروض لكل مائة جزء من الماء سبعة أجزاء من نترات الفضة النقية ويبقى ذلك التغطيس مدة دقيقتين فتبيض الطبقة وتصير جلدية المنظر فيرفع الكليشي بصنارة من الفضة أو من الصمغ المرن ويوضع في علبة الشاسي بحيث يكون الوجه المحضر منه مقابل الصورة المراد انطباعها عليه النافذة إلى الخزانة المظلمة المهيئة كما ذكر في الكلام عن الداكيروتيب وبعد برهة بعض ثوانٍ بحسب شدة تأثر الكولوديون بكثرة اليودورات وقلتها الداخلة في تركيبه وشدة النور الواقع على الصورة المراد أخذها ثم تؤخذ ويرجع بها إلى المحل المظلم المذكور وتخرج من علبة الشاسي ويصب على وجهها من محلول سولفات الحديد بسرعة ليعمه كله. وهذا المحلول مركب من ألف جرام من الماء ومن ثلاثين جراماً من سولفات الحديد وثلاثين جراماً من الكول وخمسة وعشرين جراماً من حمض الخليك القابل للتبلر ويكرر صب هذا المحلول مراراً حتى يظهر أثر الصورة وإذا لزم تقوى بمحلول خفيف من نترات الفضة ومحلول حمض البيروكليك المركب من جرام واحد من الحمض المذكور وثلاثمائة جرام من الماء المقطر وثلاثين جراماً من حمض الخليك القابل للتبلّر. وهذا المحلول الباروكاليكي يستعمل عوضاً عن محلول سولفات الحديد لاظهار الصورة على الكليشي. ثم تغسل بالماء ويصب عليها السائل المثبت المركب من أربعين جراماً من ايبوسولفيت الصودا ومائة جرام من الماء أو من محلول سيانور البوتاسيوم في ليتر من الماء أي مقدار ألف جرام. والأول أحسن من الثاني إلاّ أنه يقتضي له الغسل بالماء كثيراً لزوال أثره عن وجه الكليشي وأما الثاني ففيه خطر على الصانع إذا كان بأصابعه جرح لأن السيانور سم نقيع فيجب الاحتراس منه وبعد الصب على سطح الكليشي من أحد هذه المحلولات تظهر الصورة جلية إلاّ انها اذا نظرت مقابل الضوء يرى

بها اللون الأبيض أسود وبالعكس. ولكن إذا وضع تحتها شيء مظلم على بعد قليل بحيث لا يمسها خوفاً من انمحاء بعض الأثر ظهرت ألوانها كما هي ثم تغسل مراراً بماء كثير وهذا ما يسمى بالكليشي النكـاتيف. وقد يسمى بوزوتيف متى كانت طبقة الكولوديون رقيقة من رقة قوام تركيبه لقلة مقدار القطن وكثرة السائل المسوغ أعني الايثر والكول فيغطى وجه الكليشي من الفرنيشا السودا المأخوذة من محلول قفر اليود بزيت الترمنتينا فتظهر الصورة على حقها من الوجه الثاني لهذا اللوح الزجاجي فتحفظ عليه. وأما النكاتيف فيمكن انطباع الورق على سطحه المرسوم عليه ولكن خوفاً من أن اللمس يتلفه يجب أن يغطى هذا السطح بطبقة تسمى بالفرنيشا وهي مركبة من محلول الصمغ العربي بالماء فتصب عليه وتجفف فتحفظه من التلف. إلاّ انها تتلف إذا وقع عليها الماء فالأحسن أن تعمل الفرنيشا المركبة من ثمانية أجزاء من صمغ اللك (كومالاكا) تذاب بمائة جزء من الكول المركز على حرارة لينة. وبعد ذوبانه يصب على الكليشي ليتكون عنها طبقة تتحمل الملامسة بعد جفافها حتى ولو وقع الماء عليها. ويمكن أن يطبع عليها جملة من نسخ الصور. ويتم ذلك بتحضير الورق المجهز بمد طبقة زلالية على أحد سطحيه وحينئذٍ يسمى بالورق الزلالي. أو يغطس بمحلول ملح الطعام المدبر فيسمى بالورق المملح ويعلم عليه بإشارة لمعرفة الوجه المحضر. والأول أجود للمعانها وحسن ألوانها فيؤخذ هذا الورق ويغطس بمغطس مركب من خمسة وعشرين جراماً من نترات الفضة تذاب في مائة جرام من الماء المقطر. ثم يرشح في محل مظلم ويبقى سطح الورق ملامساً لسائل هذا المغطس مدة ثلاث دقائق صيفاً وخمس دقائق شتاء. ثم ترفع هذه الورقة وتعلق من احدى زواياها بواسطة دبوس من النحاس أو جفت من الخشب وتترك في المحل المظلم إلى الجفاف ويكون هذا العمل غالباً في مساء الليلة المراد عمل النسخ في صباح اليوم التالي لها. فيؤخذ الكليشي أي اللوح الزجاج الذي عليه الصورة ويوضع داخل المكبس الشمسي الذي هو شبه العلبة له جدار من الزجاج وتطرح الورقة على سطح الكليشي المطلي بالفرنيشا ويجعل على قفا هذه الورقة ورقة اعتيادية ثم يطبق عليها غطاء المكبس ويحبس عليها بمحبس كالملزمة وتعرض لأشعة الشمس لتقع على الجدار الزجاجي للمكبس مدة عشر دقائق فيُرى عليها انطباع الصورة على حقيقتها أعني ان اللون الأسود الذي كان على الكليشي صار أبيض وبالعكس وهذه تسمى البوزيتيف. فتؤخذ وتغسل بالماء الاعتيادي مراراً في محل لا يناله الضوء كثيراً ثم تغطس بمحلول مركب من ليتر من الماء المقطر ومن ثلاثة جرامات من ايبوكلوريت الكلس الجاف وجرام واحد من كلورور الذهب ومثله من كلورور الصوديوم أي ملح الطعام النقي وتبقى فيه الورقة مدة بعض دقائق مع التقليب تارة على قفاها وتارة على وجهها حتى يعجبك لونها. فترفع وتوضع في مغطس التثبيت المركب من ليتر من الماء وثلاثمائة جرام من ايبوسولفيت الصودا مدة عشر دقائق حتى ينقى لونها الأبيض ويبقى الأسود داكناً. ثم تغسل جيداً بسبلسبول من الماء جار حتى لا يبقى شيء من الأملاح عليها فتؤخذ وتنشف بين ورق نشاش حتى تجف وتنقطع رطوبتها فتصقل وتحفظ. ويمكن انطباع جملة من الصور على ذلك اللوح الزجاجي الذي سميناه كليشي النكـاتيف واحدة بعد اخرى على شرط حفظ الأوراق المطبوعة في محل مظلم خوفاً من تأثير الضوء عليها قبل التثبيت. ويتمم العمل كما ذكر بالغسل وبمغطس ملح الذهب ثم بالمغطس المثبت بوقت واحد.

واعلم انه إذا كان المقصود نقل صورة بناء أو بلد أو أرض متسعة أو شارع يشترط في الغالب نزع العدسة الخلفية من الأوبجكتيف أي عنق الخزانة المظلمة وقد مر ليكون منظر هذه المرئيات جلياً على لوح الزجاج الغير الصقل. ولا خلاف بين أن تكون هذه المنقولات بعيدة أو قريبة. وهذا النوع من التصوير أي باعتبار المنقولات يسمى عندهم بالباييزاج. وأما إذا كان المقصود نقل صورة شخص أو

أشخاص يشترط بقاء عدسات الأبجكتيف بتمامها. ويجب انتخاب محل موافق يكون غالباً طوله آخذاً من الشمال إلى الجنوب ويجعل الشرق والغرب إلى جانبيه ويجعل ظهر الشخص المراد نقل صورته إلى الجدار الجنوبي. ويجب أن يكون هذا الجدار منسداً لا فتحة فيه. ويختار أن يغشى بلون رمادي ويسمى هذا الغشاء بالغون وربما نقش عليه بعض تماثيل أشجار أو غيرها من المناظر الحسنة. وقد يوضع إلى جانب الشخص المنقول شيء نظير مائدة صغيرة عليها كتب أو شيء آخر وكل ذلك عائد إلى الاستحسان .وأما سطح هذا المحل فيختار أن يكون كالجملول أي ذا سطحين مائلين أحدهما إلى الشرق والآخر إلى الغرب مصنوعاً من الزجاج مستتراً من أعلاه مع جانبي الجدارين الشرقي والغربي ببردايات أي ستائر ذات حلقات لكي يتمكن من نشرها عندما تكون أشعة الشمس أو النور الشديد داخلين إلى المحل وجمعها إذا كان النور قليلاً أو ضعيفاً لأن المقصود ايجاد نور معتدل يحسن وقوعه خاصة على وجه الشخص لتظهر هيئته على ما هي. ولا يكون النور واقعاً من الأعلى ولا من أحد الجانبين أكثر من الآخر لئلا يظهر على الصورة ظل يكون أسود اللون فيعيب منظرها على النسخة المنطبعة على الورق. ولا يكون النور ساطعاً تجاه وجه الشخص على خط مستقيم لئلا يضطرب نظره أو ينقبض وجهه بالعبوسة أو تخفي ثنايا أثوابه. والأجود أن يكون بعض الزجاج من الأعلى أزرق اللون وكذلك لون الستائر لأن هذا اللون يجعل النور متساوياً في كل جهات المحل والشعاع الساقط على الوجه غير ساطع. وقد تفنن في هذا الفن جملة من المخترعين والمجربين فنوعوا بعض تنويعات في أصل تركيب السوائل بقلة الأجزاء وكثرتها وإضافة بعض أنواعها على البعض الآخر. ومن المعلوم أن كثرة التجارب والامتحانات تصير الشخص ماهراً ويهتدي أحياناً إلى بعض ظواهر مفيدة له. هذا ما اخترت جمعه من هذا القبيل على سبيل الايجاز مقتصراً على المهمات الجلّي التي يستطيع ان يستعين بها المباشر في هذه الصناعة ويتفكه بمعرفتها المطالع. ولم أتعرض لذكر التعليل عن مفعولات أدواتها وقواها الطبيعية والكيماوية إذ لا يسعني الوقت لمثل هذا المبحث الطويل. ولا يخفى أن المضطر إليه للمباشرة إنما هو التفصيل عن كيفية العمل لا البحث عن أسباب وقوع مفاعيله. هذا وإني أؤدي جزيل الشكر لهمة أصحاب الفضل مؤسسي هذه الجمعية العلمية. التي جعلت لنا كوكب صبح العلوم في أفق بلادنا السورية. فجاءت مبشرة ببزوغ شمس الهدى على أقطارنا. واضمحلال غياهب الجهالة عن أبصارنا. وذلك في أيام حضرة صاحب السرير الأسنى مولانا الأعظم السلطان عبدالعزيز خان. أيّد الله سدته العليا مدى الدهور والأقران وبحسن التفات حضرة صاحب الولاية دولتلو أفندينا محمد راشد باشا المعظم. وعناية سعادة متصرفنا كامل باشا المفخم. فعلينا نحن أبناء الوطن أن نهتف إلى المسامع الإلهية داعيين بتأييد هذه الدولة العلية، التي فتحت لنا أبواب التمدن والآداب، وجلت شمس معدلتها السنية فأنارت الألباب. ولينهض كل ذي باع مشمراً إلى إقامة ما اغتالته أيدي الزمن ليبذل كل ذي همة همته في نجاح الوطن. ولله الأمر وعليه الاتكال. وهو حسبنا في كل حين وعلى كل حال، انتهى.

الخطبة التي تلاها إسبر أفندي شقير في الجمعيات وأسبابها وفوائدها

[المجموعة الثالثة من أعمال السنة الأولى. ص ٧٠ ـ ٨٥].

أحسن ما يقال ويفتتح به المقال هو الحمد لجود ربنا الواحد المتعال على ما خلق الانسان عليه من عقل يرجع به إليه، وبعد، لما كانت الجمعيات التي يبنى عليها حصول الخير على العموم أولى شيء

بالبيان تجاسرت عن عجز مني بالكلام عليها في ما يحق لها وينسب إليها استناداً على لطفكم الكريم وتطبيقاً لمشروع جمعيتنا العظيم بتيقيظ الناس من غفلة الوسن وتقديم وتنشيط اخواننا أبناء الوطن وهذه أول وقفة وقفتها، بمثل هذا المقام، وليس على رضيع أن يبني أهرام. فأقول:

إن الجمعية هي عبارة عن اجتماع بعض الناس للتعاون على قضاء أمر ما حيث قوة الواحد لا تكفي ومن ثم يكون بالتعاون ما بدونه لا يكون وما لا بد من كونه القيام باحتياجات الطبيعة في ما وضعت مضطرة إليه أو فيما وضعت على غنىً عنه لكنه تحدثه مجاراة لأهواء الطبيعة البشرية أو وصولاً إلى الدرجة التي تمتاز بها عن باقي الطبائع الحيوانية فتضمن ما تقدم احتياجات الانسان الأصلية الثلاث وهي ما لا تقوم الحياة أو تكون عرضة للأخطار والأتعاب بدونه: كالغذاء والكساء والمأوى والسلطان وما تقوم بدونه لكنه يستعمل آلة لارضاء احدى الحواس لفائدة ما تتم به كالزخرفة في الكساء والأثاث فإن الجسم يكون في ملجىء أمين من البرد والحر إذا التف بقطعة من القماش كما هو القصد الأصلي في اللباس ولا يحتاج أصلاً فيما يقضي الغرض المقصود أولاً لتنويع التفاصيل وتطويل الشراريب وكي القميص واستعارة أكمام وطوق لها•وهكذا المأوى أي البيت فإنه يقوم بخدمته بدون افتقار للنقش والقنصول والمرايات حتى وفي السقوف. الثالث ما يميز الطبيعة البشرية عن باقي الطبائع الحيوانية بتربية العقل وهو العلم الشريف. الجاعل الانسان انساناً بالفعل وإلاّ فبالقوة فقط والذي أظنه هو انه يمكن وضع العلم بين الاحتياجات الاضطرارية لأنه وإن يكن العلم أمراً يحدث بعد تقدم الانسان في الكمال وعلى ما قيل في المسلم قد عرف الانسان خالقه قبل امتداد قوة العلم فيه فإنه إما أن يكون قد أعطي على سبيل الوحي والإلهام ما عرفه خالقه وذاك هو العلم وإما أن يكون عرفه وقد عرفه معرفة غير تامة لعدم توصله بدون العلم الصحيح إلى إدراك قوة الأوصاف الإلهية•من لم يكن إلاّ انسان بالقوة فهو انسان غير كامل إذ الهيئة وحدها لا تميزه التمييز الأدبي المتمم حقيقة دعوته•فإن كل حيوان يمتاز بهيئته عن الآخر فإذاً من أجل أن يكون الانسان انساناً بالفعل يحتاج إلى العلم وإلاّ فيتوغل في الحيوانية غير مقيد بقيد ويبطل كونه انسان. وبناء عليه أقول: إن العلم بالمعنى يمكن أن يعد من الاحتياجات الاضطرارية.

ثم إن الجمعيات تختلف هيئة واسماً وعملاً باختلاف المقاصد وكل جمعية تتم فهي لقضاء احتياجات الانسان المذكورة وفروعها.

ولا تقضي حاجة أبداً بدون التعاون الذي هو نفس الاجتماع أو الجمعية فإن كل حاجة مما خلقه الانسان مضطراً إليها وغيرها يستلزم قضاهـا آلات كثيرة يصنعها رجال كثيرون لا يقدر عليها الواحد وإن قدر عليها فلا يكفيه لذلك العمر الانساني. أول الاحتياجات الغذاء فالحصول على كسرة خبز لا يتم بدون التعاون من أصحاب صنائع كثيرة فإنه يلزم لذلك فلاح وزراع وحصاد وطحان وعجان وفران وكل من هو لا يحتاج في صنعته لخلاف صنائع فإن الفلاح يحتاج إلى حداد ونجار والطحان إلى بناء وكلاس وهكذا بالتتابع حتى انه من تتبع ذلك بالفكر ظهر له أن العالم يشبه بدائرة مركبة من حلقات تتم بها الدائرة وتفتقر إلى كل حلقة لأجل تمام كونها دائـرة وان التعاون أمر تستلزمه الاحتياجات الانسانية بأنواعها استلزاماً كلياً فيتم اضطراراً في أكثر الأمور على غير قصد سابق من كل عضو من المشتركين وإذا تجرد الانسان الواحد لقضاء احدى الحاجات كالكساء مثلاً فربما يصرف حياته ومضعفها قبل الحصول على ذلك وان اعترض بأنه يمكن للانسان أن يغتذي بغذاء غير مصطنع كالبقول وقشر الأشجار ويستعوض عن الكساء بالمغائر وظل الاشجار فأجيب بما تقدم أن هذا يجعله انساناً بالقوة فقط ويوغله تعاقب الأجيال بالحيوانيـة فتفقد منه القوة المميزة ويتوصل إلى الحالة الوحشية والكلام هنا على احتياجات الانسان بالفعل.

ثم ان تنوع الاحتياجات يجعل جمعيات متنوعة ولكل حاجة تقام جمعية تلقب بعملها أو بالمراد منها للتجارة وتعرف بالتجارية ومنها للعلم والآداب وتعرف بالعلمية أو الأدبية ومنها للخير وتعرف بالخيرية وهلمَّ جراً. وكل مجموع الناس هم جمعية يمكن أن تعرف بألقاب مختلفة ويمكنها أن تلقب بالمعاشية وهذه الجمعية العمومية. وكل جمعية خصوصية يمكن أن تلقب بالاحتياجية فإن الجمعيات على اختلاف أنواعها تكون كما تقدم لقضاء الاحتياجات. ثم إن كل جمعية هي إما أصلية وإما فرعية وإما أصلية وفرعية معاً بالنظر إلى الزمان والمكان. فتكون أصلية وفرعية معاً من كون أن مجموع الجمعيات المتماثلة هي عبارة عن جمعية واحدة متفرقة الأعضاء إذ كلها تشتغل لقضاء أمر واحد فتكون كل واحدة أصل للأخرى وفرع لها وتكون أصلية أو فرعية فقط فهذا إذا نظرنا به إلى بلاد واحدة وزمان واحد فتسهل معرفته معتبرين التي قامت أولاً أصلاً وما بعدها فرعاً لها. أما إذا نظرنا إلى ذلك في العالم أجمع مع اختلاف الأزمنة تصعبت المعرفة علينا إذ على ما أظن لا يمكن التوصل إلى معرفة الجمعية التي قامت أولاً لكننا يمكنّا أن نسميها بالاحتياجية المعاشية فإن الاحتياجات الأولى للانسان ليست إلى أكثر من المعاش إذ لا بد عن وجود اثنين من احتياجات ومن ثم من جمعية.

أما أسباب الاجتماع فهي على نوعين منها ما تستلزمه أسباب المعيشة وهذا يتوصل إليه الانسان طبعاً بما يقتضيه من ضرورة قيام الحياة وخلافها وهو التعاون الكائن بين أنواع الناس من حيث حرفهم فكل من أعضاء تلك الجمعية العمومية إذ يرى ذاته مفتقراً في قضاء حاجاته إلى غيره وغير قادر على قضائها يتوافق مع غيره على تبادل الآلات والاحتياجات فيتم بذلك نوع الاجتماع. نعم إن ذلك التوافق لا يظهر لكنه حاصل طبعاً والعمل جارٍ عليه وكل تراه يشتغل في أمر واحد رجاء منه بقضي تمام حاجاته بما يشتغل به غيره كما إن غيره يشتغل على نفس الرجاء ولا بد من هذا التعاون في قيام الحياة ونظام المعيشة.

ومنها ما ليس بأضطراري لكنه تكميلي وهو لقضاء الحاجات الغير اضطرارية فيكون في الغالب لزيادة أمر أو تقليله. لجلب خير ودفع ضرر للإصلاح وبالاجمال لكل ما من الأمور يقتضي اجتماع الناس لإتمامه كيف كان نوعه وهذا يتسبب عن ميل الانسان الطبيعي لزيادة سعادته وإلى التوصل لما يجهله مما هو فوق القوة الشخصية فإنه ما دام الانسان يرى أموراً يجهل أسبابها لا ينفك عن طلب إن لم يكن كل المعرفة فجزء منها. الانسان بالطبع يفتش، بالطبع يسأل ويستعلم، بالطبع يحب امتداد سلطان المعرفة على كلما تشعر به الحواس. وإذ كانت القوة الشخصية عاجزة عن إدراك الكل إدراكاً تاماً كان لا بد في كل وقت من وجود جمعيات للتعاون ببلوغ المراد وتكون أهمية الجمعية بحسب حالة القوم العلمية. وتكون عن شوق من البعض لسعادة غيرهم بإيجادها من حيث لا سعادة أو بالمحافظة عليها عند الخوف على زوالها. وبناءً على ذلك لما رأى البعض من سكان هذه المدينة الاحتياج الكائن لتهذيب الأخلاق وترويض الأفكار اجتمعوا لقضاء هذه الحاجة وأسسوا هذه الجمعية لما رأوا أن الجهل عمَّ العموم وخيفَ من عواقبه المؤلمة أقاموا مدارس، طبعوا كتب. وهكذا لما أراد أهل أوروبا الكمال في الأعمال لم يكتفوا بما عندهم من وسائط التقدم بالتجارة بل شرعوا تحت أخطار عظيمة بفصل برّيْن ووصل بحرين بواسطة خرق برزخ السويس أمر يدل السعي لاتمامه على شدة ميل الانسان للتقدم وعلى عظم جسارته الغريبة ومثل هذه الأسباب حملت البعض على وضع سكك الحديد ونقلها من بلاد إلى أخرى على تسيير سفن البخار وسط البحار على مد سلك الكهرباء العجيب. وبالجملة أقول إن هذه الأمور وما ضاهاها لا تتم بدون التعاون والتعاون أسبابه كثيرة وكلها تنحصر في واحد وهو ميل الانسان الطبيعي لزيادة سعادته أو قضاء حاجاته على اختلاف أنواعها ثم وإن يكن هذا الميل مسلماً به عند

الجمهور تسمحون لي أن أذكر عليه بعض أدلة ألا ترى ان الانسان يميل بالطبع إلى معرفة ما لا يعرفه وأنه إذا عرف بداية خبر حب معرفته بجملته وإذا سمع قسماً من قصة تعطّش إلى سماع كمالتها. وبناء على هذا المبدأ يقف أصحاب الحكايات في قصّ قصصهم على المعاني القابلة بذاتها جذب العقل إلى كمال معرفتها. وكثيرون ممن هذه الحاسية هي قوية بهم إذا أخذوا كتاباً ليطالعوه انصبوا على مطالعته حتى تصفحوه دفعة واحدة. ولنفرض وصول رجل غريب إلى شط بحرنا مع رجل من البلاد فبالحال يأخذ ذاك الغريب بالاستعلام عن أسماء وأحوال كلما هو تحت نظره حتى إذا انتهى سأله وماذا يجد وراء ذاك الجيل أي على ما ليس تحت نظره بل بفكره. وتختلف الأسباب كما تختلف الجمعيات. وكلها إما أن يقصد بها وينتج منها خير الجمهور وهي الأفضل والأحسن لأنها تعم بفائدتها العموم والخصوص، وإما أن يقصد بها خير الخصوص وينتج معه خير العموم بالملازمة وهي المتوسطة، وإما أن يراد بها خير الخصوص ويكون معها ضرر العموم وهي الأقبح كما لا يخفى وبالجملة ان أحسنها والتي يجب السعي بها ما تعم فائدتها الجنس البشري.

وأما فوائد الجمعيات فيخبرنا جمعياً تاريخ الأوقات عن فوائد الجمعيات، علمية كانت أو عملية، بأنه لم يقم أبداً أمر محسن للأحوال على ممر الأجيال إلاَّ باجتماع الرجال على وضع واجراء دستور يتكفل بإصلاح الأمور كلما يسمع عنه في أوروبا من قوة وغنى وعلم ومعارف ونفوذ واتحاد. وكل أمر حسن فهو، يا أسيادي، ثمرة الاجتماع. بلادهم بجملتها لا تأتي بالمحصول الذي يأتي به أحد أقاليم قطرنا ومن ممالك أوروبا ما لو تجردت عن المعاملات الخارجية لم تقم بمعاش نصف ساكنيها ولو اشتغلت معاملها بمحصولاتها لبطل أعظمها ومع ذلك فهم بالنظر إلى العدد بالنسبة إلى المساحة أكثر منا عدداً وأكثر منا مالاً ونجاحاً لما رأوا أن بلادهم لا تقوم بمعاشهم أو بالحري لما حبوا زيادة التقدم اجتمعوا بكل مكان في كل نوع وتفرقوا على وجه الأرض. ثم تواصلوا بمواصلات الأكوان وهم قوتين البخار والكهرباء العظيمتان فاستولوا على زمام التجارة وتنعموا بأرباحها وقل من يزاحمهم اغتنموا الفرصة وأتوا نحونا كما ذهبوا نحو غيرنا عارفين قيمة تركة أجدادنا. ففتشوا بالتدقيق وأخذوا ما أمكنهم من كتب ومعارف وغير مآثر أدبية وأخذوا عن العرب معرفة استعمال الحك (أي القبله نامة) في سفر البحر. وبعد ان كانوا يسافرون متتبعين الشطوط صاروا الآن بلا خوف يقتحمون جوف المحيط. أخذوا عن العرب حسن استعمال البارود ثم الورق وساعدهم ذلك على تنفيذ أمرهم وتوسيع دائرة علمهم ثم رجعوا بذاك الرأسمال الأزلي فأخذوا بعده المال. لهم تفلح الأرض ولهم تربّى المواسم وتقدم لهم نتائج الأرض فيأخذونها ويرجعوا بها نفسها تحت هيئة جديدة مصطنعينها بما عملهم على أشكال متنوعة فيبيعون بمائة ما أخذوه ربما بواحد. أسلافنا ما أشعرت نظيرنا بذلك ونحن لحد الآن وإن كنا نعرف فدرجة معارفنا لا تسمح لنا بإجراء اللازم لا بد للأمور من طرق طبيعية تجري عليها في تقدمها وانحطاطها فنقطعها في مدة غير معلومة إنما هي موقوفة على ما يتعرض لها في مجرى الطريق فربما أسرعت الوصول وربما أبطأته وهذا منظور به إلى جرأة الرفيق وكل شيء بيد الله فيوصل من أراد ويعمل مما شاء في كل حال وناد. وهكذا فإنهم لم يزالوا مجدين الطلب حتى إذا أمكنهم الحال لا يبقون لغيرهم شيئاً ولم يدهم ذلك بلاداً واحدة. هكذا كان ولم يزل حظ كل بلاد حطها الجهل ولم يرفعها العلم أصاب بلادنا ما أصاب الهند ومصر وفارس والمغرب وكل الشطوط البحرية وبالاختصار كل بلاد استعبدتها الغباوة. نجحوا بالمحبة وفازوا بالاتحاد وتنعموا بعد ذلك الضيق بخيرات العالم ونحن لحد الآن لم يكمل حظنا بمشاركتهم وما ذاك إلاَّ لأسباب دورية عرضت وستعرض على من سلف أو عاصر وهكذا بعد أن كنا خزانة للأدب وروضة مزهرة بأنواع العلوم والفنون تتقاطر الناس لتنشق طيبها من

كل فج عميق ثارت تلك العواصف الطبيعية فشتت شمل ذاك الاجتماع ثم أعقبها ما أوقف الناس عن السير وراء ما قد فقد في تلك الدهشة. وأصبحوا متأسفين وأي تأسف على ما فر منهم ولا يسمح لهم الأمر بإرجاعه حتى آن الآن الأوان وأشرق نور العدل والعلم بكل مكان وزالت تلك العوارض مدبرة على نفس الطريق التي أتت عليها فسعت إذ ذاك الناس لنيل ما يحسن الحال من علم وغير أعمال مما يجلب السعادة والاقبال، فكثرت المدارس والمطابع والمؤلفات. وأخذ يرجع إلينا ما ظن انه قد مات وفات بمساعدة أهل الغيرة والحمية من رجال الدولة العلية ومن منحوا المحبة الوطنية وبحق يقال إننا اهتدينا إلى الطريق المستقيم وأخذنا نصعد على سلم التقدم العظيم. وإن شاء الله بالانتقال من درجة إلى أخرى نتوصل إلى تلك الدرجة العظيمة التي كانت عليها أجدادنا ويرتع الآن عليها أهل الأقطار المتمدنة كما رتع من سبقهم في الأجيال السالفة. والأمل بذلك وطيد بناء على ما هو معروف بالعرب من حسن الاستعداد وسرعة التناول والنجاح المشهود لهم به في العالم أجمع لا سيما ما أعطاه أجدادنا من البراهين الفعلية على ذلك. فإنه بمدة قصيرة توصلوا إلى ما توصل إليه غيرهم بأكثر من مضاعف زمانهم من توسيع أراضي وعز ومعارف ومخترعات حملت يمينهم سيفاً وقلماً وخدمتهما بوقت واحد أمر مستغرب قلما يحدث بغيرهم. فإن كنا أبناء أولئك الأقوام فما المانع أن نماثلهم بهذه الأيام. ثم مهما تكن الجمعيات كثيرة الأنواع فكلها مديونة بوجودها للجمعيات العلمية، وما لم تكن بوجودها فباصلاحها ونظامها وكلها من فوائد الجمعيات العلمية. ومن فوائدها إجماع الآراء المختلفة على رأي واحد تمكين المحبة والإلفة اخراج أفكار من يعلم وإفادة من لا يعلم. ولا بد للكل من فائدة عمومية في تبادل الأفكار إذ لا شك بأن العقل الواحد لا يمكنه احاطة كل شيء بكل شيء ففي الغالب يكون للانسان هوسٌ في فن واحد فيبرع به. ولا يسمح الزمان للانسان أن يبرع بكل فن ولسان ولذا يستفيد كل من الآخر بما لم يعلمه وتكون إفادة الجمعية في العموم بحسب حالتي أعضائها والبلاد العلمية. فإنه سنة ١٨٦٠ للمسيح تأسست في باريس جمعية علمية معروفة باسم الجمعية البهو التخنية أي الاجتماع على جملة فنون متنوعة بهذه الكلمات: للوطن، للعلم، للمجد. كلمات جميلة تدل على حسن مقاصد تلك الجمعية وقد تعين من الأعضاء معلمين في كل فن، منهم: للصرف والنحو، ومنهم للفلسفة، ومنهم للطبيعيات، وهلمَّ جراً، وكانوا يتفرقون بأقسام المدينة لإعطاء الدروس العمومية حتى ثقل الأثر على المعلمين فحصروا التعليم في محل واحد. وقد ساعدتهم وزارة المعارف وعرفت البلاد صنعهم الجميل وفي كل سنة يخرج مؤلف أو اثنين من أعمالهم ولحد هذه السنة صار الخارج منها ثمان مجلدات ولم تزل هذه الجمعية آخذة بالعمل ويوجد غيرها في باريس وفي أكثر مدن فرنسا على هيئات مختلفة. وهكذا في انكلترا وجرمانيا وكل بلاد متقدمة. فإنه على ما قيل كان معظم تقدم أوروبا في كل نوع بواسطة الجمعيات لأنها نشرت المعارف. والمعارف أسُّ الأعمال الجيدة نحن أشد الناس احتياجاً لمثل هذه الجمعية فإنها من أعظم الوسائط لإصلاح الحال واجتماع ما فرقته أيدي الأجيال ما لم تجتمع الناس على اختلاف أحوالهم على مائدة عمومية واحدة لا يتم لهم أمر من الأمور النافعة طالما لم يعرفوا مبادٍ عمومية يسعى كل بنجاحها ورأياً عموماً يتبعه كل منهم لا يتوصلوا أبداً إلى حالة السعادة. وهذا الاجتماع لا يتم إلَّا بواسطة الجمعيات حيثما لا بد من اجماع وإعضاد المبادىء الحسنة، ومن ثم من إزالة روح الانقسام والتعصب، ليس من بين المجتمعين فقط بل ومن صدور الجمهور بالكلام الفعال شفاهاً أو خطاً. العلم لا شك ثمرة مستنظرة وطبيعية للجمعية، العلم أبو كل أمر حسن وأمه وأسّه، العلم انشروا ولا يبخل أحد به، العلم كنز لا يكون ولا يجب أن يكون عند البخيل، كل عالم مديون بعلمه لمن لا يعلم لأنه لم يحصله إلَّا بمساعدة من سلف أو عاصر. من عرف واسطة إصلاح حال قريبه ولم يكشفها له كان محباً لذاته فقط وهو على رأيي أشقى حالة ممن يسرق الكنوز الذهبية لأنه يسرق ما هو

أثمن من الذهب حياة العلم انتشاره كلما جزئته كلما عظم وكل صاحب شيمة يجد ما أمكنه لتعميم العلوم. أسيادي، الذين أسستم والذين اشتركتم تمموا مشروعكم بكلما يتعلق به ويلزم له جهد طاقتكم واخبروا بأنه لا يُكتفى أن يقال كان جدي وكان أبي، فإن هذا عذر أقبح من ذنب وسبب للاحتقار لا للاعتبار. يقول: المرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت، المرء بنسبه لا بحسبه، بجِده لا بجَده.

كن ابن من شئت واكتسب أدباً يغنيك مضمونه عن النسبِ
إن الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبي

ولا تكن قلة العدد داعياً لضعف الأمل فإنه لا بد من ألف باء أي بداية لكل عمل. نجاح الأعمال يتوقف على حسن المبادىء الموضوعة عليها فإن عمَّت فائدتها تثبت وان تخصصت ربما تسقط وبما أن كثرة الاشتراكات هي ركن من أركان الثبات يقتضي استمالة الجمهور، والاستمالة تحصل إن لم يكن بالبرهان النظري فستكون إن شاء الله بالبرهان العملي إذ معاملة الشجرة موقوفة على نوع ثمرة، والأمل اسّ العمل. كثير من الجمعيات العلمية التي لم تتألف في الابتداء إلاَّ من أقل من عُشر عددنا صارت الآن ذات عدد غفير ونفع كبير. الإرادة والإدارة والثبات تفوق كل الصعوبات. الغنى لا يكون بالمنشأ من جدَّ وجَدَ ومن أراد فعل من مشى على الدرب وصل ومن ابتدأ انتهى.

صورة الأمر الصادر من جانب ولاية سورية الجليلة إلى رئاسة الجمعية جواباً عن المعروض المتقدم

[المجموعة الثالثة من أعمال السنة الأولى. ص ٨٦].

إن تحريراتكم البهية الواردة بتاريخ ٩ ذي الحجة سنة ٨٤ المفيدة إرسال احدى نسخ مجموعة العلوم التي صار طبعها من طرف الجمعية العلمية مع الإفادات الأخرى قد صار مطالعتها مع المجموعة المذكورة والهمة المنصرفة من جانب الجمعية المذكورة بإبراز مآثر المعارف على هذه الجهة استلزمت وفور المحظوظية وبلا اشتباه بحسب المداخلة الطبيعية المرتبة للجمعية المذكورة لا يحصل التأخر عن اجراء المعاونات لها وبياناً للممنونية صار ترقيم شقة محبكم هذا.

عن شام ٢١ محرم سنة ٨٥ و٢ مايس سنة ٨٤
٢١ محرم سنة ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨ م

إن جناب الخواجا ديمتري سرسق أهدى مكتبة الجمعية كتاب المرآة السنية في القواعد العثمانية تأليف حضرة صاحب الدولة والفخامة فؤاد باشا وحضرة صاحب الدولة أحمد جودت باشا المستخرج من التركي إلى العربي بقلم القس لويس صابونجي وإشعاراً بممنونية الجمعية لجناب المومى إليه بادرنا بإعلان ذلك.

* * *

إنه غني عن البيان أن المشتركين في الجمعية لا يكلفون إلاَّ بدفع المرتب السنوي.

أعمال الجمعية العلمية السورية في بيروت
المجموعة الرابعة من أعمال السنة الأولى

[بيروت. المطبعة العمومية، ١٨٦٨. ص٨٧ - ١١٤].

إنه في مساء الأربعاء الواقع في ١٠ ذي القعدة سنة ١٢٨٤ هـ و٢١ و٤ آذار سنة ١٨٦٨ م صار فتح اجتماع من المشتركين تلى به عبدالرحيم أفندي بدران خطبة في النحو، ثم تلى ملحم أفندي فارس خطبة في معرفة أعضاء جسم الانسان ووظائفها.

الخطبة التي تلاها عبدالرحيم أفندي بدران في النحو

[المجموعة الرابعة من أعمال السنة الأولى. ص ٨٧ - ٩٦].

حمداً لمن رفع قدر من انخفض لعلاه، ونصب رايات مجد من نحا نحو أمره ورضاه، وصلاة وسلاماً على جميع الأنبياء الكرام المرسلين بأمره لجميع الأنام، وعلى جميع الصحب والآل المميزين بصدق المقال.

وبعد، فهذا خطاب في التكلم على علم النحو وفوائده وسبب انتظام غرر درر قواعده، والواضع له ومتمميه والغاية من وضعه ومبانيه، ذاكراً ذلك على سبيل الطي والنشر حاثاً فيه على معرفته أهل هذا العصر، مقدماً على ذلك مقدمة في الكلام على مطلق اللغات موضحاً بها بعض ما للغة العرب من الخصوصيات، قائلاً: إعلم ان اللغة هي عبارة المتكلم عن المقصود وتلك العبارة فعل لساني كما هو محدود، وهذه العبارة المخصوصة بالاشارة لا بد أن تصير ملكة متقررة في اللسان، وهو العضو الفاعل لهذا بهذا الاتقان، وهو في كل قوم بحسب اصطلاحاتهم على بيان مقاصدهم وحاجاتهم. وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد والحاجات لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني وإيضاح خوافيها، مثل الحركات التي تميز الفاعل عن المفعول وتبين المعلوم من المجهول، كالحروف التي تفضي بالأفعال إلى الذوات من غير تكلف إلى غيرها من الكلمات. ولا توجد هذه الخصوصية إلّا في اللغة العربية، وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حالة لا بد لها من ألفاظ تخصها بالدلالة ولذلك نجد كلام غير العرب في مخاطباتهم أطول مما نقدره بكلام العرب وإشاراتهم. فصار للحروف في لغتهم والحركات والهيئات، أي الأوضاع، اعتبار في الدلالة على المقصود والحاجات غير متكلفين فيه لصناعة يستفيدون منها تلك البضاعة. وإنما هي ملكة غريزية في ألسنتهم يأخذها أولهم عن آخرهم كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا. وإلى هنا أكتفي بالكلام على ذلك وأبتدىء بالمقصود على ما وعدت به هنالك.

إعلم ان النحو علم مستخرج بالمقاييس الصحيحة المستنبطة من استقراء أحوال أجزاء كلمات العرب الفصيحة الموصلة إلى معرفة الأحكام التي إئتلفت منها هاتيك الأجزاء بالأحكام. أما فائدته الأنيقة الباهرة الحقيقة فهي معرفة صواب الكلم من خطإه. وأما غايته المطلوبة المألوفة المرغوبة فهي الاحتراز عن الخطأ في الكلام بحيث لو تكلم الانسان لوصل إلى الصواب على أتم المرام. وأما موضوعه العجيب الباهر الغريب فهو الكلمات العربية المفيدة البهية من حيث عروض الأحوال لها حال

تركيبها مثل حركات الاعراب والبناء وما شاكلها. وأما الواضع لحده والناظم لفرائد عقده فقيل أبو الأسود الدؤلي واسمه ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل بن يعمر بن حلس بـن نفاثه بـن عدي بن الدِّيل بن بكر الديلي ويقال الدؤلي من بني كنانه وفي اسمه ونسبه اختلاف كثير ومولده سنة أربعة عشر ووفاته سنة تسع وتسعين للهجرة، تم.

أما السبب في وضع هذا العلم الفائق على هذا الاسلوب الرائق هو: إنه لما قويت العرب، ورأوا أن نيل الملك أمر مستحب ساروا لطلب الملك الذي كان بأيدي الدول والأمم، وفارقوا الحجاز وخالطوا العجم. فباختلاطهم تغيرت منهم السليقة واتلفوا اللحن واتبعوا طريقه فدخل أبو الأسود إلى زياد بـن أبيه والي العراقين في البصرة وقال له: أصلح الله الأمير اني أرى العرب خالطت الأعاجم فتغيرت ألسنتهم أوَ تأذن لي أن أضع للعرب علماً يقيمون به كلامهم ليتحسن به لسانهم. قال: لا. ثم جاء زياداً رجل فقال: أصلح الله الأمير توفا أبانا وترك بنون، وكان الصواب أن يقول: توفي أبونا وترك بنين، فقال زياد: ادعو لي أبا الأسود، فجاء فقال له: ضع للناس ما نهيتك عنه فوضع لهم علم النحو. انتهى.

قال أبو حرب بن أبي الأسود: أول باب وضعه أبي من علم النحو باب التعجب. وقيل: أول من وضع علم النحو نصر بن عاصم وقيل غيره، والصحيح أول من ابتكر وضع علم النحو الإمام علي بن أبي طالب وذلك إنه كان مرة في البصرة فسمع اللحن من أهلها مرة بعد مرة فدخل عليه يوماً أبو الأسود وحيّاه فاستقبله علي، كرم وجهه الله، ورآه حينما دخل مطرقاً مفكراً فقال له أبو الأسود: فيم تفكر؟ قال: إني مفكر فيما سمعته في بلدكم هذا من اللحن وأريد أن أضع كتاباً في أصول العربية التي هي في الفصاحة حرية. فقال له أبو الأسود: إن فعلت ذلك بقيت فينا هذه اللغة ثم أتاه بعد ثلاثة أيام فألقى إليه صحيفة فإذا فيها مكتوب: الكلام كله اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل. ثم أمره أن يتتبعها ويزيد ما يقع له فيه ويوضح جميع خوافيه. فأخذ يزيد فيها قوانين مانعة وروابط جامعة مؤسسة على نسق غريب سالكاً فيها مسلكاً عجيباً. ثم كتب في الناس من بعده واستنبطوا من مجاري كلام العرب قوانين لملكتهم مطردة شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه مثل: إن الفاعل مرفوع والمفعول به منصوب والمبتدأ وخبره مرفوعان والمضاف إليه مجرور. ثم لما رأوا ان تغيير الدلالة يحصل عند تغيير حركات هذه الكلمات فاصطلحوا على تسميته إعراباً، وتسمية الموجب لذلك التغيير عاملاً وأمثال ذلك. وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة إلى أن انتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي أيام هارون الرشيد عند اشراق شمس التقدم في أفق المعارف واظهار نتائج الأفكار في صحف الأسرار واللطائف. فهذب الصناعة وكمل أبوابها وبين ضعيفها وصوابها وأخذها عنه سيبويه فكمل تفاريعها واستكثر من الأدلة والشواهد ورتب الفصول ووضح القواعد ووضع فيها كتابه المشهور الذي صار إماماً لكل ما كتب فيها من بعده، ثم وضع أبو علي الفارسي وأبو القاسم الزجاج كتباً مختصرة للمتعلمين يحذون فيها حذو الإمام في كتابه. ثم طال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها في الكوفة والبصرة وكثرت الأدلة بينهم وتباينت الطرق في التعليم ثم جاء المتأخرون واختصروا كثيراً من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع ما نقل كما فعله ابن مالك في كتاب التسهيل وأمثاله أو اقتصروا على المبادىء للمتعلمين كما فعله الزمخشري في المفصل وابن الحاجب في المقدمة. ومنهم من تكلم به نظماً تسهيلاً للحفظ مثل إبن مالك وإبن معطي وغيرهم مما لا يسعني هذا المقام لتسمية أولئك الكرام. والتآليف بهذا الفن أكثر من أن

تحصى أو يحاط بها وتستقصى. ووجه تسمية هذا الفن بالنحو لأنه حينها ألقى علي الصحيفة لأبي الأسود المكتوب فيها تلك القواعد الحسنة والمبادىء اللطيفة المستحسنة قال له: ضع نحو ما وضعت، فلهذا السبب دعي بعلم النحو. هذا، ولا فائدة لتطويل الكلام في هذا المقام لأن هذا القدر كفاية لمعرفة هذا المرام.

فيا أيها النبلاء الكرام والأماجد الفخام عليكم بتحصيل علم النحو اللطيف والاهتمام باتقانه المنيف فإنه مفتاح أبواب العلوم وواسطة كل منطوق ومفهوم.

بالعلم تزداد العقول محاسناً — فأطلبه في الأوقات قبل براحها
فالعلم أبواب وعلم النحو مفـ — ـتاح لها فاحرص على مفتاحها

فإنه يجب على كل من يريد الاطلاع على فضل لغة العرب والاكتشاف على نفائس فنون الأدب الاشتغال بتحصيل علم النحو الشريف والاهتمام لتحصيل ذاك الفن الظريف. حيث لا يمكن فهم ما تكلمت به السلف من النظم والنثر وإدراك ما نالته الخلف من العز والفخر إلاّ بعد الاستحصال على معرفة هذا العلم البديع واستدراك التحفظ عن الخطأ بدخول هذا الباب المنيع فيه تتضح المعاني الصحيحة وتنجم الألفاظ الفصيحة. فإنه ولو كان المقصود به ضبط الألفاظ العربية، فكما لا يخفى ان فهم المعني يكون لها بالتبعية. فهو مضمار العلوم والآداب وكفتا ميزان الخطأ والصواب فلا يحسن التلفظ إلاّ من فهم أصوله وطرق أبوابه وعرف فصوله:

النحو يصلح من لسان الألكن — والمرء تكرمه إذا لم يلحن
وإذا طلبت من العلوم أجلّها — فأجلّها منها مقيم الألسن

ألا وإن العرب نالوا بفصاحة لسانهم فضلاً عن ما خصوا به من قوة جنانهم فخراً وأي فخر على أمم كل عصر. فهم الغر الكرام أهل السيوف والأقلام، أهل الفلاح، أهل النجاح. إن لفظ لسانهم سحر وإن نظم فكأنما ينظم درر يسكنون في بيوت أشعارهم حور المعان وينثرون في طرق كلامهم ولدان البيان ويطوفون على الأسماع بمدام الاستعارة ويحلوا ببديع براعتهم انشاء العبارة. يصرفون أوقات الأنس على اقتطاف ثمرة الآداب ويتفاكهون ثمار الإعراب، ويتنافسون بإصلاح اللسان، ويزينون ألفاظهم بقسطاس الأذهان كأنهم سمعوا قول القائل من القوم الأفاضل:

ولا تعد إصلاح اللسان فإنه — يخبّر عن ما عنده ويبين
ويعجبني ذيّ الفتى وجماله — ويسقط من عينيَّ ساعة يلحن

فيجب علينا معاشر العرب ومعادن الأدب إحياء هذه اللغة التي هي أشرف اللغات وضعاً وأتقنها صنعاً وأكثرها غروبة وأقلها بالنسبة لعظمها صعوبة وألطفها كلاماً وأحسنها نظاماً. وهل نرى ان علماً اشتغل فيه ذلك الاشتغال يقع في زوايا الاهمال ولا يلتفت إليه مع خدمته لنا أسلافنا الكرام ونمقته علمائها العظام. كيف وهو هدية منهم الينا وغيرة منهم علينا فإني أرى من أعجب العجاب الرضى بتكفينه بالأوراق ودفنه بين دفتي الكتاب فلعمري ما ألفته أولئك القدماء الأخيار وأنشأته في ذلك الأعصار إلاّ ينتشر في سائر الأقطار ويشتهر في كافة الأمصار. فما بالنا اشتغلنا بتعلم غيره وتركناه والتفتنا لمعرفة ما دونه ونسبناه مع قدرتنا على حفظ قواعده الجليلة وإدراك رقائق مسائله بأوقات قليلة:

ولم أر من عيوب الناس شيئاً — كنقص القادرين على التمام

ألسنا أشد احتياجاً إليها من سواها وأعرف بفضلها ممن عاداها وألزم إليها من سائر الأوقات

وأعرف فيها بالمحاورات والمخابرات وأضر إليها لدى فهم التأليف المفيد والتكلم وقت اجتماع كهذا الاجتماع سعيد. نعم ثم نعم، نحن ذلك المحتاجون إليها المعولون في أهم تكلمنا عليها ولأكتفين الآن بهذا التشوق لها والتعشق بها لمن عنها لهى. راجياً من حضراتكم غض النظر عن هفوات اللسان في هذا الشأن متشكراً ممن يظهر علامة السرور بقبول هذا الخطاب. تَمّ

الخطبة التي تلاها ملحم أفندي فارس الطبيب في أعضاء الجسم ووظائفه

[المجموعة الرابعة من أعمال السنة الأولى. ص ٩٦ - ١١٣].

نحمد الله على نعمه التي منها خلقنا في أحسن تقويم ونشكره على أفضاله إذ حسن خلق الأدمي عما عداه وجعله بشراً قابلاً للفهم والتفهيم سبحانه من إله تحيرت العقول في بدائع مصنوعاته واندهشت الأفكار في اتقان مكوناته أحصى كل شيء بعلمه المحيط بالجليات والخفيات وقدر الآجال والأرزاق ودبر جميع المصنوعات وخلق الانسان من ماء وطين وجعله نطفة في قرار مكين.

فهذا خطاب مني أنا الحقير به أُبيّن على وجه مفيد بالاختصار معرفة أعضاء الجسم ووظائفه المكونة للحياة. فالحياة حينئذٍ هي مجموع ظواهر الأجسام الآلية واستمرارها المدة المحدودة في الجسم ناشيء عما يدخل فيه من الجواهر الغريبة التي تستحيل إلى طبيعته ومما يلزم أخذه منها لقوته وخروج ما لا نفع به.

الجسم مركب من أجزاء صلبة وهي العظام الحاملة للأجزاء الرخوة والحافظة لها كعظام الجمجمة مثلاً فإنها حافظة الكتلة المخية من المؤثرات الخارجية وهكذا فالكتلة المخية هي جوهر عصبي قائم بوظائف عديدة وهي الاحساس والحركة والقوى العقلية والأخلاق والشهوات فيقوم بوظيفة الاحساس كونه متفرعاً منه فروعاً عصبية متوزعة في جميع الأعضاء فعند اللمس مثلاً بالأصابع يحصل تأثير في اطراف الأعصاب المتوزعة فيها ويسري هذا التأثير في الحال إلى المخ وبالطبع في قوته الحاكمة والمدركة فيعرف حينئذٍ الجسم الملموس ان كان خشناً أو ناعماً أو حاراً أو غير ذلك.

والاحساس على نوعين: إحساس إرادي وهو يحصل بواسطة الحواس الظاهرة، وإحساس اضطراري كإحساس الجوع والشبع والعطش وغير ذلك.

ويقوم بوظيفة الحركة لأنه يرسل أعصاب محركة لكافة أعضاء الجسم. والحركة على نوعين: إرادية كالانتقال من مكان إلى آخر، واضطرارية كحركة القلب والرئة والمعدة والإمعاء.

ويقوم بوظيفة القوى العقلية لأن هذه القوى موجودة فيه وتنقسم إلى قوة حافظة، وقوة مدركة، وقوة حاكمة، وقوة مخيلة، وقوة مصورة، فمن اجتماع هذه القوى يتكون العقل فحينئذٍ الأشخاص الهبل والمجانين لا تتم فيهم هذه القوى وإن وجدت تكون ناقصة.

ويقوم بوظيفة الأخلاق لأن الأخلاق نتيجة القوى العقلية. وذلك: كالرأفة، والقساوة، والطيبة، وحب الخير والشر، والأمانة والخيانة، وغيره.

ويقوم بوظيفة الشهوات لأن به يتم الطمع وحب الرئاسة والفرح والملاهي وغيره. فبواسطة القوى العقلية تنقل أعضاء الحواس إلى الدماغ تأثيرها ولكن لا يكون تمام الحس في التأثير ولا في النقل

بل الانتباه وحده فإنه يحيل الحس إلى إدراك فإن البندول مثلاً يمكن أن يضرب ولا يسمع صوته لعدم الانتباه فإذا حصل الانتباه حصل الإدراك ويصير الحس المدرك تصوراً. والتصور في حالة البساطة يستدعي حساً مدركاً من المخ. والتصور يوجد عند الانسان والحيوانات لكن الذي يميز الانسان عن الحيوان الغير الناطق هو أن الحيوان لا يوجد عنده إلاّ تصور بسيط، وأما الانسان يمكنه فعل تصورات كاملة بانتباهه إلى الاحساسات الراهنة والماضية. وبالاختصار فإن الانسان يتصور ويحكم ويوجد عنده خلاف التصور إحساس ميلي فمعظم أفعاله ومقاصده يلزم لها ميلاً يمكن أن ينسب أصله لاحتياجات عضوية. وبالجملة فالانسان يكون له إلهامات كالحيوانات لكن يكون الإلهام عند الحيوان خالي من التدبير أو هو ميل طبيعي أو قهري يحمل الحيوان على فعل أشياء لا يعرف علتها ولا منفعتها، وأما عند الانسان فالإلهام ليس هو إلاّ حركة نفسية يقودها الحكم والتمييز.

والإلهامات المرتبطة بجسم الحيوان تكون شرطاً ضرورياً لوجودها فيفتش الحيوان على غذائه ويهرب ليتخلص من أسباب التلف ويفتش على إنشائه ويبني مأواه ونحو ذلك. وغاية الإلهامات حفظ الشخص وحفظ النوع فمن إلهامات حفظ النوع عش العصفور مثلاً الذي يبنيه من قش أو تراب أو غيره. فهذا الفعل ليس بتعقل بل هو أفعال إلهامية تتعلق بحفظ الذات. ويوجد إلهامات لحفظ النوع بها يحصل حب الأنثى في أولادها فتدافع عنهم وتخاطر في حياتها عليهم وتغذيهم بفمها ومتى صار الأولاد قادرين على المعيشة زاحمتهم على الأغذية.

في وظيفة عضو البصر: البصر هو حاسة تكشف لنا الأجسام وتعرفنا خواصها، كاللون والشكل والحجم وحالة السكون والحركة ونحوه، ولأجل جودة هذه الحاسة يلزم أولاً: أن تكون الأجسام مضيئة. ثانياً: أن يكون الغشاء الحساس، أي الشبكية المتصلة بالعصب البصري المنوط بنقل التأثير إلى المخ، سليماً. ثالثاً: أن يوجد بين الجسم المضيء وبين الشبكية جهاز يجمع الأشعة المرسلة من الأجسام المضيئة ويطبع صورتها على هذا الغشاء. وهذا الجهاز هو المقلة. وكيفية انطباع الأجسام في العين، هو أنه يخرج من هذه الأجسام أشعة ضوئية تنعكس وتقع على أعضاء العين الشفافة فتمر منها إلى الشبكية وتنطبع فيها فمن ذلك يتأثر العصب البصري ويوصل هذا التأثير إلى المخ ليحكم عليه بقوته الحاكمة. وأما الأعضاء الواقية للعين هي: الحاجبان والأهداب والجفنان. فالحاجبان وظيفتهما ضعف [اضعاف] شدة الأشعة الضوئية الواقعة على العين من الضوء المستقيم للشمس، ومنع سقوط عرق الجبهة على العينين. وأما الجفنان يخدمان لتخليص عضو البصر من تأثير الضوء تخليصاً برهياً. والأهداب تقي البصر من الضوء الشديد والهباء الطائر في الجو. والدموع تندي المقلة وتسهل حركاتها وحركات الجفنين عليها، وتمنع الضرر الحاصل من احتكاك الأجفان لو كانت غير منداة.

وظيفة عضو السمع: عضو السمع يعرفنا الصوت والصوت نتيجة حركة اهتزازية لجسم رنان أحدث تموجات في الهواء كالتموجات التي تحصل في سطح ماء راكد ضرب بحجر. فإنه يشاهد في سطح الماء تموجات خلقية ذاهبة من مركز محل الرجّة إلى محيطها. فهذه التموجات تصل إلى الإذن فيجمعها حينئذٍ الصيوان ويدخلها في باطن الاذن فتقرع الغشاء الطبلي وهو يوصلها إلى الاذن الباطنة ومنها إلى العصب السمعي الذي يوصلها إلى المخ ليحكم عليها. ونقل الهواء للاصوات يستدل بما إذ علق جرس في ناقوس من زجاج مفرغ منه الهواء بواسطة الآلة المفرغة ورج ذلك الناقوس فلا يسمع للجرس صوت. ومدة التأثير السمعي يمكن قياسها بطريقة تقريبية بالحد السفلي للأصوات المدركة الذي يقابل ٣٢ صوتاً في الثانية. فيمكن حينئذٍ تقدير التأثير السمعي إلى واحد من ٣٢ من ثانية ويثبتان بالعجلة المسننة لسافار أو آلة جانبارلاتور التي هي آلة يتكون فيها الصوت بتعاقب صدمات. فمتى

كانت صدمات هذه الآلة لا تتجاوز ٣٢ صدمة في الثانية فإن الإذن تميزها ومتى زاد عددها عن ٣٢ صدمة فلا تقبل الإذن إلاّ صوتاً مستمراً لأن مدة التأثير الواقع من كل صدمة على الغشاء السمعي أطول من المسافة التي تفصلها. فالظاهرة التي تحصل هنا تكون شبيهة بالكلية بالظاهرة التي بها ترى العين دائرة من نار مستمرة عند دوران جمرة نار بسرعة مثلاً. وتوجد فوائد طبيعية للصوت وهو إنه إذا أطلقت بندقية من مسافة أربعين خطوة أو خمسين شوهد بريق الطلقة قبل سماع صوتها ببرهة. فإن كانت المسافة أقل من ذلك أدرك الصوت والبريق معاً، وكلما بعدت المسافة زاد طول الزمن بين رؤية البريق وسماع الصوت. وهكذا يحصل في الصاعقة فإنه كلما بعدت المسافة زاد طول الزمن بين رؤية البريق وسماع قرقعة الصاعقة، أعني الرعد. فعلى هذا لو أطلق مدفع وكان هناك جماعة بين كل منهم وصاحبه مائة خطوة فلا شك في أنهم لا يسمعون القرقعة في آن واحد، بل الأقرب للمدفع يسمعها أولاً، والذي يليه ثانياً، وهكذا. فعرف من ذلك أيضاً ان الأصوات تقطع في الثانية مسافة طولها ٣٤٠,٨٨ متر. فلو مسكنا ساعة وضبطنا الزمن الذي بين رؤية البريق الحاصل من المدفع أو الصاعقة واستمعنا الصوت لعرفنا طول المسافة التي بيننا وبين المدفع أو الصاعقة بالامتار.

حاسة الشم: حاسة الشم هي التي تعرفنا الروائح بوصول الهواء المتحمل بالأجزاء المنفصلة من الأجسام ذات الروائح إلى الخياشيم فتنطبع في العصب الشمي الذي يوصلها إلى المخ لأجل أن يحكم عليها. ثم إنه يوجد اختلافات في الحاسة الشمية فلا تتأثر جميع الأشخاص بالروائح على حد سوي. وهذه الاختلافات تتعلق بالتعود وبحالة المجموع العصبي فكثير من الجواهر الرائحية لا تكون لها رائحة بالكلية لبعض أشخاص دون الآخرين، كالرائحة العطرية الخفيفة لبعض الأزهار كالبنفسج. ويوجد بعض جواهر تؤثر تأثيراً لذيذاً على شم بعض الأشخاص وتكون كريهة عند الآخرين.

وظائف أعضاء التنفس والصوت: الأعضاء المتممة للتنفس والصوت هي الرئة والحنجرة والفم والأنف. فيتم الصوت في الحنجرة بواسطة دفع الرئة للهواء الموجود فيها كنافخ فبخروجه يحدث إهتزاز الأوتار الصوتية. فإن كانت هذه الأوتار مشدودة كان الصوت حاداً رفيعاً، وإن كانت مسترخية كان إبحا، وإن كانت الحنجرة متسعة كان الصوت ثقيلاً غليظاً. والرئة تصلح الدم بواسطة اوكسيجين الهواء الداخل فيها على التعاقب فالأوكسيجين يحيل الدم الوريدي أي الأسود الآتي من فضلات البنية والغير المغذي إلى دم شرياني أحمر مغذي. والهواء مركب من عنصرين غازيين، وهما: الأوكسيجين والآزوت. فالأوكسيجين صالح للتغذية والحياة، والآزوت عكسه. لكن المولى وفقهما وصيرهما باختلاطهما غازاً صالحاً للتغذية والحياة. وهو الهواء لأن لو كان الأوكسيجين على حالة الانفراد لكان مميتاً بسبب زيادة فعله بالحياة. فباتحاده بالغاز المميت الذي هو الآزوت صار مغذياً لطيفاً. فمثلاً لو وضعنا عصفوراً في غاز الأوكسيجين لاستقام حياً مدة قليلة ومات. وإذا وضعناه في غاز الآزوت يموت حالاً. فكل منهما على حالة الانفراد مميتاً. فالهواء الداخل في الرئة يكون نقياً، والخارج منها يكون مفسوداً. لأن اوكسيجين الهواء الداخل في الرئة يحترق في الحرارة الحيوانية ويصير غازاً محترقاً يسمى بالحمض الفحمي. فحينئذٍ إذا وجدت أشخاص كثيرة في مكان لا يتجدد هواءه فيصير هذا الهواء مشعباً بالحمض الفحمي وغير صالح للتنفس. فيلزم حينئذٍ أن يكون الجو العائش فيه الحيوان متجدد الهواء، فإنه إذا كان في مسافات محدودة تحصل له عوارض خطرة بسبب تراكم الحمض الفحمي والأبخرة الحيوانية. فعلى العموم يلزم لكل شخص في الحد المتوسط عشرة أمتار مكعبة من الهواء في الأربعة والعشرين ساعة لأجل منع كل مرض وضرر، أعني ان المسافة التي يقيم فيها الانسان ٢٤ ساعة متوالية يكون لها أكثر من ستة أمتار في جميع الجهات. والمسافة التي يقيم فيها ٨ ساعات أعني مدة النوم تقريباً تكون ٤,٥ متر

في جميع الجهات. فإذا لم يكن للمحل إلاّ ٢,٥ متر في الارتفاع يلزم أن يكون له ستة في الطول والعرض، هذا إذا كان السد محكماً ولم يتجدد الهواء في مفاصل الأبواب والكوات.

وظيفة القلب: القلب هو العضو الرئيس لقبول الدم وتوزيعه في البنية بحركة الانقباض والانبساط اللذان بهما القلب يدفع الدم إلى أجزاء الجسم من جهة ويقبله من جهة أخرى. لأن القلب مركب من تجويفين تجويف يميني يقبل الدم الوريدي الأسود بواسطة الأوردة ويدفعه إلى الرئة بواسطة الشريان الرئوي لأجل تصليحه، ومن الرئة يأتي إلى التجويف الأيسر بواسطة الأوردة الرئوية، والتجويف الأيسر يدفعه إلى الجسم بواسطة الشرايين لأجل التغذية. وهكذا فعل دائم ما دامت الحياة فعلى ذلك يوجد دورتان في الدم: دورة صغرى بها يندفع الدم من التجويف الأيمن للقلب إلى الرئتين لأجل تصليحه ومنها يرجع إلى التجويف الأيسر، ودورة كبرى بها يندفع الدم من التجويف الأيسر إلى الجسم ومن الجسم يرجع دم أسود للتجويف الأيمن وهكذا. وأما ضربات القلب الموافقة لضربات النبض لا تكون في عدد واحد في جميع الأحيان: ففي الطفولية الأولى وفي وقت الولادة والشهرين التابعين لها ١٤٠ مرة، وفي سادس شهر ١٢٨ مرة، وفي تمام السنة ١٢٠ مرة، وفي آخر السنة الثانية ١١٠ مرات، ويتنازل هذا العدد شيئاً فشيئاً إلى زمن البلوغ ويبقى ثابتاً على ٧٠ أو ٧٥ في الدقيقة، وتكون الضربات كثيرة العدد في الشبوبية وقليلة في الشيخوخة.

في وظائف القناة الهضمية: هذه القناة مبدأها الفم وانتهاؤها الشرج. وهي مركبة من جملة أعضاء تتعاون مع بعضها على تتميم الغذاء وتكون الدم. والهضم يحصل أولاً بالفم ويسمى ذلك بالهضم الفمي وبعد انتهاء الهضم الفمي أي بعد مضغ البلعة الغذائية مضغاً جيداً فيجمعها اللسان ويوجهها إلى الخلف فيتناولها البلعوم ويدفعها إلى المري، والمري يدفعها إلى المعدة من فتحتها المتصلة به المسماة بالفواد. وهكذا تدخل الأشربة في المعدة وتختلط بالأغذية لتعين على هضمها. ومن اختلاط الأشربة بالأطعمة في المعدة تتكون العجينة الغذائية فتكابد هذه العجينة الهضم المعدي بواسطة حركتها وحرارتها الغريزية وعصارتها التي تؤثر على هذه العجينة تأثيراً كيماوياً. ففي مدة ساعتين ونصف أو ثلاثة أو أربعة، وهذا يختلف على حسب طبيعة الغذاء إن كان نباتي أو حيواني، وبعد تمام نضج هذه العجينة في المعدة تنزل منها إلى الجزء العلوي من الإمعاء الدقاق وعند ذلك تقبل المادة الصفراوية الآتية من الكبد والمادة اللعابية الآتية من البنكرياس ثم تنزل إلى باقي أجزاء المعاء. وحال مرورها في هذه القناة تنقسم إلى مادتين: مادة رقيقة وهي الكيلوس الذي يمتص بواسطة أوعية ماصة في طول القناة الهضمية ويغذي الجسم، ومادة ثخينة تعرف بالكيموس وهي المكونة للمادة الثقلية. فالتغذية حينئذٍ هي عبارة عن الاستحالات المتتالية التي تكابدها الجواهر الغذائية من وقت دخولها في البنية بالهضم والامتصاص والدورة والتنفس وتثبيتها تثبيتاً جيداً في منسوجاتنا إلى وقت خروجها. فإذا جعلنا مساواة بين الذي يدخل في البنية والذي يخرج منها نجد على انه إذا عاشت الحيوانات مدة زمن في حالة الوقوف بدون تزايد ولا نقص في الوزن فيكون الغذاء المطابق لوزن أوكسيجين الشهيق مساوياً لوزن الافرازات والتصاعدات المختلفة، وأما إذا كان الفقد لا يساوي وزن الغذاء المستعمل يزيد الجسم. ففي الجملة ينبغي لحفظ الانسان البالغ السليم حفظاً جيداً ألف جرام من الخبز وثلثمائة جرام من اللحم. والحرمان المستطيل من الغذاء يحدث في القناة الهضمية تنوعات عظيمة فتنقبض المعدة شيئاً فشيئاً حتى تصير في حجم صغير. ولهذا يلزم أن تعاد الأطعمة إلى المحروم شيئاً فشيئاً. لأنها إذا أعطيت دفعة واحدة أحدثت قيء وعوارض خطرة. والمعدة هي محل حاسة الجوع وهذه الحاسة هي اضطرارية

وليست إرادية فتبتدىء في المعـدة وتنتقل إلى المخ الذي هو عضو الإحساس. وأما حاسة العطش تنتج من وجود الأغذية في المعدة لأنها تحتاج إلى كمية من السائل التي بها يتم نضج الأطعمة.

وظيفة الكبد: وظيفة هذا العضو افراز الصفرة. وكيفية ذلك، هو أن الكبد مركب من منسوج حببي فبعد قبوله الدم بواسطة الأوعية يتوزع هذا الدم في منسوج الكبد، أعني في الحبيبات، فكل حبة يخرج منها فرع صغير فمتى تكونت الصفرة تخرج من هذه الفروع الصغيرة التي تتصل ببعضها وتكون فرعاً واحداً يسمى بالقناة الكبدية التي توصل الصفرة إلى المرارة، ومن المرارة إلى الجزء الأول من المعـاء، المسمى بالإثني عشري، وبواسطة قناة آتية من المرارة إليه، فتختلط بالغذاء وتعين على هضمه فحينئذٍ الصفرة ضرورية جداً في الجسم.

وأما وظيفة الطحال فهي مجهولة.فقط قيل إنه يحفظ الدم عند فراغ المعدة، وعند امتلائها يخرج هذا الدم لإسعاف وظيفة المعدة.

وأما وظيفة الكليتين إفراز البول بالكيفية التي بها الكبد يفرز الصفرة. ويأتي البول بواسطة قناتين مسميتين بالحالبين إلى المثانة ويجتمع فيها فمتى امتلأت يحصل التطلب للبول بواسطة انقباض عضلات المثانة.

وظيفة الجلد: حيث هو اللفافة للبدن فأنه يوقي لما تحته من الأعضاء من التأثيرات الخارجية. وفيه مسام كثيرة لأجل امتصاص الهواء المحيط به. وهذا الامتصاص يسمى بالتنفس الجلدي. ومسام الجلد تخدم أيضاً لإفراز العرق والمادة الدهنية. فالعرق يكون غزيراً في مدة الحر فينقص حينئذٍ إفراز البول، ويكون قليلاً في الشتاء ويكثر حينئذٍ افراز البول. وتوجد وسائط تزيد إفرازه وهي المعرقات. وأما المادة الدسمة فإفرازها ضروري جداً لأن بواسطتها يكتسب الجلد الملمس الدسم وتنفع أيضاً في ترطيبه ومرونته وتمدده. فمتى امتنع الإفراز من الجلد صار جافاً خشناً قابلاً للتشقق واكتساب الأمراض الجلدية. ثم ان الجلد هو عضو الإحساس العام فإنه منتهى تفاريع الأعصاب التي توصل الإحساس إلى المخ. وأما وظيفة الشعر فهي وقاية الجسم من المؤثرات الخارجية وحيث بنموه يأخذ كمية من الدم فيلطفه.

وأعضاء التناسل تقوم بوظيفة لها بقاء النوع وبدونها ينقطع وجود الجنس الحيواني والنباتي وينقطع تجددهما.

وأنهي هذا الخطاب بالتكلم لحضرة الجمهور على بعض عبارات تخص الحرارة الغريزية الموجودة في كل شخص. إن الانسان يعيش في أقاليم مختلفة الحرارة ولا يكابد من تأثيرها إلاَّ فرقاً دنياً في حرارته الخاصة كدرجة واحدة، أنهى ما يكون في الزيادة في البلاد الحارة، ولا تؤثر الفصول في ذلك إلاَّ بعض كسور. وأما إذا فعل ارتفاع أو تنازل درجة الوسط بالصناعة فتحصل تنوعات عظيمة. فإذا وضع الانسان أو غيره من الحيوانات في حمام درجته ٦٠ أو ٩٠ ترتـفع حرارته من ٤ إلى ٦، وإذا وضع في درجة صفر أو في مخاليط مبردة تنازلت درجته. وإذا وصل الفقد أكثر من ثلث درجته الخاصة هلك. فتكون الحرارة الحيوانية مقابلته مقابلة محكمة بالاحتراقات البسيطة، فإنه يدخل على الدوام اوكسيجين في البنية بالتنفس وتكون حمض فحميك على الدوام. وهذه الاستحالة للأوكسيجين إلى حمض فحميك هي احتراق حقيقي وقد ثبت بالتجارب أن الحرارة المتكونة من تنفس الحيوان في زمن معين تكاد أن تساوي الحرارة التي يفقدها في نفس هذا الزمن وتبقي حرارة الجسم في حالة معادلة. وإن أردنا أن نعرف كمية حرارة الجسم المتحصلة في زمن معين لا يمكن أن نعرفها إلاَّ بأرقام تقريبية لأن الحرارة لا

تحصر ولا توزن. فتقدير كميتها مؤسس على كميات حمض الفحميك والماء المتحصلين بأوكسيجين الشهيق. فالانسان يتحصل منه في الحد المتوسط في كل ساعة كمية من حمض الفحميك تعادل بالوزن إلى نحو ٣٨ جرام وهذه الكمية تحتوي على ١٠ جرام من الكربون المحترق ويدخل في رئته من الأوكسيجين ٣٣ جرام منها ٢٨ تخدم لاحتراق الفحم والباقي تخدم لاحتراق الايدروجين لتكوين الماء. فيكون الايدروجين المحترق ٦,٠ من عشرة من جرام فعلى ذلك يوجد في ٢٤ ساعة ٢٤٠ جرام من الفحم المحترق و١٥ جرام من الايدروجين المحترق. فالجرام الواحد من الايدروجين المحترق يكون كمية من الحرارة قادرة على ان ترفع درجة الحرارة ٣٤,٥ كيلوجرام و٥ من عشرة من الكيلوجرام من الماء درجة واحدة. والجرام الواحد من الفحم المحترق يكون كمية من الحرارة قادرة على أن ترفع درجة الحرارة ٨,٨ كيلوجرام وثمانية من عشرة من الكيلوجرام من الماء درجة واحدة. فعلى هذا ٢٤٠ جرام من الفحم المتحصلة في مدة الأربعة والعشرين ساعة في الجسم تحدث باحتراقها ١٩٤٠ كيلوجرام وحدية حرارة و١٥ جرام من الايدروجين المحترق تعطي ٥١٨ كيلوجرام من الماء وحدية حرارة. فالحرارة التي يكونها الانسان حينئذٍ في ظرف ٢٤ ساعة من احتراق الفحم والايدروجين قادرة أن ترفع درجة الحرارة ١٤٥٨ كيلوجرام من الماء درجة واحدة من الحرارة. وحرارة الانسان تكون ثابتة تقريباً لأنه تتكون فيه دائماً حرارة على قدر التي تنتشر منه بالسبيل الرئوي والجلدي.

فسبحان من أحاط علمه بذلك كله جملة وتفصيلاً، ودبره بجلال عظمته وكونه تكويناً جميلاً. انتهى.

* * *

بما إنه بهذه الأيام أكثر أهالي البلدة يمضون فصل الصيف خارجاً بمناسبة شدة الحرارة فبناءً على قرار العمدة وجد من اللازم ترك الاجتماعات العمومية لتلاوة الخطب إلى أول تشرين الأول غربي من السنة الحاضرة فاقتضي إشهار الكيفية.

* *

[ينقص المجموعة الخامسة والسادسة من أعمال السنة الأولى ص ١١٥ - ١٧٠]

المجموعة السابعة من أعمال السنة الأولى

[بيروت: المطبعة العمومية، ١٨٦٨. ص ١٧١ - ٢٣٤].

إنه في مساء الأربعاء الواقع في غاية ١٧ ذي الحجة سنة ١٢٨٤ هـ و١٠ و٢٢ نيسان سنة ١٨٦٨ م صار افتتاح اجتماع من المشتركين تلي به الخواجة عبدالله صوصة خطبة في التربية العمومية ثم أنشد الخواجة اسكندر الجريديني قصيدة من نظمه في موضوع الجمعية.

الخطبة التي تلاها الخواجة عبدالله صوصه في التربية العمومية

[المجموعة السابعة من أعمال السنة الأولى. ص ١٧١ - ١٨٩].

يا معشر الكرام:

لما كانت الآداب والمعارف من أعظم الوسائط التي عليها يتوقف نمو البلاد وتوفيق العباد ناجتني فكرتي القاصرة غب الاتكال على القوة القادرة أن أقدم لكم هذه الخطبة في شأن التربية العمومية، مبيناً غوائلها إذا كانت ناقصة أو سيئة، وفوائدها إذا كانت كاملة أو حقيقية. ولذا إعترافي سلفاً بعجزي وقصوري كنت حقيقة أخجل وأرهب من الدخول بمثل هذا الميدان الذي لست من رجاله وإنما جرأتني ودعتني إليه غيرتي الوطنية مؤملاً بأن تحلموا عليَّ عن جسارتي وذللي بالصفح والاغضاء وان تحسنوا إليَّ الاصغاء لا لكوني فصيح العبارة واللسان بل لكوني كمحب للوطن أريد ان أبين بقدر الامكان كم أود متمنياً لو اننا نحن معشر العرب بوقت قريب نطرح عنا الجهل والغباوة ونظهر منصبين نحو اقتباس المعارف والذكاوة حتى بذلك نصل لما اتصل إليه قدماؤنا بحسن جدهم وجودة عقلهم ونستحق نظيرهم خلود الفكر الحميد بصفحات التواريخ.

فلا يخفى عن ذوي الألباب والمطالعة أن بلادنا كانت مزهرة ومضيئة بالتمدن والاقبال في نفس الأعصر التي فيها كانت الأوروبا لم تزل مرسحاً لثورات القبائل المتبربرة أي أهل الشمال. وقبل افتتاح الاسكندرية بمدة ليست بوجيزة كانت العلوم اتصلت إلينا من النساطرة المعروفين بالكلدان إذ كانوا في سوريا وبلاد ما بين النهرين فهؤلاء بعد خراب مدرستهم الشهيرة التي كانت في اورفا على عهد زينون الملقب بالايسورياني تبددوا في بلاد الصين والفرس والهند ومن ثم لما العرب بأثناء افتتاحاتهم الأولى في آسيا دخلوا بلاد العجم فجمعوا ما وجدوه هنالك من تعليم الحكماء الافلاطونيين الذين كانوا توجهوا لتلك المملكة عقب ارتحالهم من أثينا نفياً (غالباً نحو سنة ٦٩٠ للميلاد) على عهد يوستينيانوس الثاني الشهير باضهاد رعاياه. وبالتالي أبوجعفرالملقب بالمنصور الذي جلس على كرسي الخلافة بعد أخيه أبي العباس سنة ٧٥٤ للميلاد مع انصبابه الذاتي وقابليته للعلوم عظم إليها التشويقات وخلفاؤه الذين أيضاً اشتهروابذكاوة عقولهم سهلوا امتداد المعارف وتوسيع دائرتها وجعلوا لها بغداد مركزاً ومداراً حيث جمعوا حولهم من كل الأقطار رجالاً متعمقين بكافة العلوم لأجل استخراج مؤلفات الفلاسفة المشهورين من اللغة السريانية إلى اللغة العربية. واتحفوا مدينتهم بمكتبة جامعة غنية وأنشأوا جمعيات أدبية على نسق التي الآن تعرف في الأوروبا بالاكاديميًا. وكان من جملة التفاتاتهم السنية تشريفها بحضورهم إليها غالباً وبهمتهم العلية تشيدت أركان مدرسة العلم الشهيرة التي تفاقم لمعانها مدة مائتي سنة في نفس

بغداد والبلاد الغربية. وهي التي أنارت بتعاليمها الشرق والغرب. فإن علماء العرب ذاع صيتهم في المسكونة وعلوا شأن لغتهم وشرفها بمؤلفات شتى ذات فوائد جمة في كافة فروع العلوم الأدبية والرياضية والنظرية والطبيعية التي فاقوا بها متسامين على حكماء اليونان أنفسهم. كونهم لم يعتمدوا على حقيقة إلاّ بعد الفحص المدقق على مصدر كل نتيجة ولم يقبلوا اختراعاً إلاّ غب أن يكونوا استوفوا عنه من التجربة اقتناعاً. وهكذا ما كان عن غيرهم مكتوماً أضحى لبصيرتهم معلوماً. فبعضهم صححوا غلط بطليموس واتقنوا رسم الأرض، وبعضهم فسروا وشرحوا أقاويل أريسطو بأفصح بيان هؤلاء أوضحوا زلل بقراط وأهدوا على شفاء ما قد كان مجهولاً من الأمراض. اولئك نقحوا مؤلفات ديواسقوريدوس وجالينوس وأعطوا معاً تفصيلات جلية على سائر الأعشاب والأحجار والمعادن والحيوانات المفيدة في الطب. آخرون أحيوا علم التشريح والجراحة بتعاليم قويمة كلية الصراحة وغيرهم حفظوا لنا معرفة حوادث الأزمنة بكتابة التواريخ منذ الخليقة حتى الأجيال المتأخرة. للعرب فضل اكتشافات فلكية وأرضية عديدة، فضل اختراعات متنوعة مفيدة، فضل إيجاد ألفي عشبة لم تكن قبلاً عرفتها الروم وإظهار فوائد أكثرها إذا أدخلت في الأدوية. العرب اتقنوا الزراعة، مهروا في الصناعة، فاقوا في التجارة. شهرة محاصيلهم وكثرتها تجعلاني أقتصر عن وصفها وتعدادها حباً بالاختصار. وأما أقمشتهم الجميلة المختلفة الأنواع والأجناس شغل الموصل وحلب والشام وغير أماكن أذاعت صيتهم بالافتخار. وذلك فضلاً عما لذكاوة عقولهم وغرابة فنونهم من حسن الشهادة بتلك الساعة التي أهداها هارون الرشيد إلى معاصره كارلوس الأول ملك الافرنسيس. وأما مواصلاتهم التجارية فكانت كلية الامتداد والأهمية براً وبحراً في الداخلية وفي الأجنبية مع اسبانيا والغرب ومصر والحبشة والعجم والمسكوب والصين والهند. وبالاجمال أقول إن حالة أبناء وبلاد العرب اتصلت في الأجيال المتوسطة لدرجة هكذا سامية من السعادة والاقبال أدبياً ومادياً حتى انه قيل بأن على عهد الواثق بالله الذي هو التاسع من الخلفاء العباسيين لم يكن يوجد فقير يطلب الصدقة. وأخيراً حال كوني أثني شكراً على من تقدمني بذكر فضل علوم العرب وعلمائهم بأوفر إيضاح فأستغني بما أبانه عن الإسهاب. والنتيجة التي قصدتها باستهلال خطابي بهذه المقدمة التاريخية الوجيزة إنما هي إملاء ذهننا بمعرفة شرف أصلنا لا لكي نفاخر باطلاً بل لكي تتحرك فينا الغيرة والحمية ونعمل ما يولينا إليه اللياقة والأهلية.

أما بعد فقد علمتم، يا معشر الكرام، ان التربية هي موضوع خطابي وحيث ان كل كلمة مهما كانت بسيطة تتضمن فوائد ذات فلسفة بليغة، كونها صادرة ومنبثقة من نتيجة موهبة النطق التي الباري تعالى أنعم بها على جنسنا البشري، فالتعمق إذاً بمعنى وأصول تلك الكلمة التي نسمعها إذ يطالعنا على ما فيها من أسرار حكمة الأمم، يجعلنا غالباً نرغب باتقان ذلك الشيء المقصود بها. وبناء عليه فالبحث عن كلمتنا المذكورة، أي التربية أو الربو، يفيدنا منها: الانشاء، الغذاء، النمو، الزيادة. وبذلك نفهم أن التربية هي غذاء الجسد والنفس فتنشيء الصغير وتزيد القليل وتنمي الضعيف أو النحيف. فالانسان يتميز عن كل الخلائق التي على وجه الأرض بقابليته ولزومه أو اضطراره للتربية على انه الله تعالى خلقه وأعده المعيشة الاجتماعية إذ قال بفمه العزيز: «ليس بجيد للانسان أن يكون وحده». أما الحيوانات فقد أعطيت الغريزة التي بها تعمل ما ينبغي لحفظها ونموها ولا يدخل عليها عرض التغيير لأنها باقية للآن كما كانت منذ إنشاء العالم. مثلاً الحيوان من أي نوع كان مذ ولودته يعرف يميز الحشائش التي نفيده من التي تضره، لكن الولد إذا لم يكن من يمنعه يبتلع كلما تصل إليه يده ولو كان سماً قاتلاً. فلذلك قلت: إن الانسان وحده محتاج للتربية وهو دون سواه يكرم أو يهان يرتفع أو يسقط حسبما يحسن

أو يسيء التصرف والصنيع. كون الباري جلّت أحكامه الغامضة إذ أراد أن يغمره بجوده العميم خوّله بكافة الأشياء حرية مطلقة تامة.

نتائج التربية تعرف من مبادئها لأن خلواً من كل ريب الشيء الذي نزرعه إياه سنحصد. وكما ان الأشجار البرية مهما كانت مخصبة إذا لم تتطعم أبداً أو إذا طعمت طعماً فاسداً لا تأتي بثمار جيدة، هكذا الانسان إذا تربى تربية رديئة أو ناقصة فإما يكون عقيماً وإما يثمر أثماراً ساقطة. وعلى الحالين لا خير منه يُرتجى. ولعمري ماذا لنا أن نؤمل من الأولاد الذين وهم بسن الطفولية ندلعهم ونسلم لهم بكلما يعندون به، ولو كان ضد الصواب، أو نعلمهم مزجيات مشحونة شتائم، الذين متى بلغوا سن الادراك الأول نشغل أفكارهم بحكايات الغول والمارد والست بدور وما أشبه. حقاً أجيب إن اولئك الوالدين الذي يؤسسون بنيهم على هذه المبادىء سيجتنون منهم يوماً ما الشقاوة والغباوة إذ يكونون غرسوا فيهم التمرد وعوّدوا لسانهم على السفاهة وسلطوا على عقولهم الخرافات. ولذلك العشم بحسن حال أولاد نظير هؤلاء متى حصلوا على الرشد الكامل لا يعتبر أقل حماقة من العشم بتقويم إعوجاج الشجرة بعد اكتسابها الصلابة. وأما عن ما خص إرسالهم للمدارس نعم لا يحصل به قصور إلاّ ما ندر، كون لا أحد يريد أن تكون أولاده بلا علم أو بلا تهذيب، كما يقال غالباً. لكن إذا جئنا لفحص أحوال اولئك التلاميذ الذين من البداية تربوا على خاطرهم نشاهد هذا يكسل ولا يريد يقر بكسله بل ينسب قصر معرفته لعدم كفاية العلم. ذاك يجتهد بالفرنساوي أو بالانكليزي لكنه لا يريد ان يتعلم قواعد لغته العربية كأنها لا تفيده مطلقاً. يجتهد بحفظ امثولاته إلاّ انه لا يريد يتقن الخط مدعياً أن الخط لا يلزم لكل الناس. الواحد يسقط في زلات كبيرة ولا يريد يقتبل عنها قصاصاً. وإن تقاصص جبراً فيتهم المعلم بالظلم والتعدي. والآخر يصرف زمنه الثمين مفتكراً بيوم خروجه من المدرسة مزيناً بالملابس الفاخرة غير مبالٍ بفقر وعري عقله العقيم. فإذا أوردت هذه النقائص للوالدين تراهم ليس فقط لا يكترثون بها ولا ينهون أولادهم عنها. بل يترجون المعلمين أن يأخذوهم بالملاطفة ويسايروهم على أهوائهم. فبالنتيجة الولد غب أن يصرف سنتين أو ثلاث في المدرسة على هذه الصورة إذ يكون عرف يقول جودمورنين بونجيورنو أو بونجور يحتسب ذاته انه ختم علومه، وأنه ما عاد عليه كسور شيء، وانه صار يصلح لاستلام أهم الوظائف أو تدبير أعظم الأمور. والأب المسكين نفسه يصدق زعم ابنه ويصير يطنب بالمجلس بعلومه وتهذيبه بالوقت الذي به يجب عليه بالأحرى أن يندب غباوته وسوء تربيته ولكن فلنفرض انه حصل نجاحاً مثلاً في اللغة الفرنساوية المرغوبة في أيامنا هذه أكثر من غيرها تُرى ماذا يكون من هذا الولد بعد خروجه من المدرسة للعالم؟ فبالصواب أجيب إنه إذا كان أهله من الانجبار يخجل من أن يتقرب بهم إما لعدم سعتهم وإما لحقارة ضعتهم. وأكثر الأحيان يكفر بمعروفهم ويتمرد عليهم لأنهم ربوه بمبادىء جعلته يظن ذاته معداً مثلاً للتجارة فصادف خيبة الأمل لدى اطلاعه على حقيقة الحال، أعني على تقصير أقاربه من قبل المادة وعلى تقصيره الذاتي من قبل المعرفة. وأما إذا كان أهله من ذوي الجاه والغنى الذين يمكنه يرفع بهم رأسه فقلما يهتم أن يكون لهم أو لذاته مفيداً بل إنه يتكل على ثروتهم ويصرف زمانه بالبطالة ونتائجها التي حذاقتكم تغنيني عن ذكرها.
ومع كون هذه الحال تستحق الرذل لهذا الابن الشاطر فترى من زيادة الحماقة أن أهله لما يريدون يعظمون يمينهم يحلفون بحياته العزيزة الغالية وهو جالس أمامهم متهللاً فيزداد بذلك ليس فقط استهواناً وطمعاً بهم بل أيضاً غروراً، تباً له، ويتنقل بالتدريج من الجهالات الصغرى إلى الكبرى.
وهكذا لا يفيق الوالدون من غفلتهم إلاّ ويرون النعمة التي تعبوا في جمعها قد زالت بواسطة إسراف هذا النجل السعيد الذي باطلاً تأملوا به خلود ذكرهم مع دوام عمار بيتهم. فمن هذه الحال حالهٍ هل

يكون مستغرباً إذا سمعتموه يزدري بأبناء جنسه ويتبرأ منهم كأنهم على زعمه حرف ساقط. لعمري إن هذا الطاعن بجنسه الذي لا يدري انه قد طعن بنفسه لا يحرز العناء أن يعتب عليه من أصحاب الذوق السليم بل الأحرى بهم أن يرثوا لغباوته لأنه إذا كان بحسب فقر عقله يجهل حتى تواريخ بلاده فمع اشعاره باطناً بتعاسة حاله غداً لا يبالي لأجل الهرب من هذا العار بأن يرتكب عاراً أعظم بالافتراء بحق أمته أمام الأجانب قاصداً بذلك أن يعتبر منهم كشخص متمدن. والحال انه في غرور كونهم إذا لم يهينوه بالكلام وجهاً بإزاء وجه يحتقرونه لا محالة بفكرهم. وبالاجمال إذا أردنا نفحص عن أسباب كلما يحط قدر الانسان ويسقط من مرتبته الحقيقية نراها صادرة من سوء التربية.

إن ما من انسان يسمع بوصف الناقص التربية إلاّ ويمقته بدون ما يعرفه. لكني هنا أضرب المثل بذاتي قائلاً: هل أنا الذي أكلمكم حصلت على حق كافٍ أن أعتبر بعينكم كاملاً من مجرد اشتراكي معكم برذل النقائص التي مرّت على سماعكم؟ كلا. فماذا إذا يفيدنا الادعاء بحسبنا ونسبنا أو بحب ذاتنا ووطننا إذا كنا لا نتخذ الوسائط المؤدية لتحصيل شأن بلادنا وشرف شخصنا؟ وأمر معلوم أننا لا نقدر نتعشم ان الآخرين يكرمونا ما لم نحن نستحق الاكرام لأنفسنا بحسن صفاتنا ومعارفنا والحالة هذه ليس لنا ما يؤملنا رفع القدر وعلو الشأن إلاّ التربية الحقيقية أو الكاملة فهي على نوع ما تجبلنا جبلة ثانية وتُبردخ فينا جوهر العقل والطبع والقلب. ولذلك بما أنه لا يخفى أن الطبيعة إذا شاخت وتأجلت لا تعود قابلة الانجبال والبرادخ فمن لازم الضرورة أننا ونحن حدثون بالسن نقتبل التربية حتى اننا ننمو فيها كنمونا في العمر ونأتي بثمارها الجيدة في أوان الرجولية. إن تعلق الانسان على العلوم أو على الفنون أو على الصنائع والمهن وكان رديء الأخلاق أو الأوصاف فلا يدعى كاملاً. كذلك إذا كان محمود السيرة والأطباع وكان جاهلاً أو غبياً فلا يحسب كاملاً. وبناء عليه فلكي تكون التربية كاملة ينبغي أن تشمل وتعم بفوائدها سائر قوى النفس وأن تجعلهن لبعضهن خادمات وعاضدات في وظائفهن الخصوصية خلواً من تحرر أو تعدي الواحدة على الأخرى. ومن واضح البيان انه بدون هذه المعاضدة الضرورية أشرف الخصال تؤول بنا لملكات رديئة لأن الحنية التي تجعلنا نرثي لأوجاع الآخرين إذا تجردت عن العزم تستحيل فينا لضعف مذموم وهكذا العزم الذي يجعلنا نجالد بالصبر على المحن والشدائد إذا تجرد عن النية يولد فينا القساوة مع تفضيل الذات والكبرياء. فإذاً قد تبين ذلك أقول: إن الارادة والقلب والعقل إذا انجبلوا سوية بجبلة التربية يتركب منهم كمال الانسان.

أولاً ـ إن الإرادة بحسب كونها مسلطة على قوى النفس الأخر فتعتبر لهن دستوراً في كافة الأحوال، عرضية كانت أو جوهرية ولهذا يحسب من أهم الأمور الاعتناء بتوطيدها على دعائم الاستقلال حتى إذا نجت من اشتراك الطغيان تحسن استعمال سلطتها باعتناق الجيد أو الصالح وباجتناب العاطل والطالح. على ان الانسان الفاقد حرية الارادة، أعني به ذاك الغير مالك إرادته، يشبه سفينة بدون دفة تتلاعب بها الأمواج والرياح حيث لا يعرف كيف يستسير بل يكون دائماً حاصلاً في ارتباك عظيم. وإذ لا يقدر يعتمد على ذاته بشيء فينظر من الآخرين أن يتصدقوا عليه بإجازة ما يفعله. فالإرادة إذاً هي ذات لزوم كلي لنا بسائر الأشياء. بها نجتهد في العلوم، بها نرغب في تحصيل المعارف والفنون، بها نجدُّ في الاطلاع على غوامض الأسرار، بها نسعى في جمع المال، بها نقهر الأعداء، بها ننال الشرف والاعتبار. وبالعكس بدونها لا أشواقنا تدوم، ولا مواعيدنا تصدق، ولا عزلتنا تثبت، ولا مشروعاتنا تكمل، ولا سعينا يتم. إلاّ ان البعض يظنون أن الارادة بحسب كونها طبيعية تنمو في الانسان مع العمر. والحال إن هذا عين الغلط حيث لو كان الأمر كما يتوهمون لما كان يصادف أن هذا القوة تظهر أحياناً في الفتى أكثر من الكهل، وربَّ إمرءٍ يتوهم أن ليس انسان بلا إرادة

فاسأله يفيدني: أين إرادة من لا يقدر يمنع ذاته عن الاحتداد أو عن غيره مما يعلم انه يضره؟ فمن هنا يستدل إذاً ان الإرادة تكتسب بالممارسة وتنمو بالعادة وكلتاهما نتيجتا التربية التي تعلمنا أن نلتزم حدَّ الصواب في كافة الأمور.

ثانياً ـ إنه لأمر مسلَّم به أن جميع الأشياء التي نملكها مهما كانت عزيزة مهما كانت غالية، مهما كانت ثمينة نبذلها فداء عن الروح أو الحياة. فالحياة هي في الدم، والدم قراره في القلب، فمنه يخرج واليه يعود على التوالي، ومن اشتراك الدم مع النسيم الناعم اللطيف المحيط بنا تدوم متقدة في القلب لهبةٌ أشبه بتلك التي نشاهدها إذا أضأنا سراجاً، أو إذا زجينا في النار حطباً. وإن طفيت هذه اللهبة كانت بذلك انقضاء الأجل فعلى هذا النحو والمثال القلب بالمعنى الذي نفهم منه مركز العواطف يعدُّ من جملة قوى النفس ويحوي عنصر حياتها، أعني بذلك المحبة التي هي للنفس ما هو الدم للجسد، لأنها تخرق في كل قواها وتوزع الحركة. والحياة على أفكار الفهم، على عزم الإرادة، على تخطرات الذاكرة، وعلى تصورات المخيلة. وبالنتيجة إن الانسان إذا امتلك المحبة فيمتلك بها الحياة الأدبية ويكون كنز فوائد لنفسه وللآخرين فلا يلبث من أن يستميل لذاته قلوب الناس مع مراعاة الخاطر على انه لا يريد ضرر أحد، ولا يثلب صيت أحد، ولا يبغي على أحد، ولا يسطو على أحد، ولا يحقد على أحد، ولا يبغض أحداً، ولا يحسد أحداً، بل يسعى في صالح أي كان محتسباً الجميع كأنهم معه عيلة واحدة إذ يجمعها أصل واحد، ويسخي بعضد واسعاف المسكين مفضلاً الأجر على الاحتشاد بالمال. لكن المحبة لا تثبت إلّا في القلب السليم أو النقي فالتربية كال حونها تطهر القلب وتصونه من أعراض الغش والفساد تربي فيه خميرة النقاوة مع الوداعة. وإذ يكون بهذه الحال فتنبثق منه الأفكار الجيدة ومن نقاوته يستمد العقل ضياءً وصواباً، والتمييز استقامة وانصافاً، والإرادة قوة وثباتاً.

ثالثاً ـ لا أحد يجهل ان الانسان يتميز بالعقل عن الحيوان وإنما إذا بقي العقل مظلماً، فخلواً من كل ريب عدمه ووجوده سيان، حيث لا يكون مستحقاً بأن يدعى انساناً إلّا ذاك الذي يذل البهيمية ويزيلها بإملاء عقله من الأغذية التي تنميه وتنيره. ولهذا ينبغي أن يجد بالعلم والأدب من لا يريد أن يقاس بالبهائمَ التي لا عقل لها فتهذيب العقل وإن يكن غالباً يستوجب مزيد العناء إلّا إنه يهون أكثر على من يحسن استعداده للعلم باكتساب ثبات تقويم الإرادة وصفاوة القلب. حيث كما إن السمع إذا كان ليناً ترتسم عليه بكل سهولة الصورة التي نريدها فهكذا النفس إذ تكون لانت بالاستعدادات التي ذكرناها تقتبل بدون صعوبة التعليم الذي حسبما يتضح من نفس معنى الكلمة يعلم أو ينطبع فيها طبعاً لا يمحى. وبما أن العقل هو موضوع قابل للاكتساب فيسع بدون مضايقة كلما أردنا نوعي فيه من العلوم التي هي بالحصر قوت له. ويصح القول: إنه بدونها يتلاشى ويموت، وبها ينتعش ويحيى. كيف لا، والدلائل ظاهرة والبراهين واضحة عن لزومات العلم وفوائده. فإن العقل إذ يحويه يجد به سميراً أدبياً ومشيراً فيلسوفاً وطبيباً ماهراً ومهندساً حكيماً ماهراً. يتسلى طوراً بفك المشكلات الحسابية والجبرية وتارة بتذكار نوادر حوادث الزمان. يتخطر متنزهاً في رياض طبيعية مشتملة على زهور ذات روائح زكية على أشجار متنوعة ذات أثمار جميلة شهية، على بحيرات ضمنها جزائر طائفة كالسفن على مياه عديدة، منها ما يشعل كالزيت والغاز، ومنها ما يرغي ماء كالصابون، ومنها ما يرصف كالبلور على جبال نارية على مغائر أنظم من القصور المعتبرة المصنوعة بالأيادي على معادن ثمينة مختلفة. يسوح البلاد والممالك، يطوف البحار، يصعد إلى ينابيع الأنهار، يتجلى على الروابي، ينحدر إلى الأدوية ويقطع الصحارى والقفار. يرتقي إلى العلاء ويتعرف بعالم الأفلاك فلا يهاب أن يحدق نظراً بالشمس، ولا يخشى أن يدنو مقترباً من الأرض مع علمه بدورانها الدائم، لا يصده غشاء نور القمر عن مشاهدة ما به من السهول

والجبال، ولا يمنعه الظلام الحالك عن معرفة الكواكب السيارة والنجوم الثوابت. فمن ثم ينتهي إلى اليقين بأن الصدفة عاجزة عن تدبير مثل هذه الكائنات العجيبة فيرزل بذلك ضلال الكافرين ويقر معترفاً انها صنعة رب العالمين. وإذ يتضع أمام عزته ساجداً يصرح نحوه هاتفاً يا لغور حكمتك يا رب لأنك أنت وحدك من المبادىء أسست الأرض والسماوات من عمل يديك هي.

والخلاصة بما أنه لا يخفى كلاً منا مركب من جسد حيواني ونفس ناطقة فلا بد له من أن يشرّف الواحد منهما ويذل الآخر. فإما إنه يجعل النفس خادمة للجسد وإما إنه يخضع الجسد لخدمة النفس. فالتربية الناقصة أو الرؤية التي هي عين عدم التربية تنشيء فينا الحيوانية على انها تجعل الانسان أن يطلق العنان لشهواته ويتمكن في العوائد والخصال السيئة فيصير لهن عبداً أسيراً ولا يفتكر إلاّ بأن يأكل ويشرب ويلذ ويطرّب أو بغير ذلك مما يريعنا سماعه. لكن التربية الكاملة تجعل الانسانية تنتصر وتظفر بالغلبة على الحيوانية حيث بها العقل يستنير، الذاكرة تتنبه، القريحة تجود، التمييز يصيب، التصور يهتدي، الإرادة تتوطد، القلب يقوى، والأخلاق جميعها تتهذب. فسعيد إذاً ذاك الذي يقتبلها يفيد ذاته لأنه إذا حصل على حظ وسعة يحسن التمتع بهما، وان صادف شقاء وعسراً فيجد بحكمته مخرجاً منهماً، أو يصابر عليها مجالداً إذ يدوم منتعشاً بأمل المستقبل، وفي أي حال وُجد يعرف يستحق اكرامه لنفسه. يفيد أهله إذ يصير لهم سنداً وتعزية ليسعفهم إن كانوا محتاجين ومضنوكين وإن كانوا من ذوي الجاه والثروة فيوطدعشمهم بخلود ذكرهم بدوام العز وعلو الشأن. يفيد أصدقاؤه حيث يكون للكل قدوة حسنة فعالة، للكل خادماً ومعيناً، للكل ودوداً ونصوحاً. وأخيراً يفيد وطنه لأنه داخلاً يهتم بتمديد العلوم والآداب وتسهيل اقتباس واتقان الصنائع أو بغير ذلك مما يقدر عليه من الاصلاحات والخدم، وخارجاً يجعل لبلاده الشهرة الحميدة والاعتبار بفضل علومه ومعارفه حيث كما أن شخصاً واحداً يجلب لطائفته العار والاحتقار، كذلك شخص واحد به الكفاية أن يوليها الرفعة والافتخار. فهذه بالاختصار فوائد التربية الكاملة التي يجب علينا أن نجد بطلبها إذا أردنا نجتني ثمارها ونعيد إشراق أنوار التمدن الحقيقي في بلادنا. ومع اختتامي الكلام أشكر أفضالكم عمّا أحسنتم به عليَّ من الانتباه واسأل الله أن ينعم بتوفيقنا أجمعين.

القصيدة التي أنشدها الخواجا اسكندر الجريديني: في موضوع الجمعية

[المجموعة السابعة من أعمال السنة الأولى. ص ١٩٠ - ١٩١].

سري إفرحي يا ربى بيروتِ وافتخري   فقد تزين غصن العلم بالثمرِ
لقد صفا الكأس مشروباً ومقترناً   بعصر علمٍ فما للجهل من أثر
فبادري في صفا الأيام منبئةً   للشرق عن حسن حال جاء في الخبر
وبشري إن كأس العز نشربهُ   وكأس جهلٍ بهذا الحين لم يدر
والعلم يزهو بهذا الوقت مكتشفاً   إذ كان من قبلُ محجوباً عن النظر
لا تيأسن إذا أمسيت في نكد   بل فاصطبرِ لصفا الأوقات وانتظر
لا عشب ينمو بلا ماء كذاك ولا   تُرمى نبالٌ بلا قوسٍ ولا وتر
بيروت كانت لفقد العلم مظلمة   والان في الشرق أضحت كوكب السحر
وذاك في ظل شخص المجد سيده   عبدالعزيز مقام النصر والظفر
ذاك الذي قد صفا كأس الزمان بهِ   وجأنا العز مع صفو بلا كدر
قد سهل العلم ثم الكون مهده   فأصبحت أرضنا تنجو من الضرر
كذا الذوات الذين اليوم تنشدهم   أفعالهم بين أهل البدو والحضر
ألطافهم كنسيمٍ قد أتى سحراً   أوصافهم مثل مسكٍ فائحٍ عطر
قد قام للعلم والآداب مجمعهم   لذاك ما تركوا فخراً لمفتخر
لا بد كل امرءٍ تلقى نتائجه   إن كان في الخير أو في الشر والعبر
فوقتهم جاء ينبي عن نتائجهم   ومدحهم صار فرضاً عند معتبر
عشقتُ أشخاصهم سمعاً ولم أرَهم   لذا غدا السمع محسوداً من البصر
نشر الكبا صيتهم في الكون منتشر   أفعالهم مثل وردٍ فائقٍ نضر
فحسبنا اليوم فخراً من مكارمهم   بما أفادوا من الآداب بالغرر
فهكذا هكذا نالوا المفاخر مع   سربال مجدٍ عظيم غير مستتر
وهكذا انتزح الجهل العميم بهم   فجاء سورية التنبيه للسهر
هيا بنا أيها الاعراب نشكرهم   لأنّ أفضالهم فاضت كما المطر
ففي سنا نورهم جاء الهداءُ وكم   أهدت مضلاً بليل طلعة القمر
قد قصر المدح إذ من قاصر نظمت   لمجمع العلم في جمعية الدرر

ذكر حياة سقراط
إلى المؤرخ أغزنيفون اليوناني
ترجمة الخواجا حنين خوري

[المجموعة السابعة من أعمال السنة الأولى. ص ١٩٢ - ١٩٨].
[لمجموعة الثامنة من أعمال السنة الأولى. ص ٢٥٢ - ٢٦٢]
[المجموعة التاسعة من أعمال السنة الأولى. ص ٣١١ - ٣١٧]
[المجموعة الثانية من أعمال السنة الثانية ص ٤٢ - ٦٦]

المقالة الأولى

الفصل الأول
في بيان تهمة سقراط زوراً بآحتقار آلهة أثينا وعبادته آلهة جديدة

يقول المؤلف أغزنيفون: إنني تعجبت مراراً من الذين آتهموا سقراط بأية براهين أقنعوا أهل أثينا أنه قد استحق القتل لكونه مذنباً في حق الجمهورية. فهذا تقريباً منطوق الشكوى التي تقدمت ضده وهي: إن جرم سقراط هو قائم بعدم معرفته «الآلهة المعرفة من أهل المدينة وبإبدالها بأوهام شيطانية وإفساده أخلاق الشبان». فأولاً - اتهم بأنه لم يعبد الآلهة المعروفة من أهل المدينة. وأما الأدلة التي أقاموها على ذلك فهي أنهم كانوا يرونه يقدم قرابين كثيرة في بيته أو على الهياكل العامة. ويستعين علناً بالعرافة والكهانة. وكان سقراط يقول: إن قريناً من الجن كان يأتيه فيوحي إليه. وذلك كان شائعاً بين الناس. وهذا بنوع أخص هو السبب الذي دعاهم أن يتهموه بابتداع أوهام شيطانية مع انه لم يبتدع قط أشياء مثل هذه. بل كان كسائر الناس الذين يعتقدون بالعرافة ويستنبئون من الطيور والأصوات والإشارات الطبيعية التي تظهر في السماء وأجواف الضحايا. فهؤلاء لا يعتقدون أن للطيور أو لمن يصادفونهم معرفة في الأحوال المستقبلة التي يفيدهم اكتشافها بل يفتكرون أن الآلهة تنبئهم عنها مستخدمة هذه الوسائط. وهكذا كان اعتقاد سقراط أيضاً غير أن العامة يقولون إن الطيور والمصادفات تسوقهم إلى إجراء الشيء أو تنهيهم عن عمله. وأما سقراط فكان يتكلم بمقتضى عقله ويقول إن روحاً كان يرشده. ولذلك كان ينصح جملة من تلامذته أن يفعلوا أمراً أو يتجنبوه بحسب ما كان يوحي إليه ذلك الروح فالذين كانوا يطيعونه فكانوا يصادفون خيراً، وأما الذين كانوا يهملون نصيحته فكانوا لا يلبثون أن تحل بهم الندامة. فمن هو الذي لا يوافقنا على أن سقراط لم يكن يرغب في أن يحتسبه تلاميذه رجلاً مختل العقل أو خداعاً منافقاً. فلو كان يخبر عن أشياء أنها أُوحيت إليه من إلهٍ ثم يظهر بعد ذلك أنها أكاذيب لا صحة لها لكان حينئذٍ تلاميذه يعدونه خداعاً أو مجنوناً لا محالة. فمن المعلوم إذاً إنه لو لم يكن متحققاً صحة قوله وواثقاً به كل الوثوق لما كان تنبأ به. وهل يمكن أن يوثق في مثل هذه الأمور بغير إله؟ كلا. فكيف إذاً يدعون ان سقراط كان يشك بوجود الآلهة إذا كان ممن يثق ويؤمن بها؟

وزيادة على ذلك أنظر إلى ما كان يفعله مع أصحابه. فإنه كان يشير عليهم أن يسلكوا الطريق التي كان يحتسبها الأوفق والأصوب في الأمور التي نتائجها واضحة صريحة. وأما في المصالح التي لم يكن

يعرف ماذا تكون عاقبتها فكان يحيلهم على العرافة لكي يعلموا كيف ينبغي أن يسلكوا بها. وذلك مثل الذين تكون منوطة بهم مثلاً إدارة بيت أو سياسة مملكة فهؤلاء على رأي سقراط ينبغي لهم أن يستعينوا بالعرافة لكي يحسنوا إدارة مصلحتهم ويوفوا بها كما يجب.

وكان يقول: نعم، إن علم الهندسة وعلم المعدنيات وعلم الزراعة وعلم السياسة وغير ذلك كالحساب والتدبير وخداع الحرب كل هذه معارف يحصلها إدراك البشر ولكن إلى حد محدود ويبقى معظمها للآلهة فلا تطلع البشر على شيء منه. فالرجل الذي يحسن زرع بستان لا يعلم من يجتني ثماره. والذي يبني بيتاً جميلاً لا يعلم من يسكنه. والمحارب لا يعلم هل يفيده أن يكون رئيساً على الجنود وصاحب السياسة لا يعلم هل من صالحه أن يحكم على الدولة. والرجل الذي يتزوج بامرأة حسنة لكي يعيش سعيداً يجهل انها دائماً ستكون هي سبب شقائه والذي يرتبط بالمحبة والالفة مع أصحاب الشوكة ونفوذ الكلمة في المدينة لا يعلم انه ربما سيأتي زمان به ينفونه منها. فالذين لا يعتقدون بأن هذه الأشياء جميعها هي متعلقة بموجود غير مخلوق يعلو على الطبيعة البشرية بل ينسبونها إلى عقل البشر ودرايتهم كان سقراط يسميهم مجانين. وهكذا أيضاً الذين كانوا يستشيرون هاتف الغيب على أشياء أعطي للناس معرفتها نظير أن يسأل هاتف الغيب مثلاً هل ينبغي أن تسلم العربة إلى مدير نجيب أم إلى مدير أخرق. والسفينة إلى رئيس يصلح لتدبيرها أم إلى رئيس لا يصلح. وعن أشياء غيرها يمكن الوصول إلى معرفتها بواسطة الحساب أو القياس أو الوزن والكيل. فهؤلاء جميعهم كان يقول عنهم إن استشارتهم للآلهة على مثل هذه الأشياء تعد من الكفر والالحاد لأنه يجب على الناس أن يتعلموا ما سمحت لهم الآلهة بمعرفته. وأما الأمور الخفية المحتجبة عن علمهم فهذا يلزمهم سؤال الآلهة عنها على سبيل التجربة بواسطة العرافة بحيث إن الآلهة يكشفونها لمن هم محبوبون لديهم من أبناء البشر.

وفضلاً عن هذا جميعه كان سقراط طول أيامه عائشاً بين الجمهور فكان يذهب عند الصباح إلى التنزه ومحفل اللعب والحركات الشاقة. ويأتي إلى فسحة السوق حينما تكون مملوءة من الناس وفي باقي النهار يوجد في الأماكن التي يكثر فيها ازدحام الناس فيخاطبهم غالباً وكان يسمع حديثه كل من أراد فقط. لم يقف أحد على فعل أو قول له يضاد الدين أو يغاير الأدب لأنه لم يكن يتكلم في مخاطباته على طبيعة العالم كغالب الفلاسفة الآخرين ولا يبحث كالسفسطيين عن أصل الخليقة وكيفية صدورها بنفسها كما يزعمون ولا عن القوانين المقدَّرة التي بها يتم وقوع الاشارات السماوية. بل كان يثبت جنون الذين ينهمكون في مطالعات هكذا نظرية ويقول: هل يظن هؤلاء أنهم تعمقوا في العلوم والمعارف البشرية وأتقنوها غاية الاتقان. حتى انهم يشغلون أنفسهم بمثل هذه المباحث أم يزعمون انهم يصنعون حسناً بإهمالهم ما يتعلق بالانسان وبحثهم عما يختص بالآلهة؟ وكان يتعجب غاية العجب من عدم معرفتهم أن هذه أسرار تعجز البشر عن إدراك كنهها ويتعذَّر عليهم كشف حقيقة أمرها. ولا سيما إن الذين يفتخرون بكونهم قد أحسنوا معرفتها واطلعوا على أسرارها وحقيقتها ليسوا متفقين في آرائهم بل يناقضون بعضهم ويعد بعضهم بعضاً مجانين. وبالحقيقة يوجد من المجانين من لا يجزعون مما يجب أن يجزع منه ومن يرتعدون خوفاً مما لا يخاف منه الولد الصغير. وبعضهم لا يستحيي من قول كل شيء وفعل كل شيء جهراً أمام الجماعة. وبعضهم يتجنب مخالطة الناس على وجه الاطلاق. ويوجد منهم من لا يحترمون هيكلاً ولا مذبحاً ولا شيئاً من الأشياء المقدمة وغيرهم يقدمون الوقار للحجارة والأخشاب والحيوانات التي يقع عليها نظرهم. والذين يفرغون جهد أفكارهم في البحث عن طبيعة

العالم وأصله هم على هذه المثابة. فبعضهم يثبت الوحدانية* وبعضهم يثبت الكثرة إلى ما لا نهاية له[1] وغيرهم يعتقدون ان للاجرام حركة مستديمة[2] وغيرهم ان الأجرام لا حركة لها أصلاً[3] وأناس يقولون إن كل الأشياء تولد وتموت[4] وغيرهم يقولون لا يولد شيء ولا يهلك شيء[5] وكان سقراط يقول أيضاً هل يتصور في أذهان الذين يبحثون عن الأشياء المتعلقة بالآلهة انهم متى علموا حقائقها يمكنهم اجراؤها حينئذٍ بالعمل كايجاد الرياح مثلاً والأمطار وفصول السنة وكل ما يرغبونه على حسب هواهم كما أن الذين يبحثون عن الأشياء المختصة بالبشر يقصدون أن تعود منفعة بحثهم إلى أنفسهم وإلى البشر أو لا يأمل أولئك ان يحصلوا على نتيجة هكذا من دروسهم ومطالعتهم بل يكتفون فقط بمعرفتهم كيفية وقوع هذه الأشياء.

«يتبع»

الغريبة والإشارات العجيبة. فهذا ما كان يقوله سقراط بحق الذين يعتنون بهذه المباحث. وأما هو فكان لا يحدث إلّا عما يتعلق بالانسان باحثاً عن التقوى وعن الإلحاد، عن الحسن وعن الشناعة، عن العدل وعن الظلم، مبيناً التعقل من الجنون والشجاعة من الجبن. متكلماً عن الدولة وعن أربابها وعن صفات الحكم وصفات الحاكم وعن أشياء أخر كان يقول إن معرفتها ضرورية للانسان إذا أراد أن يصير فاضلاً. وجهلها يجعله مستحقاً أن يسمى عبداً.

فلو كان القضاة الذين حكموا على سقراط بالقتل قد انغشُّوا لسبب أن أفكاره واعتقاداته هذه كانت باطنية لم يطلع عليها أحد لما كان حينئذٍ محل للاستغراب من صنيعهم ولكن ذلك كان جهرياً ومعلوماً عند الجميع فكيف يمكن أن يجهلوه وهل لا يستغرب حكمهم المنافي للحق. ولما كان سقراط من أعضاء السنت [Senate] وأدى القسم المطلوب من كل الذين ينتظمون في سلك أعضاء هذه المشورة إنهم لا يقضون إلّا بموجب نصوص الشرائع الجارية فاتفق انه كان ابيستاتاً أي رائساً[6] لمحفل الشعب حينما أراد الشعب ضد قانون الشريعة أن يحكم بالموت على تسعة من رؤساء الجيوش كان من جملتهم ثرازيلا وايراسينيد. فأبي سقراط أن يجمع إزاء الشعب في هذا الشأن. لأنه كان رئيس المحفل وقتئذٍ ويجب له الخضوع. ولم يجزع من غضب الشعب ولا من تهددات ذوي الشوكة والاقتدار من أهل المدينة على أنه كان حفظ قسمه الذي حلفه على السلوك في أحكامه بموجب الشرائع والقوانين أحب إليه من مراعاة خاطر الجمهور على خلاف العدل والحقانية ووقاية نفسه من التهديد. وذلك لسبب اعتقاده أن الآلهة تراقب أعمال البشر. ولكن ليس كما يعتقد غالب الناس. فإن العامة تزعم أن الآلهة تعلم أشياء دون غيرها، وأما سقراط فكان يعتقد بأنها عليمة بكل شيء قولاً كان أو عملاً أو سراً خفياً، وأنها حاضرة في كل مكان، وأنها تكشف للناس الحجاب عن الأمور المتعلقة بالبشرية.

فأتعجب غاية العجب من تصديق الاثينيين بأن سقراط كان ذا أوهام فاسدة مخالفة للآلهة. مع أنه قط لم يفه بألفاظ ولا صدر منه فعل يحتسب من الإلحاد والكفر بل كان دائماً يقول أقوالاً ويصنع أعمالاً تجعل الناس أن تعتبره كأفضل الأتقياء والصالحين.

---

* أي ان جرم العالم بأسره هو واحد من أصله وليس مركباً من ذرات وهم الايلياتيين: اغزنيفان وبارمينيد وزينون وميليسوس.

(١) لوسيب وديموقراط الذين يعتقدون بالذرات أنها الأصل.

(٢) هيراقليط.

(٣) مذهب ايلي.

(٤) أصحاب الذرات وتلاميذ هيراقليط والمذهب اليوناني.

(٥) الايلياتيين.

(٦) انظر أسفل صفحة ٧٤.

الفصل الثاني

في بيان تهمة سقراط زوراً بالقضية الثانية وهي إفساده الشبان وفي أن سقراط ليس فقط لم يستحق الموت بل كان يجب له حسن المكافأة والمقابلة بالاحسان من قبل جمهور الأثينيين.

إن مما أستغربه أيضاً هو اعتقاد البعض بأن سقراط كان يفسد أخلاق الشبان مع كونه زيادة على ما ذكرناه كان من أعف الخلق عن الشهوات النفسانية واقنعهم في المآكل والمشرب معتاداً على شدة البرد ومعمعات الحر وجميع أنواع المتاعب والمشقات. وكان يقنع بالحال المتوسطة حتى انه كان يكتفي بخمس وزنات من المال (أي قرب الألفين وخمسمائة غرش وبعضم قال ثمانين وزنة أي فوق الأربعين ألف) وكانت تفيض عنه وذلك المبلغ الجزئي كان كل ماله وما تحواه يداه. فهل يمكن من هذه الأخلاق أخلاقه أن يفسد الناس ويجعلهم من الملحدين، أعداء الشرع والدين. وفي شهوات أنفسهم منهمكين. ويجذبهم إلى الخبائث والمحرمات وينزع منهم الصبر على المتاعب والمشقات. فإن سقراط كان يصنع بخلاف ذلك لأنه كان يسلب تلك القبائح (من قلوب الناس) ويقمع الرذائل ويحبب الناس بالفضيلة وهذا مع كونه لم يعرض نفسه قط كاستاذ يعلم الحكمة بل كان يظهر نفسه لدى الناس في سلوكه كما هو بالحقيقة ويعد الذين كانوا يصرفون أوقاتهم معه بأنهم إذا اقتدوا به سوف يصيرون نظيره. ومع هذا لم يكن سقراط ممن يهملون أمور البدن فكان لا يرخص في التغاضي عن حفظ الصحة وكان ينهي عن الافراط في الأكل لأجل مباشرة أنواع التعليمات العنيفة. وأما الحركات الرياضية التي تسر النفس فكان يوصي بممارستها لأنها مما يؤول إلى حفظ الصحة. وليس بها ما يقلل الاعتناء الواجب بأمور النفس. وفضلاً عن ذلك كان لا يظهر نفسه ظريفاً لطيفاً متصنعاً في ملابسه وأنواع معيشته مطلقاً. ولم يكن يعلم تلامذته على الطمع في المال لأنه كان يخلصهم من باقي الشهوات من دون أن يأخذ منهم درهماً واحداً. وكان يقول إنه باستمساكه عن أخذ الدراهم يحفظ حريته ويصونها. وأما الذين يأخذون إجرة على مذاكراتهم ومحاوراتهم فكان يسميهم أرقاء اختيارية لكونهم يجبرون ذواتهم على المحادثة رغماً عنهم مع كل من يدفع لهم ثمنها. ويتعجب ممن صنعتهم ودأبهم تعليم الفضيلة للناس كيف يطلبون إجرة على مثل ذلك عوض أنهم يعدون ربح صديق ذي فضيلة كأفضل المكاسب والأرباح. لأن قلب الانسان إذا تمكنت منه الفضيلة لا خوف عليه من أنه لا يكافىء هذا الاحسان العظيم بمعرفة الجميل وشكره كما يجب ولذلك لم يكن سقراط يشترط على أحد بدفع الفضة ولا يقبلها من أحد ولكن كان يجتهد أن يجعل الذين يقبلون تعاليمه أصحاباً وأصدقاء مخلصين له في المحبة وموقفين ذواتهم له طول مدة حياتهم ومتحابين بعضهم لبعض بمحبة أكيدة. فكيف يمكن أن رجلاً بهذه الصفات يفسد الشبان؟ لا ريب أن ذلك من المستحيل، إلّا إذا كان الاعتناء بالفضيلة يعد فساداً.

---

(١) إن السنت اليوناني كان مركباً من خمسمائة عضواً ينتخبون بالقرعة في كل عام مرة من كل سبط من العشرة أسباط خمسون عضواً. وكل سبط كان له حق التصدر مدة ٣٥ يوماً في العام وكان يقال عندهم لهذا التصدير بيريتانية. والخمسون عضواً من السبط الذي له التصدر كانوا يسمون بريتان فكل واحد من هؤلاء كان يصير ابيستاناً أي رئيساً مدة معينة حسب ترتيب القرعة ويترأس على كامل السنت ومحفل الشعب. فسقراط كان هو الأبيستان في سنة ٤٠٦ ق.م. وبصفة كونه أبيستاناً تمنع من جمع آراء الشعب على قضية الحكم بالقتل على رؤساء الجنود الذين انتصروا في وقعة جزائر ارجنوز البحرية لكونهم لم يدفنوا القتلى مع جمود الزوبعة.

ثم إن المتهم يقسم بجوبيتير (أعظم آلهة اليونانيين) بأن سقراط كان يحمل تلاميذه على احتقار القوانين الجارية حينئذٍ بقوله: إنه من الجنون انتخاب حكام الجمهورية بالفولة[1] إذ لا يوجد أحد يرتضي باستخدام رئيس لسفينته أو مهندس لبناء بيته أو رجل ينفخ بالمزمار أو غيره بواسطة الفولة فكم بالحري الذين بيدهم الأمر والنهي وسقطاتهم أكثر حذراً بما لا يقاس من سقطات أولئك. ثم يقول المتهم إن أقوالاً هكذا تحثّ الشبان على استحقار الترتيبات والقوانين الجارية وتجعلهم عتاة ومتجبرين. أما نظراً إليّ فأظن ان من يمارسون الحكمة ويظنون أن بهم الكفاية لتقديم نصائح نافعة مفيدة إلى أبناء وطنهم لا يكونون عتاة ولا متجبرين لكونهم يعلمون جيداً أن العتوّ تنشأ عنه البغضة والأخطار وأن الاقناع تتم به الأمور بغير خطر ولا انثلام في المحبة. فإننا نرى الذي نجبره على عمل يبغضنا بغضاً شديداً كما لو أن ذاك العمل اساءة بحقه. وبخلاف ذلك الذي نأخذه بالاقناع فإنه يظهر لنا المحبة كما لو صنعنا معه جميلاً. فالعتو والجبر ليس هما إذاً من صفات الذين يمارسون الحكمة بل من عادة الذين يكونون أصحاب قوة واقتدار ولا يعقلون. وفضلاً عن ذلك يلزم لمستعمل الجبر أعوان وأنصار. وأما الاقناع فلا يحتاج إلى مساعد. بل يقدر الانسان أن يحتسب نفسه كافياً وحده لاقناع رفيقه. ولذلك لم يشاهد مثل هؤلاء الرجال يدنسون أنفسهم بالقتل، لأنه لا يوجد من يريد أن يقتل رفيقه إذا كان يقدر على استمالته إليه بواسطة الاقناع.

ولكن يقول المتهم ان كريتياس والسيبياد كانا من تلاميذ سقراط ومعاشريه ومع ذلك أضرا بالمملكة ضرراً جسيماً لأن كريتياس في ما بين جميع الذين تولوا الأحكام مدة حكومة الخواص كان الأكثر حرصاً وعتواً وجبراً وسفكاً للدماء وكان السيبياد في ما بين الذين تولوا الحكم مدة حكومة الشعب أكثرهم فسقاً وعتواً. فإذا كان هذان الرجلان قد صنعا شراً بحق الجمهورية فليس لي غرض في تبرئتهما ولكن فقط قصدي أن أوضح سبب علاقتهما مع سقراط وغايتهما في معاشرته ومخالطته فأقول: إن هذين الرجلين كانا من أصل فطرتهما أشد أهل أثينا حرصاً وطمعاً وكانت رغبتهما أن تتم كل الأمور بواسطتهما، ويشتهيان أن تلهج باسميهما كل الأفواه. وكانا يعرفان حق المعرفة أن سقراط بخلاف ذلك كان قانعاً طول مدة حياته باليسير من العيش، قاهراً جميع شهواته. ولكنهما كانا يعلمان أنه بفصاحته وبلاغة حديثه كان يستجلب العقول ويستميلها كما يشاء. فترى هل يُظن مع ما كان عليه من الطباع التي سبق ذكرها أنهما كانا يسمعان مذاكرات سقراط لأجل الاقتداء بأعماله وأكتساب القناعة وحسن السيرة منه أو بالحري ليتعلما منه فصاحة التكلم وحكمة العمل؟ أما أنا فأظن لو أن إله خيّرهما بين أن يعيشا مدة حياتهما كسقراط أو يموتا لاختارا الموت اثناهما. ونجد برهان ذلك في عملهما. فإنهما حال ما ظنا انهما فاقا سائر رفاقهما تركا من ساعتهما سقراط ومرحا في ميدان السياسة التي هي سبب علاقتهما معه ولربما يوجد من يعترض عليّ قائلاً: إنه كان ينبغي لسقراط أن لا يعلم تلاميذه السياسة قبل أن يعلمهم الحكمة. فلست أنكر هذا الأمر ولكن أعلم ان سقراط كان كباقي الذين يدرسون الحكمة يظهر لتلاميذه انه يقرن العلم بالعمل. فكان دائماً أمامهم كتمثال للفضيلة يعظهم بالمواعظ الحسنة ويحثهم على اكتساب الفضيلة وتتميم ما على الانسان من الواجبات. وأعلم أيضاً ان الرجلين المقدم ذكرهما ما داما مواظبين على التردد على سقراط والتعلم منه كانا يستسيران بالحكمة والعدل لا خوف قصاص من سقراط، بل لظنهما حينئذٍ ان الأوفق لهما أن يسلكا هكذا. وإن قال الذين يدعون أنهم فلاسفة إنه من المستحيل أن يصير الرجل العادل جائراً والحكيم عاتياً وقحاً، وان من يملك علماً لا يفقده. فأجيبهم بأن

---

[1] نوع من القرعة تستعمل به الفولة.

رأيي بعيد عن رأيهم لأنني أرى الانسان إن لم يعود بدنه على الحركة والعمل لا يصلح لأعمال البدن، وهكذا إن لم يتعود على ممارسة أعمال النفس فمن المستحيل أن يقدر عليها أو أن يتمم ما يجب عليه اتمامه ويتجنب ما ينبغي تجنبه ولذلك نرى الآباء وإن كان بنوهم حكماء يبعدونهم على الاشرار لمعرفتهم ان الفضيلة تنمو وتزداد بمعاشرة الصلحاء وتنمحي آثارها من النفس بمخالطة الطلحاء ويشهد لذلك قول الشاعر ثيوغنيس:

مفرد

إنك إن عاشرت أهل الطلاح صدوك عن مسلكِ طرق الصلاح

وكما يشهد قول غيره:

مفرد

ترى الحكيم تارةً محسناً وتارةً تراه ممن يسيء

وأضيف شهادتي على هذه الشهادات بأني أرى ان الانسان أحياناً كثيرة ينسي ما يحفظه في ذهنه من الشعر مع كون الوزن مسعفاً على حفظه فلا غرو أن تنسى نصائح الاستاذ إذ أهملت ومتى نسيت هذه النصائح والارشادات ينسي أيضاً تأثيرها الذي يحرك النفس إلى طلب الحكمة وعلى التدريج تنسى الحكمة ذاتها. وأرى أيضاً أن الذين يتولعون بشرب المسكرات وينهمكون في الشهوات النفسانية ليسوا كفؤاً للسهر على تتميم واجباتهم ولا لهم طاقة على تجنب ما ينبغي لهم أن يتجنبوه. وإن كثيرين يحسنون توفير مالهم قبل أن يبتلوا بالعشق ولكنهم إذا ابتلوا لا يعود لهم استطاعة على التوفير لا بل إذا نفذت أموالهم تراهم يستحلون من المكاسب ما كانوا يستحرمونه ويستقبحونه قبلاً.

فهل يوجد إذا تضاد في قولنا إن الرجل الحكيم يطرأ عليه ما يزيل حكمته والعادل ما يبطل عدله. فنظراً إليَّ أظن أن جميع الفضائل تحتاج إلى الممارسة والاستعمال وعلى الأخص فضيلة الاقتصاد. لكون الأمراض النفسانية المخلوقة في الانسان تحرضه دائماً على مخالفة الحكمة ومطاوعة الشهوات وهكذا كريتياس والسيبياد فإنهما ما داما معاشرين سقراط أمكنهما بواسطة إرشاده لهما أن يحكما على شهواتهما الرديئة ولكن لما انفصلا عنه التجأ أحدهما كريتياس إلى تسالية حيث أحاط به أناس عادتهم خرق القوانين ومخالفة الشرائع لا يعرفون طريق العدل ولا يسلكون في منهج الحق وأما السيبياد فطلبه جماعة من النساء ذوات القدر والشأن لفرط جماله، وأفسده قوم من المداهنين الماهرين في فنهم لسبب شوكته وصولته ونفوذ كلمته في المدينة وعند خلفائها وإفراط الشعب في تعظيمه وتكريمه حتى علا شأنه وارتقى بسهولة أعلى المناصب فصار كالمصارع الشديد العزم والبطش الذي يفوز بالنصر والغلبة على كل من يبارزه ويفوق كل من يقارنه فيغرق في بحور الأماني والاطمئنان ويأمن من غدرات الزمان. فيرتاح منه البال ويهمل نفسه كل الاهمال. هكذا جرى بالسيبياد. فإذا كانت هذه كيفية الأحوال وزيد عليها التشامخ الذي أكسبهما إياه شرف نسبهما والتكبر الذي أورثتهما اياه ثروتهما وفرط غناهما وبطرهما لعظم شوكتهما ورخاوتهما لكثرة المداهنين حولهما وبالجملة كثرة أنواع فسادهما مع وجودهما بعيدين عن سقراط منذ زمن طويل فلا غرو أن تعدى عتوهما الحدود وبادرا العدل بالابتعاد والصدود. والأغرب ان المتهم ينسب خباثتهما وفواحشهما إلى سقراط حال كونه قد ضبطهما كل الضبط وجعلهما أن يسيرا سيرة الحكمة والعدل حينما كانا في عنفوان الصبا، أعني في سن الابتذال والخلاعة، فهل لا يظنه المتهم مستوجباً الثناء والمديح على ذلك؟ ففي كل الحالات لا يكون الحكم على هذه الصورة، لأنه هل يتهم معلم المزمار أو القيثارة أو أي معلم كان إذا علم تلاميذه ثم تركوه واتخذوا معلماً غيره فأفسدوا علمهم؟

أو هل يتهم الأب رجلاً كان ابنه حكيماً عاقلاً مدة معاشرته له إذا عاشر الابن بعده رجلاً آخر فاكتسب منه سوء الفعال وذميم الخصال؟ بل الأولى إنه كلما ازدادت قبائح الولد بمعاشرته الأليف الثاني يزداد أبوه علماً بفضل الأول ويتحقق انه كان يستوجب المديح والإكرام. حتى أن الآباء أنفسهم إذا كانوا سالكين بالحكمة مع بنيهم ثم ضل بنوهم عن سبيل الرشاد فما عليهم من ملام. فعلى هذه الصورة كان ينبغي أن يحكم على سقراط كما يقتضي العدل والانصاف. فإن كان قد أساء الفعال يحق لهم أن يعدوه رجلاً مفسداً. وأما إذا كان لم يبرح مستسيراً سيرة صالحة فهل من العدل أن يتهموه بفساد لم يكن يرتكبه.

ولو كان سقراط يقنع بمجانبة الشر ولا يجتهد برد الغير عن الأعمال القبيحة الموجبة للعار والفضيحة لكان ربما يستحق الملامة، ولكنه حينما شعر يوماً بأن كريتياس لشدة ولعه أو فرط انشغافه بحب أثذيمة أراد التمتع بها تمتعاً مفرطاً كسائر الذين يبذلون عافيتهم وقواهم لمطاوعة وإرضاء شهواتهم الغرامية، إجتهد في منعه وصرفه عن هذا العمل وأخذ يعظه قائلاً إنه لا يليق بالرجل الحر المحب للفضيلة أن يلح بالطلب على معشوقته كالسائل الذي يلتمس العطاء مع التذلل، وعلى الخصوص إذا كان يرغب أن يكون له موقع عظيم في قلبها ومقام كريم عندها. وأما كريتياس فكان يصم أذنيه ولا يريد أن يرجع عن عمله. فيزعم البعض أن سقراط قال وهو في محفل بحضور اثذيمة نفسها انه يرى كريتياس شبيهاً بالخنزير في كونه يرغب الاحتكاك بأثذيمة كما تحتك الخنازير بالحجارة فمن ذاك الحين صار كريتياس عدواً مبيناً لسقراط ولذلك حينما سمي واحداً من الثلاثين (وهم الثلاثون ظالماً الذين حكّمهم ليساندر وأهل إسبرطه على أثينا) ونوموثيتا (من القضاة الموجلين بنسخ القوانين القديمة، الخ.) مع خاريقليس وضع قانوناً يمنع به تعليم فن الخطاب نظراً إلى ما كان باقياً في صدره من الضغينة والحقد على سقراط لأن هذا القانون مما يوجب إهانة سقراط. وبما أن كريتياس لم يكن يرى ممسكاً عليه اتهمه بما كانت تعير به الفلاسفة عموماً في ذلك الوقت وأفتري عليه هكذا أمام الجمهور. لأنني ما سمعت سقراط فاه قط بكلام يثبت عليه هذه التهمة ولا شاهدت أحداً يقول بأنه يتلفظ بشيء مثل هذا. والحادثة الآتي ذكرها هي أكبر برهان على صدق مقالي وهي إن الثلاثين كانوا قد أهلكوا عدداً وافراً من أعيان البلد الذين لم يوافقوهم على مسراهم واستجروا كثيرين إلى ما ينافي الانصاف والعدل فلما عاين ذلك سقراط قال يوماً وهو في أحد المحلات إنه لأمر صعب أن الراعي الذي يقلل عدد البقر ويضعفها ينكر انه من رعاة السوء. ولأمر أعجب أن الرجل المُترأس على مدينة وينقص عدد أهلها ويجعلهم أقبح وأشر مما كانوا لا يخجل من عمله مقراً بأنه حاكم رديء. فبلغ هذا الكلام إلى كريتياس وخاريقليس واستحضروا سقراط أمامهما واطلعاه بالحال على القانون المذكور آنفاً ومنعاه منعاً قاطعاً عن المحادثة مع الشبان. فحينئذٍ استفهم منهما سقراط هل يمكنه أن يسألهما عن ما أُبهم عليه في منعهما له. فسمحا له بالسؤال فقال لهما: إنني كلي الطاعة والخضوع للقوانين ولكن لكي لا يتفق لي أن أنقضها على غير معرفة أريد أن تفيداني صريحاً هل عنيتما عن الكلام الحسن أم عن الكلام القبيح بقولكما فن الخطاب وبمنعكما تعليم هذا الفن؟ فإذا كنتما قد عنيتما عن الكلام الحسن يكون حينئذٍ من الواضح الصريح انه يلزم تجنبه. وأما إذا كنتما قد عنيتما عن سيء الكلام فيعود ينبغي السعي في التكلم الحسن. فأخذ خاريقليس الحنق والغيظ وأجاب سقراط هكذا. إذا كنت يا سقراط لا تفهم نهينا فنصرّح لك العبارة بأوضح وأجلى بيان وهو أننا نهيناك عن الكلام مع الشبان، فأجابهما سقراط حتى لا يبقى محل للشك والارتياب بأني أخالف ما قد رُسم حددا لي سن الشبان فقال خاريقليس ان الشبان هم كل الذين لم يبلغوا السن المعين لأرباب السنت إذ لا يكون العقل قد اكتمل بهم فلا ينبغي لك إذاً أن تخاطب من هو دون الثلاثين من عمره. فاعترضه سقراط بقوله: وإذا ابتعت شيئاً من بائع لم يبلغ عمره الثلاثين أفلا اسأله

عن الثمن؟ فقال: هذا مرخص لك فيه ولكن يوجد فيك مَلكة يا سقراط وهي أنك ترغب السؤال دائماً عما تعرفه حق المعرفة فاختصر السؤالات في هذا المكان. فقال سقراط إذاً لا يجوز لي أن أجيب شاباً إذا سألني أين مسكن خاريقليس وأين كريتياس؟ فقال وهذا أيضاً نرخص لك فيه. ثم قال له كريتياس: فعاد يلزم لك إذاً أن تدع السكافين والنجارين والحدادين مكانهم فقد ضجروا من كثرة ذكرك إياهم في محاوراتك (وكان سقراط بحديثه يأتي دائماً بشواهد مثل هذه أي النجارين والحدادين وغيرهم فيستنتج منها عن الفضيلة، الخ.) فأجابه سقراط وسأدع أيضاً مكانه كل ما كان يستتبع ذلك أعني، العدل والفضيلة وما ماثلهما. فقال: أي وجوبيتر، ودع أيضاً رعاة البقر وإلا فأخشى أن ينقص فيك العدد أنت أيضاً. فهذا الكلام الأخير مما يؤكد لنا ان تمثيل سقراط براعي البقر كان قد بلغهما وأنهما أضمرا ضغينة فى صدورهما.

فقد أوضحنا عن سبب علاقة كريتياس مع سقراط وعن نية واستعداد كل منهما. فنظراً إليَّ لا أتوقف عن أن أقول بأن العلم لا يمكن أخذه عن استاذ لا يعجب التلميذ. فإن كريتياس والسيبياد استمرا مع سقراط مدة طويلة وهو لا يعجبهما مطلقاً ومن قبل أن يدخلا عند سقراط كان الوصول إلى الأحكام مطمح نظرهما بما أنهما مدة بقائهما عند سقراط كانا يجتهدان في المذاكرة مع الذين كانوا متداخلين في الأمور السياسية فضلاً عن غيرهم.

وقيل عن السيبياد انه قبل أن يبلغ سن العشرين وقع بينه وبين وصيه بيريكلس، وهو أكبر أعيان أثينا، المحاورة الآتية في الشريعة، وهي:

السيبياد ـ قل لي يا بيريكلس هل يمكنك أن تخبرني ما هي الشريعة؟

بيريكلس ـ بلى يمكنني ذلك.

س ـ استحلفك بالآلهة جميعاً أن تخبرني إذاً عنها لأني أرى الناس يمتدحون البعض لاحترامهم الشريعة والقوانين وأظن ان الانسان لا يقدر أن يستحق هذا المديح إن لم يعلم ما هي الشريعة والقوانين؟

ج ـ إنك لطالب أمراً سهلاً جداً فأصغ إذاً لتعلم ما هي الشريعة. فإنه يسمى شريعة أو قوانين كل ما يأمر به أو ينهى عنه محفل الشعب بعد المشاورة.

س ـ وهل يأمر بعمل الخير أم الشر؟

ج ـ إنه، وحق جوبيتر، لا يأمر إلّا بالخير ولا يأمر بالشر أصلاً.

س ـ وإذا وجد عوضاً عن الشعب جمعية مركبة من بعض أشخاص يأمرون وينهون كما في حكومة الاوليغاركيّة (الحكم المسلم إلى عدد معلوم من الذوات) فماذا يكون ذلك؟

ج ـ إن كل ما تأمر به أو تنهي عنه القوة الحاكمة في المملكة بعد المشاورة في شأنه يكون قانوناً.

س ـ وإذا كان الحاكم قد تغلب على المملكة جبراً وأمر الأهالي بإجراء الشيء الفلاني فهل يسمى ذلك قانوناً أيضاً؟

ج ـ نعم كل ما يأمر به المتغلب على الأحكام يسمى قانوناً.

س ـ فأخبرني إذاً ما هو الجبر وما هي مخالفة القوانين؟ أليس هو فعلاً به القوي يغصب الضعيف على اجراء ما يريده بدلا من أن يستعمل معه الاقناع؟

ج ـ نعم رأيي هكذا.

س ـ فكل مرة إذاً يستعمل المتغلب على الأحكام القوة الجبرية مع الأهالي عوضاً عن الاقناع يخالف القانون؟

ج ـ نعم أظن هكذا ولقد أخطأت بقولي إن أوامر المتغلب على الأحكام هي أيضاً قوانين.
س ـ وإذا كان العدد القليل المتسلم الأحكام لا يستعمل الاقناع مع جمهور الشعب بل يأمر وينهي على حسب هواه فهل يسمي ذلك جبراً أم لا؟
ج ـ إن كل ما يبتغي من شخص بلا اقناع سواء كان بأمر الحكومة أو غيرها هو ظلم وإسراف لا عدل ولا انصاف كما يظهر لي.
س ـ وكل ما يحمله الأشخاص المتسلمون زمام الحكومة للأغنياء وأصحاب الثروة من الأهالي بغير واسطة الاقناع هل يسمى جبراً أم قانوناً؟
ج ـ عوفيت يا السيبياد ما أحسن سؤالاتك وأعجبها. ونحن حينما كنا في سنك كنا أيضاً ماهرين في قضايا مثل هذه نتخذها متناً لمخاطبات ومباحثات سفسطية ونتفلسف كما تتفلسف أنت الآن.
س ـ آه، لو أمكنني، يا بيريكليس، أن أتخاطب نفسك في ذلك الوقت الذي به كنت فائقاً نفسك؟

فمذ ظن كريتياس و السيبياد انهما صارا أمهر ممن كان بيدهم ادارة المدينة وسياسة الأحكام كفّا عن مواجهة سقراط لأنه لم يكن يعجبهما بل يؤذيهما بإظهاره لهما عيوبهما. وتداخلا من ذاك الحين في أمر الأحكام التي كانت سبباً في مخالطتهما إياه. وإما كريتون فلم يبارح سقراط وهكذا شريفون وشيريقراط أخوه وهرموقراط وسمياس وسيبس وفيدندس وكثيرون غيرهم وجميعهم كانوا يترددون عليه دائماً لا لقصد اتقان فن الفصاحة بل لكي يستسيروا سيرة الفضيلة ويحسنوا واجباتهم نحو عيالهم وأقاربهم وخدمهم وأصحابهم ووطنهم وأبناء وطنهم بالاجمال. وقط لم يسمع عنهم انهم اساءوا الصنيع حتى ولا اتهموا بذلك لا في شبوبيتهم ولا في كهوليتهم.

ولكن المتهم يقول إن سقراط كان يعلم البنين على إذلال الآباء وإهانتهم باقناعه تلامذته وإنه جعلهم يصيرون أمهر وأفلح من آبائهم. وبقوله لهم: إن الشريعة تسمح للإبن أن يقيد أباه إذا ثبت عليه الجنون. مقدماً لهم برهاناً على ذلك أن الرجل العالم يحق له أن يحقر الجاهل. حال كون سقراط كان يظن أن الرجل إذا احتقر رفيقه لجهله استحق أن يحتقر هو أيضاً ممن هو أعلم منه. ولذلك كان يبحث دائماً عن الفرق الكائن بين الجهل والجنون. فكان يظن أن تقييد المجانين بالسلاسل هو من الصواب سواء كان لفائدتهم الخصوصية أو لفائدة أصحابهم وأقربائهم وأما الجهلاء فينبغي لهم أن يتعلموا ما يجهلونه من أهل العلم والدراية. ثم يقول المتهم إن سقراط كان يعلم تلاميذه ان يحتقروا ليس آبائهم فقط بل وأيضاً جميع أقربائهم بقوله لهم: إن الانسان حينما يسقط في المرض أو يشتبك في دعوى لا تنفعه أقاربه بل إنما الأطباء وأولو الدراية في الشريعة. وإن الأصحاب ماذا تنفعنا صحبتهم وحسن توجهاتهم إذا لم ينلنا منهم فائدة. وإنه لا يستحق اعتبارنا واحترامنا إلاّ من هو عالم بما يجب علمه ولائق به تعليم ذلك وتدريسه. وإنه كان يحمل الشبان على الوثوق بحكمته ولياقته لإفادة الآخرين وتدريسهم الحكمة. وبذلك يمنعهم عن اعتبار غيره مستجلباً لنفسه فقط كل الاعتبار والاحترام وغير ذلك. فأما ما كان يقوله سقراط عن الآباء والأقارب فقد سمعته مراراً. وكان يقول أيضاً إن الجسد متى فارقته النفس التي هي وحدها مقر الإدراك يبادر الناس إلى ردمه حال كونه أعز ما يوجد عندهم. وإن الرجل طول مدة حياته يقطع بيده أو يكلف غيره أن يقطع له ما يحتسبه زائداً لا نفع له في بدنه وهو عزيز عنده بهذا المقدار. فيقطع أظفاره ويقتص شعره وشاء كيله أو يسلم نفسه للحكيم والمزين ليقطع ويكوي مع الأوجاع الأليمة ويظن ان عليه أيضاً أن يدفع إجرة له نظير تعبه. ثم انه يتفل ريقه بعيداً عن فمه لأنه عديم النفع بل مضر له إذا بقي في بدنه. ولكن لم يقصد سقراط بكلامه هذا أن

يجعل الانسان يدفن أباه حياً أو يقطع نفسه إرباً إرباً بل قصد إفهامهم أن الشيء الباطل العديم النفع لا اعتبار له أصلاً لكي يجعلهم يجتهدون كل الاجتهاد ليصيروا حكماء وينفعون الغير على قدر استطاعتهم. حتى إذا أرادوا أن يعتبرهم آباءهم وأصحابهم لا يكتفون بروابط القرابة والمحبة فقط بل يسعون في أن يكونوا نافعين أيضاً لمن يرغبون منهم الاعتبار لأشخاصهم. ويزعم المتهم أيضاً بأن سقراط كان يختار أعكس أبيات الشعراء المشهورين ويقدمها كحجج له في تعليم القبائح والخبائث لتلاميذه وانه استعار من هيزيود البيت الآتي:

إن يعمل المرء لا عارٌ عليه بذا ... لكن إذا كان لم يعمل وذا عارُ

وفسره بأن الانسان لا ينبغي له أن يرجع عن عمل الشر مهما كان ولا عما يوجب العار بل يجوز له أن يصنع كل شيء لأجل ربحه. فهذا محض الكذب والبهتان. نعم كان سقراط يعتقد بأن العمل هو نافع ومشرف للانسان، وأن البطالة مضرة وموجبة للعار والخزيان، وأن العمل خير والبطالة شر. ولكنه كان يقول: إن من يصنعون صنيعاً حسناً فهؤلاء هم يعملون وعملهم هو كما يجب أن يكون. وأما الذين يلعبون بالأكعاب أو يعملون عملاً مضراً فكان يقول عنهم: إنهم من أهل العطلة والبطالة. فعلى هذا التأويل يكون الشعر المذكور مملوءاً حقيقة:

واتهموا سقراط أيضاً بأنه كان يكثر ذكر أبيات هوميروس بها يقول الشاعر المذكور عن لسان الملك أليس اليوناني بأنه ينبغي إكرام الملوك وأبطال الرجال واحتقار أفراد الجنود الذين هم من رعاع الناس وتأديبهم بضرب السوط لكونهم عديمي الإدراك لا شجاعة لهم في المواقع والحروب ولا يصلح رأيهم في الملمات والخطوب. فسقراط لم يكن يفسر الأبيات المذكورة بمعنى أن الشاعر هوميروس وافق بها على ضرب عوام الناس والفقراء وإهانتهم، بل إنه لم يلفظ بكلمة واحدة يلوح منها هذا المعنى لأنه كان هو أيضاً من عوام الناس. وهل يطلب الانسان الضرب والإهانة لنفسه؟ ولكنه كان يقول: إن الذين ليس منهم ثمرة ولا نفع في الرأي أو في العمل وليسوا كفوءاً لاسعاف الجيش أو الحكومة أو الشعب عند الاقتضاء وتراهم مع ذلك وقاحاً عارين من الأدب والحشمة فهؤلاء يلزم زجرهم وإن كانوا من أهل الثروة والغنى. وكان سقراط محباً للشعب مشفقاً على الناس ومع أن تلاميذه كانوا كثيرين من أهل أثينا أو اغراباً لم يستربح منهم بشيء مطلقاً بل كان يفيض علومه ومعارفه التي كانت رأس ماله الوحيد عليهم جميعاً بغير استثناء. وفيما بعد كثيرون منهم باعوا الآخرين بثمن غال ما كانوا قد اكتسبوه مجاناً من سقراط. ولم يكن عندهم مثله ميل للشعب لكونهم أبوا أن يعلموا الذين لم يكن لهم قدرة على دفع المال. فهكذا سقراط قد أورث رونقاً وبهاء لجمهوريتنا لدى الناس أكثر مما فعل ليخاس في حق جمهورية سبارطه. وإن يكن هذا قد اشتهر بما يأتي: وهو إنه في أيام أعياد الجيمنوبيدى (وهي أعياد موسمية عند أهل سبارطه فيها كانت ترقص جمعية من الرجال وأخرى من الصبيان العراة حول أصنام أبلون وديانا ولاتون هاتفين بأصوات التراتيل تذكاراً لانتصار سبارطة على الآرجيين في موقعة ثيري) كان يقبل على مائدته الأغراب الموجودين في سبارطة. فسقراط بنشره وبسطه علومه ومعارفه طول مدة حياته وبإصلاحه حال وسيرة الذين كانوا يعاشرونه استحق الثناء والمديح بأكثر من ذلك وكان له الفضل الأكبر. فالأولى إن سقراط نظراً إلى هذه الصفات التي ذكرناها عنه كان ينبغي أن يقدم له التبجيل والاكرام من مدينتنا لا الموت. ومن فحص القضية على مقتضى الشريعة وافق على هذا الرأي. لأن الشريعة تأمر بالقتل على من يمسك في حال السرقة أو امتلاط الأثواب أو قص الأكياس أو خرق الجدران أو استعباد البشر أو نهب الهياكل، وجميع هذه

الذنوب كان سقراط بعيداً عنها أكثر من سائر الناس. ولم تقع كسرة في الحرب على الجمهورية بسببه، ولا اتهم بفتنة ولا بخيانة، ولا نسب إليه شر من الشرور، ولا سلب مال أحد بالرغم أو بالحيلة، ولا سبب ضرراً لأحد، ولا اتهم بما يشبه ذلك. فكيف جاز لهم أن يحكموا عليه كمجرم متهمينه بنكران وجود الآلهة؟ مع أنه كان يقدم لها الإكرام والوقار أكثر مما سواه وعوض ان يفسد الشبان كما وبخه بذلك متهموه كان ينزع منهم شهواتهم الرديئة ويلقي في قلوبهم حب الفضيلة التي تكسب المدن رونقاً عظيماً وأفراد الناس عيشاً نضراً رغيداً. فيا للعجب كيف عمله هذا لم يستوجب له من أهل مدينته الاكرام والتبجيل؟

الفصل الثالث

في بيان تخصيص حياة سقراط بتمامها لعمل الخير وتقدمة المثل الصالح وكون سقراط مملوءاً دائماً من الوقار والاحترام للآلهة ومحافظاً على القناعة والاقتصاد.

إن سقراط كان ينفع تلاميذه بإظهار نفسه في سلوكه بينهم، كما كان يظهر لهم من مخاطباته المفيدة ومحاوراته معهم، وكما كان في حقيقة الحال. وسأذكر عن ذلك كلما يخطر في ذهني. وأما في ما يتعلق بالآلهة فكان يسلك بحسب الإفادات المعطية من الكاهنة بيستي، الصادرة عن هاتف الغيب في أمر تقدمة القرابين مع الإكرام إلى الجدود المتوفين وما ماثل ذلك، وإفادات هاتف الغيب كانت كذا أن كل من يسلك في هذا الشأن بحسب الشرائع والقوانين السالكة في بلاده فهو يسلك سبيل التقوى والديانة. فسقراط كان ماشياً على هذه الطريقة، وكان يحث الآخرين على الإقتداء به ويعد الذين يخالفونها من السفهاء الغريبي الأطوار، وكان يتوسل إلى الآلهة أن تنعم عليه بالخيرات معتقد أن الآلهة تعرف ما هي الخيرات وكان يظن أن الذين يطلبون من الآلهة الذهب والفضة والصولة والنفوذ وما أشبه ذلك إنما هم كالذين يطلبون أن يكسبوا في لعب الأكعاب أو ينتصروا في القتال أو في ما لا يعرف ما ستكون نتيجته. وكان سقراط يقدم قرابينه على قدر حاله ويعتقد أن أجره لا يكون أقل من أجر الأغنياء الذين لكثرة أموالهم وفرط غناهم يهدون قرابين عظيمة وثمينة. وكان يقول لو كانت الآلهة تتقبل القرابين الثمينة بأكثر سرور من القرابين الحقيرة لاقتضى غالباً أنها تسر بقرابين الأشرار أكثر مما تسر بقرابين الأطهار ولكان الانسان ذاته يستحقر الحياة ويستكرهها حينما يرى أن تقدمات أهل الفضيلة ليست أكثر قبولاً لدى الآلهة من تقدمات الأشرار. وكان يفتكر بخلاف ذلك أي أن نسائك أولي التقوى والدين تحظى بأكثر قبول لدى الآلهة وكثيراً ما كان يمدح قول هيزيود الشاعر في البيت الآتي:

عليك أن تهدي إلى الآلهة ما قد تطول يدك الفانية

ويقول إن هذه قاعدة حسنة يلزم اتباعها أيضاً مع الأصحاب والضيوف وفي كل الأحوال.

وإذا ترآى لسقراط أن الآلهة قد نبهته عن أمر ما فكان أسهل لمن يريد أن يحمله على مخالفة ذاك التنبيه بأن يقنعه في اتخاذ دليل أعمى يجهل الطريق الذي يرغب السلوك فيه عوضاً عن رجل بصير يعرف الطرق والمسالك. وكان يصف بالجنون كل الذين يخالفون تنبيهات الآلهة حياء من البشر، ويحتسب كل ما هو من البشر دون التنبيهات الإلهية بما لا يقاس. وكان قد تعود على قوانين في المعيشة كل من يلزم نفسه باتباعها يضمن لذاته على نوع ما تحصيل المصارف القليلة التي يحتاج إليها إن لم يصبه بلاء من القضاء لأن قناعته كانت بالغة هذه الدرجة، بحيث لا يوجد رجل مهما أراد أن يشتغل قليلاً إلاّ ويمكنه نتاج ما كان يكفي سقراط في معيشته. ولم يكن يطلب الأكل إلاّ إذا كان يشتهيه وحينما يأتي

ميعاد غذائه كنت تراه في حالة من القابلية تغني عن الأقزاح وزوائد الطعام. وكل مشروب كان مقبولاً عنده لأنه لم يكن يشرب إلّا حينما يشتد عليه الظمأ. وحينما كان يدعي إلى وليمة كان يسهل عليه جداً عدم الإمتلاء من الأطعمة والمشروبات مع أن غالب الناس يستصعبون هذا الأمر. وكان ينصح الذين لا يقدرون أن يصنعوا نظيره بأن لا يأكلوا إن لم يجوعوا ولا يشربوا إن لم يظمأواقائلاً :إن أوجاع البطن والرأس والنفس إنما هي ناشئة من عدم الانتباه لهذا الأمر،وكان يضيف على ذلك بطريق المزح والفكاهة إن الساحرة شرشه لم تكن تستعمل سوى كثرة الأطعمة واسطة لتحويلها الرجال إلى خنازير. وإن أليس نظراً إلى نصائح الإله عطارد وقناعته الطبيعية وإمساكه عن الطعام الذي كان يقدم له مع الغزارة الزائدة تخلص من كيدها ولم ينقلب خنزيراً. (وأما شرشه فهي ساحرة قديمة كانوا يزعمون أنها ابنة الشمس والحورية فرسه وانها كانت قد حولت رفقاء الملك أليس إلى خنازير بواسطة شرب مسحور سقتهم إياه، وأما الملك فخلص من مكرها فعشقته ومسكته عندها عاماً إلى أن ولدت منه بغلام سمي تيليكون) وهكذا كان سقراط يمزج الهزل بالجد في كلامه على المسئلة.

وأما في العشق فكان يوصي بالهرب والفرار مع التجلد والاحتمال من معاشرة أهل الحسن والجمال قائلاً إنه ليس من الأمور المستطاعة بقاء عقل الانسان وحزمه عند مخالطتهم ومعاشرتهم. ورأى يوماً اقريتوبول تلميذه يقبّل إبن السيبياد وكان هذا الغلام بديع الحسن رائع الجمال فخاطب سقراط اغزنيفون بالكلام الآتي أمام اقريتوبول نفسه:

قل لي يا اغزنيفون ألا كنت تظن أن اقريتوبول هو عاقل حكيم حزوم لا عاشق عديم الحزم فاقد العقل مخاطر بنفسه.

ج - نعم من غير شك.

س - فاحتسبه من الآن فصاعداً هجوماً مقحاماً إلى الغاية لأنه مستعداً أن يلقي بنفسه إلى الرماح والسيوف ويقتحم النيران والحتوف.

ج - وترى ماذا شاهدت منه حتى تتهمه بذلك؟

س - كيف لا وقد تجرأ على تقبيل إبن السيبياد ذاك الغلام البارع الحسن والجمال ذي الوجه النضير الرائق واللون البهج الفائق.

ج - إذا كان هذا أمراً يعد من المخاطرة فأظن اني أنا أيضاً أقدر على اقتحام مثل هذا الخطر.

س - ألا تعلم يا سيء الحظ ماذا يحل بك إذا قبّلت غلاماً حسن الصورة؟ تجهل أنك تنقلب من ساعتك عبد رق مع كونك حراً. وتنفق مالاً كثيراً على لذات مشؤومة. ولا يبقى عقل يبحث عن الحسن والطيب من الأشياء. وتضطر أن تبذل جهدك في تحصيل ما لا يقدم على تحصيله المجنون.

ج - بحق هرقل ما أشد وأبلغ القوة التي تنسبها إلى القبلة.

س - هل تعجب من ذلك وهل لا تعلم أن النحلة الصغيرة إذا قربت من الشفتين تجعل للانسان ألماً شديداً يكاد عقله يطير منه؟

ج - بحق جوبيتر هذا أكيد ولكن النحلة تلدغ وبلدغتها لا أعلم ماذا تولج.

س - ألا تدري يا قليل العقل أنه يوجد في مقلة الغلام الظريف الوجه ما لا تقدر أن تراه أيضاً؟ أتجهل أن هذا الأرقم الذي يسمونه غلاماً جميلاً إذا قابلناه مع النحلة نراه مخوفاً أكثر منها نظراً إلى كون النحلة لا تؤذي إلّا إذا لمست وأما هو فبمجرد النظر فقط يرمى بما لا أعلم ما هو الذي فعله يورث الهذيان؟ وربما لم يُسم العشق بالرامي إلّا لأن الغلمان تجرح على بعد فلذلك أنصحك يا اغزنيفون أن تفر هارباً ولا تلتفت إلى خلفك حينما ترى شخصاً جميلاً. وأما أنت يا اقريتوبول فأشير عليك أن تلهي

نفسك بالسفر عاماً كاملاً لعل هذه المدة تكفي لابراد جرحك.

فكان إذا رأيه عن العشق إن الذين لا يقدرون على قمع حرارة شهواتهم يجب عليهم أن يستعملوه ككل ما تأباه النفس إذا لم يكن الجسم محتاجاً إليه احتياجاً اضطرارياً. وقضاء هذا الاحتياج لا يلزم أن يكون به تحميل النفس أدنى كره. أما هو فكان متسلحاً سلاحاً قوياً بهذا المقدار على مثل هذا الهذيان حتى انه كان يتجنب مقابلة الأشخاص الجميلين بأكثر سهولة مما يتجنب غيره منظر الشنيعي الصورة. فهكذا كان سقراط في ما يتعلق بأمور الطعام والمشروبات والشهوات النفسانية. وكان يظن أنه يحصل عنده لذة في قضاء شهوته مع الاقتصاد بقدر ما يحصل للذين يصابون بالاضرار لفرط إنهماكهم فيها ومن جهة أخرى يوفر عن نفسه تحمل العناء والأتعاب.

الفصل الرابع
في وجود آلهة تسهر على البشر

إذا توهم البعض كما قبله وكتبه كثيرون على سبيل التخمين أن سقراط كان عنده موهبة جلب الناس إلى سبل الفضيلة ولكن لم يكن عنده الكفاية ليجعلهم أن يتمكنوا بالفضيلة ويتعقموا بها التعمق الكافي فليفحص هؤلاء عن السؤالات التي بها كان يفحم ويبهت الذين كانوا يدعون معرفة كل شيء وليبحثوا عن مذاكراته اليومية مع تلاميذه وليحكموا حينئذٍ هل كان فيه الكفاية لاصلاح حال الذين كانوا يتعلمون منه وتحسين سيرتهم أم لا فأروي أولاً المحاورة في شأن الآلهة التي سمعتها بينه وبين ارستوديم الملقب بالصغير من أخص أصحابه وهي انه كان قد بلغ سقراط أن ارستوديم هذا لا يقدم إلى الآلهة لا قرابين ولا صلوات وإنه لا يلتجيء قط العرافة بل يستهزيء بالذين يمارسون العبادة فوقع بينهما المحاورة الآتية:

سقراط - أخبرني يا أرستوديم هل يوجد رجال تتعجب من كثرة معرفتهم؟

ارستوديم - نعم، لا شك.

س - اخبرني عن أسمائهم؟

ج - في الشعر الحماسي يعجبني على الخصوص هوميروس، وفي الأغاني ميلانييد، وفي التراجدية[1] سوفوقليس، وفي صناعة النقش بوليقليط[2] وفي فن التصوير زوكليس.

س - ترى من يستحق التعجب أكثر هل الذين يصنعون صوراً وتماثيل لا عقل لها ولا حركة أم الذين يخلقون أشخاصاً مدركين أحياء؟

ج - لا وحق جوبيتر بل الذين يخلقون أشخاصاً أحياء إذا كان هؤلاء الأشخاص ليسوا صنعة الاتفاق والصدفة بل صنعة روح مدرك.

س - إنه يوجد مخلوقات غاية صنعا ليست ظاهرة وأخرى منفعتها واضحة لا يعترض فيها، فقل لي أيتها صنعة الاتفاق والمصادفة وأيتها صنعة الادراك والعقل؟

ج - إنه لحق أن يقال إن التي غايتها النفع هي صنعة الإدراك.

---

(١) التراجدية هي نوع مما يعرف بالكومدية لكنها محزنة.

(٢) أفخر ما صنعه هذا النقاش هي صنمة جوثون طولها أربعة عشر ذراعاً رأسها وصدرها وذراعاها ورجلاها من العاج وكسوتها من ذهب. وصنمة أخرى سميت باليونانية قانون تفسيرها قاعدة لما حوت من الاتقان والصناعة ونظم بها كمال الخليقة البشرية.

س ـ فهل لا يلوح لك إن الذي صنع البشر منذ الابتداء أعطاهم بقصد النفع آلات بواسطتها يحسون بإحساس مختلفة كالأعين ليبصروا بها والآذان ليسمعوا بها؟ فلو لم يكن للأنف منخران ترى ماذا كانت تنفعنا الروائح الطيبة؟ ولو لم يكن اللسان مخلوقاً ليفرق بين الحلو والمر هل كنا نشعر بهذه الطعمة أو نستطعم بما يلذ الفم؟ وزيادة على ذلك هل لا تظن أنه يجب أن يعد من عظيم الحكمة والتبصر أن النظر لكونه آلة ضعيفة واهية خصص بالأجفان التي تفتح عند الاحتياج وتغلق وقت النوم ولأجل وقايته وحمايته من الأهوية جعلت له الأهداب والحاجبان جعلا كميزابين فوق العينين ليحجبا عنهما عرق الرأس لكي لا يؤذيها؟ وإن الأذن تستقبل كل الأصوات ولا تملأ أبداً؟ وإن عند الحيوانات كافة الثنايا تصلح للقضم والأضراس لمضغ الطعام وطحنه؟ وإن الفم الذي بواسطته يولج الحيتان في بطنه ما يشتهيه من الأطعمة والقوت يكون موضعه بإزاء المنخرين والعينين والفضلات التي نستكرهها يكون لها منافذ بعيدة ومنصرفة بقدر ما يمكن عن حواس جسمنا؟ فجميع هذه الأعمال المملوءة حكمة وقدرة سامية بهذا المقدار أتشتبه إلى من ينبغي ان تنسبها، هل إلى الاتفاق والمصادفة أم إلى العقل؟

ج ـ لا، وحق جوبيتر، بل إذا أمعن النظر بها يخال أنها صنعة فاعل حكيم ومحب للمخلوقات التي تتنسم الحياة.

س ـ والشهوة التي أعطيت للمخلوقات لكي يتناسلوا. والميل الذي جعل في الأمهات لارضاع ثمرة أحشائهن وتربيتها وحب الحياة المغروس في هذه الثمرة وفزعها وهولها من الموت فجميع هذا يظهر انه ابتدع من موجود كان قد غرس في عقله أن يوجد مخلوقات. أم هل تظن أنك ذو إدراك وحدك وإن كل عداك لا إدراك له البتة مع انك تعلم يقيناً أن جسمك ليس هو إلاَّ ذرة من جرم الأرض العظيم الاتساع، وقطرة من مجموع المياه التي لا تحصى، وان أجزاء قليلة لا تذكر من كميات العناصر التي لا تحد استعملت لتركيب جسمك. فهل تظن انك قد نلت الحظ ان تختطف لنفسك كل الإدراك فلم يعد له وجود في ما سواك؟ وإن هذه الكائنات التي هي عديمة التناهي في العدد والكبر بالنسبة إليك تحسن نظامها قوة غير مدركة؟

الفصل الخامس
في تعليم سقراط الاقتصاد لتلاميذه

من حيث لا ينكر ان الاقتصاد هو فضيلة عظيمة كلية النفع للناس فلنفحص هل كان حديث سقراط يقويها وينميها فيهم حينما كان يخاطبهم بما يأتي ذكره.

يا أبناء مدينتنا إذا ظهرت علينا حرب بغتة وأردنا انتخاب رجل ذي مهارة كافية لانقاذنا من يد العدو وقهره والتغلب عليه وكنا نعرف رجلاً أسيراً لشهوة الأكل وشرب الخمرة ولذات العشق والرخاوة والنوم، فهل نأتي هذا الرجل وننتخبه رئيساً علينا؟ وهل نقدر أن نفترض أن رجلاً كهذا يقدر على الظفر بالعدو وانقاذنا من يديه؟ وإذا أردنا أن نسلم إلى أحد في آخر حياتنا تربية صبياننا أو عرض بناتنا أو إدارة أموالنا فهل نظن الرجل القليل الاقتصاد أهلاً لذلك عن ثقة؟ وهل نسلم إلى عبد عديم الاقتصاد حراسة مواشينا أو مخازننا أو مناظرة أشغالنا؟ أم هل نقبله ناظراً على بساتيننا أو وكيلاً على مطبخنا ولو مجاناً؟ فإذا كنا [لا] نقبل أن يكون لنا عبد مفرط في الشهوات فكيف لا نهتم إذاً في قمع شهوات أنفسنا لكي لا نناظره في خباثاته ولا سيما أنه لا يمكن أن يقال إن الرجل الغير المقتصد يضر الآخرين وينفع ذاته؟ كما أن البخيل بسلب مال الغير يتخيل له أنه يستغني لأن الرجل العديم الاقتصاد بضد ذلك يجلب على نفسه من الضرر أكثر مما يجلب على غيره إذ لا ريب أن أبلغ ضرر يستجلبه

الانسان لنفسه هو خراب البيت والصحة والعقل معاً. وفي الألفة والمؤانسة بين الناس هل يعز الرجل الذي يؤثر المأكول والمشروب على أصحابه وأصدقائه، أو يحب العواهر أكثر من رفاقه وأقربائه؟ وهل لا يجب على كل من يعد الاقتصاد أساساً للفضائل أن يجتهد في تمكينه أولاً في نفسه. فبدون الاقتصاد كيف يمكن معرفة الخير وممارسته كما هو واجب؟ ومن هو الرجل الذي يكون أسيراً لشهواته ولا يورث نفسه وجسمه الذل والحقارة ويخفض شأنها وقدرهما؟ فلذلك أظن أن كل رجل حر ينبغي له أن يطلب من الآلهة أن لا يقع له عبد بهذه الصفات وكل من يكون عبداً لهذه الشهوات ينبغي له أن يطلب لقاء معلم حكيم لكي يرشده إلى الصلاح، وإلاّ فيهلك لا محالة. فهكذا كانت مواعظ سقراط وأعماله كانت تشهد له بأكثر من أقواله فإنه كان يغلب ليس فقط على الشهوات النفسانية بل على سائر اللذات التي تحصل بالمال وكان يظن أن كل من يقبل الدراهم من أي من كان يجعل لنفسه سيداً عليها ويستعبد بأقبح عبودية.

الفصل السادس
في إفحام سقراط لانتيفون السفسطي عن تعييبه عليه لقناعته وسذاجة حاله وعادته على التعليم مجاناً

إنه قد يناسب هنا ذكر المحاورة التي حصلت بين سقراط والسفسطي انتيفون. فإن أنتيفون أتى سقراط يوماً راغباً استمالة تلاميذه وقال له بحضرتهم. إنني كنت أحسب يا سقراط أن الذين مهنتهم الفلسفة ينبغي أن يكونوا أسعد من غيرهم وأما أنت فيتبين لي بأن الفلسفة أورثتك ما ينافي ذلك لأني أراك عائشاً عيشة هكذا دنيـة بحيث لا يرتضي أخس العبيد أن يكون له سيد نظيرك. فإنك تقتات من أسمج الأغذية وتستسقي من أقبح الأشربة وليس فقط ثوبك رثيثاً، بل إنما تكتسي أيضاً صيفاً وشتاء ولا تلبس قميصاً ولا تستعمل خفاً، ومع أن الدراهم يطيب كسبها وهي تعين مالكها على الراحة في العيش والرفاهة والاستقلال فأراك لا تقبل أن تأخذ ولا درهماً. فإذا كنت كسائر الأساتيذ الذين يعودون تلاميذهم على اتباع مسراهم تعلم أيضاً تلاميذك على السلوك نظيرك يلزم أن تحسب نفسك حينئذٍ معلم المسكنة وضنك المعيشة.

فأجابه سقراط قائلاً: أظن يا أنتيفون ان حالي قد ساءت في عينيك بمقدار عظيم هكذا حتى أوصلك ذلك إلى ايثار الموت على العيشة مثلي. فدعنا نفحص ما الذي جعلك ترى عيشتي موجبة التعب والمشقة بهذا المقدار. ألعل السبب الذي ألجأك إلى هذا الفكر هو كوني لا أقبل شيئاً من الدراهم قط ولا التزم أن أحادث من لا أرغب بخلاف الذين يأخذون إجرة على تعليمهم ويلتزمون أن يعملوا ما ينتج لهم تلك الأجرة؟ أم هل تظن عيشتي عيشة ضنك لكون غذائي أقل دسماً من غذائك ولا يقوي الصحة مثله؟ أم لسبب أن طعامي يصعب إيجاده أكثر من طعامك للطافة ذوقه؟ أم ربما لسبب أنك تنشرح من الطعام الذي تهيئه لنفسك أكثر مما انشرح من طعامي؟ ألا تعلم أن من يأكل بقابلية لا يحتاج إلى أفاوية. ومن يشرب بشهوة يقنع بما يحضر عنده من المشروبات ولا يطمع فيما ليس عنده. وأما الثياب فأنت تعلم أنها لا تغير إلاّ لأسباب البرد والحر والأحذية لا تستعمل إلاّ لكي لا تنعاق الأقدام في المشي بما يجرحها أو يخدشها. فهل رأيت البرد أمسكني يوماً في البيت أم هل رأيتني زاحمت في زمن الحر على مكان الظل أم امتنعت عن الذهاب والمجيء لسبب وجع أصابني في رجلي؟ وهل تجهل ان الرجال الضعيفي الأجسام إذا مارسوا بعض الأعمال الشاقة يصيرون أقوى من الذين لم يتعاطوا هذه الأعمال؟

التحفة السليمية في العروس البرازيلية

تعريب سليم أفندي البستاني
والأصل للسيدة أرسكن نورتون

(المجموعة السابعة من أعمال السنة الأولى. ص ٢١١ - ٢٣١:
المجموعة الثامنة من أعمال السنة الأولى. ص ٢٦٣ - ٢٨٦).

الحمد لله الذي جعل لكل مخلوق سبيلاً يسلك فيه. وغيَّره بحسب ما الأحوال تقتضيه. أما بعد، فيقول العبد الفقير إليه تعالى سليم بن بطرس البستاني إنني لما رأيت ان بضاعة المعقولات تباع في سوق الكساد في البلاد السورية، وإن انصباب جماهير أهاليها إلى مطالعة الأحاديث التاريخية، وكان من أصول الجمعية العلمية السورية نشر ما تؤلفه أو تترجمه أعضاؤها في مجموعة تطبع كل مدة يسيرة استحسنت أن أطبع رواية كنت قد ترجمتها منذ تسع سنوات تتضمن قصة عروس من برازيل، وهي بلاد في أمريكا الجنوبية تحت لواء ولاية جمهورية محتوية نحو عشرة ملايين من النسمات البشرية. وهذه القصة بديعة عجيبة في النهاية. وإن لم تكن كذلك في البداية. فهي كالبحر الذي لا يصل الغوَّاص إلى لآليه إلّا بعد الوصول إلى قاعه والتعمق فيه. ولما تمَّ استخراجها واستحكم انتساخها. سميتها التحفة السليمية في العروس البرازيلية. والمأمول أنها تكون كحديقة يتنزه بها من يطَّلع على المجموعة المذكورة المملوءة من الخطب النفيسة والترجمات العقلية. إذ لا يخفى انه بعد اشتغال القارىء في التأمل بالموضوعات الحكمية والعلمية يصبو إلى التنزه بتلاوة ما يتفكه به العقل وتميل إليه النفس من الأحاديث الخارجية، وأنها تكون واسطة يرغب بها الجمهور في مطالعة ما يجاورها من الإنشاءات العلمية. هذا وإني أرجو المعذرة عن القصور والمعاملة بالصفح الجميل فإن الكمال لله وحده وهو حسبي ونعم الوكيل.

إن الماركيز دي كونذلفا كان من الأشراف الذين كابدوا أعظم الخسائر في فتح البرتوغال وتبعوا الملك يوحنا السادس عندما قطع الاتلنتيك مفتشاً على وطن في كرة أخرى أكثر أماناً من وطنه. وكان المركيز المذكور قد تزوج بفتاة لطيفة كان يحبها حباً شديداً. وكانت إمرأته هذه قد حزنت جداً من جراء هجرها لعائلتها ووطنها وضعف جسمها بسبب مشقات السفر وأتعابه. ولم يمض إلّا قليل من وصولها إلى برازيل حتى ماتت بعد أن ولدت له غلاماً سمَّاه ألنزو. فبقي الماركيز أرملاً وقد تفرغ للاهتمام بابنه وبإصلاح أشغاله المتعطلة.

وكان ألنزو ولداً لطيفاً كريم النفس ودوداً صاحب وفاء في خصاله وذا صورة بارعة الجمال. وكانت سمرته الصافية وعيناه الرائقتان وأسنانه البيض مجموعة في قوام ذي اعتدال ومحاسن طبيعية فائقة. والسبب الذي كان يحزن الماركيز أباه جداً هو قلة الوسائط في برازيل لتعليمه وتهذيبه. وعدم اقتداره بعد حصول ما حصل له أن يرسله إلى أوروبا لكي يحصل على مرغوبه من هذا القبيل.

فافتكر الماركيز الصالح وقال وا أسفاه إن ابني الذي هو من دون أدنى شك أحسن وأعقل ولد في البلاد مزمع أن يخسر فائدة يمكن الحصول عليها بواسطة الدراهم. وعند ذلك صرخ الماركيز وهو يتمشى متضجراً في البيت قائلاً: أيتها الدراهم، أيتها الدراهم، من أين نقدر أن نحصل عليك. ثم وقف، وكان مدة نصف ساعة غائصاً في بحار التفكر ثم انتبه من سهوه وأمر بإحضار جواده وركب وسار مسرعاً إلى بعض الأديرة. وجرت هناك محاورة مستطيلة بينه وبين أخته رئيسة ذلك الدير. ثم

انثنى راجعاً إلى بيته وأبى قبول دعوة أتته إلى مرسح رقص وقضى باقي تلك الليلة في كتابة مكاتيب.

وإن رزمة كبيرة مهمة كانت معنونة باسم تاجر برتوغالي مشهور بالغنى والثروة في مدينة سنت بول. فلما حان وقت مجيء الجوابات كان الماركيز في حالة الاضطراب والضجر. ثم وصلت أخيراً وأخذها ألنزو إلى أبيه. فدخل أبوه إلى مخدعه وأغلق الباب لكي يقرأها.

وبعد برهة من الزمان دعا الماركيز ابنه إليه وقال له: يا ابني أما تريد أن تتزوج. وإذ كان عمر ألنزو حينئذٍ سبع عشرة سنة أجاب من دون أدنى تردد قائلاً: نعم، أريد ذلك جداً يا مولاي. وبينما كان يتكلم كان يخطر في باله السيدة كلارا والسيدة جوليات وسيدات أخر جميلات. فقال أبوه: فإذاً لا بد من أن تتزوج. فاجلس يا ابني فإن لي كلاماً مهماً أقوله لك ولا حاجة أن أخبرك اننا قد فقدنا كل مالنا تقريباً وليس لنا إلاّ رجاء قليل في استرجاعه. ونحن في حالة الفقر. أنا أريد إنك تمضي إلى أوروبا وأن يكون لك في السنين القادمة القليلة كل الفوائد الناتجة من السفر والدرس ومعاشرة أكارم الناس. وبالاختصار أريد إنك تتخذ المركز الذي يليق بك في الدنيا أي المركز الذي نسبك وجودة عقلك تجعلانك أهلاً له. ولكن هذه الإرادة لا يمكن تتميمها من دون مال. ونحن لا نقدر في حالتنا هذه أن نحصل على المال إلاّ بواسطة الزيجة. وعند ذلك هرب الدم من وجه ألنزو واصفّر لونه إلاّ انه أجاب وقد أحنى رأسه: فهمت مرادك يا مولاي. ثم قال الماركيز إن نجاح السنيور يوسف مندزا كان بواسطة والدي وبواسطتي أيضاً، وهو كما لا يخفاك معدود أغنى الناس في برازيل. وله ابنة وحيدة فقط وهي الوارثة لكل ثروته. وأنا قد عرضت عليه الزواج بها مُقدماً حسن المرتبة عوضاً عن الغنى. وكنت أعتقد أن تشرف ابنته بواسطة الزيجة هو من مرغوبات قلبه السرية. فقبل مني ذلك بغاية الفرح واتفقنا على أننا نمضي حالاً إلى مدينة سنت بول حيث يكون عقد الزواج. ثم تمضي من هناك إلى انكلترا وصديقي الفاضل الخواجة موردانت سيلاقيك في فلمون. وأنا سأكتب له في البوسطة القادمة عارضاً عليه إجرة وافرة وليس عندي أدنى شك في أنه سيكون لك معلماً ومرشداً ورفيقاً في سفرك ودرسك مدة خمس سنين. ثم في أخر هذه المدة سترجع إلى بيتك وأصدقائك وعروسك وأبيك. على انني أطلب من الله تعالى أن يبقيني حياً إلى ذلك الوقت السعيد. فقبّل ألنزو أباه قائلاً بتردد: يا أبي إن. . . . لا يخفاك أن السيدة يا سيدي. . . فأجاب الماركيز: إن ازيبلا عروسك صغيرة لأنها لم تتجاوز سن الثلاث عشرة سنة. وهي نحيفة الجسم ومعلوماتي بصفاتها الخصوصية قليلة جداً.

فبعد ذلك أخذ الماركيز في التجهز للسفر هذا وكان ألنزو الذي أحبه جميع أهل المدينة يودّع أصدقاءه بقلب حزين. وكانوا يعرفون أنه ذاهب إلى مدينة سنت بول فقط ومن هناك إلى أوروبا. غير ان زيجته المقصودة كانت أمراً سرياً وحينما أخذ يودع عمته الرئيسة صرخت قائلة: ليحفظك القديسون يا ابن أخي. يا ألنزو أنت السند الوحيد لبيتنا القديم الشريف. فلتكن الواسطة التي تردّه إلى الغنى والاستقلال مباركة. ولكن تذكّر يا ألنزو انك تتخذ على نفسك ألطف وأصعب الواجبات لنحو اليد التي تسبغ هذه البركات وأنه لا يوجد في هذه الدنيا خير من دون أن يرافقه شر. ولتكن قيودك الذهبية خفيفة عليك.

ثم سافرا بعد ذلك وبعد أيام قليلة وصلا إلى مدينة سنت بول حيث لاقاهما إلى المركب السنيور يوسف. وهو رجل متقدم في السن ذو همة ونخوة لابس برنيطة طويلة وكبراناً أبرش اللون وصدرية ملوّنة. فلا نقدر أن نصف السرور الذي حصل له عند مقابلته إياهما. وهذه هي المرة الأولى التي بها خلعت عواطفه الطبيعية كل تجملاته الاعتيادية. الأمر الذي قلّما يحصل لرجل شيخ بورتغالي.

ومسكن السنيور يوسف المذكور كان في وسط المدينة. وما كان مميزاً بمنظره الخارجي ولا الداخلي عن مساكن جيرانه. لأن وسائط الراحة ما وجدت في مدينة سنت بول حتى ولا بمقدار وجودهما في مدينة ريو. فإن مسكن أغنى أهالي برازيل كان عمارة قوية مظلمة ومخادعها كبيرة مبيضة وبعض المخادع مفروش بحصر، وعلى دائرها صفوف من الكراسي، وفي أحد المخادع مقعد. وعلى جانبيه كراسي، وفي وسطه طاولتان الواحدة مقابلة الأخرى، وعليهما زهور متنوعة وساعة فرنساوية داخل بيت من الزجاج وشماعدين قديمة من الفضة الصافية.

وكان للسنيور يوسف شقيقة سمينة قصيرة القامة سمراء اللون ذات أخلاق رضية، اسمها تريزا. فلاقتهم إلى مدخل البيت وهناك عرَّفهم بها السنيور يوسف فقبَّلت ألنزو بحرارة وأدخلته إلى المقعد حيث دخل بعد برهة جاريتان سوداوان لابستان ملابس نقية حاملتان مائدة عليها حلوى وأثمار شهية. وبينما كان ألنزو يسلم على هاتين الجاريتين كان الماركيز وموسيو يوسف منفردين يتكلمان معاً فتنهد الماركيز وقال إن المركب يسافر غداً ولا يخفاك أنه لا يوافق أن نضيع الفرصة. فأجاب السنيور يوسف فليكن كما تريد لأن كل شيء حاضر والتحليلة والخوري والشهود يحضرون بعد ساعة من الزمان.

فقال الماركيز: وابنتك؟

فأجاب السنيور يوسف: لا يخفاك يا سيدي أن ازبيلا (اسم ابنته العروس) صغيرة السن وضعيفة الجسم ومدلَّلة. وبسبب ضعف جسمها وأشغالي الكثيرة أُهمل كثيراً أمر تعليمها. فإذاً يجب أن نجتهد بتعويض ما مضى.

فقال الماركيز متنهداً: العجلة في نهاية أمرنا لازمة. فعند ذلك تكلم السنيور يوسف مع شقيقته سراً وخرجا من المخدع.

فأخبر الماركيز ألنزو قائلاً: إنك ستتكلل حالاً وستسافر في الغد إلى أوروبا. وافتكر الماركيز انه يكون موافقاً أن يحضّر ألنزو لمقابلة عروسه. فبعد أن أخبره ما أخبره عنها قال السنيور يوسف أعطني وعداً يا ألنزو انك عند مقابلة عروسك لا تظهر أنك متكدر مما تراه فيها لا يوافق مشربك. واعلم أننا قد عزمنا أن نتمم هذا الأمر.

فأجاب ألنزو: حقاً اننا قد عزمنا على ذلك ولكن الضحية عظيمة. فما عنى ألنزو انه قد ضحى شرفه أو شخصه مع أن والده فسر كلامه هكذا. ولكن شعر بأنه قد ضحى حريته والأمر الذي يميل إليه كل شاب وهو أنه يختار لذاته الشخص الذي يحبه.

فذهب الأب والإبن إلى مخدعهما المؤثثين بنصف أثاث ليصلحا أثوابهما. ولما انتهيا من ذلك دعيا لمواجهة السنيور يوسف في مخدعه الخصوصي فذهبا إلى هناك ووجدا السنيور يوسف جالساً مع كاتب وخوري وشاهدين. فأعطى السنيور يوسف الماركيز صكاً لكي يقرأه. وكان مضمونه أن السنيور يوسف خصص لألنزو مبلغاً وافراً من ماله وأملاكه. فشكره الماركيز على ذلك وقبَّل ألنزو يد عمه فأمضوا الصك وختموه واستلم كل من الفريقين نسخة. وبعد ذلك قرأوا وصية السنيور يوسف التي بعد ما خصص بإخته شيئاً والبيت الساكنين فيه أعطى كل ثروته وأملاكه لإبنته. وأخبرهم أن قصده أن يوقف أشغاله التجارية قبل رجوع ألنزو لكي يرتفع الخطر عن ثروته. وإنه لا يشتري أملاكاً جديدة لأنه عرف أن للماركيز أملاكاً وأراضي واسعة في البورتغال. وعلم بأنه سيسترجعها. وبعد ما انتهوا من هذه الترتيبات دعاهم السنيور يوسف أن يتوجهوا إلى الكابلا (كنيسة صغيرة في مسكن الانسان) حيث يصير الإكليل.

ولا نقدر أن نشرح عن الغم الذي حصل للأب والإبن بسبب عدم موافقة العروس. وبقلب يخفق تقدم ألنزو إلى المذبح (مكان في الكنيسة) فشعر بذلك والده وقال له سراً: إن السنيور يوسف قد كمل ما عليه بكل شرف. آه، يا ولدي، أطلب منك أن تضبط نفسك. فكبس ألنزو على يد والده ولكن ما أجاب بشيء لأن قلبه كان مكدراً.

وكالعادة في الكنائس الكاثوليكية أشعلوا جملة شموع مع انه كان نهاراً. ووقف على جانبي المذبح صفان من العبيد ذكوراً وإناثاً. ووقف الخوري والشهود في مواضعهم. وكذلك الماركيز وألنزو. وأما السنيور يوسف فذهب ليدعو أخته وإبنته.

فبعد أن ضجروا من الانتظار سمعوا أخيراً صوت أنثى ضعيفاً قائلاً: نون كارو نون كارو، أي لا يا عزيزي، لا يا عزيزي. ثم دخل السنيور يوسف وأخته وهما كأنهما يجران شخصاً رقيقاً ضعيفاً مظلماً كان يصرخ ويعض ويخمش لكي يفر منهما. ودخل مع السنيور يوسف وأخته أربع عبدات لابسات أثواباً بيضاء وشاكلات على رؤوسهن أزهاراً كانت تتساقط من العروس التي أدخلوها إلى مكان الإكليل جبراً. وكانت لابسة أثواباً رفيعة ثمينة منقوشة وعليها خرج ثمين أصفر يشبه لون وجهها. وفي أذنيها حلق، وفي عنقها عقد من أثمن وأفخر الجواهر، وشعرها الأسود الغزير الطويل سادل على كتفيها ولكن من دون ترتيب لأنها ما سمحت لهم أن يرتبوه.

فلاحت علامات الغضب على وجهي أبيها وعمتها وخاب أمل كل الحاضرين. وجرى الدم بارداً في جسد ألنزو وكاد يقع صريعاً، وما منعه من ترك المذبح والخروج إلاّ نظرات أبيه المحذرة.

فبعد أن أوصلاها إلى وسط الجماعة وهي مملوءة من الغضب جردت نفسها منهما ورتبت شعرها المنبوش. وتفرست بالماركيز ثم تفرست جيداً بألنزو وبينما كان جميع الحاضرين متفكرين ماذا يتبع ذلك تعجبوا وابتهجوا لما رأوها تقدمت بهدوء ووقفت بجانب ألنزو. فلما رأى ذلك الخوري اغتنم الفرصة وابتدأ بصلاة الزيجة. فوقفت بمكانها كل برهة الصلاة بكل هدوء. وإنما كانت تلتفت بعض الأوقات لتنظر رفيقها ·فرفع ألنزو مرة عينيه لينظر إليها فظن أنه نظر إلى أفعى وارتعش جسده عندما مس يدها الباردة الضعيفة. وبالاختصار ما قدر أن يخفي الحزن والغم اللذين اعترياه في وقت الإكليل. فلما انتهت الصلاة إلتفت ألنزو لكي يسلم على عروسه فوجدها عند الباب. فما ظنوا أن منعها عن الخروج يكون مناسباً. فوقفت هناك والتفتت نحو ألنزو وتفرست فيه بعينيها الكبيرتين فأثرت هذه النظرة فيه وما قدر أن يدرك سبب هذا التأثير. وبنظرها تعذب بعد ذلك مدة طويلة. فخرجوا من الكابلا وابتدأ الماركيز يتكلم عن مواضيع مختلفة إلى أن دعوهم إلى العشاء فاعتذرت تريزا عن إبنة أخيها بأنها مريضة وغير قادرة على الجلوس معهم على العشاء.

فجلسوا ليأكلوا وكان الطعام كثيراً ولكن لم يكن فاخراً. وما وجد بين جميع الحاضرين إلاّ وجه واحد عليه علامات الغم والحزن.

وبعد قليل استعذر ألنزو من أبيه وعمه بدعواه أنه ملزم ان ينهض باكراً ليهيىء نفسه للسفر وتركهما يشربان القهوة ويتحدثان وذهب إلى مخدعه.

وفي الغد هيأ نفسه للسفر وبعد أن كسر الصفرة حضرت أخت السنيور يوسف واعتذرت عن العروس بأن ضعف جسمها لأجل المشقة التي كابدتها وقت الإكليل منعها عن توديع ألنزو. ولما رأى ألنزو انها ابتدأت تتجمل أوقفها عن ذلك واضعاً برشاقة في يدها علبة صغيرة داخلها سوار مستصحب إياه معه من ريو ليقدمه إلى عروسه على هيئة الأساور التي كانت دارجة وقتئذٍ في انكلترا. وتمتم لها

بكلام فحواه ان تقدمه للعروس باسمه وانه متكدر من عدم إمكانه أن يحصل على شرف تقديمه لها بيده. فمضت بسرعة والهدية بيدها. وبعد قليل رجعت وبيدها خاتم له قلب ثمين لونه أصفر ثمنه يشتري عدة أساور مثل السوار الذي أهداه للعروس. ولما قدمت الخاتم خاطبته بتجملات كثيرة لفقتها ونسبتها للعروس حسب عادة وبراعة هذا الجنس في التراكيب المختلفة.

وبعد أن ودع كل أقربائه ذهب إلى المركب برفقة الماركيز والده الذي أوصاه بأمور كثيرة وهنأه بحرارة على توفيقه ولكن ما ذكر أحدهما تلك التي كانت سبباً لذلك والتي لولاها كانت قيود ألنزو الذهبية خفيفة. وعرف الماركيز الذي كان صاحب ملاحظة دقيقة أنه لا يقدر أن يمدحها بشيء.

وبعد أيام قليلة وصل ألنزو إلى فالموث حيث لاقاه الخواجة موردنت وسافرا معاً من هناك إلى جرمانيا حيث اعتمدا أن يصرفا ثلاث سنين بالدرس والسفر. وأما السنتان الباقيتان فاعتمدا أن يصرفاهما في انكترا.

وكان الخواجة موردنت معلماً ماهراً وكان به الكفاية لمصلحته. وبمدة يسيرة تعلّق قلبه بتلميذه.

فبعد أن صرفا ثلاث سنين في درس أحسن مؤلفات التاريخ والسياسة والصنائع وفي التعرف بالأشخاص المشهورين وكل ذلك لبردخة عقل ألنزو الفريد ولكي ينطبع على الكرم ومحبة الوطن. وفي هذه المدة كان يمكن أن يقال إنه من أسعد الناس لولا وجود نقطة سوداء في كأسه الصافي.

وكان الماركيز قد أخبر الخواجة موردنت عن زيجة ألنزو مع كل ظروفها. وأول تحرير حررته لألنزو عمته الرئيسة كتبت له به هكذا: «إذا أردت أن تكون حاصلاً على الراحة (تاركين مسئلة السرور) في أحوالك الخصوصية فاحفظ بكل اجتهاد قلبك. لأنه إذا تملك غيرك هذه الجوهرة الثمينة يكون سبباً لتكدير حياتك. وأكرر لك قولي احفظ قلبك». فوصل هذا التحرير إلى معلمه الذي كرر له هذه الكلمات قائلاً: «احذر من مخالفة ذلك».

وبسبب أشغاله وانتقاله من مكان إلى آخر وملاحظة الخواجة موردنت وتحذير عمته الرئيسة له ما كان خطر من الوقوع في شرك المحبة في جرمانيا. لأنه لم يكن من ذوي الطباع الحارة ولا من أولئك الذين تؤثر بهم حالاً نظرة عين جميلة أو تبسم ثغر درّي أو مس يد لطيفة. واتفق الخواجة موردنت برأيه مع الرئيسة وهو أنه إذا أحب النزو فيكون ذلك بحرارة وشدة حتى انه يحصل عليه خطر من جراء ذلك.

ثم وصلا إلى انكلترا في الوقت المعين وصرفا هناك مدة سنتين ونصف في التقدم والنجاح وفي السفر في تلك البلاد المعجبة وفي اسكوتلاندا واعتمدا أن يصرفا الأشهر الستة الأخيرة في لوندرا ولكن وا أسفاه ظهر الخطر المخيف في مكان لم ينتظر ظهوره فيه. وكان الخواجة موردنت كأنه في غفلة عن القيام بحق واجباته، وبرز إله المحبة لينتقم من التعدي الذي حصل على حقوق الزيجة المقدسة.

ويوماً ما كان ألنزو في مرسح غناء مع صديقه وكيل سفيردولة برازيل فافتكر وهو ينظر إلى ما حوله أنه لم يحضر قط في مكان عمومي به يظهر للوجود جمال ولطف السيدات نظير المرسح الانكليزي الذي كان حاضراً فيه حينئذٍ. وظن ان سبب ذلك هو عدم وجود أنوار كثيرة وحسن ترتيب ولطافة الملابس. فرأى ألنزو وكيل السفير وآخرين يتفرسون جيداً في شخص جالس على كرسي مقابل كرسيه. فنظر أيضاً إلى تلك الجهة فرأى سيدة جميلة جداً ظن انه لم ير نظيرها قط. وظهر له من هيئتها ولبسها أنها غريبة فقال لوكيل السفير من هي تلك السيدة؟ يبان أنها فرنساوية أو اسبانيولية. فقال وكيل السفير بابتهاج: كلا، إنما هي منّا، أي برازيلية.

فأجاب ألنزو بتعجب وسرور: أصحيح ذلك؟

فقال له وكيل السفير: أما سمعت قط عنها، إنها تدعى البرازيلية الجميلة، وهي أجمل نساء عصرنا هذا، ولا ينظر إليها أحد إلاّ وجرحته بسهام لحظها. وهي الآن هنا تحت مناظرة الأميرة جودلافين السيدة الجالسة بجانبها.

ألنزو ـ ماذا تدعى؟

وكيل السفير ـ السيدة فايولا دي مونتيزوما.

ألنزو ـ إنني لم أسمع هذا الاسم في ريو.

وكيل السفير ـ إن عائلتها ساكنة في شمالي برازيل. وإنما أتت إلى هنا مع حارستها وخادميها لكي تتمم علمها وستكون الوارثة الوحيدة لأبيها الغني والمسموع أنها مخطوبة لرجل برتوغالي، أتريد ان تتعرف بها.

ألنزو ـ كيف لا؟ فذهبا معاً.

فعرّفه أولاً بالأميرة وبعد ذلك بالسيدة البرازيلية قائلاً لها إنه من أبناء وطنها. فقبلته بكل سرور وأجلسته بجانبها وقالت له: لقد سرتني معرفتي بك يا سيد ألنزو لأنك من أبناء وطني ولأظهر لك محبتي وممنونيتي لعمتك الرئيسة التي أقمت في ديرها مدة طويلة وعاملتني وأحبتني كأم حنونة.

فأجاب ألنزو لقد ظهرت نتيجة حسنة جداً لمحبتها واعتنائها. أتعرفين أبي؟ فأجابت: نعم، أعرفه، وأعرفك أيضاً بالسمع لا بالنظر لأنني سمعت كثيراً عنك من الماركيز ومن عمتك.

فتنهد ألنزو لأنه رأى أن أباه وعمته لم يذكراها بمكاتيبهما له. ولما نظر وجهها الجميل المحبوب وتفرس في قامتها المعتدلة وسمع أحاديثها الفصيحة المطربة. وقابلها بتلك التي لا يحتمل أن يفتكر بها شعر بخفقان في فؤاده وملأ الحزن قلبه المنكسر. وفي صباح تلك الليلة أخبر الخواجة موردنت عما حصل في الليلة الماضية.

فقال الخواجة موردنت: إنني سمعت كثيراً عن هذه السيدة الجميلة، وأظن أنها لو لم تكن مخطوبة لطلب أن يتزوج بها كثيرون من رجال الانكليز.

فقال ألنزو: إذاً هي مخطوبة؟

فأجاب الخواجة موردنت: لا شك في أنها مخطوبة لرجل شريف بورتغالي.

فقال ألنزو بنفسه إذاً لا يوجد خطر لأنها مخطوبة وأنا متزوج. وفي تلك الليلة (لأنه بلغه أن السيدة البرازيلية ليس بمسموح لها أن تقبل زيارات في الصباح) ذهب إلى بيت الأميرية.

وحصل بينهما محبة في وقت قريب. كما إنه يحصل دائماً بين شخصين من عمر واحد ودرجة واحدة وأبناء وطن واحد في بلاد أجنبية. وما أحبت فايولا أن تشاهد أحداً أكثر من ألنزو. وكان عندها دائماً ترنيمة تغنيها له أو صورة صورتها لتريه إياها. أو كتاب لتخبره عنه. وكانت مغرمة بلعب الشطرنج وكان يصرف معها ألنزو دقائق كثيرة بالسرور بينما كانت الأميرة مشغولة بلعب الورق. وكان لما ينظرها تعلق كمنجتها بشريطة سوداء بكتفها وتلعب بها وتغني بعض أغاني وطنها يظن انه ما نظرها قط جميلة ومفتنة بهذا المقدار. لأن اللعب والغناء كانا منعشين ومتقنين على أتم منوال. وظهر أنهما شعرا عند ذاك

بأنفسهما بوداد وحب نحو بعضهما. ومع أنه كان يوجد ووجد مراراً كثيرة أشخاص سامعون لكنها ما طلبت إلاّ من ألنزو الشهادة بحسن ما فعلته وقالته.

وكانا يجتمعان كثيراً في محلات عمومية وخصوصية. وكانت فايولا ترقص جيداً. فكان يفتخر (ولكنه لم يعرف سبب ذلك لأنه لا يعنيه منها شيء) لما يسمع الناظرين يمدحونها. وبقلب خفوق كان يمسكها ليرقص معها. وبينما هما يرقصان معاً كان يسمع أصوات كثيرة تقول ما ألطف وأظرف هذين الشخصين البرازيليين.

وكانت فايولا تحافظ على عوائد وطنها مع أنها كانت حينئذٍ في لوندرا. فكانت عندما تنتهي من الرقص ترجع وتجلس في مكانها بجانب الأميرة. وإذا خرجت للتمشي كانت تخرج برفقتها. وما كانت تسمح لأحد أن يزورها إلاّ في أماكن عمومية. ومع أن هذا الترتيب كان مضرّاً على ألنزو كان يسرّه.

فوبخ ألنزو ضميره قائلاً: احفظ قلبك. ولكن وا أسفاه، قلبه تملكه غيره ولكنه حفظ سلوكه. وهذا هو أحسن حفظ للذي يتملك غيره قلبه. حتى انه اجتهد ان يحفظ عينيه ولسانه حتى ان الخواجة موردنت والأميرة ما شعرا بغرامه. ولكن لم يقدر أن يخفي ذلك عن نفسه. ولا ظن أن فايولا لا تعلم به.

فمضى الزمان الذي عيّناه ليمكثا في لوندرا بكل سرعة. وفي أحد الأيام وهما يأكلان صباحاً قال الخواجة موردنت لألنزو إننا الآن في تموز وقبل تشرين الأول يلزم أن تصل بسلام إلى ريو. فعليَّ أن اهيىء لك مكاناً في المركب الذي يسافر إلى هناك في الشهر القادم. فكان يعلم ألنزو ما أخبره به الخواجة موردنت ومع ذلك قال وهو متعجب: أحقاً زمان لوندرا انتهى!

وفي إحدى الليالي كانوا عند الأميرة فأحضروا حسب العادة الشطرنج والورق. وجلس ألنزو مع فايولا يلعبان بالشطرنج. فقالت له فايولا: بماذا تفتكر؟ الظاهر أن فكرك ليس معك في هذه الليلة حتى انك نقلت هذه النقلة يا سيد ألنزو.

فأجاب ألنزو وهو مجتهد أن يجمع حواسه: «إنه لا يجب أن أكون هكذا لكنني كنت منهمكاً اليوم بتدبير وتجهيز نفسي للسفر».

فأجابت فايولا: إذن تذهب لا محالة. فظن ألنزو انه سمعها تتنهد. نعم انها نقلت في لعبها نقلة غير صحيحة. وعند ذلك دخل خادمها وبيده علبة صغيرة داخلها مصاغ فايولا الذي كان موضوعاً للإصلاح عند الصائغ. فلما نظر إليه ألنزو افتكر أن السيدات في لوندرا يحسدنها كثيراً على مصاغها الظريف الثمين.

فسألت فايولا ألنزو قائلة لماذا لا تلبس شيئاً من المصاغ مع أن شبان البرازيليين يحبون ذلك كثيراً؟

فقال الخواجة موردنت: «إني أحقق لك أن ألنزو له خاتم من أثمن الخواتم التي رأيتها في حياتي. وله قلب أصفر ثمين جداً».

فأثرت هذه الكلمات في ألنزو وأجاب بحرارة: نعم، عندي جوهرة صفراء ثمينة ولكن لا أريد انظرها ولا أريها لأحد. فلما تكلم هكذا شعر بعدم لياقة العبارة. فقال الخواجة موردنت للأميرة: «إذا حسن لديكِ إسحبي ورقتك يا سيدتي». فعند ذلك صرخ ألنزو قائلاً: «غُلبت يا سيدة فايولا. ورفع عينيه ونظر إلى وجهها فرآها متكئة على يدها تنظر إليه بعينيها الجميلتين فجفل من تلك النظرة. فرفعا اعينهما عن بعضهما وأخذا يلعبان. وبعد ذلك بأيام في احدى الليالي اجتمعا في مرسح رقص. وبينما

كان ألنزو ماسكاً فايولا لكي يرجعها إلى مكانها بجانب الأميرة التي كانت جالسة في احدى القاعات تلعب بالورق قالت له فايولا: يا سيد ألنزو، أصحيح أنك تسافر في الشهر القادم؟».

فأجاب ألنزو: نعم، وأنتِ إلى أين تذهبين؟

فايولا ـ أنا سأذهب إلى البورتغال.

فسألها ألنزو بلجاجة: «وهناك ماذا تفعلين؟»

فايولا ـ «إني لا أمكث هناك زمناً طويلاً لأني ألتزم أن أذهب إلى أملاكي في برازيل».

فقال ألنزو بفرح: «إذاً نجتمع ثانية».

فايولا ـ «ربما بعد أشهر قليلة».

فسرّ ألنزو وظهر انه ارتاح نوعاً. ولكن بعد برهة قال لها: «إذاً لا أجتمع أيضاً بفايولا».

فأجابت فايولا بهدوء: «يا سيد ألنزو أن فايولا تجتمع أيضاً بك ولكن كما اجتمعنا قبلاً، وتكون كما هي الآن عزيزتك المحبة المخلصة».

فأجاب ألنزو: «إني ممنون لك جداً. ولكن أطلب منك ان لا تتكلمي الآن معي أيضاً». فأجلسها بكرسيها وخرج من المحل من دون أن يلتفت إلى ورائه.

ثم دعا ألنزو الخواجة موردنت ان يرافقه إلى برازيل. فأجاب وأعدّ لهما موضعين في المركب. وودع ألنزو كل أصحابه ومعارفه بكل حزن وهدوء.

وتعين نهار ذهاب فايولا إلى فلاموث وهيىء لها ولاتباعها مواضع في مركب الليسبون. وعين ألنزو نهار سفره ثاني يوم سفرها ولكن كتم ذلك عنها.

ففي صباح النهار الذي تعين لسفر فايولا ذهب ألنزو إلى بيت الأميرة فقالت له: «أتيت لتودع فايولا؟»

فأجاب ألنزو: «كلا، يا سيدة، أتيت لكي أودعك وأظهر ممنونيتي لعنايتك بي لأنني أنا أيضاً أسافر من لوندرا قريباً».

فقالت الأميرة: «ولماذا لا تودع فايولا؟ إن ذلك يحزنها جداً».

ألنزو ـ «الأحسن أن لا أودعها».

الأميرة ـ «إذا سألتني عنك بماذا أجيبها؟»

ألنزو ـ «يا سيدتي الأحسن أن لا أودعها».

فما أجابت الأميرة بشيء وبعد أن طلبا لبعضهما التوفيق مدة حياتهما ودعها وافترقا.

وبعد ذلك سافر ألنزو والخواجة موردنت قاصدين فلاموث وكان نهار سفرهما جميلاً جداً. وكان الخواجة موردنت ملتذاً جداً في سفره. ولكن ألنزو كان مرتبك الأفكار صامتاً. وما ظهرت عليه علامات السرور إلاّ عندما ذكر له الخواجة موردنت أنه قريباً يقابل أباه ومعارفه في ريو. وكان يصغي بلذة إلى ما يقوله الناس في الخانات على الطريق عن السيدة الغريبة الجميلة التي مرت عليهم أمس.

فوصلا إلى فلاموث باكراً وسأل ألنزو عن السيدة الغريبة ومركب الليسبون، فوجد انها نزلت إلى

المركب في مساء النهار السابق. وإن مركب الليسبون والمركب الذي يسافر فيه ألنزو يسافران في صباح النهار القادم.

فبعد أن أكلا انهمكا في تنزيل حوائجهما وخادميهما إلى المركب. ثم نزلا أيضاً وكان ذلك النهار جميلًا فنظر ألنزو إلى مدينة فلاموث الظريفة وإلى المراكب التي كانت حول مركبه وإلى الأوقيانوس الممتد، غير انه لم يصب إلى التفرس في غير مركب صغير بجانب مركبه، فترك مركبه ونزل في قارب وذهب قاصداً ذلك المركب الصغير.

فصعد إليه ووجد في مقعده الخارجي جارية فايولا، فاندهشت لما رأته، غير انه لم يتكلم معها بل فتح باب المقعد الداخلي بعتوٍ ودخله وأغلق الباب وراءه.

وكانت فايولا حينئذٍ هناك مضطجعة على مقعد تقرأ. فجفلت من صوت فتح الباب فرفعت عينيها فرأت ألنزو واقفاً أمامها صامتاً. فأخذها العجب فنهضت لكي تدنو منه غير أن غرابة منظره أخرتها عن ذلك. فقالت بصوت محتبس: «أهذا أنت يا سيد ألنزو؟»

فأجاب ألنزو وقد أخذ يدها ليجلسها في مكانها: «فايولا، فايولا». (وكاد أن يغشى عليه من مجرد ذكر اسمها).

«إرحميني فلا عيش لي دونك».

فأجابت بصوت مرتعش: «أأنت حرٌّ؟»

فأجابها: «إن حل قيدي سهل عليَّ».

فأجابته بعد أن رجعت إلى نفسها: «إنك تظن إنني مخطوبة لرجل مع إنني امرأة متزوجة».

فلما سمع ألنزو هذا القول صار الضياء في وجهه ظلاماً. وخرج مسرعاً وأوشك يسقط على الأرض من شدة حزنه. فلما رأته على هذه الحالة خافت من سوء العاقبة ونادته قائلة: «رويداً، تمهل أصبر أرجوك أن تقف يا ألنزو». فلم ينتبه إليها بل نزل إلى قاربه ورجع بسرعة إلى مركبه وصعد إليه ومر صادماً الخواجة موردنت وكل شيء في طريقه ودخل مخدعه وأغلق بابه وألقى نفسه على فراشه وهو حزين مرتبك جداً.

فلما رأى منه ذلك الخواجة موردنت نزل إلى القارب وذهب قاصداً مركب فايولا ودخل عليها وتحدث معها برهة.

وفي صباح ذلك اليوم لبس ألنزو رداءه وبرنيطته ووقف على ظهر مركبه يتفرس في مركب فايولا وملاحوه يرفعون المرساة. فبعد برهة مر بجانب مركبه خارقاً المياه. فملأ الحزن قلب ألنزو وأظلم اليأس أفكاره وأوشك يطرح نفسه في لجة البحر. وإذا يد فتحت نافذة مركب فايولا. فرأى نقاباً يلوح منها ثم رأى فايولا نفسها. وعيناها تذرف دموعاً تتساقط كالدر على ورد خدها. وهي تقبل يديها وتشير بهما إليه علامة لمحبتها له. فبعد ما أجاب إشاراتها بمثلها. أغلقت النافذة ورجعت. فضعفت قواه وبكى وقال: «إنها تحبني» فشدد هذا القول عزائمه وجرى الدم بحرارة في عروقه وقال ثانية: «إنها تحبني، وكأن لسان حالها يقول لي يا ألنزو لا بد من الخضوع للنصيب». فأتى حينئذٍ معلمه الخواجة موردنت وأخذ يده وأدخله إلى مخدعه وقال له: «يا ألنزو أن تغافلي في أول الأمر عن التعرض لهذا الحب يجلب عليَّ أشد اللوم. إنني قابلت أمس فايولا فأعطتني هذا الكتاب».

فأخذ ألنزو الكتاب وفض ختامه وقرأه فكانت هذه عبارته: «يا ألنزو انني استحلفك بأبيك وبنفسي أن لا تسمح لأميال قلبك أن تغلب على جودة عقلك فإنه لا أمل لك في نوال ما تشتهيه. إن زمان التلاقي قريب. فلا تدع الشهوة تكدر محبتنا الصافية المخلصة. وإني أطلب من الله ان يسامحنا فإن ما أظهرناه من إمارات الهوى يجلب علينا أشد اللوم.

الداعية لك محبتك المخلصة فايولا

الظاهر أنه لا اختبار لفايولا والخواجة موردنت في مقتضيات الغرام ومتعلقاته. لأن الكتاب الذي ظنا أنه يكون واسطة تبرد ما في قلب ألنزو من حر الغرام، زاد في فؤاده لواعج الشوق واضطرام نيران الهوى. فطواه ووضعه في صدره عند قلبه وكان يكرر تلاوته كل يوم. فألح ألنزو بالسؤال على الخواجة موردنت عما كلمته به فايولا لدى مقابلته إياها وخصوصاً عن أحوال زوجها. فقال له الخواجة موردنت: «بلغني أن زوجها رجل من العظماء غني جداً وبه مرض وقد تزوج ابنة صديقه بعد موته لمجرد العناية بها والمحاماة عن أرزاقها. لأنه لا يخفاك انه في هذه الأيام لا يقدر الانسان ان يحافظ على أملاكه إن لم يكن ذا سطوة». ففرح ألنزو جداً بهذا الخبر. وسكن بلباله. ولكنه لم يتجاسر أن يظهر ذلك.

وبعد أن سافرا في البحر بعض أسابيع نظرا عن بعد مدينة ريو. فأدهشت الخواجة موردنت المناظر الجميلة التي أحاطت به. وأما ألنزو فنظر بقلب يخفق إلى تلك المحلات التي ذكرته أيام صباه وأصدقاءه حتى أنه صبا إلى تقبيل الصخر السكري الذي في مدخل ميناء ريو. لأنه فطنه بتلك الساعات التي طالما يتذكرها الرجل بعد مفارقته الصبوة الشرسة. فلما جاز المركب الصخرة المذكورة ودخل خليج بوتافاكوا البهج المحاط بالجبال الشامخة المكتسية قممها بالأحراش الغضة. ثم دخل ميناء ريو فأقبل عليه قارب الصحة (الكرانتينا) وإذا أبو ألنزو كان جالساً بجانب المأمور وعلامات الانتظار والاشتياق كانت تلوح على وجهه. فصعد حالاً إلى المركب حيث احتضنه والده العزيز وقابله صديقه الخواجة موردنت ثم نزلوا إلى القارب وذهبوا إلى الشاطىء حيث لاقاهم جمهور من الأصدقاء. وذهبوا عند العصر ليزوروا الرئيسة الصالحة. وفي المساء قابل ألنزو صديقاته اللواتي عرفهن قبل ذهابه وكن حينئذٍ عذارى فوُجدن بعد رجوعه متزوجات والبعض منهن لهن أولاد.

وسرَّ ألنزو التقدم الذي حصل في البلاد بمدة غيابه عنها من انتظام المعيشة والهيئة الاجتماعية. وفي صباح ذلك اليوم أخذ ألنزو أبوه إلى مركز الحكومة وعرَّفه بمأموريها. فتراكمت عليه واجبات السلام على اصحابه مدة ثلاثة أيام بعد وصوله إلى ريو حتى انه لم يكن له وقت يتفكر فيه بهمومه.

وفي أحد الأيام بعد الأكل صباحاً قال الماركيز لألنزو أن السيدة إزبيلا عروسك وأباها وعمتها يأتون إلى هنا، وقد أعددت لك منزلاً مؤقتاً أظن أنك تستحسنه، وسكناك هنا تكون مؤقتة، لأنك ترسل قريباً بمأمورية سياسية إلى أوروبا، ولا ريب أن ذلك مما يسرك جداً، وقد اغتنمت مدة ستة أشهر في أمر ترتيب وتأثيث مسكنك، فإن حسن لديك ولدى الخواجة موردنت نذهب لنراه اليوم وقت العصر.

فأجاب ألنزو: «إننا نرغب ذلك». فذهبوا في الوقت المعين إلى البيت. فوجد ألنزو أن مركزه كان من أجمل المراكز. وكذلك المحل من أجمل المحلات. أما أثاثه فكان من أفخر وأثمن الأثاث. وكان قد أعدَّ مخدعاً مخصوصاً لازبيلا يفتح بابه إلى حديقة بهجة. فدعاه الماركيز حديقة ازبيلا. وفيه مكتبة محتوية على أنفس مؤلفات الانكليز والفرنساويين والايطاليانيين. وآلات لأعمال الخياطة والتصوير وبيانو وقيثار وكمنجة من النوع الذي تُضرَب أوتاره بالأنامل.

فقال ألنزو لأبيه مبتسماً: «يبان لي أن ازيبلا قد أتقنت فن الموسيقى». فأجاب الماركيز بهدوء: «نعم، ولها غرام زائد في هذا الفن ومذاق عجيب».

فشكر ألنزو أباه على شدة اعتنائه به وبعروسه. وقال في نفسه: «لو سكنت هذا البيت أنا وفايولا عوضاً عن أزيبلا لكنت أسعد أهل الأرض».

فابتدأت علامات الهم والغم تظهر على وجه ألنزو. وبعد أن فرغ من واجبات السلام على أصحابه ومن التفرج على ما أحدث مدة غيابه عن البلاد كان يصبو إلى الانفراد والتأمل حتى كأنه لم ير شيئاً مما حوله إلَّا تلك الأفكار التي كانت سبباً لتكدير صافي حياته. والتي مزجت عذوبتها بمرارة. فاجتهد أبوه والخواجة موردنت في ايجاد ما يسليه وينفي الهم والغم عنه. فكانا يذهبان به إلى التنزه خارج المدينة وخاصة إلى جنينة بونانيكالية البهجة التي كان ترتيبها المتقن يدهش كل من نظرها. فكانت كأنها درة ثمينة بين الجبال الشامخة مزينة بأنواع الزهور التي يتضوع منها روائح تنعش قلب زائرها. وفيها من كل أنواع الأشجار الحاملة ألذ وأفخر الأثمار تجري من تحتها أنهار يلاعب حبابها نسيم منعش يُبعث إليها من الأقيانوس التي فتحت لناظره باباً يرى منه تلك الجبال. فكأنها عنترة يحمي تلك الحديقة من هجمات الرياح العاصفة. وكأن تلك الجنينة والنسيم يميل أغصانها ويذهب عنها مضمخاً بأنواع الطيوب عبلة تتدلل عليه. وأحضراه في ولائم وأفراح مطربة. ولكن ذلك جميعه لم يجدِ نفعاً. وكان كلما يمضي يوم ويأتي غيره يمضي الفرح من قلب ألنزو ويأتي إلى موضعه غم. وأما السبب الذي ملأ قلبه حزناً فلم يذكره مطلقاً. وهكذا صرف ألنزو ثلاثة أسابيع.

وكان يزور عمته الرئيسة ويلتذ جداً بمسامرتها لأنها كانت تسليه عن أحزانه بحذاقة اتصف بها جنس النساء. وكانت تجلس مقابله تشتغل بخياطتها مدة ساعة دون أن تتكلم وهذا كان يسره جداً.

ففي أحد الأيام دخل مخدعها الصغير وجلس في مكانه فلم تكن الرئيسة حينئذٍ هناك. فبعد برهة دخلت وهو غائص في بحار التفكر. فلم ينتبه إليها. فتقدمت إليه وقالت له: «يا ألنزو، لو لم تأتِ الآن لأرسلت وطلبت حضورك إليَّ».

فأجابها: «لماذا تطلبين حضوري؟»

الرئيسة ـ «إن احدى صديقاتك أتت إلى الدير وتحب أن تراك».

ألنزو ـ «كيف هذا، ومن هي التي تحب أن تراني؟»

الرئيسة ـ أظن انك لم تنسَ السيدة فايولا مانتوزما؟ فجفل ألنزو لما سمع ذكر اسم فايولا ووثب من مجلسه وشعر باختلاج في كل أعضاء جسمه وقال: «أتذكرين السيدة فايولا، فايولا بعينها، أين هي، ماذا جرى لها؟»

فقالت الرئيسة: «إنها لما وصلت إلى لسبون وجدت زوجها في حالة النزاع». فقال ألنزو: «وبعد ذلك؟»

فأجابت الرئيسة: «توفي، أما فايولا فسلمت أرزاقها إلى وكيلها هناك، وأتت حالاً إلى هنا لتنظر في أمور مهمة متعلقة بها، وترجع حالاً، وقد طلبت مواجهتك قبل رجوعها».

فقال ألنزو: «إنني أرغب ذلك جداً».

فخرجت الرئيسة من المخدع. أما ألنزو فبقي هناك يتمشى ويقول بصوت عالٍ إن حظي سعيد

جداً. ثم سمع صوتاً من نافذة صغيرة في المخدع فالتفت إلى ناحية النافذة فرأى فايولا لابسة ثياباً سوداء ووجهها ينير كالبدر في تمامه. فتقدم إليها فمدت له يدها من النافذة فجثا على ركبتيه وأخذ يدها وقبلها ثم وضعها على صدره عند قلبه ثم على جبهته المتقدة من شدة ما في قلبه من لهيب الغرام. فقالت له بصوت منخفض لطيف: «يا ألنزو، إن عمتك الرئيسة أخبرتني انك تزوجت بإبنة قبل ذهابك إلى أوروبا وأخشى أن أكون قد أضعفت تعلقاتك مع عروسك على غير قصد وبذلك كدرت صافي كأس حياتك. فأرى انه من أهم واجباتي أن أطلب أن لا تفعل ما لا يليق بشرفك، واعلم ان الاصرار على تنفيذ مأربك يكون واسطة لقطع علائق الخلوص والوداد الكائنة بيننا. وإن يكن ينبوع ذلك محبتك المفرطة لي. فعدني يا ألنزو أنك. . .» فأوقفها ألنزو عن الكلام قائلاً: «لا اقتدار لي على ترك من أخذت مركزاً في فؤادي».

فتنهدت فايولا وقالت: «إني سأرى هل ألنزو هو كما ظننته أم لا وهل يفعل ما يجلب شقاء على عروسه ويثلم شرفه وشرف أبيه للحصول على ما لا يمكنه الحصول عليه. اللهم باركه وإمدد يد المساعدة إليه لكي لا يفعل ما لا يليق به. اعلم يا ألنزو إنني اشتهي لك كلما يؤول لسعادتك فافعل ما يؤهلك لذلك. وتوكل على الله وهو نعم الوكيل».

فبعد أن فرغت من الكلام ذهبت، أما ألنزو فبقي جاثياً عند النافذة وهو غائص في بحار التفكر. وأخيراً وجد سبيلاً للتخلص من الارتباك الذي أوقعه فيه هوى فايولا ونجا من ظلمة الأفكار التي أحاطت به منذ رآها. فاعتمد أن يخبر السيدة ازيبلا بالتفصيل عند مقابلته إياها عن كلما جرى له. وأن يطلب منها أن تعضده في نقض عهد الزواج الذي حصل بين أبيه وبين أبيها على رغم المتزوجين قبل سفره لأنهما بذلك ينالان السعادة ويتخلصان من الشقاء الذي يقعان فيه إذا عاشا مع بعضهما دون أن يحب أحدهما الآخر. وإنه من حين خرجت من الكنيسة عند نهاية الإكليل لم يقابل أحدهما الآخر ولا كتبا إلى بعضهما وإن قلبه قد تعلق غيرهـا. وربما هي أيضاً أحبت غيره. وإنه في وقت قريب يصير وفاء الدين الذي استدانه أبوه من أبيه من أرزاقه التي كانت حكومة بورتغال قد اعتمدت على ترجيعها له. لا ريب ان نقض عهد الزواج الذي عقده والداهما دون تبصر في عواقبه لا يصعب عليهما حله إذا طلباه بالاتفاق ثم قال لنفسه: «وإذا رفضت إزيبلا ذلك فماذا أفعل؟ أأتزوج بها؟ كلا، بل أتركها رغماً عنها، وهكذا أحصل على الحرية والسعادة».

ثم خرج ألنزو من الدير وهو شديد الافتكار في هذه الأمور. ورجع إلى بيته وطلب مواجهة الخواجة موردنت وأخبره عن قصده فأصغى إلى ما قاله له برأفة وخلوص. وبعد أن فرغ ألنزو من الكلام قال له الخواجة موردنت: «إذا رفضت ازيبلا قبول ذلك يعظم الابتعاد بينكما ويكون سبباً لتكديركما مدة حياتكما». أما ألنزو فلم يرغب أن يفترض ذلك بل بقي على عزمه. فلما رأى الخواجة موردنت ان لا فائدة من كلامه سلم إليه الأمر وسُرَّ أن يرى أن لألنزو أملاً يتسلى به إلى ان ينفذ القدر.

وبعد مرور سبعة أيام من اليوم الذي رأى فيه ألنزو فايولا. بينما كان الماركيز وألنزو والخواجة موردنت جالسين في قاعة عالية في منزل الماركيز رأوا عن بعد مركباً برازيلياً جميلاً قادماً. فصرخ الماركيز قائلاً: «قد أتى المركب المنتظر وقد دخل الميناء، هلمَّ إليه». وبينما هو يتكلم رُفعت علامة من المركب المذكور فصفق الماركيز فرحاً وقال للخواجة موردنت بصوت منخفض: «الحمد لله قد أتوا». وخرج مع الخواجة موردنت من القاعة.

فقال ألنزو في نفسه: انني لست مكلفاً أن أظهر أنني عالم بأنهم حضروا إلاَّ بعد ما يخبرني بذلك

أحد. وأخذ يطالع كتاباً كان في يده. فبعد ثلاث ساعات أرسل الماركيز كتاباً إلى ألنزو يخبره أن السيدة إزيبلا وعمتها وأباها قد وصلوا وهم الآن في بوتافاكو، وان ازيبلا مع عمتها لا تقدران على مواجهته قبل المساء لأنهما تعبانتان وان الخواجة موردنت يحضر إليه بين الساعة الأولى والثانية بعد الغروب في عرباية ليأتي به إليهم.

فأخذ ألنزو في الاستعداد لمقابلة عروسه ولبس أفخر ما عنده من الملابس ولم يأكل تلك الليلة لأنه لم يكن له قابلية للأكل بسبب انشغال باله. فبعد أن انتهى من التزين واللبس جلس وأخذ كتاباً نفيساً من تأليف سار والترسكوت المشهور وحاول أن يتصفح صفائحه البهجة وكان ألنزو مالكاً طبعه بحيث لا تظهر عليه إشارات مما في قلبه من الارتباك. ولم يكن حاد المزاج.

فبعد الغروب بساعة ونصف حضر الخواجة موردنت بالعرباية. فركباها حالاً وذهبا قاصدين منزل العروس.

فقال ألنزو للخواجة: «ألم تر السيدة إزيبلا؟»

فأجاب: «نعم، رأيتها». وكان الخواجة موردنت لا يرغب ان يطيل الكلام عنها. ثم سأل الخواجة موردنت ألنزو: هل هو باقٍ على ما اعتمد عليه؟

فأجاب ألنزو: «كيف لا؟» ثم صمتا.

فبعد نصف ساعة وصلا إلى مقصدهما. فخرج ألنزو من العرباية بقلب يخفق. فأدخلهما بعض العبيد إلى القاعة الكبيرة التي كانت مزينة على أحسن منوال حيث وجد السنيور يوسف والسيدة تريزا والماركيز والرئيسة التي منذ سنين عديدة لم تخرج من ديرها إلّا هذه المرة ومعها راهبة.

فسلم ألنزو على السنيور يوسف وأخته برزانة واحترام وقبل يد عمته ثم التفت إلى أبيه وطلب منه أن يخبره عن محل السيدة إزيبلا.

فأجاب أبوه إنها في خدر حديقتها تنتظر قدومك. فاستأذن منهم ألنزو وذهب إليها. وبينما كان ذاهباً اجتهد أن يضبط نفسه عن إظهار أدنى ضعف اعتماد فوصل إلى الخدر أخيراً ووجد بابه مفتوحاً فدخله وغلق الباب وراءه فكان يضيء في الخدر مصباح واحد يوناني معلق في وسطه وكانت الأبواب التي تفح إلى الحديقة مفتوحة وشعاع البدر المنير داخل منها يتلألأ على باقات الزهور وأوعيتها المذهبة. وفيه سيدة متكئة على القيثار عند الباب الذي في الجهة الأخرى من الخدر لابسة ثياب عرس ثمينة جداً. وكانت احدى يديها ممتدة إلى الأسفل وفي يدها الثانية ماسكة طيات نقابها الذي ظلل وجهها. فتقدم ألنزو قليلاً إليها وهو معتمد أن يطلب منها المساعدة على نقض عهد الزواج. فأدهشه حسن واعتدال قامة السيدة الواقفة مقابيله فقال لها: «أظنك السيدة ازيبلا»؟ فلم تجبه بشيء ولا تحركت. فتقدم إليها وأخذ يدها الناعمة الممتدة المزينة أناملها بخواتم ثمينة، وكانت لابسة في معصمها أسواراً من ياقوت. وقال لها: «يا سيدة إزيبلا، أطلب منك أن تصغي لما أقول فإنه مهم جداً وعليه تتوقف سعادتنا، فاسمحي لي أن أجلسك على كرسي لنتحدث قليلاً». ثم صمت، ولولا اختلاج جسمها لما كلمها لظن أنه يكلم صنماً. فرفعت رأسها بغتة وصفقت يديها وجثت على ركبتيها عند قدميه. فجفل ألنزو وظن أن ما يراه ملاكاً. ثم قالت بصوت خرق إلى قلبه ودماغه يا ألنزو، أتسامحني؟ هذه هي فايولا بعينها».

ثم قالت: «إنني خدعتك وجعلت غيري يساعدني على ذلك وما ذلك إلاَّ للحصول على قلب زوجي العزيز وهو نفسه يشفع لي عندك لنوال المغفرة، ولا ريب انه يسر أن يشفع لي».

فرجع ألنزو إلى نفسه بينما هي تتكلم. فأخذ يدها وأوقفها وضمها إلى صدره دون أن يقول شيئاً ثم قبلها بمحبة صافية شديدة. ولم يقدر حينئذٍ على التكلم لشدة فرحه. ولا سأل عما حصل كيف حصل. ولكنه اكتفى بأنه حاصل على عروسه وبأن تلك العروس هي فايولا لا غيرها.

ففرغ صبر الجماعة المنتظرين في القاعة فتقدم الماركيز بهدوء نحو خدر حديقة إزيبلا. وتبعه الباقون حتى وصلوا إلى الباب. فقال الماركيز يا ألنزو أتسمح لنا بالدخول. فأجابهم دون انتباه، أدخلوا. وهذه هي أول كلمة تفوه بها من حين عرف أن إزيبلا هي فايولا. فلما دخلوا استفاق ألنزو من السهو المسبب عن الفرح المفرط وطلب الإفادة عن تعلقات الحيلة الغريبة التي سببت له السعادة الدائمة والحبور المفرط. والظاهر أن إزيبلا التي كانت حينما تكللت على ألنزو ضعيفة الجسم صفراء اللون بسبب الأمراض المتتابعة التي حصلت عليها أخذت في التقدم جسداً وعقلاً رويداً رويداً حتى بلغت إلى الدرجة القصوى من الجمال والمعرفة. فإن الماركيز أخذها بعد سفر ألنزو ووضعها في الدير عند الرئيسة التي اعتنت في تعليمها وتهذيبها فانجلى ذلك الصـدأ الذي علا جوهر عقلها الذي كان بسبب الإهمال الذي حصل في أمر تربيتها في صغرها. وبعد أن صرفت ثلاث سنوات في الدير المذكور ذهبت إلى انكلترا لتزيد ما حوته من المعارف والآداب حسناً وكمالاً بواسطة السفر في بلاد متمدنة والامتزاج مع الأكابر من أهالي تلك البلاد حتى أن حسنها وجودة عقلها وصحتها ومعرفتها أعجبت كل من رآها وهكذا وصلت إلى ما وصلت إليه فتذكر حينئذٍ ألنزو تلك النظرة التي لاحت منها لنحوه عندما خرجت من موقف الإكليل وجرحته بسهم لحظها الأحور.

ثم قال ألنزو للخواجة موردنت: «هل أنت أيضاً يا معلمي الفاضل من جملة الذين احتالوا عليَّ؟»

فأجابه: «نعم، فإني كنت عارف أنك ستقابل فايولا أول مرة في المرسح وأنها هي إزيبلا بعينها ويلزم أن أخبرك أنك لو لم تنزل بسرعة من مركز فايولا لما ذهبت لزيارتها لكانت أخبرتك انها امرأتك إزيبلا، لأنها لما شاهدت ما شاهدته من الحزن واليأس خشيت أن الهيام والغرام يبلغان بك إلى طرح نفسك في البحر ولكنك لم ترضَ أن تصغي لها لما نادتك قائلة وأنت خارج من مركبها، رويداً، رويداً، اصبر يا ألنزو، وكان مقصدها حينئذٍ أن تخبرك عن حقيقة الأمر».

فقال ألنزو: «إنني متأسف على ذلك». ثم التفت إلى عمته الرئيسة وقال لها: «وأنت يا عمتي كيف تقدرين أن تكفري عن تلك الكذيبات التي صدرت منك لما أخبرتني أن فايولا قد ترمّلت؟» فقالت الرئيسة: «إنني أطلب المغفرة والصفح من الله عن كل ما صدر مني من عدم الاستقامة في هذا الأمر».

ثم دعاهم الماركيز إلى الوليمة التي كان قد أعدها لهم. فأخذ ألنزو يد فايولا وتبعهم ومن ذلك اليوم لم يدعوها إلاَّ فايولا. خوفاً من أنها تخطف من يده إذا دعاها إزيبلا. ولم يجتمع قط جمهور ملأ الفرح قلبه وكللت السعادة أعماله أكثر من الجمهور الذي كان جالساً حينئذٍ حول مائدة وليمة عرس العروس البرازيلية.

تابع رسالات سينكا الفيلسوف الروماني
إلى لوسيليوس

ترجمة الخواجة سليم شحادة

الرسالة الثالثة

في وجوب التأمل
قبل اتخاذ صديق ما والثقة به

[المجموعة السابعة من أعمال السنة الأولى. ص ١٩٩ - ٢٠٢]
[المجموعتان الخامسة والسادسة غير متوفرتين لذلك ابتدأ بالرسالة الثالثة.
وُضعت الهوامش من ٨ إلى ١٦ لهما]

إنك أرسلت تخبرني بإعطائك تحارير لصديقنا لتسليمها لي وتحرضني أن أخفي عنه كما هي عادتك كلما يخصك. فإنك بتحرير واحد قد اعترفت بكونه صديقاً لك ثم أنكرت عليه. فعلى ما يظهر انك تبعت بذلك العادة ودعوته صديقاً كما ندعى نحن رجلاً صالحاً كل من سعى وتقدم لنوال الوظائف والرتب أو كما ندعى يا سيد لشخص تصادف بنا وكان غاب عنا اسمه فلا بأس غير أنه إن حسبت شخصاً صديقاً لك وكنت لا تثق به كذاتك فتكون قد خادعت بذلك ذاتك وأظهرت نفسك جاهلاً بحقيقة الصداقة.

إفحص ودقق على الأمور كلها مع صديقك لكنما افحص صديقك قبل كل الأمور لأنه قبل ايقاع الانتخاب على صديق يجري الفحص والمباحثة. وغب وقوعه يقتضي الثقة به فإنه يوجد إناس بعكس الأمر وخلافاً لمبادىء ثيوفراسطيس[١٧] يفحصون بعد أن يحبوا ويبطلون تلك المحبة بعد أن يفحصوا.

فأمعن النظر أولاً قبل أن تعتمد على أي كان كصديق لك ومتى اعتمدت عليه فاقتبله بقلب مفتوح وبدون أن تخفي عنه شيئاً وثق به كنفسك وكن مع ذلك في مدة حياتك مجانباً أن يصدر منك أمر يلزمك الحال إخفاءه حتى ولا عن عدوك. فإنما يجب عليك أن تخبر صديقك بجميع أعمالك وأفكارك ما خلا أموراً يمنعك الأدب عن إظهارها فإنك تجعله اميناً بإتخاذك إياه أميناً غير أن اختشاك من الغير أن يخدعك يجعل له طمع يخدعك حتى أن ظننا بأحد انه قادر على شر ما يعطيه جرأة على ذلك.

فأي أمر يلزمني أن أحرص على كلامي بحضور صديقي ولماذا لا أعتقد أنني منفرد بذاتي عندما يكون حاضرني صديقي فقط فبعض الناس يبثون كثيراً من أمور لا تذكر إلاَّ لصديق ويفرغون ملء صدورهم لمن حضرهم وغيرهم بخلاف ذلك يكادون لو أمكنهم يكتمون أموراً حتى وعن ذواتهم ولا جسارة لهم على إظهارها لأصدقائهم فيختموا عليها. فمن الواجب إذاً التمنع والابتعاد عن هذين الحدين لأن كلاهما عيب، أعني الائتمان بكل العالم وعدمه، غير أنه الواحد شئيم والآخر آمن.

وكذلك يستقبح شخصان وُجدا دائماً الواحد في الحركة المطلقة والآخر في الراحة الدائمة. لأن هذه الحركة التي تشتهر فيها بين غوغة العموم ليست هي بالواقع إلاَّ علامة عقل قلقان ومضطرب كما وأن تلك الراحة التي لا تحتمل أدنى حركة الأولى كونها بلادة وجبانة.

فاحتفظ على ما قرأته في تأليف بومبونيوس[١٨] إذ يقول: «إن أناساً قد تعمقوا هكذا في الظلام حتى أن ما كان بالضياء يتباين لهم باعتكار». وأخيراً أقول: إن من الواجب اقتناء هذين الأمرين بالمعاقبة. الشغل غب الراحة والراحة غب الشغل. وان استشهدت الطبيعة على ذلك نجيبك بأنها وجدت النهار والليل.

الرسالة الرابعة
في أن الفرح قائم بمعرفة الانسان ترتيب أهوائه وأن راحة الحياة إحتقار الموت

فداوم كما ابتدأت واعجل حسب مقدرتك لتحصل بأقرب وقت على السرور والفرح بأنك لطفت ورتبت أهوائك مع كونك تتمتع بذلك السرور وأنت آخذ بالعمل غير أنه فرح عظيم ان المرء يرى نفسه معتوقاً وحراً من فساد البشر الاعتيادي. ألا تذكر ذلك السرور الذي حزت عليه عندما تعريت من ثوب الولدنة وتوشحت ثوب الرشد والكمال واقتبلت في مهنة شريفة. فإني أعدك بسرور يفوق ذلك حينما تتخلص من ضعف الصبا وتحوز قوة الحكماء مع أنه وان كنا لسنا بعد أولاداً إلاّ إننا لا نزال متشبثين بشيء من أخلاق الأولاد وأعكس من ذلك أن لنا سلطة واعتبار الشيوخ مع عيوب وذلل الأولاد حتى والرضَّع. لأن أولئك يختشون شيئاً جزئياً وهؤلاء مما لا وجود له ونحن نختشي الأمرين معاً.

تتمة الرسالة الرابعة

[المجموعة الثامنة من أعمال السنة الأولى. ص ٢٨٧ - ٢٩١).

فقس على ذلك وتجد بعض أمور قل ما يخشى منها تنفي عنا عللاً عديدة للاختشاء. فإن الشر إذا كان آخر شيء يحدث وقوعه فلا يكون عظيم الضرر. فالموت قادم إليك ولو فرض وجوده مصاحباً لك لكان يجب الخوف والجزع منه ولكنه يجب أن تقول لي إنه لا يأتي أو إنه يمضي لأنه يتعسر على الانسان أن يجعل أفكاره معتادة ومستمرة على احتقار الحياة. ألست كل يوم تنظر من يفارق الحياة لأمور جزئية لا تذكر؟ كعاشق يشنق ذاته امام دار حبيبته، وخادم يرمي نفسه من علو بيت سيده للتخلص من سوء أخلاقه ورُجْزه، وآخر يهلك نفسه بحربة كيلا يرجع إلى ما قد فرَّ منه هارباً. أفما تظن إذاً أن للفضيلة قوة أن تفعل ما يتجرى عليه الوهم المفرط.

لا حياة هنيئة لمن يتعب جداً لأن يحصل على حياة طويلة ويعدُّ بملكه الجمهور الذي شاهده من الولاة.

فتمعن وتأمل مراراً في هذه الأمور كيلا يشق عليك مفارقة هذه الحياة بالرضاء ولئن يكن كثير من الناس يتمسكون بها كمن وُجد مغتصباً بمياه جارية يتعلق ويتمسك بالشوك والعليق ويوجد أيضاً كثيرون يعيشون بين خشية الموت وشقاء الحياة. فلا يرغبون الحياة ولا يعرفون كيف يموتون. فاجعل لنفسك حياة هنيئة بإبعادك عنك وهم فقدانها. لأنه لا ينجم من الرزق صالح لمالكه إن لم يعوِّل على فقدانه عند اللزوم. على أنه لا شيء يذهب بتمهل وافر كالشيء الذي لا يُؤسف عليه عند زواله. فيجب إذاً أن تعوّد نفسك وتتقوى على المصائب والحوادث التي يمكن وقوعها حتى على الذوات الأعيان. أما نظرنا ولداً قاصراً وعبداً خصياً قضيا على حياة بومبيتوس[١٩] الروماني الشهير وشخصاً

متمرد أو سفيهاً قضى على حياة قراسوس[٢٠] الروماني وكايوس قيصر[٢١] أجبر لبيدوس[٢٢]أن يقدم على الموت بتقديم رأسه إلى ديكستر[٢٣] وكيف هو أيضاً أعطى رأسه إلى شرياس[٢٤] قاتله. فإن الدهر لا يدفع الوهم عن أحد من أن لا يقع فيه ما ساعده على فعله مع الغير. فلا تركن للهدوء الحالي لأن البحر يتغير حاله في برهة ما والسفائن تتشتت هنالك حيث كانت منذ زمن وجيز تتلاعب على المياه. وافتكر دائماً بأنه يمكن للص أو عدو أن يدركك على غفلة ويعدمك الحياة. فلا يلزمني ايراد أدلة عديدة وبعيدة إذ ان لكل خادم وعبد سلطة على حياتك ومماتك وأحقق لك أن من يزدري بحياته فهو متسلط على حياتك. وإن تذكرت كثرة من هلك على غفلة أو بتمرد الخدم تجد بأن بغض وحقد هؤلاء قد أهلك عدداً جزيلاً يوازي من هلك بغضب أولياء الأمور. فما يهمك إن كان من تخشى منه قديراً أو لا بما أن كل أحد له قدرة أن يفعل ما تخشاه. فإنه إن وقعت في يدي العدو لعجل طريقك إلى الموت مع كونك ذاهباً إليه. فلماذا إذاً تريد للآن أن تخادع نفسك بإظهارك الجهل بما أنت تفعله من زمن طويل. لأني اؤكد لك بأنك أنت ذاهب للموت منذ يوم ولادتك. ولهذا إن أردنا الوصول على مهلة إلى الساعة الأخيرة التي تجعل اضطراب في كل أوقات الحياة يجب أن نتأمل دائماً بهذه الأمور.

فأختم رسالتي هذه بإعطائك ما قد اقتطفته من حقل الغير الذي ظهر لي عظيم الجودة وهو: «إن الفقر الموافق لناموس الطبيعة هو غنى عظيم». أتعلم بأي شيء قائم هذا الناموس؟ هو قائم بوقايتنا ذواتنا من الجوع والعطش والبرد. فلكي نتجنب هذه الأسباب لا يلزمنا أن نداوم ترددنا على أبواب الذوات وأن نجعل ذواتنا عرضة لاحتقارهم المفرط أو لإكرامهم المتواني لا يلزمنا قطع البحار واقتفاء الجنود لأنه سهل علينا إيجاد احتياجاتنا الضرورية فهي ملقاة لدينا. فإن التعب والجد هو لأجل الفضيلة والزيادة ولأجلها نقطع أثيابنا في مجلس الشريعة ونبيض رؤوسنا في الكفاح والحرب ونرحل إلى مواطن غريبة. فإن بيدنا ما يكفينا.

الرسالة الخامسة

في وجوب التجنب عن العوائد الغريبة الشاذة والتمسك بالعوائد الدارجة العمومية

إنني لمسرور بمداومتك على المطالعة والدرس واعتنائك بأن تجعل ذاتك ذا صلاح كل يوم. مفصلاً ذلك على كل شيء. فلا أحثك على ذلك فقط بل أرجوك أن تثابر عليه. غير أني أنصحك أن لا تعمل عمل أولئك الذين لعلة دنيوية باطلة لا للفضيلة يتظاهرون بأمور مستغربة سواء كان في أثوابهم أو في معيشتهم. فتجنب كل أمر يؤدي بك إلى الطمع بطريق الاعوجاج كالتظاهر بخارج مكروه وشعر طويل وذقن مزدرية وبغضة المال وفراش ملقٍ على الأرض. فإن اسم الحكيم فقط هو موجب الحذر للجمهور ولو كان المتصف به رجلاً ذا صلاح. فما يكون إذا إن حجزنا ذواتنا عن عوائد سائر الناس؟

فليكن إذاً خارجنا موافقاً لروح الشعب وداخلنا مضاداً له ولتكن أثوابنا لا فاخرة ولا مهانة ولا يكن عندنا أواني مذهبة لكنه لا نحسب أن التملك على شيء من الأواني الثمينة هو نقص بحق العفة. فلنهتم فقط بأن تكون حياتنا أصلح من حياة الشعب لا مخالفة له وألاَّ نبعد عنا كل الذين نريد تقويمهم وإصلاحهم ونكون قد جعلناهم لا يتبعونا بشيء حذراً من أنهم يلتزمون باتباعنا بكل شيء.

تتمة الرسالة الخامسة

[المجموعة التاسعة من أعمال السنة الأولى. ص ٣١٨ - ٣٣٢].

فإن الحكمة تقتضي قبل كل الأمور اصلاح وتقويم روح الجمهور وترتيب واجبات الحياة والمعاشرة على أنه إن كنا نعيش بمخالفة للغير ننفي أنفسنا عنه.

فلنحترز إذاً بأن ما نأمل ان نحصل به على اعتبار يؤول بنا إلى الهزء والاحتقار. هذا ومن المحقق عزمنا الأصلي المعيشة حسب الطبيعة ولكن مما يضاد الطبيعة أن نتعب جسدنا ونسخر بنظافة لا تكلفنا شيئاً ونتعش بالأوساخ ونقتات لحوم تؤثر لنا السدم والكره. وكما انه يوجد زهو في ايجاد الأشياء اللطيفة فالامتناع عن الأشياء العمومية التي لا تكلف لها يعد من الجنون. فإن الحكمة تعلمنا التقشف والاكتفاء بالاحتياجات الضرورية فيما لا يشق احتماله لا الألم والمقاساة. على انه يمكن وجود شيء من التنعم مع التقشف فهذا النوع يروق لي.

فلتستقم حياتنا بين العوائد الصالحة والعمومية ولندع العالم أجمع يمدحها وكل أحد يعلمها. وماذا عسى يقولون لنا؟ أنفعل ما يفعله الغير؟ أوَما يوجد بيننا فرق؟ نعم وعظيم هو ذلك الفرق وليقتضي أن يعلموا حينما يشاهدونا عن قرب أننا وجدنا فوق العموم وأن من دخل لمخدعنا يتعجب بشخصنا لا بالأثاث. آه، وما أعظم ذاك الذي يستخدم الأواني الخزفية كأنها فضية كما وأنه ليس بأقل من ذلك من يستخدم الأواني الفضية كأنها خزفية. وبالحقيقة إن عدم معرفة احتمال الغنى ينتج عن سخافة العقل.

وإني أخبرك عما وجدته اليوم من الافادات بمطالعتي لتأليف هيكاتون[٢٥] بأن منتهى الشهوات علاج ضد الخوف فيقول: «إن تدع عنك الرجاء تدع عنك الخوف» فإن اعترضتني بقولك كيف يمكن اتفاق أمرين هكذا متضادين فأقول لك: إن الأمر هكذا يا عزيزي لوسيل. لأن هذين الأمرين مع ما يظهر من مضادتهما هما مع ذلك متفقان وكالسلسلة الرابطة الأسير مع الجندي المحافظ له، هكذا هذان الأمران المتضادان يتقدمان على قدم واحد. فإن الخوف يتبع الرجاء ولا عجب لأنه سواء كان الواحد أو الآخر ينتجان عن عقل متوقف بانتظار حدوث أمر غير محقق وإنما السبب الأصلي لذلك هو لعدم اتجاه افكارنا للأمور الحاضرة الحالية بل لاتجاهها إلى الأمور المستقبلة البعيدة عنا. فانظر كيف إن البصيرة أو قوة النظر في العواقب التي وجدت كموهبة خاصة الجنس البشري قد جعلت بالضد لضرره. فإن الحيوانات إن شاهدت الخطر عياناً تتجنبه وتقم براحة. وأما نحن ترانا مضطربين بما يخص المستقبل والماضي ولذلك إن الخيرات المعطاة لنا لمضرة هي لنا إذ ان قوة الذاكرة تجلب لنا حاسية الخوف وتلك أي البصيرة تستجلبها من بعيد. وأخيراً لا يوجد أحد قط يتألم للشر الحاضر، والسلام.

الرسالة السادسة

في أن معرفة الانسان عيوب نفسه استعداداً إلى الاصطلاح وأن المحادثة تفيد أكثر من الأمثال

إني أشاهد ذاتي يا عزيزي لوسيل ليس ازداد اصطلاحاً فقط بل ويحدث فيَّ تغيير وذلك لا لكوني

لا أحتسب فيَّ ما يقتضي التغيير لأني لماذا لا أجد أموراً عديدة تستوجب الإصلاح أو الإعدام أو الاتقان؟ فإن معرفة المرء عيوب حياته التي كان يجهلها هي شهادة عظيمة على اصلاحها. كما انه يهنأ أحياناً بعض المرضى عند شعورهم بأمراضهم. فأرغب أن أوضح لك ما اعتراني من التغيير السريع ويكون لي بذلك أعظم دليل على تأكيد المحبة الحقيقية الكائنة بيننا التي لا رجاء ولا خوف ولا أدنى صالح ذاتي يضعفها، أعني تلك المحبة والصداقة التي قد يموت أناس في حالة التمسك بها مضحين أنفسهم لأجلها. وإني على ذلك أذكر لك جملة من الذين لم ينقصهم أصدقاء بل محبة ومودة على انه لا يقع ذلك بين أشخاص توافقوا بعزم واحد على تحصيل الفضيلة. وإن قلت لماذا لا يقع ذلك مع هؤلاء؟ فأجيب انهم يعرفون جيداً بأن كل الأمور هي بالاشتراك عموماً وخاصة الضيقة والشدائد.

فلا يمكنك تتصور ما أستفيده كل يوم ولربما تقول لي: ها، فأخبرني عن تلك الوسائط الفعالة التي وقفت عليها؟ فإنه لو أمكني لكنت بكل قبول أفرغتها لك لأني لا أسر بتعلم شيء إلاَّ لتعليمه للغير وبالحقيقة لا شيء يسرني مع جودته وفائدته إن كنت لا أستطيع تحصيله إلاَّ لنفسي على أنني أيضاً أرفض الحكمة إن قُدمت لي بشرط حفظها محجوزة وعدم تلقينها للغير. لأن التنعم بالثروة بدون رفيق عديم اللذة. وسأرسل لك التآليف التي وجدت فيها تلك الوسائط الحسنة جاعلاً لها مذكرات كيلا يضيع الوقت بإيجاد ما هو جيد وتقف حالاً على المواضيع التي تلذ وتروق لي.

ومع ذلك إن المكالمة والمحادثة ينفعانك أكثر من المطالعة إذ إنه يقتضي مشاهدة الشيء عياناً. أولاً لأن للانسان اعتيادياً ثقة في عينيه أكثر من أذنيه. ثانياً لأن الطريق أقرب بالشواهد من الأمثال وعلى ذلك أقول إن كليانطيس[٢٦] لو كان فقط من مستمعي زينون[٢٧] لما كان وقف على حقائق مبادئه ولكنه عاش معه وعلم سرائره واجتهد بتطبيق قوانين معيشته على مبادىء هذا الفيلسوف كما أن أفلاطون[٢٨] وأرسطوطاليس[٢٩] وجميع الفلاسفة الذين تفرقوا إلى شيع ومذاهب شتى قد استفادوا من أخلاق سقراط[٣٠] أكثر من مذهبه وهكذا الأعيان كميترودور[٣١] وهيرموكوس[٣٢] وبولينوس[٣٣] كان أعظم فائدة لهم محادثة ابيقور[٣٤] لا مذهبه. فإني لأنصحك بذلك لتسفيد بذاتك وحدك بل لإفادة الغير أيضاً لأن بهذه الواسطة نجعل ذواتنا نافعين بعضنا لبعض.

والآن لكي أفي مايتوجب لك عليَّ فأخبرك عما راق لي اليوم بمطالعتي هيكاتون[٣٥] فيقول: «إنك تسألني ما ربحت اليوم فإني ابتدأت أن أكون صديقاً لنفسي». وبالحقيقة لقد ربح جداً إذ لا يكون مطلقاً وحده واعلم أن من كان صديقاً لنفسه هو صديق لجميع الناس.

الرسالة السابعة
في أن الاجتماع والمراسح تسهل حصول الرذيلة

إنك تسألني ما يجب عليك تجنبه خاصة. فأحذرك من الاجتماعات الوافرة لأني لا أجد لك بها أمنية وإني أقرُّ بضعفي من هذه الجهة لأني لا أعود من تلك الاجتماعات بذات الاحساسات التي كنت ذهبت بها إليها بل قد تتحرك بي بعض احساسات أكون قد سكنتها أو فكر أكون قد أخذته بعيداً عني قبل ذلك. ويحدث لنا نحن الذين عقولنا تكون قد اتجهت للصحة بعد عياء كبير كأضعف ضعفاء من زمن طويل والذين يخشى عليهم من ضرر إذا حملوا للخارج. فإن محادثة جملة أشخاص هي مضادة لمبادئنا. لأننا نجد بينهم دائماً على الأقل واحداً محامياً وموافقاً للرذيلة فيطبعها بنا ويدع لها بنا تأثير.

فالأخطار تزيد مع تزايد الجمهور. ومن ثم لا شيء مضر جداً للأخلاق الحسنة كالوجود مدة طويلة في المراسح العمومية. لأن تلك المسرات التي تؤثرها بنا تسبب أيضاً تسهيل الانعكاف على الرذيلة. فإذاً أقول لك، لأني بالحقيقة أعود من تلك المراسح أبخل وأطمع وأقسى مما كنت ولذلك لكوني وجدت مع الجمهور.

قد دخلت يوماً في وقت الظهر إلى احدى المراسح حيث أملت أنعش مسامعي بأقاويل لطيفة وأنزّه عيناي المشمئزة من الأدمية البشرية التي كانت أهرقت أمامي غير أني بخلاف المأمول شاهدت وتأكدت أن ما سبق من الملاعب لم يكن إلاّ رحمة بمقابلة ما رأيت حينئذٍ فلم يكن إذ ذاك ملاعب بل مذبحة. فإن المكافحين كانوا عراةبارزين في المرسح يتقاتلون بضربات صائبة ومع ذلك جملة من الناس يفضلون هذه النزهة على ملاعب المصارعين المنتخبين أزواجاً ولماذا لا يفضلون ذلك إلاّ لموافقته ذواتهم؟ ترى أن لا حيدة ولا ترسا ترد الحرية ولا شيء يقولون تخدم هذه الدروعة ولماذا هذا التظاهر والمكافحة؟ وإن ذلك كله عائد لاعاقة الموت. فإنهم في الصباح يعرضون الرجال للسباع والذئاب وفي الظهر يحضرون للمتفرجين أولئك الذين فازوا بقتل تلك الوحوش الضارية للمكافحة فيما بينهم ومتى أحد أذاق صاحبه كأس المنون يوقفونه ليذوق من آخر ما أحله هو بالآخر وهكذا ينتهي المرسح بالسلاح والنار على ان الموت هو نصيب المكافحين جملة وذلك يكون عند فروغ المرسح ومن ثم على أي حالة كانت أما أن يكون أحد اولئك الجماعة تجرأ على سرقة فاستحق أن يشنق أو قتل فاستوجب العقاب وأما أنت يا أيها الشقي ماذا فعلت أو ما يحملك أن تحضر لمرسح ظالم دموي حيث لا يسمع هناك إلاّ إضرب، احرق، اقتل. وقائل يقول لماذا ذلك يقدم ببلادة ورخاء ضد الحرب والآخر يموت بقلة العزم؟ لماذا؟ لأنهم يضنكونهم بالضرب ليكافحوا ولكونهم مجردين من الثياب تراهم يصابون بالضرب المتبادل بينهم وعند خلوص المرسح يذبحون أناساً كيلا يكونوا بدون عمل شيء ولكن ألا تعلم أن تلك الأفعال الرديئة تقع على الذين كانوا سبباً لها. فعليك أن تقدم الشكر للآلهة الغير المتناهية بأنكم تعلمون القساوة لأمير لا يمكنه تعلمها.

ولذلك يقتضي أن لا يحضر بين هؤلاء الجماعة امرىءشاب «غير متدرع بالصلاح على انه من العادة الانعكاف طبعاً على القسم الأكبر واتباعه. فإن سقراط[٣٦] وكاتون[٣٧] وليلي[٣٨] لو شاهدوا مقدار جماعة وافية مضادة حاسياتهم لهم لغيروا أيضاً أخلاقهم. لأنه بالحقيقة لا أحد (وخاصة عندما نكون مهتمين بتهذيب أنفسنا) يقدر يتمنع عن الرذائل التي تقبل مزخرفة. فإنه مثال واحد عشقي أو دنسي يؤثر الشر. كما أن رجلاً مترهفاً متدللاً وجدنا معه على الغالب، على الأكل يوشك أن يكسبنا بعض أخلاقه ويحملنا بالتتابع. والجار الغني يثير حاسيات الطمع والرفيق الرديء المعشرة يقسم من سم ردائته لنفس رفيقه البسيطة والسليمة. لأنه ماذا تظن أنه يكون لشخص يجتهد الجمهور بفساده؟ فتقول عليك إما أن تقتدي به أو تبغضه. لا بل يجب عليك تجنب الأمرين لأنه لا يقتضي أن توافق الأشرار لكثرة عددهم ولا نجعل أنفسنا أعداء لهذا الجمهور الوافر بما أنه لا يشبهنا.

فاقم بنفسك ما استطعت وآسعى بطلب الذين يجعلون لك واسطة على الاصلاح واجتمع أيضاً بالذين تقدر على اصلاحهم إذ ان ذلك بالتبادل. فإن الناس تستفيد عندما تفيد. وعلى كل لا يجب عليك أن تتردد حيثما كان وتعطي دروساً عمومية كي انك تظهر جـواة عقلك. ولكنت أذن لك بذلك لو كانت حاسياتك توافق حاسيات الجمهور ولكنه لا أحد يمكنه أن يعلمك ما خلا واحد أو اثنين ولربما يلزمك الأمر أن توسهمـا وتجعلهما يفهمانك. فإن قلت لي فلماذا أنا إذا تعلمت كل هذه الأشياء؟ فلا تتأسف على ذلك لم تضع تعبك فارغاً لأنك تعلمتها لنفسك.

وأخيراً كيلا اتهم بأني اليوم لم أستفيد شيئاً لنفسي فأطلعك على ثلاثة أمثلة بديعة قد ظفرت بها ومنها واحدة تفي لك ديني عن هذا النهار والأخيرتين تعطيان لك سلفاً. فإن ديموقريطس[٣٩] يقول: «إني أحسب رجلاً واحداً بشعب واحد وشعباً واحداً برجل واحد». والآخر أي كان (حيث نجهل اسمه) ردَّ جواباً مناسباً للذين سألوه عن فائدة عظم دقة فنه نظراً إن قليلاً من الناس يمكنه معرفته فقال: «يكفيني عدداً قليلاً حتى وإنساناً واحداً ويكفيني أيضاً إن لم يكن أحد».

وكتب أبيقور[٤٠] لأحد رفقائه في الدرس نصاً جميلاً فيقول: «إن الأشياء التي أحررها لك ليست للجمهور بل هي مختصة بك وحدك لأننا نحن الاثنين مرسح متسع». فمن الواجب إذاً يا عزيزي لوسيل أن تغرس ذلك في صميم الفؤاد كي تحتقر ذلك الانتعاش الداخلي الحاصل من اطناب جمهور الناس بك. فكثيرون يعتبرونك. فليقتضي عليك إذاً بدون أن تجعل لذاتك بذلك منة وتفتكر بكونك كاملاً أن تستخدم كل ذلك لزيادة اصلاح واتقان داخلك.

الرسالة الثامنة

في وجوب عدم البطالة في الاعتزال
وإن الرزق الحاصل بالصدفة
ليس للانسان فضل به

إنك تقول لي بأني نصحتك أن تتجنب الاجتماعات وتعتزل وتكتفي بشهادة ضميرك وتسألني ماذا حدث لمبادئنا التي توصينا خصوصاً أن نموت ونحن بالحركة. ليت شعري أتظن بأني دائماً مستكن قعوداً؟ فإني لم أعتزل وأحتجب إلاَّ لأكون ذا نفع لكل العالم فلا يمضي يوم إلاَّ وأشتغل فيه وقد ضحيت حصة من الليل للدروس ولا أدع قط عيني الثقيلتين من السهر أن تترك المطالعة فلا أنام إلاَّ عندما لا يمكني الامتناع عن النوم. فقد اعتزلت ليس فقط عن الناس بل عن الأشغال والمصالح وخاصة التي تخصني. فإني أشتغل لأجل الذرية محرراً أموراً لمنفعتها وفائدتها. ناقشاً مرسخاً على الورق نصائحاً سليمة كما يفيد عليها شرح تركيب العلاجات المفيدة وقد عرفت منفعتها حينما استخدمتها لأجل مرضي الذي وإن كنت لم أشفى منه بالكلية فأقله لم يزد. فإني أهدي الناس إلى الطريق المستقيم الذي عرفته مؤخراً وقد عييت بالجد عليه من مكان إلى آخر. فأصرخ بأعلى صوتي وأنادي ها، فابتعدوا عن كل ما يكرمه الشعب وعن كل ما تمنحه الصدفة ولا تأمنوا لعطايا الزمن لأنه هكذا يغش السمك والحيوانات بحلاوة الطعم. أتظن بأن تلك العطايا هي عطايا الحظ والبخت؟ لا، لا، إنما هي فخوخ ومن أراد أن يعيش بأمن عليه أن يتجنب بقدر استطاعته تلك النعم الغرورة لأنه بظننا أننا نمتلكها نجدها تمتلكنا. فإن هذا الطريق يؤدي إلى هاوية عظيمة. وأعظم حياة تنتهي غالباً بسقوط مهول ومرعب. على أنه لا يمكن للمرء التوقف عندما الحظ يأخذ بيده. فأثبت أو اعتزل لأن بذلك لا يمكن للزمن أن يهورك ولو اهتزك.

فاحتفظ على هذا المبدأ بما يخص المعيشة النافع جداً وأعطي لجسدك ما يكفيه للصحة فقط. ومن الواجب أن يعامل قليلاً بعدم الرفاهية حذراً من أن لا يكون طائعاً كما يجب العقل. فلا تأكل إلاَّ لتسكن الجوع ولا تشرب إلاَّ لتطفي الظمأ ولا تقصد بثوبك إلاَّ الاحتماء من البرد ولا بمسكنك إلاَّ الإتقاء من ضرر الفصول. فإنه على حد سوي إن كان بيتك مبنياً من الحشيش اليابس أو من الرخام.

وغطاء القش يكفي للانسان كالمنسوجات الحرايرية المذهبة، إذ إنه لا يلزم استخدام المحسنات الزائدة. فتأمل أن لا شيء فيك عظيم كعقلك الذي لعظمه يرى كل شيء صغيراً لديه. فإن كنت أحدِّث نفسي بهذه التأملات تاركاً إياها لمن يخلف أفيا تظن بأني بذلك انتج أثماراً أعظم من أن آخذ في محاماة دعوة ما، أوضع امضائي في وصية ما، أو أسعف بكلامي أو بيدي صديقاً لي يزاحم في ديوان الدولة على طلب وظيفة ما. فتأكد إن الذين يظنون بأنفسهم أنهم لا يضيعون شيئاً هم الذين أحياناً يضيعون الأشياء العظيمة فإنهم يتعاطون بوقت واحد ما يخص الآلهة والبشر.

فيجب أن أختم رسالتي هذه وأدفع لك عنها مالي عادة به وذلك لا يكون من مالي فلننظر لأبيقور وقد اقتطفت منه عبارة بمطالعتي تأليفه هذا النهار فيقول: «إن من الواجب خدمة الحكمة للتمتع بالحرية الحقيقية». نعم، فإن الحكمة لا تتأخر عن إطلاق حريتنا ولا تحاول من يوم لأخر الذين حصلوا على اجتناء نعمتها.

ولربما تسألني: لماذا أرد لك عدة شواهد من أبيقور لا من جماعتنا؟ فأجيب: لماذا تظن أقوال أبيقور ليست هي عمومية؟ فكم من الشعراء أبدت أشياء قيلت أو ستقال من الفلاسفة. فلا أتكلم عن الشعراء الذين دأبهم نظم الشعر المحزن ولا عن بعض الروايات الرومانية المتوسطة بين المضحكة والمحزنة. ولكن كم يجد من الأشعار الجميلة البديعة في أفواه المهرجين، وكم من الأقوال الجيدة التي قد ألفها بوبليوس تستحق أن تتلى وتنشد، ليس على أراذل الناس بل بالأولى على الأعيان الأماجد. فأرغب أن أذكر لك بيتاً من شعره المتعلق بالحكمة وبالموضوع الذي نحن فيه فيقول: إن الأشياء التي تعرض صدفة لا يجب أن تعد لنا:

لا فضل للانسان فيها حصَّلا   إذ عرضاً كان له قد حصلا

وقد طرق عليَّ الآن بيتاً أوجز وأجمل سمعته منك وهو:

المال إن جاء إلينا عرضاً   لا نحسبنَّ قد أصبنا الغرضا

وأذكر أيضاً بيتاً آخر بذات هذه القوة قد سمعته منك أيضاً:

وكل ما الانسان قد أعطاهُ   يسلبهُ طوراً كما جناهُ

إن ذكري لذلك ليس هو أن أدفع لك من مالك، والسلام.

الرسالة التاسعة

في أن من المستحسن أن الحكيم مع كفاءته بذاته يأخذ صديقاً وعدم التأسف الكلي عند فقدانه

[المجموعة الخامسة من أعمال السنة الثانية. ص ٢١١ - ٢٢٣].

لقد أظهرت الرغبة أن تعلم هل أبيقور مصيب في لومه بإحدى رسالاته الذين يقولون إن الحكيم هو مكتفٍ بنفسه ولذلك لا حاجة له للاصدقاء. فهذا ما يعترض به أبيقور على ستيلبون[1] وعلى كل الذين يعتبرون ان السعادة العظمى قائمة بعدم التألم والتأثر. وإن أردنا بالتدقيق تفسير كلمة آباثيا اليونانية بقلة الصبر نقع في الالتباس لأنه يفهم حينئذٍ خلاف ما نريد. ولو أردنا أن نعني بها من لا يصاب بأدنى ضرر لاشبهت أن تكون بمن لا احتمال له على الضرر. فانظر أن حسن تعبيرها بالأولى

بنفس محجبة أو بنفس سامية على كل احتمال وألم ـ وها، الفرق الكائن بين أولئك الفلاسفة ونحن ـ فإن الحكيم عندنا يتغلب بالحقيقة على كل أنواع المشقات ولكنه يشعر بها. والحكيم عندهم لا يشعر بها. وإن ما وجد مشاعاً بيننا هو أن الحكيم يجد كل شيء بذاته ويسرُّ أن يكون له صديق أو جار أو رفيق. فاعتبر انه يجب على الحكيم الاكتفاء بذاته إذ إنه مكتف بقسم من ذاته. وإن فقد يده في مرض أو حرب أو خسر عينه لغضب ما يسر دائماً بما بقي له على أنه يسرُّ أيضاً بجسم مهشم وسقط ككونه بجسم كامل وسليم. فلا يتمنى ما ينقصه ولكنه يود أن لا ينقصه شيء. إن الحكيم إذاً يكتفي بذاته لا لكونه يود أن يكون بدون أصدقاء إذ يكفيه أن يمكنه ذلك. بل أعني أنه يحتمل بدون تأثير فقد الصديق إذ لا يكون قط بدون صديق حال كونه يمكنه حالاً تعويض ما فقد. فلو فرضنا مثلاً أن فيدياس[٤٢] المشهور فقد تمثالاً لأمكنه حالاً أن يصنع غيره ويعوضه. وهكذا أيضاً إن من له قدرة على اتخاذ أصدقاء يمكنه بسهولة تعويض صديق بآخر فقده. ولربما يتعسر عليك أن تفهم كيف يمكنه ذلك حالاً فأوضح لك أن توافقنا بأنه يفي بالحاضر ما لك عليَّ لهذه الرسالة.

إن هيكاتون يقول: «إني أعلمك بسر بسيط لا سحري ولا سيماوي كي تحب. أحبب إن أردت أن تحب». فإن من أعظم السرور اكتساب صداقات جديدة والتمتع بالقديمة. والفرق بينها بالمناسبة إلى الفرق الكائن بين فلاحين أحدهما يبدر والآخر يحصد. والفيلسوف أتالوس[٤٣] كان يخبر أحياناً: «إن السرور في حال اتخاذ الصديق هو أعظم من بعد اتخاذه. كما أن للمصور سرور في وقت رسمه الصورة أعظم من بعد نهايتها». لأن هذه الرغبة التي للمصور في صنعته تسره في شغله ولكن بعد انتهاء الصنعة يتمتع بأثمار فنه مع أنه كان يتمتع بالفن ذاته عندما كان آخذاً بالشغل.

إن البنين يسعفون عند كبرهم ولكنهم يؤثرون مدة حداثتهم سروراً أعظم. فلنرجع الآن إلى موضوعنا.

إن الحكيم وإن يكن مكتفياً بذاته يسر مع ذلك أن يكون له صديق وإن لم يكن ذلك إلَّا لممارسة الصداقة وعدم اهمال فضيلة عظيمة كهذه. ولكن ذلك لا يكون للسبب الذي تكلم عنه أبيقور في رسالته. «ليكون بجانبه صديق كما يدعى عند عروض مرض عليه أو ليسعفه ويعينه في الأسر والفقر». لا بل أن يكون له شخص يمكنه تعزيته في المرض وتخليصه من رق الأسر. لأن من راعي صالحه الذاتي عند عقد صداقة ما لا يفعل شيئاً صالحاً. فينتهي الأمر كما ابتدأ. فإن اتخذ أحد صديقاً لكي يعان منه في الأسر. فينجح بنفسه حالاً إن أدرك سمعه قعقعة السلاسل. فهذه المحبة يسميها الشعب محبة وقتية. لأن الصديق المتخذ لصالح ما يسرُّ طالما كان لازماً. وعلى ذلك نجد دائماً جملة أصدقاء يزدحمون بقرب الذوات الكائنين في حالة السعد والاقبال وبالعكس خلوة تامة ومستغربة حول من قد أدركتهم تقلبات الزمان المتعسرة. ولذا نرى أن الأصدقاء يعتزلون مهاجرين حينما يحل ما يستلزم تحقيق صدق وخلوص مودتهم. إذ نرى أيضاً عدة أمثلة سيئة عن أشخاص تترك أصدقائهم لخوف ما أو تخونهم دناوة.

ومن ثم لا بد لنهاية كل أمر من تعلق ومناسبة مع بدايته لأن من جعل ذاته صديقاً ليكون ذلك مربحاً له لا يرفض ما ينجم له من الصالح والربح مع ما كان من المخل لحقوق الصداقة إن فضل ذلك عليها. فلماذا اتخذ صديقاً؟ إني اتخذه لأموت لأجله. لأرافقه في منفاه. ولأحاميه عن الموت. حتى على حياتي. فإن تلك الصداقة التي أُخبر عنها ليس هي إلَّا كمتجر ذميم يلاحظ بها المنافع الذاتية والربح الذي ينتج منها.

وبلا شك ان بالمحبة ما يشبه الصداقة إذ يمكنك تسميتها صداقة شديدة. أيوجد أحد يحب لربح أو لطمع أو لمجد. إن المحبة تلك الملكة التي من ذاتها أن تزدري بكل شيء آخر تدع النفس بطلب

الجمال لا لسبب آخر إلاّ أملاً أن تحب منه. وما عساه أن يكون؟ أهل علة أعظم من ذلك تولّد علاقة ودية قبيحة؟ فلا يعنينا أن نعرف تقول لي الآن أن كان يُطلب اقتباس الصداقة لذاتها أو لعلة أخرى لأنها إن طلبت لذاتها فيكمن لمن يجد الاكتفاء بذاته التقرب منها كمن الشيء الجميل والجيد وبدون أمل الربح والنفع وخشية تقلب الزمن. وبالعكس ان من طلب الصداقة لاستخدامها وقت الاحتياج فقد أذل مقدارها.

إن أناساً عديدة يا عزيزي لوسيل لا يفهمون حقيقة هذه الكلمات وهي: الحكيم يكتفي بذاته. فإنهم يعذلونه عن كل الأشياء ويخلونه في جلده. والحال من المقتضى أن نعتبر هذه الكلمات وندقق على حقيقتها وجوهرها. إن الحكيم يكتفي بذاته لا ليعيش فقط بل ليعيش سعيداً. فإنه يحتاج للمعيشة لأمور عديدة وأما لا حاجة له للمعيشة بالسعادة إلاّ لعقل ثابت منتظم يحتقر عطايا الزمن الغرورة وعلى ذلك أذكر لك أيضاً ما أورده كريزب[٤٤] بهذا الصدد فيقول: «إن الحكيم لا ينقصه شيء ومع ذلك يحتاج أشياء عديدة. وبالعكس الجاهل لا حاجة له بشيء إذ لا يقدر على استخدام شيء فينقصه كل شيء». فالحكيم وإن احتاج أيادي وأعين وغير أشياء ضرورية لخدمتنا إلاّ انه لا ينقصه شي. لأن كلمة ينقص تحتمل أيضاً الاحتياج. وعلى ذلك لا يوجد شيء احتياجي للحكيم. فإني استنتج من كلما تقدم ان الحكيم هو مكتف بذاته ولكنه يحتاج بالوقت ذاته لأصدقاء حتى أنه يود أن يكون له عدد وافر. فلا يكون ذلك ليعيش سعيداً إذ يمكنه بدونهم. فإن السعادة العظمى لا تستنجد بالغير بل هي قائمة بذاتها وصادرة عن ذاتها لأنها إن صدرت عن غيرها ومهما كانت فتكون خاضعة لأحوال الزمن.

وإن أردت تعلم كيف تكون حياة الحكيم إن وُجد مهاجراً أو بدون أصدقاء أو في سجن ظلوم أو بين أمم غريبة أو كان موقوفاً عن سفر طويل المسافة أو ملقىً على شاطىء قفر فتكون حياته مشابهة لحياة الإله جوبيتر العظيم الذي عندما العالم والآلهة ترجع للعدم والطبيعة توقف حركتها لوقت ما يجد مسرته في أفكاره. فهذا تقريباً ما يفعله الحكيم فإنه يعتزل بذاته لذاته وهو مسرور بذاته طالما يُسمح له بإدارة أعماله على خاطره. ولا حاجة له إذ ذاك بأحد. فيتزوج ويولد له أولاد حال كونه يمكنه ان يعيش مكتفياً من ذلك. على انه لو كان محكوماً عليه أن يعيش على حدة على الاطلاق لفضل أن لا يعيش. وقد يرتبط الحكيم بالصداقة لميل خاص وبدون أدنى تطلّب للنفع وللربح. لأن بالمحبة ما يلذ ذوقنا وميلنا كغير اشياء. فإننا نحب المعاشرة كما نكره الوحدة والانفراد فإن ذات ذاك الميل الطبيعي الذي يستعطف الانسان للآخر يهديه ويرشده إلى اتخاذ أصدقاء ومع ذلك ولو أحب الحكيم أصدقاءه وفضلهم مراراً على ذاته فيجد دائماً سروره بذاته.

فيقول كما قال ستيلبون الذي يستهزيء به أبيقور في احدى رسالاته. فإن هذا الفيلسوف بعد افتتاح بلدته من العدو وعدمه حرمته وأولاده نجا من الحريق العمومي بنفسه ومع ذلك مسروراً. فسأله ديمتريوس بوليورسيت[٤٥] إذا لم يكن خسر شيئاً. فأجابه قائلاً: «إن كل مالي بصحبتي». فيا للرجل القوي والعظيم. فلقد تغلب على انتصار عدوه. لأن بقوله له: «لم أخسر شيئاً»، قد شككه بانتصاره عليه. وقد عني بقوله: «كل مالي بصحبتي» عن العدالة والفضيلة والحكمة والاستقامة والعفة وذلك الاعتقاد السامي أخيراً بعدم اعتبار رزق كلما يمكن أخذه ونشله.

فإننا نعجب أحياناً من بعض الحيوانات التي تمر في النار بدون أن تمس. فكم بالحري إذاً يستحق التعجب ذلك الرجل الذي خلص من الصوارم والنهب والنار بدون أن يخسر شيئاً. فإنك على هذا

تنظر كيف يسهل قهر شعب على العموم أكثر من رجل واحد. والحكيم الاسطواني يتكلم هكذا أيضاً كما يتكلم ستيلبون وكمثله يحمل بنفسه بين المدن المندثرة بالنار جميع ما يملكه. إذ انه باكتفائه بذاته يقيم بذلك سعادته التامة.

فلا تظن بإننا نطقنا وحدنا فقط بأقوال بديعة كهذه. فإن أبيقور نفسه الذي يعترض على ستيلبون تفوّه بأقاويل مثلها يجب عليك ان حسنت اعتبارها. فأردها لك وإن كنت أتممت ما لك عليَّ ليومنا هذا. فيقول: «إن من لا يجد رزقه متسعاً فهو شقي ولو ملك الأرض بتمامها». أو إن أحببت (لأن من الواجب ملاحظة المعنى لا الكلمات) «أن من لا يظن نفسه سعيداً فهو شقي ولو ملك العالم أجمع».

ولكي تعلم بأن هذه الحاسيات هي عمومية متسلطة من الطبيعة على أجناس البشر قاطبة تجد بيتاً قاله بهذا المعنى شاعر مضحك وهو:

ليس السعيدُ سوى من ظلَّ مفتكراً بالسعد فالمرءُ في فكرٍ سعادته

لأنه مهما كانت مهنتك فلا تنفع إن لم تكن مرتضياً. وما عساه أن يكون على زعمك إن كان هذا الغني الدنس أو ذاك من ملك خدماً وحشماً وكان له عدة أسياد يدعيان بأنهما سعيدان، أفهما سعيدان لذلك؟ فيقتضي ملاحظة ليس ما يقولانه بل ما يفتكران به ليس ما يفتكران به يوماً بل ما يفتكران به مطلقاً. فلا تخشى ان فضيلة عظيمة كهذه تقع بين أيدي أشخاص لا يستحقونها. فليس إلاَّ الحكيم الذي يكتفي ويسر بنفسه وكل الجاهلين يزهدون من أنفسهم.

الرسالة العاشرة

في أن الوحدة من اختصاصات الحكيم وفي الكيفية التي تقتضيها مخاطبة الإله والعيشة مع الناس وفي أنه يقتضي على الانسان أن يتصور شاهداً صالحاً مشاهداً جميع أفعاله.

نعم، فإني لا أنقض ما قلت. تجنب المجالس الكبيرة وتجنب أيضاً المجالس الصغيرة حتى ومعاشرة رجل واحد. لأني لا أرى أحداً يمكنك محادثته. فاعتبر إذاً غاية مقصدي هذا وفي أي مقام أقمتك. فأحبُّ أن أتركك على استعدادك. وقد قيل عن كراتيس[٦٦] الذي كان تلميذاً لستيلبون وقد سبق مني الكلام عنه أنه نظر يوماً شاباً يتمشى على حدة. فسأله ماذا كان يفعل وحده، فأجابه الشاب قائلاً: «إني أحادث ذاتي»، فقال له كراتيس إذ ذلك: «فاحترز أن لا تكون برفقة سيئة».

وقد يجالس أحياناً شخص محزون أو من كان بانتظار حدوث أمر مكدر. ومن الواجب أن يلاحظ عدم تخلية عقل خفيف على حاله وأهوائه. خشية من سوء التصرف في الوحدة فإنه إذ ذاك يتجرد إلى الأفكار السيئة ويبني المقاصد الرديئة المضرة بحقه وحق غيره. فإنه يحرك حينئذٍ شهواته للمصادمة. ويبرز منها ما كان يمنعه الخوف والحياء عن إظهارها. وأخيراً تتشدد مجازمته. ويتهيج طمعه. ويشتعل غضبه وحمقه. وبذلك يتمتع بمنفعة الوحدة الوحيدة أن لا يأتمن بأحد على اطلاعه سريرته وأن لا يخشى من مراقب إذ إنه لا يكتشف ولا يفتضح إلاَّ لنفسه.

فاعتبر إذاً أيما رجاء أرجوه منك بل ما الذي أعد نفسي به من نحوك. (لأن الرجاء يقال عن أمر غير محقق) فإني لا أجد من أفضل لك معاشرته إلاَّ نفسك. وقد أراجع ذاتي بتلك الأقوال التي تكلمت بها بقوة ونباهة ذكيتين وبذلك أسرُّ. فأقول إنه لم يكن ينطق حينئذٍ بتلك الأقوال من الشفتين بل من صميم الفؤاد. فإن هذا الرجل ليس هو من العامة ولكنه من يعتني بما هو صالح.

فـتـكـلـم وعش دائـماً هـكـذا وكـن مـن لا شيء يـذلّ قـلبـه

ومتى شكرت الآلهة على توفيق ونجاح صلاتك فلا تخشى أن تتعبهم بغيرها. فصل أيضاً كذلك واطلب منهم الهدى وصحة العقل والجسد. فما الذي يؤخرك عن فعل هذه الصلاة مراراً. لأنه يمكنك أن تطلب بجسارة من الإله إن لم تكن تطلب منه شيئاً مما هو خاص الغير.

فاصحب أخيراً كالعادة رسالتي هذه بهدية صغيرة. فأذكر لك ما قرأته في تأليف اثينودوروس[٤٧] فيقول: «حقق بأنك تتخلص من كل طمع عندما ترى أن لا تطلب من الإله ما لا يمكنك طلبه جهاراً». ولكن ما أجهل الناس بهذه الأيام، فإنهم يصلون إلى الإله صلاة خزية ولذلك يصلونها همساً وان صغى أحد إليهم فيصمتون حالاً. على انهم يخاطبون الإله ما لا يريدون أن يقولوه لانسان. وأما أنت فاستتسر إذاً بحالة لا يقال لك فيها: عش مع الناس كأن الإله ينظرك وصلّ للإله كأن الناس تسمعك.

الرسالة الحادية عشر

في أن اصلاح العيوب الطبيعية لا يحصل بالتصنع وان الناس جميعاً حتى الذوات قابلون الخجل

[المجموعة السادسة من أعمال السنة الثانية، ص ٢٥٤ - ٢٦٢].

قد تحادثت وصديقك فظهر لي أنه جيد الطوية. فإنني من خطابه الأول قد علمت جودة قلبه وعقله وأهليته ومع أنه تكلم معي بديها وبدون أدنى استعداد أظهر لي نموذجاً عما يمكن أن يكون يوماً. فبعد ما استقر واستكن كاد يتخلص من ذلك الاحمرار الذي كان قد علا وجهه إذ كان عظيماً. وعلى كل إن ذلك الأحمرار علامة جيدة في الشاب والتي كما أظن يمكن ثبوتها به حتى وبعد اصطلاحه من جميع العيوب الجسدية والعقلية الطبيعية. فإن بالتصنع يمكن تنقيص تلك العيوب وليس إعدامها. إن أناساً أقوياء العزم والثبات لا يمكنهم التكلم بين الجمهور بدون أن يكللهم العرق حالاً كأنهم أعياء وبغاية الحدة. ومنهم من ترتعد وترتجف ركبهم. ومنهم من تتصادم أسنانهم وتلكن وترتت ألسنتهم وترتبك شفاههم. فالتخلص من كل ذلك لا يمكن بالعادة ولا بالتصنع لأن الطبيعة تثبت بذلك قوتها وتظهر إلى أعظم الأقوياء ما بهم من أضعف الضعف إذ ان الأحمرار يعد منها. فهي أيضاً تتسلط على ذوي السلطة.

نعم، إن هذا الضعف يظهر بزيادة في الشبان لحدة دمهم ولرقة بشرتهم ولكنهم لا يخلو أن يطرق على الكهول فإن منهم من لا يخشى منهم بزيادة إلاّ عندما يحمرون فكأنهم يطردون عنهم كل خجل وحياء فإن سيلا[٤٨] كان ظلوماً ومعتسفاً جداً عندما كان الدم يصعد لوجهه ولم يكن وجه قابل التأثر كوجه بومبيوس فإنه كان يحمر مراراً في الاجتماعات الخصوصية ومراراً في الاجتماعات العمومية فإني أتذكر أيضاً بأن فابيانوس[٤٩] احمّر عندما أحضر إلى مجلس الدولة كشاهد وهذا الحياء وجد أدباً عظيماً إذ إن ذلك حصل له ليس من ضعف العقل ولكن نظراً لحداثة الموضوع الذي أحياناً بدون أن يورث حيرة وارتباكاً يجعل الانسان أن يتأثر حال كون الطبيعة قابلة لذلك. لأن من الناس ذوو دم معتدل ومنهم ذوو دم حار وخارق يصعد حالاً للوجه.

فإن الحكمة كما قدمت لا يمكنها منع كل ذلك ماذا وإلاّ تكون متسلطة وسيدة على الطبيعة. وإن

ما يأتي من الولادة أو من الطبيعة يثبت حتى وبعد اجتهاد العقل الكلي في التقويم والاصطلاح إذ إن نفي ذلك أم جلبه غير ممكن. فإن المشخصين الذين يتظاهرون بجميع الشهوات ويشخصون بسهولة حاسيات الخوف والحزن يستخدمون الإشارات الآتية لاظهار الخجل والحياء فإنهم يجثون رؤوسهم إلى الأرض ويضعفون نطقهم ويحدقون نظرهم بالأرض ومع ذلك لا يمكنهم أن يحمروا إذ لا يمكن استجلابه ولا منعه فلا نؤمل بالحكمة فهي لا تستطيع شيئاً ضد مصائب كهذه فهي حرة وقائمة من ذاتها تحضر وتغيب على هواها.

فقد آن الوقت أن أختم رسالتي هذه إلاَّ إنني أرغب أن تكون لك صالحة ومفيدة وتحفظ في صميم فؤادك فمن الواجب أن تعتمد رجلًا صالحاً متشخصة أمام الأعين لتجري حقوق المعيشة كأنه حاضر وتجري جميع الأعمال كأنه مشاهد فهذا ما أوصى به أبيقور يا عزيزي لوسيل وبكل حكمة قد أعطانا هذا المرشد وهذا الملاحظ لأنه لو علم أحد أن شاهداً يشاهده لما فعل قط أفعالاً سيئة وذميمة.

وإن من الأمور الحسنة أن العقل يتصور شخصاً مكرماً ومعتبراً كي أن سلطة أو اعتبار ذلك الشخص يؤثر صلاحاً على سره وعلى أفكاره. فما أعظم ذلك من نظره وذكره يوقف صدور رذيلة وسيئة الغير. وما أعظم أيضاً ذلك الذي يعتبر شخصاً هكذا حتى انه عند تذكاره لا يتعدى الواجبات بل يلازمها. فإن من استخدم هذا الوقار يستحق من قريب أن يكرم ويوقر أيضاً فاتخذ لنفسك كاتون وان ظننته زاهداً صارماً فعوضه بليليوس(٥) الأرق عقل والنتيجة انتخب من حياته وخطبه اعجبتك بزيادة عن خلافها وتشخص عقله ووجهه واجعله أمامك في كل حين سواء كان كمشير أو مثال وإني أكرر القول بأننا نحتاج شخصاً يمكننا بالاقتداء به أن نصلح ونهذب خصائلنا وعوائدنا لأنه بدون قاعدة لا يمكنك اصلاح ما ليس هو مستقيم.

الرسالة الثانية عشر
في فوائد الكهل وإن الانسان يقتضى عليه في كل ساعة أن يتهيىء للموت

وكيفما أملت نظري أجد شواهد وبراهين تدل وتصرح عن كبر سني وكنت حضرت إلى مسكني في البرية وشكوت من المصاريف التي صرفت لتصليح مسكن قديم فأجابني البواب أن ذلك لم ينتج من تهامل أو تغاضٍ إذ كان البيت قديماً وحال كوني بنفسي بنيته فما يحدث لي إذاً إن كانت تلك الحجارة التي من عمري قد عطلت فزعلت جداً واغتظت من البواب وانتهزت أول فرصة وجدتها للتوبيخ فانتهرته قائلاً: إنني أشاهد جيداً عدم الاعتناء الكائن لهذه الدُلب ولم يكن لها أوراق بل مشحونة بالعقد وعروقها ملتوية فانظر ان كعب الشجرة مسوّد وبشع إذ إنه لو نكش وسقي ماء لما كان بتلك الحالة. فأخذ البواب يؤكد لي بأنه كان يصنع كل شيء لازم ولم يترك ولا واسطة ولكن الشجرات قد شاخت حال كوني كنت ذرعتها بنفسي ونظرت أول ورقة منها فاكتم ذلك بيننا. ثم نظرت إلى الباب وقلت له: «من هو ذلك الشيخ الهرم حسناً فعلت بوضعه على الباب فسأخرجه حالاً خارجاً فأين وجدت هذا الرجل وكيف يحلو لك ان تحضر لهنا رجلاً غريباً قد قارب الموت». فأجابني ذلك الرجل قائلاً: «ألا تعرفني اني ابن فيلوذيستس مستخدمك المحصل؟ أنا هو فليشيو (سعيد) عزيزك القديم الذي كنت

تحضر له تلك الصور الصغيرة». فقلت: «إن هذا الرجل خرفان. فأي دليل يظهر كونه ذلك العزيز فإن اسنانه قد وقعت». وأخيراً إن عليَّ لبيتي المنة بأنه قد أظهر لي حيثما كان أدلة عن شيخوختي.

ولكن من الواجب أن تعزّ تلك الشيخوخة الغنية بالمسرة لمن عرف استخدامها جيداً. إن حسن التفاح عند انتهائه، وجمال الحداثة يظهر عند آخره، وان من أحب الخمر يلتذ جداً بآخر قدح يشربه إذ ان ذلك القدح يخوض به في لجة السكر، وان أذكى وأفخر ما كان في لذات الانسان يوجد في آخرها. فإن السن المتقدم والغير كهل مسرٌ جداً وأظن أيضاً أن من وصل لغاية الانتهاء يملك أيضاً مسرات حال كون لذته هي أن لا حاجة له بها. فما أحسن التخلص من تلك الحركات الشديدة وإن اعترضتني بأنه يصعب جداً تصور الموت أمام الأعين. أفليس إن الشبان كالشيوخ يوجدون بهذه الحالة لأننا لا ندعي للموت بالدور.

وما من شخص أيضاً إلاَّ ويعد نفسه بيوم آخر. فإن يوماً واحداً درجة في الحياة المركبة من عدة أقسام والمحتوية على دوائر مختلفة محتاطة الصغرى بالكبرى. ومنها دائرة مشتملة على خلافها ومحتاطة بها. وهي تمتد من يوم الولادة إلى يوم الموت. ومنها دائرة تحدد الحداثة ومنها تحتوي على الشبوبية. ثم السنة المحتوية على كل أوقات التعداد المؤلفة منها الحياة. فإن دائرة الشهر هي أضيق ودائرة اليوم أضيق منها بزيادة ولكنها تتعلق وتتصل من البداية إلى النهاية ومن المشرق إلى المغرب. ولذلك إن هرقليطس[٥١] المسمى المظلم لابهام خطاباته يقول: «إن يوماً واحداً يشبه الأيام الأخر». ولقد فسروا ذلك بالخلاف فمنهم من يقول بأن المشابهة إنما هي بالساعات. فلا يغلطون لأنه أن كان اليوم مركب من أربعة وعشرين ساعة من الواجب أن الأيام الأخر تكون كذلك إذ ان الليل يكسب ما يخسره النهار. وآخرون يقولون إن اليوم يشبه كل الزمان. نعم، لأنه لا تجد شيئاً في مدة طويلة ما لا تجده في يوم واحد، أعني الضياء والظلام وتقلبات الزمن الاختيارية. وإن ذلك يعرف بزيادة في الليل لكونه تارة طويلاً وتارة قصيراً ولهذا يقتضى معرفة التصرف يومياً كأنه جمع الأيام الأخر وأخذ نتيجة من حياتنا. إن باكوبوليس[٥٢] ذلك الذي كان يتصرف بسوريا كالتصرف بثروته كان يدفن يومياً فإنه غب أن يغوص بالخمر في وليمة يصنعها مقدمة لجنازته كان يحمل لمخدع وبين بكاء وانتحاب جمهور من أولاد الخنا كان يُنادى مرتلين: قد عاش. قد عاش». فإن ما كان يفعله فجوراً فلنفعله حكمة ولنقل بسرور عندما ندخل الفراش:

إني اكتشفت من السنين سرائرا لما جددت بها كما شاء القدر

وإن أعطانا الإله الغد فلنقتبله بفرح. فسعيد هو ذاك من ينتظر الغد بدون قلق واضطراب فإنه يتمتع بالحياة وإن من قال: «قد عشت» ينتفع من اليوم الآتي بعده.

ولقد حان الوقت أن أختم رسالتي وإن قلت أَلا تصحبها بفاكهة فأجيبك اطمئن بالاً فإنها قد أصحبت لك شيئاً وما عسى أقول؟ فإنها تصحب أشياء عديدة لأنه ماذا يوجد أعظم من هذا القول الذي أصحبت به لك رسالتي: «إن المعيشة بالحاجة ضرر عظيم ولكن لا حاجة للمعيشة بالحاجة» ولماذا لا يكون قط؟ فإنه يوجد حيث كان طرائق سهلة ووجيزة مفتوحة للحرية ولنحمد الإله بما أنه لا يمسك أحد قط في العالم حال كونه يسمح بمصادمة ومعاركة الحاجة. فتقول لي: «إن أبيقور قال ذلك ولماذا تأخذ ما للغير». فأجيب بأن لي حق على جميع الحقائق وأدوام على أن أروي لك أبيقور لكي أن الجماعة الذين لا يعتبرون ما قيل بل ما قاله فقط يعرفون بأن ما هو صالح هو عمومي للعالم أجمع.

الرسـالة الثـالثة عشـر
في أنه يمكن للانسان معرفة قواه قبل أن يجرب من الدهر وان غالب حدوث العلة توهّم

إنني عالم بعظم شجاعتك إذ إنني قبل أن أجعل لك نصائحاً سليمة لتتغلب على الضيقة والشدائد قد أعددت نفسك ضد حوادث الزمن حال كونك يقتضي عليك أن تعد الآن نفسك بزيادة لمكافحتك للزمن وتجربتك قواك التي لا تتحقق إلّا بعد انتصاب الصعوبات الشتى وقرب الخطر. فهكذا تجرِب شجاعة حقيقية لا تنهزم لقدرة الغير. إن مصارعاً لا يقدم بعزم على المكافحة إن لم يكن انتصر يوماً وما ذلك إلّا من هرق دمه وكسرت أسنانه أو من ألقي على الأرض وقدر على ضبط خصمه على صدره غير ميئوس وينهض بحرارة زائدة عائداً للمكافحة ومتسربلاً برجاء الغلبة.

[الـهـوامـش]

تابـع الفهـرس التاريخـي

[المجموعة السابعة من أعمال السنة الأولى. ص ٢٠٣ - ٢١٠].

الشعوب وقع فيها بينه وبين بيزون والي سورية وعزيز الملك خصام ومقاومة وكان جرمانيكوس محبوباً ومكرماً عند الجميع لما اتصف به من الشيم والكرم والمروءة والعدالة وقد توفي بمرضٍ شديد إعتراه في سن الأربع وثلاثين من عمره (سنة ١٩ من المسيح) وقد شهد وهو في حالة النزاع بأنه مسموماً مستنجداً بأصدقائه لأخذ ثأره. فحملت أكريبينا زوجته رماد جسد زوجها إلى ايطاليا ودفنته هنالك ثم قدمت الشكوى على بيزون الوالي المذكور المتهوم بسم جرمانيكوس والذي حدراً من العذاب أهلك نفسه.

(٨) إن أكريبينا كانت زوجة جرمانيكوس وقد تزوجت ثانياً بالملك كلوديوس واتهمت انها قد عجلت مماته لتولية إبنها نيرون المحتضن منه ولما استلم نيرون زمام الحكومة الرومانية عمل على اهلاك والدته أكريبينا التي كانت مضادة له في مقاصده فأركبها احدى السفائن قاصداً إغراقها فنجت ثم أمر أحد العبيد المعتوقة أن يتولى إهلاكها فأسقاها كأس المنون سنة ٥٩ ب. م. وكانت أكريبينا الملكة مع ما اتصفت به من ذكاء العقل والجمال متوغلة جداً في الظلم والفجور.

(٩) وُلد نيرون ابن إكريبينا من زوجها الأول سنة ٣٧ ب. م. ولما تزوجت أمه ثانياً بالملك كلوديوس احتضن منه وعملت والدته على توليته سدة الحكومة الرومانية بإبعاد الأمير بريتانيكوس ابن كلوديوس الوريث الشرعي فنجحت وتولى ابنها نيرون على الرومانيين سنة ٥٤ وتزوج بأوكتلويا ابنة كلوديوس فكان سينكا وبوروس مرشديه واستاذيه. وقد أظهر هذا الملك في ابتداء حكومته محبة الصلح والاستقامة لكن ما انعكس حاله وانعكف للمظالم فصار ظالماً معتداً بذاته وفاجراً وأبعد عنه والدته أكريبينا وسمّ بريتانيكوس الذي كانت والدته تهدده به أن توليه على الحكومة مكانه ثم عمد على أهلاكها وطلق بعده الملكة اوكتلويا وأمر بقتلها وتزوج بوبه فماتت وقد ضربها برجله ضربة أليمة وكان الملك شغف بها قبل زواجها وقد أدته على إعدام والدته اكريبينا وامرأته الأولى اوكتلويا.

وكان فجور وظلم نيرون مفرطان حتى انه أحدث في رومية حريقة مريعة ونسب ذلك للمسيحيين فأمر بعذابهم فذاقوا منه العذابات والاضطهادات الأليمة ولما حصل بذلك الاثناء مؤامرة سرية عليه أمر بإعدام استاذيه بوروس وسينكا. فاجتاب نيرون اثمه من جراء ظلمه وفواحشه البغضة العمومية وصار ممقوتاً ومكروهاً من الجميع فنهضت الشعوب ضده وتآمرت عليه وأشهر اسمه مجلس الدولة كعدو للجمهور فهرب حينئذٍ نيرون خائفاً مرتعباً هائماً في البراري والقفار. فقصد اعدام ذاته. فلم يجسر فعنفه ايبوفرودينوس كاتم أسراره الذي كان معه على عدم جسارته هذه وساعده على قطع أيامه. ومع نيرون انقطعت سليلة عائلة القياصرة.

وقد ظهر فيما بعد في أيام الملك ويسبارينوس رجل يدّعي كونه نيرون حاضراً من أقاليم أرمانيا. فأثار اضطراباً وقتياً في الأقاليم الشرقية من المملكة.

(١٠) كان سبوليوس أحد معتبري الشعب الروماني وخصماً لسينكا.
(١١) وكان بريتانيكوس ابن الملك كلوديوس ووريثاً له غير انه لما تزوج أبوه بأكريبينا فقد الملك الذي تولاه نيرون كما تقدم وقد مات مسموماً سنة ٥٥ ب. م. ولم يبتلغ من العمر إلاّ ٥١ سنة.
(١٢) كان جوليوس أحد معتبري الشعب الروماني.
(١٣) إن بوروس كان استاذ ومرشد الملك نيرون مع سينكا وطالما استقامته وصداقته مع ما كان من حسن مشوراته ونصائحه المستقيمة أثرت في أحكام هذا الملك الذي أمر عليه بالاعدام سنة ٦٢ ب. م.
(١٤) وكان جوبتير (المعروف عند الفلكيين بالمشتري) معتقداً به عند اليونانيين والرومانيين إنه الإله العظيم وأبو الآلهة والبشر وكان جـوبتير ابن ساترن (زحل) وسبيلة (الأرض) وكان أبوه ساترن تولى سلطنة الدنيا من أخيه تيتيان بشرط انه كلما ولد له ولد ذكر يفترسه من ساعته وكان لا يربي أولاداً ذكوراً عملاً بهذا الشرط وكانت زوجته دائماً آيسة من بقاء إبن لها حتى ولدت ذات يوم توأمين أحدهما ذكر سمي جـوبتير والثاني إنثى دعيت جونون أو يونون فاظهرت الأنثى وأخفت جوبتيـر حيث وضعته في جزيرة اكريد وقد تربى من حليب عنزة تدعى امالثيا . فلما علم تيتيان بذلك حارب أخاه ساترن فهزمه وأسره وكبله بالحديد وبعد ذلك خلصه ابنه جوبتيـر ولم يكن يبلغ من العمر وقتئذٍ إلاّ سنة واحدة. ثم إن ساترن توهم من ابنه جوبتيـر خوفاً من أن ينزع عنه الملك فحاول على اهلاكه. فنجـا جوبتير وطرد أباه من جبل الأولمب واقتسم المملكة بينه وبين اخوته فأخذ لنفسه القسم العلوي المعبر عنه بالسماء والأرض وأعطى سلطنة المياه لأخيه المسمى نبطون وسلطنة الجزء السفلي المعبر عنه بالنيران لأخيه ابلوطون.
فتحزب على جوبتير قوم العمالقة حباً بالتيتانيين وأرادوا الهجوم على السماء لنزع الملك عنه. فانتصر عليهم جوبتيـر وقد أورثهم الدمار بما أنزل عليهم من الصواعق والنيـران وتروج جوبتيـر بأخته جونون فولدت له بركان الذي جعله رئيساً على الحدادين الذين يصنعون له الصواعق. وهيبة آلهة الصبا والشبوبية ولوسينة آلهة الحبل والولادة.
وكان له جملة نساء أخر ولدن له أولاداً كبخوس إله الخمر وبروزربينة آلهة النيران وامرأة ابلوطون وآلهات الآداب.
وأبولون إله الشمس والضياء والآداب والطب. وديانة المعروفة بالقمر آلهة الصيد. وهرقول البطل الشجاع وأخرج أيضاً من دماغه نيروة متسلحة آلهة الحرب والحكمة. وكان يتزيا باكسام متنوعة لاكفاء شهواته ولخطف بعض الجمالات وقد شخصوا جوبتير جالساً على تخت ذهب أو عاج قابضاً بيده اليسرى الصولجان وبيده الأخرى الصواعق وعند رجليه نسر باسط جوانحه وبجانبه الشاب كانميد ساقيه وهو ابن ملك تروادة كان قد اختطفه جوبتير. وكان شجر السنديان مكرساً له وكانت العبادة تقدم له في الأرض بأسرها وله جملة هياكل عظيمة لم يزل لبعضها آثار ليومنا هذا. قد روي في الخرافات الحاصلة ليومنا هذا عن جوبتير من الأقدمين مبدأ إله فقير وسامى متسلط على العالم وكائن في هيئات مختلفة كما وأيضاً ذكر ملك قادر وفاسق كان حاكماً سواءً في اكريد أو حيث وجد جبل الأولمب.
(١٥) وكان لوسيليوس تلميذاً وصديقاً لسينكا.
(١٦) إن أبيقور الفيلسوف اليوناني ولد في أثينا سنة ٣٤١ ق. م. وكان ابناً لمعلم مدرسة وقد طالع وهو حديثاً تآليف ديموقريطيس وتولع به فواظب مواظبة كلية على الدرس والمطالعة ولما بلغ من العمر ٣٢ سنة اشتغل بتعليم الفلسفة في متاينا ثم إنتقل إلى لامبساق أو شرداق الحالية الكائنة على الدردنيل. وجاء بعد خمس سنين إلى أثينا سنة ٣٠٩ واشترى بستاناً حيث كان يجتمع هو وتلامذته عائشين بالاشتراك جميعاً وقد توفي هذا الفيلسوف سنة ٢٧٠ ق. م.
وعمره ٧٢ سنة وكان أبيقور يعتقد ان النفس هي مائتة واتفق سائر الفلاسفة على أنه على حسبما جرت عادة الطبيعة لا يصدر موجود عن معدوم ولا يؤول موجود إلى العلم لما قد صحَّ بالتجربة أن الأجسام يتكون بعضها من آثار بعض فينتج من هذا أن لها سبباً عاماً وهذا السبب هو الذي يسمونه مادة أولية فاختلفوا في بيان هذه المادة الأولية. وزعم أبيقور انها الذوات يعني أجسام دقيقة بسيطة وأن سائر الأجسام تتركب منها وكان يقول بقدمية هذه الذرات وأنه لا يعقل عدد صورها وإن أمكن حصره ولكن لكل صورة من هذه الصور ما لا يحصى من الذرات.
وزعم أن زنة الذرات هو سبب في حركاتها فبتصادمها تشتبك ببعضها. وان اختلاف طرق ترتيبها وانتظامها يتولد عنه ما نشاهده في الكون من الآثار المختلفة من غير أن يكون شيء من هذه الآثار معلولاً بعلة غير تلك المصادمة التي تقع بين عدة مقادير من الذرات مختلفة الصور. وأخيراً كان يعتقد بأن كل شيء في الطبيعة يحدث بالصدفة بسبب الذرات ويعترف بالآلهة كأرواح ذي طبيعة فائقة على الانسان إلاّ أنه كان يعريهم عن سلطتهم على العالم وينكر الحكمة الربانية. وكان يعلم أيضاً أن السعادة هي أعظم شيء للانسان وأنه فرض على كل أحد أن يسعى باجتناها. وكتب أبيقور من جملة تآليف لم تحفظ لوقتنا هذا.
(١٧) ولد ثيوفرا سطيس الفيلسوف سنة ٣٧١ ق. م. في جزيرة ليسبوس أو متلينا وكان ابن رجل قصاب وقد أتى حديثاً إلى أثينا حيث أخذ بالدرس على أفلاطون ثم على أرسطـاليس الذي اختاره أن يقوم مقامه في التدريس بمدرسته سنة ٣٢٢ ق. م. فهرع إليه جمهور غفير لاستماع دروسه لما كان من حسن إيضاحاته وقوة تعبيراته ولذلك لقب من

اليونانيين بثيوفراسطيس أعني المتكلم باللاهوت (وكان يدعي قبل ثيرثام) وقد توفي هذا الفيلسوف وعمره ٨٥ على قول و١٠٧ على قول آخر موقراً ومكرماً عند الجميع. وكان ثيوفراسطيس كاستاذه ارسططاليس يتعاطى معرفة العلوم جملة وقد ألف أكثر من مائتي رسالة لم يحفظ لنا إلاّ جزءاً منها.

تابع الفهرس التاريخي

لرسالات سينكا الفيلسوف

[المجموعة السادسة من أعمال السنة الثانية. ص ٢٣٨ - ٢٥٣].

(١٨) ولد بومبونيوس سنة ١١٠ وتوفي سنة ٣٣ ق. م. وكان من أشراف الرومانيين (كوالير) وشهيراً بمودته لشيشرون الذي تربى معه منذ حداثته وعاش مدة حياته ودوداً له ورحل بومبونيوس منذ حداثته من رومية إلى أثينا للتجنب عن الاضطراب العمومي وهناك ثابر على الدرس والمطالعة فحصل اللغة اليونانية جيداً حتى سمي باتوكوس اللقب المشهور به (نسبة للاتيك المسماة بها الأقاليم اليونانية) ولم يرجع إلى رومية إلاّ عند توطيد الراحة والسلامة. وقد مضى هذا العالم مدة حياته بمعاشرة الأعيان الذوات مع ما وجد بينهم من المخاصمة والاختلاف كسيلاوسينا وبومبيوس وأوكتاويس وانطونيوس وشيشرون وبروتوس وكان يستخدم غناه لمنفعة المظلومين والمحتاجين بسبب الحروب المدنية وقد توفي من الجوع اختيارياً لداعي مرض مؤلم اعتراه ولم يحفظ شيء من تواريخه لوقتنا هذا.

(١٩) ولد بومبيوس الروماني الشهير سنة ١٠٦ ق. م. تحزب شاباً للجنرال سيلا الروماني وسلح من ذاته ثلاثة طوابير من الجنود وسار ضد ماريوس الجنرال الروماني المخاصم لسيلا فانتصر عدة انتصارات واستحق موكب الافتخار المحق للأبطال ثم سمي قنصلاً. ولانتصاراته المتعددة استحق أيضاً موكب الافتخار ثانياً وثالثاً. وفي سنة ٦٠ ق. م. كان هو وقراسوس وقيصر الشهير أول من حكم المملكة الرومانية على منهج التريمويرا أو القيام ثلاثة بالحكم على الجمهور. وتزوج بومبيوس جوليا أخت قيصر للاتحاد معه ومع ذلك لما كانت أقاليم افريقيا واسبانيا جعلت تحت سلطته أقام نواباً عنه في إدارة الحكومة واستقام في رومية حيث اجتهد بمضاهاة قيصر واكتساب مجلس السينا. ولما توفيت جوليا قرينته زال ذلك الاتحاد الوقتي الذي وجد بينه وبين قيصر واشتهر خصامهما علناً وآل الأمر بينهما للكفاح خسر جداً بومبيوس وفرَّ هارباً إلى مصر حيث ذبح على شواطىء تلك الديار بأمر بطليموس الثاني عشر ملك مصر الشاب (سنة ٤٨ ق. م.) فأخذوا رأسه إلى قيصر فبكى عليه وعاقب القاتلين على قتلهم لخصمه وكان بومبيوس عظيم الطمع عديم الفطنة والنيرة والنظر في عواقب الأمور ولما كان مفتخراً بانتصاراته الحربية ومطمئناً على عظم شهرته احتقر وازدرى بخصمه قيصر وبأخلاقه المتعجرفة الشرسة أوجب دائماً لأصحابه السياسيين أهل الحكومة عدم الرضا منه وبعد قتله اجتهد ولداه أن يرفعا حزبه فلم ينجحا.

(٢٠) ولد قراسوس الروماني سنة ٧١ ق. م. وكان أحد ولاة الرومانيين الثلاثة وشهير بغناه العظيم فجعل لذاته حكومة الأقاليم السورية وتولج بمحاربة البارث فنجح في بدء الأمر وكاد أن يستولي جبراً على مدينتي بابيلون وسبليسيا لو لم يترك فرصة للعـداة أن تجتمع فهزمه سورينا جنرال أورود ملك البارثيين سنة ٥٣ ق. م. وقد هلك في تلك الواقعة المهولة ثلاثون ألف روماني ولما وُجد قراسوس بتلك الحالة ذهب لعند الجنرال سورينا المنتصر عليه لعقد الصلح فأمر عليه بالقتل ولم ينظر إلى مراعاة حقوق الانسانية.

(٢١) كايوس قيصر الملقب بكاليكولا. راجع عدد ٣ من هذا الفهرس. [ناقصة، لم ترد].

(٢٢) كان لبيدوس الروماني أحد ولاة الأمر الثلاثة مع اوكتاويس وأنطونيوس وكان أولا تبع قيصر الروماني الشهير فأخذه معاوناً له في مدة توظيفه قنصلاً (سنة ٤٦ ق. م.) ثم وظفه جنرالاً بمدة ولاية أمره المطلقة (ديكتاتور) وبعد قتل قيصر اتحد لبيدوس واوكتاويس وانطونيوس واقتسموا الحكومة الرومانية. ثم عمل رفيقاه على ابعاده من الحكومة فنجحا ولم يترك له اوكتاويس إلاّ اسم الحبر الأعظم فعاش مدة حياته منفرداً ومتجنباً عن معاطاة مهام الحكومة.

(٢٣) وكان ديكستر كما يذكر أحد مأموري الجنود الرومانية.

(٢٤) وكان شيرياس أحد مأموري الجنود الرومانية وهو الذي خلص الأرض من شر الملك كاليكولا ولكنه أُعدم بأمر الملك كلوديوس عند توليه الحكومة الرومانية (سنة ٤١ ب. م.).

(٢٥) إن هيكاتون الفيلسوف كان من جزيرة رودوس وتلميذاً للفيلسوف بانيتيوس ولم أر في مطالعتي دقة وصحة روايته.

(٢٦) ولد الفيلسوف الاسطواني كليانطيس سنة ٣٠٠ ق. م. في مدينة آزوس في آسيا الصغرى وكان تلميذاً لزينون الحكيم مؤسس الشيعة الاسطوانية وقد خلفه في التدريس (سنة ٢٦٤ق. م.) فكان كليانطيس عائشاً بقناعة وعفة تامة ينعكف في الليل على سحب المياه ليمكنه نهاراً استماع دروس زينون الحكيم بأكثر انصباب ولما شاخ وقد بلغ

س العمر ٨٠ سنة على قول و٩٩ على قول آخر أمات نفسه من الجوع ولم يحفظ لنا من تآليفه إلاّ بعض قطع وترتيل بديع لوجبيتير إله الوثنيين.

(٢٧) زينون الفيلسوف. راجع العدد ٣ من هذا الفهرس.[ناقصة، لم ترد].

(٢٨) إن أفلاطون الفيلسوف اليوناني الشهير ومؤسس الأكاديمية ولد سنة ٤٢٩ على قول و٤٣٠ ق. م. على قول آخر في مدينة أجينا أو في أثينا. وكان إبن اريسطون من أشرف عائلات الاثنيين وكان يسمى أريسطوقليس لكنه لما كان ذا قامة طويلة ضخماً عظيم الجبهة وخاصة عريض الأكتاف سمي باسم افلاطون واشتهر به لا غير. وقد تعاطى أفلاطون أولاً العلوم والمعارف وخاصة علم الهندسة واشتغل بالشعر أيضاً ولكنه تولع بعد وانهمك على الفلسفة فاستمر على الدرس عند سقراط مدة عشرة سنوات وكان عمره إذ ذلك عشرون سنة ولما مات أستاذه (سنة ٤٠٠ ق. م.) أقام ورفقائه في ميكاريس ثم سافر من هنالك وذهب إلى إيطاليا لاستماع الفيثاغورثيين أرخيطاس وتيمه. ثم رحل إلى سرين في افريقيا ومنها إلى مصر للتلقي عن حكمائها وقسوسها ومن مصر عاد أفلاطون إلى أثينا وسافر فيها بعد في سيسيليا بقصد التفرجة على غرائب هذه الجزيرة (٣٩٠). وبينها كان مقيم في سراقوزه تصادق وديون الفضيل ولكنه لما ذهب إلى الملك دينيس الهرم الظالم الذي كان يتمنى كثيراً رؤيته أدته جرأته إلى التكلم مع هذا الظالم في أمور سلطنته وخاطر بنفسه ولولا شفاعة ديون صديقه وأريسطومين لقتله ولكنه أعطاه لبوليدس الذي كان بجانبه رسولاً من ملك لقدمونيا وأمره أن يتصرف فيه كالرقيق فذهب به إلى مدينة جينا وباعه فيها وكان أهل تلك المدينة قد شددوا في من مرّ من الاثنيين بجزيرتهم يقتلونه. فأحب قرمندل اجراء هذا القانون عليه وقتله فأسعف هذا الحكيم بعض كبارهم وقال إن هذا لا يجري على خاصة الفلاسفة فاكتفوا ببيعه. فاشتراه أنقرسيس الفيلسوف القيرواني وأطلقه.

فلما رجع أفلاطون هذه المرة إلى أثينا أسس سنة ٣٣٨ ق. م. مدرسته المعروفة بالأكدميا فهرع إليها جملة من الذوات الأثنيين وكانت تلامذته كثيرة ومن مشاهيرهم أريسطو وأسبيوسيب ونقراطيس وأكسينوقراط حتى ونساء كالسطينية وأخيوطه.

وفي سنة ٣٦٤ ق. م. ذهب أفلاطون ثانياً إلى سيسيليا في مدة الملك دينيس الأصغر الذي كان خلف دينيس الهرم وكان هذا الملك يقصد الملك على موافقة مبادىء الفلسفة. فوعظه أفلاطون وأمره بإعطاء الحرية لأهل مملكته وأن يسير فيهم في الحكم على منهج حسن فأقام بسيسيليا أربعة أشهر فلما وجد أن الملك لم تنفعه الموعظة بل نفي من مملكته ديون الحكيم واستمر في سياسته على طريقة أبيه الظالمة رجع إلى أثينا ولم يقم مدة حتى رجع ثالثاً سنة ٣٦١ ق. م. إلى سيراقوزه ليسعى بإرجاع ديون المنفي من المملكة وأن يتجرد دينيس عن ظلم السلطنة فوعده الملك بالوفاء ثم لم يوفه فلامه أفلاطون على عدم وفاه وأغاظه جداً حتى انه خاطر بنفسه للهلاك.

فلما رجع أفلاطون إلى أثينا أخذ بالانصباب على التعاليم والكتابة فاشتهر جداً بحكمته حتى وفد عليه رسل من شعوب عديدة يطلبون منه شرائعاً لهم ومع ذلك تجنب عن معاطاة الأعمال والمهام العمومية وقد توفي هذا الفيلسوف سنة ٣٤٨ أو ٣٤٧ ق. م. وعمره ٨٢ سنة وعاش مدة حياته أعزباً وملازماً للعفة والقناعة والتحفظ من الشهوات. وقد ترك عدة تآليف كانت غالبها على طريق المخاطبات إلاّ إنها ما عدا الرسالات تلاشت وذهبت بالكلية.

قال لوطرقس إن أفلاطون قال بثلاثة أصول الإله والمادة والإدراك. فالإله يشبه عقل العقول والمادة تشبه السبب الأول للتولد والفساد والإدراك كجوهر روحاني قائم بذات الإله. نعم، إنه عرف أن العالم خلقة إله ولكنه لم يعن انه مخلوق من عدم محض بل عني أن الإله إنما نظم من تلك المادة القديمة هذا العالم وشكله بالأشكال المتنوعة.

فالبعض من لام أفلاطون على تعليمه بعض الأراء الغريبة فإنه في كتابه المسمى المشيخة قد أوجد بعض امتيازات ورتّب إذ يطلب أن النساء يكنّ للعموم وأن تربية الأولاد تكون بالاشتراك العام وبدون معرفتهم والديهم. وقد حرض على الامتناع من العلوم والفنون الزاهية كالغناء والنقش والتصوير حتى والشعر فيصعب إعطاء رأي قطعي على مذهب وتعاليم هذا الحكيم. وكان له تعليمين واحد خارجي عمومي والآخر داخلي سري كان يلقنه لبعض تلامذته. ولما كانت تآليفه المحفوظة لوقتنا هذا تشير إلى تعليمه العمومي أو بالحري الابتدائي يصعب معرفة تلك ومع ذلك وبأي حكم يحكم على تعاليمه. فإنها تستحق التعظيم لما كان من مبادئه السامية وآدابه اللطيفة ورقة وفصاحة قلمه فإن مذهبه مبتكر ذو شأن عال وقد سمي أفلاطون الإلهي وأوميروس الفلاسفة واعتباره في اعلا رتب الفلاسفة القدماء.

(٢٩) إن أريسطو أو ارسططاليس الفيلسوف اليوناني الشهير الملقب بسيد الفلاسفة ومؤسس شيعة المشائين ولد في ستاجير في مكدونيا سنة ٣٨٤ ق. م. وكان أبوه نيقوماقوس الطبيب المشهور وصديق امينتاس الثالث ملك مكدونيا فحضر أريسطو إلى أثينا سنة ٣٦٨ ق. م. حيث داوم مدة ٢٠ سنة على استماع دروس أفلاطون الحكيم,ومن ذلك الوقت اشتهر بكتاباته وبعدما توفي استاذه (٣٤٨ ق. م.) ترك أثينا مشمئزاً على ما يقـال لأنه لم يعيـن لخلافه أفلاطون فانتقـل أولاً إلى ميزيا (كاراسي في آسيا الصغرى) بجانب هيرمياس وإلى أطارنا حيث تزوج بأخت بيتياس ثم رحل إلى جزيرة متلينا ولما كان في تلك الجزيرة أخذ تحريراً من فيلبس ملك مكدونيا (سنة ٣٤٣ ق. م.) كان يرجوه أن يتولج تهذيب ولده اسكندر. وكان يقول له إنه يهيء ذاته بزيادة لا لكون ولد له ولد بل لكون ولد له هذا الولد بأيام أريسطو فذهب أريسطو إلى مكدونيا حيث مضى سنيناً عديدة وتبع كما قيل تلميذه في غدواته الأول في آسيا مستخدماً خزائن وافتتاحيات الملك لنجاح وفائدة التاريخ الطبيعي. ثم رجع إلى أثينا سنة ٣٣١ ق. م. واستقام هناك وأسس مدرسة بمحل منتزه يسمى ليسي قد اكتنفته صفوف الأشجار ولذلك سميت مدرسته ليسي. وكان من عادته تعليم تلامذته وهو ماش معهم سميت أتباعه المشائين. ولما توفي إسكندر المكدوني (سنة ٢٢٣ ق. م.) وجد أريسطو محاطاً بالنميمة والأضرار التي أحاطته بها حساده فقدمت عليه الشكوى بعدم التقوى ورحل حالاً من أثينا قبل إجراء المحاكمة لكي يوفر كما قال على الأثنيين الذين كانوا أدنبوا بالحكم على سقراط جراءة وعدواناً آخر ضد الحكمة. فبعدما خرج من أثينا إلى كالسيس في أوبه (اكريبو) حيث توفي بعد قليل سنة ٣٢٢ ق. م. وعمره إذ ذلك ٦٢ سنة. وقد أثير جملة أخبار على وفاته ومنهم من قال انه قطع بنفسه أيام حياته.

وكان أريسطو أول حكيم يعد في الأجيال المتقدمة وذو شأن ومقام عالٍ لأنه تعاطى جميع العلوم المعروفة بوقته وقد نشأ أيضاً جملة خلافهيا وكانت تآليفه على هيئة جامعة لجميع العلوم واعتبرت بمدة أجيال عديدة كواضعة حداً لمعرفة الانسان وكانت تعد بأعظم اعتبار ومقام. وقد بقي لنا عدة من تآليفه ولكن دخل على بعضها خلل وتغيير وإنما فضل أريسطو بالفلسفة أنه قدر على وضع أساس متين للعلم بأعظم ما قدر عليه سلفاؤه مع تأسيس قوة الامتحان بدون الخلل في حقوق العقل والإدراك. وعلى هدا رفض المذهب الغيابي الذي كان أقام به أفلاطون وحصر كل الحقيقة في الأشياء الخصوصية. وقد قال إن تلك الأشياء يمكن حصرها في الأوجه الآتية: وهي الأصول المركب منها الشيء والطبيعة الخاصة أو جوهره والسبب والغاية المقصودة ويعرف من ذلك أربعة أصول ومبادِ المادة والهيئة والعلة الفعالة والسبب النهائي ولموجب وجود تلك الأسباب والأصول حيث كان. وعلى الفلسفة معرفة تحديدها وقد تبع أريسطو اجراء هذا القياس في كل أجزاء العلم فإنه في علم معرفة النفس قد اجتهد في تحديد قواها حال كونه يعتبر النفس كقوة خفية المسببة والمحافظة لقوة التركيب. وفي علم المنطق قد سرد جميع أنواع القواعد القياسية وقد شرح عنها كفاية بمؤلف. وفي علم اللاهوت قد أسس إيضاح الوجود الإلهي على ثبوت مداومة الحركة الطبيعية مظهراً أن الإله هو النهاية أو غاية العالم ومرجع كل شيء. وفي الفن قد قال إن الجمال هو بتقليد الطبيعة في الأدب قد أوصى بالفضيلة للمعادلة مع الشهوات. وفي السياسة قد حدد لجمهور الناس غاية وهي المنفعة.

(٣٠) إن سقراط الحكيم اليوناني الشهير ولد في أثينا سنة ٤٧٠ ق. م. وكان أبوه نقاش يسمى سوفرونيسك وأمه داية تدعى فينارت. فتبع أولاً فن والده بالنقش لكنه لم يلبث بذلك إلا القليل. وتعاطى بعده الدروس العلمية فتوهم بأنه دعي بدعوة مخصوصة لإصلاح وتثقيف أبناء وطنه. فتبع هذا الفيلسوف جملة من الشبان يستمعون دروسه ومع ذلك لم يكن يهمل واجباته الوطنية سواء كان في الحرب أم في الصلح والسلامة واشتهر أيضاً لبأسه وشجاعته في أكثر من واقعة وخاصة في تناكرا (أو سكامينو في بيوثيا أو ليواديه). وفي واقعة ديليوم (في بيوثيا) حيث خلص من الهلاك حياة اكسينفون والسيبياد. فعاش متعاطياً الفضائل العمومية والخصوصية واشتهر أيضاً لعفته ولكرمه ولرقة نفسه وحب المساواة. ومن المعلوم أن امرأته اكسنتيب كثيراً ما سببت محلاً لتجربة صبره واستحق سقراط أن يعلن بوحي آلهة ديلف كأعقل وأحكم الناس إلاّ إن لقوة تنكيت وانتقاد هذا الحكيم جعل له جملة أعداء إذ إنه في سنة ٤٢٤ ق. م. قد شخصه الشاعر أريسطوفان في روايته المدعوة السحاب وثلاثة من أخصامه وهم انيقوس الرجل القادر والمحبوب من الشعب وميلتوس الشاعر الغير المشهور وليكون الخطيب العمومي اجتمعوا وقدموا الشكوة عليه بأنه يحمل الشبان على الفساد وأنه جدد آلهة كاذبة ورفض الآلهة المتعارفة فامتنع سقراط عن محاماة نفسه وضحض تلك الشكوى الفاسدة وأجبر حال كونه بريئاً أن يشرب السم المعروف بالشوكران. فقدم له أصدقاؤه جملة وسائط للنجاة من السجن فرفض حذراً من مخالفة الشرائع والقوانين وشرب كأس المنون بجلادة ورضا عظيمين وذلك سنة ٤٠٠ ق. م. وكان يدعي بقوة خصوصية تستسيره في حياته فلا يعلم إن كان ذلك حيلة من سقراط لإعطاء سلطة لكلامه أو كان ينتج ذلك عن أن يتوهم وحياً إلهياً قوى ذلك الإدراك السامي المتصف به. وقد أحدث سقراط عصراً جديداً في تاريخ الفلسفة وأنهى الفلاسفة عن المباحثات الباطلة أو السامية جداً حيث كانوا قد تورطوا بها لوقته ودعاهم أن لا يبحثوا إلاّ في الانسان والآداب مردداً دائماً هذا المبدأ: «اعرف ذاتك

ذاتك» وبرز لمحاربة السفسطين الذين كانوا يبحثون في كل الأمور ويدعون أنهم لا يجهلون شيئاً. فأبدع علم الأدب العقلي وميز بين أنواع الفضيلة (الحكمة والاستقامة والقوة والعدالة) وأوصى بمعاطاة الصلاح كأمن واسطة للتوصل إلى السعادة وأظهر ببراهين وأدلة جديدة وجود إله وحكمة ربانية وخلود النفس.

وكان سقراط يستخدم في مخاطباته نمط السؤال المعروف بالهزؤ السقراطي مستنجداً به لضحض أخصامه وخجلهم إذ به كان يظهر من جواب إلى آخر خرافات مستحيلة مستهزئة. وكان يستخدم أيضاً ذلك المنهج لتعليم تلامذته مجتهداً به أن يريهم بأنفسهم تلك الحقائق كأنها قد حجبت في عقولهم إذ كان يدّعي بأنه ولّاد العقول بالنسبة إلى صنعة والدته. وكان مع ذلك لم يرتب مدرسة مخصوصة ولم يقبل أدنى إجرة لدروسه. ومن جملة تلامذة سقراط أكسينفون الذي تبع مذهب أستاذه بالتدقيق وأفلاطون الذي أبدع منهجاً تاماً للفلسفة وانتيستين اب شرذمة الكلبيين وارستيب الذي أوصى بأدب مرتخ وفيدون واكليدو كريتون وخلافهم وقد حفظ لنا اكسينفون في مقالاته شروحات جليلة على سقراط (وقد ترحم بعض هذه الشروحات الخواجا حنين الخوري وعلى الراغب أن يقف عليها في أعمال الجمعية العلمية) كما وان أفلاطون فد شخص استاذه في عدة من مخاطباته إلّا انه مراراً وجّه له من آرائه الذاتيه.

(٣١) وكان ميترودور تلميذاً وصديقا لأبيقور.

(٣٢) وكان هيرموكس تلميذاً وصديقاً لأبيقور أيضاً.

(٣٣) وكان يولينوس تلميذاً لأبيقور وصديقاً له ولم أر في مطالعتي صحة رواية هؤلاء الفلاسفة الثلاثة.

(٣٤) راجع العدد ١٦ من هذا الفهرس في ذكر أبيقور الحكيم.

(٣٥) راجع العدد ٢٥ من هذا الفهرس وكان هيكاتون رجلاً غريب الطبع والأخلاق لا يبالي بالبرد والحر. فإنه من جهة كان يأذن بكل أمر يؤول للصالح الذاتي ويدقق من جهة أخرى على صرامة الأدب. فسوّغ إلى السيد أن يميت عبده من الجوع عند غلاء الأطعمة كما وأن يلقيه في البحر من أن يلقي رأس خيل ثمين. وقال أيضاً إن رجلان إذا أوشكا أن يغرقا عليهما أن يفحصا ضميريهما أو يجعلا مناسبة بين استحقاقهما ليعرفا من يحق له منهما أن يتخلص بخشبة صدفت عند غرقهما فنظراً للأمور الشاذة التي يأذن بها ونظراً لتلك الشكوك التي أقام بها اجتهد دائماً أن لا يعتقد كون الانسان انساناً وكأنه كان يرغب الأحداث فذاك مرضه حال كون ذلك المرض كان أحياناً وبائي.

(٣٦) راجع العدد ٣٠ من هذا الفهرس في الذكر على سقراط.

(٣٧) وقد ولد كاتون الروماني الشهير بفضائله والمعروف بالقديم والمصحح سنة ٢٣٤ ق. م. في توسكلوم بقرب روميه من عائلة غير مشهورة فخدم أولاً تحت رئاسة فابيوس مكسيموس الروماني في الحرب النكي الثاني (حروب رومية مع قرطاجة) ثم سمي بريتور أي قاضي القضاة في سردينا وحصل على تتميم خضوع وتمهيد تلك البلاد وقد استحق موكب الافتخار للشهامة وللحكمة اللتان أظهرهما لما أرسل قنصلاً إلى اسبانيا وإلى اليونان (سنة ١٩٥ ق. م.) وبعد ذلك بثماني سنين سمي بوظيفة مصلح ومنتقد فأخذ بمهام وظيفته بصرامة تامة. قد درجت مثلاً واستحق ان يقام له تمثالاً مع هذه الكتابة إلى كاتون مصلح العوائد، وكان في آخر سنينه خوفاً من مضاهاة قارطاجنة في افريقيا يختم دائماً خطبه بقوله إنه يلزم هدمها وخرابها. ومات كاتون سنة ١٤٩ ق. م. وعمره ٨٥ سنة وقد تعاطى مدة حياته درس العلوم والمعارف حتى وفي شيخوخته. ويقال إنه تعلم اللغة اليونانية وعمره ثمانون سنة.

[هوامش ٣٨ - ٥٢ غير متوفرة]

الأخوان الصياميان

نادرة مقتطفة من جورنال فرنساوي

سليم شحادة

[المجموعة السابعة من أعمال السنة الأولى. ص ٢٣١ - ٢٣٤].

إن أعجب وأغرب ما كان من نوادر الزمان وجود اخوين ملتصق أحدهما بالآخر قد أدهشا العالم العلمي وكانا محطاً للتأملات العلمية الطبيعية عن غرابة تصادف إلتصاقهما فإنهما كاملان الهيئة والصورة الانسانية على اختلاف تقاطيعها إلَّا ما كان فقط من محل اجتماعهما بقطعة من اللحم الحية كالشطر يبلغ جرمها من عشرة إلى إثني عشرة قيراطاً وكائنة في الجهة المحتوية على أسباب الحياة الأصلية وهي القلب والرئة. فإن هذين الأخوين يعدان عند التيراتولوجيست (الذين يتعاطون الدرس والفحص على المخلوقات العجيبة الطبيعية) كحيوانات عجيبة مضاعفة وهذه الحيوانات هي نادرة الوجود وقد ذكر أحد القدماء عدة منها،وبوفون الطبيعي ذكر أيضاً نادرة أختين جميلتين جداً كانتا ملتصقتين بظهرهما. وبالأجمال إن هذه المخلوقات النادرة لا تعيش زماناً طويلاً إلَّا ان الأخوين الصياميين قد شذّا عن ذلك.

إن هذين الأخوين حضرا سنة ١٨١٨ إلى أوروبا مع القبطان بونكر الذي أحضرهما من بلادهما تحت مناظرة قائد حزق. فاندهشت أوروبا لمنظرهما واستغربت وجودهما هكذا وقد أثارا في مدة جولاتهما تشوقاً كلياً من الجمهور لمشاهدتهما. فربحا ونتجا مالاً ولما حصلا غنى بأقرب وقت ذهبا إلى كارولينا الشمالية من أمريكا وتوطنا هناك واقتنيا رزقاً فأخذا في معاطاة فلاحته وزراعته. ومن ثم اجتلب الأخوان المذكوران ميل ورضى أختين تزوجا بهما وقد ولد لهما ثمانية عشرة ولداً من هاتين الزيجتين من كل واحدة تسعة.

وقد حضر هذان الأخوان من قليل إلى فرنسا بقصد فسخ هذا الاجتماع الطبيعي،الكائن منذ تسعة وخمسين سنة، طالبين سعفة مبضع الجراحة الفرنساوية لهذا العمل.

وكل أخٍ يفارقهُ أخوه لعمر أبيك إلَّا الفرقدان

وأما ما كان من الأسباب التي أوجبت الآن عزم الإنفساخ بعد مدة طويلة هو أنه لما حصلا غنى عظيماً طمع كل واحد منهما بالتمتع بذاته بذلك الغنى المجتنى بالاشتراك ولكنه لما كانت آراء الأطباء غير محققة على سلامة هذا الانفصال ضاد أحدهما، شانك، ولم يقبل. والآن على ما يظهر أن شانك المذكور ارتضى وعزم أن يجعل هذا الانفصال مع ما وجد به من الخطر على حياة أحدهما.

وبعض من روى، ولربما هو الأصح، يخبر أن أصل التنازع بين الأخوين هو من زمن طويل أخذ مبدأ منذ الحرب المدني الذي حدث في أمريكا وطنهما المستخار. وأغرب من ذلك أن الأخوين شانك وآنك لا يتكلمان مع بعضهما من مدة خمسة سنين منذ انتشاب النزاع بينهما. فإن آنك تحزب للمتحدين وشانك للمنفصلين. ولولا مداخلة وتوسط عائلاتهما لكان آل الأمر بين الأخوين لتضاد آرائهما السياسية إلى الكفاح المعروف بالديوللو، أي المبارزة الشخصية. وآخرون أيضاً يدعون ولربما على الحقيقة أنه بإزاء مرض اعترى أحدهما اضطر به الأمر إلى قضاء احتياجات ضرورية ثقلت على الآخر حمل عبودية اجتماعهما.

فالأمل إن اجراء هذا العمل المنوط بالجراحة لا يسبب لأحد من الأخوين خطراً على حياته. على أنه أيضاً يظن أن لا علاقة أصلية كائنة بينهما توجب الحذر والجزع. فإنه يشهد لذلك ان كل أحد منهما يعتريه علة بدون أن يشعر الآخر بهذا ونرى الآن الأنظار شاخصة إلى هذا الشطر اللحمي الكائن بواسطة اجتماع الأخوين وعسى الأمر يأتي كما هو المأمول ويظهر منه ما كان مستوراً للعيان.

سليم شحادة

* *

إن جناب سليم أفندي أبي حمد أهدى مكتبة الجمعية كتاب رواية معدن الذهب المترجمة من الفرنساوية إلى العربية بقلمه واشعاراً لممنونية الجمعية صار إعلان ذلك.

* *

الأعضاء الغير محلية

الخواجة جبران عبدالنور	شام
عبدالنجيب أفندي أيوبي	
محمود بيك حمادة	
الخواجة انطانيوس يني.	طرابلس

المجموعة الثامنة من أعمال السنة الأولى

[المجموعة الثامنة من أعمال السنة الأولى. بيروت: المطبعة العمومية، ١٨٦٨. ص ٢٣٥ - ٢٩١].

إنه في مساء الاثنين الواقع في ٢٤ صفر سنة ١٢٨٥ هـ وفي ٣ و١٥ حزيران سنة ١٨٦٨ م صار فتح اجتماع من المشتركين تلى به الشيخ ابراهيم اليازجي خطبة في الطب القديم. ثم أنشد المعلم ضاهر خيرالله قصيدة من نظمه في الحث على الاجتهاد بالجمعية.

الخطبة التي تلاها الشيخ ابراهيم اليازجي في الطب القديم

[المجموعة الثامنة من أعمال السنة الأولى. ص ٢٣٥ - ٢٤٨].

سبحان من تنزه عن الداء والدواء. وهو الذي بيده الصحة والسقم والشقاء. أما بعد، فلا يخفى أن الطب هو من أضر الأشياء التي تشعر الطبيعة بافتقارها إليها نظراً إلى ما هي عليه من كونها عرضة لطوارىء الفساد والتغيرات ولا يمكن أن تستعيض ان تستغني عنه. ولما كان أمراً لا يدرك إلّا بالتجارب ولا يتم إلّا مع تمادي الأزمان كان لا بد بالضرورة لمن وجد في صدر الزمن أن يكون أقل خبرة ممن تأخر. ويظهر ذلك مما يرى في كل فرد من الناس فإن الانسان في سن الحداثة قلما يعرف شيئاً مما يتعلق بأمر صحته. فإذا تقدم في السن مهر في معرفة طبيعته ومزاجه كلما زاد في التقدم حتى يمكن في الكهولة فما وراءها أن يكون طبيباً لنفسه في أكثر أمراضه ولا سيما ما كان قد ورد عليه من قبل ويعرف كيف يقي صحته مما يسوءُها. فيحصل عنده بذلك أهمية الطب وهي استرجاع ما فقد من الصحة والمحافظة على الحاصل منها من الفساد أو الزوال. ومثل الطب في أوائل الأزمان مثله في أيامنا عند أهل

البادية ونحوهم الذين يعرفون بالتجارب والاستقراء منافع بعض العقاقير والأدوية فيعالجون بها من أصيب منهم فيصيبون تارة ويخطئون أخرى. ولم يكن للقدماء إلاّ قليل عناية في هذا الفن الجليل فلم يكونوا يأخذون بالبحث عن حقائقه ولا يكتبون ما يظهر لهم بالاتفاق من هذا القبيل. ولم يزل الأمر كذلك أجيالاً حتى ظهر أبقراط بن إقليدوس اليوناني وهو أول من كتب فيه. ومن مؤلفاته كتاب الفصول الذي شرحه ابن القف من العرب. وكان أبقراط من عشيرة تعرف بآل اقليبيوس كان الطب محصوراً عندهم فلم يكونوا يعلمونه غيرهم ولا يكتبون فيه. واستمر الطب بعد أبقراط على قدم الوقوف واقتصر الناس على ما كتبه فلم يزيدوا عليه حرفاً. وبقي على ذلك زمناً طويلاً حتى أوشك أن ينتسخ أثره لتمادي الأيام عليه وقلة رغبة الناس فيه إلى أن ظهر جالينوس في القرن الثاني بعد المسيح. فأخذ ما كتبه أبقراط وزاد عليه وهذّبه وحسّنه. وهو الذي وضع علم التشريح وجعله فناً مستقلاً وكتب فيه. ولم يكن للناس قبله إلاّ بعض إلمام في التشريح من الحيوانات التي كانت تذبح للغذاء والقربان. وكان متقدمو المصريين يبحثون بعض البحث في هذا الشأن لا لمقصد طبيٍّ ولكن لأجل اتقان صناعة تحنيط الأجسام بعد الموت. والتفت إلى ذلك اليونانيون قبل جالينوس إلاّ ان تشريح الأجسام البشرية كان محرماً عندهم فلم يكن لهم إلاّ قليل معرفة في تشريح اليونان. وهكذا ترك هذا الفن في زوايا الإهمال إلى ظهور جالينوس المذكور فاستطلع فيه أموراً كثيرة. وكان أول من شرَّح جسماً بشرياً. وظهر بعده ديوسقوريدوس وروفس وكان أكثر عنايته في المفردات وهي العقاقير الطبية. وأندروماخوس وهو الذي صنع الترياق الكبير مركباً من إثنين وسبعين جزءاً. وأما أطباء العرب فأول من ظهر منهم الحارث ابن كلدة. أخذ الطب عن الفرس وكان ماهراً. توفي بعد الهجرة بقليل. وظهر بعده الإمام أبو بكر محمد بن زكريا الرازي فجمع أشتاته ومتفرقاته في كتاب سماه بالحاوي. وله مؤلفات كثيرة في التشريح والكيمياء وغيرهما. وكانت وفاته بعد الهجرة بثلاثمائة واحدى عشرة سنة هـ/٩٢٣ م. وشاع علم الطب بعد ذلك بين العرب وكثر الأطباء عندهم إلاّ إنه كان لم يزل قاصراً حتى ظهر الإمام الرئيس الشيخ أبو علي الحسين بن عبدالله بن الحسين بن علي بن سينا المشهور إمام الطب في المتقدمين والمتأخرين. فانعكف على ضبط هذا الفن وإحكامه وفصل فيه تفصيلاً وافياً وتمم كل ما كان ناقصاً منه حتى كان عنده محط رحاله. وكانت وفاته في السنة التاسعة عشرة والاربعمائة بعد الهجرة ١٠٢٨ م. قالوا كان الطب معدوماً فأوجده أبقراط. وكان ميتاً فأحياه جالينوس. وكان متفرقاً فجمعه الرازي. وكان ناقصاً فكمله ابن سينا. ومن مؤلفات إبن سينا كتاب القانون المشهور الذي جمع فيه كل ابدة ووقف الطب عنده فلم يجيء بعد ذلك من زاد عليه أو غيّر بعضه. وعليه جرى كل من جاء من الأطباء بعده وترجمه أهل أوروبا وآثروه بحسن العناية حتى طبعوه في رومية بأحرف فضية دقيقة جمعوا منها في كل صفحة منه اثنين وخمسين سطراً. وبقي الدستور الوحيد في مدراسهم نحو ستمائة سنة إلى نحو القرن السابع عشر بعد المسيح. وملخص ما قيل فيه إنه علم ينظر فيه إلى أحوال بدن الانسان من حيث الصحة فيحفظ الحاصل منها ويسترد الزائل. وقسموه إلى علم وعمل. والعلم منه ينطوي على ثلاثة أقسام: الأول معرفة الأمور الطبيعية وبواسطتها يوقف على حقيقة الأمور المرضية عند زوال الأمور الطبيعية عن مقتضى واجباتها. والثاني معرفة الأسباب. والثالث معرفة العلامات. أما الأمور الطبيعية فهي التي يتقوم بها البدن ويوجد بوجودها، وهي سبعة:

أولها الأركان. ثم الأمزجة. ثم الأخلاط. ثم الأعضاء. ثم القوى. ثم الأفعال. ثم الأرواح. ونحن نورد فيها تفصيلاً موجزاً، فنقول: أما الأركان فهي أجسام بسيطة غير قابلة التحويل إلى أجزاء مختلفة الصور. وهي الأجزاء الأولية لكل موجود بالاجمال من الانسان وغيره. وهي أربعة: الأول

الهواء وهو حار رطب. والثاني النار وهي حارة يابسة. والثالث الماء وهو بارد رطب. والرابع التراب وهو بارد يابس. وأما الأمزجة فهي ما يحصل من الكيفيات عند تفاعل كيفيات متضادة موجودة في عناصر متصغرة الأجزاء حتى يماس كل واحد منها أكثر أجزاء الآخر كتفاعل البرودة مع الحرارة أو الرطوبة مع اليبوسة بحيث يحصل بين كل عنصرين من العناصر المتكيفة بهذه الكيفيات تداخل شديد حتى تكون المماسة من أكثر جهات أجزاء كل منهما. فيحصل عن ذلك كيفية متشابهة بامتزاج الضدين واتحادهما بحيث لا تنفرد كيفية الواحد عن كيفية الآخر ولا تتميز عنها. وهذه الكيفية الحاصلة هي المزاج. وهي إما أن تتوازى فتكون معتدلة ويقال المزاج حينئذٍ معتدل. وإما أن يتغلب بعضها على بعض فتسمى بحسب المتغلب. وهذا المتغلب قد يكون واحداً فيسمى المزاج بسيطاً. وقد يكون اثنين فيسمى مركباً. فمن تغلب الواحد يحدث أربعة أصناف من الأمزجة. وهي الحار والباردوالرطب واليابس. ومن تغلب الإثنين يحدث أربعة أخر. وهي الحار الرطب. والحار اليابس. والبارد الرطب. والبارد اليابس. ومن تكافؤ هذه الكيفيات يحدث المعتدل. فتكون الأمزجة تسعة. وأما الأخلاط فهي أجسام سيالة يستحيل إليها ما يتناوله الانسان من الغذاء. وهي أربعة: أحدها الدم. وهو حار رطب. ويعبرون عنه بالهواء. والثاني البلغم. وهو بارد رطب. ويعبرون عنه بالماء. والثالث المرة الصفراء. وهي حارة يابسة. ويعبرون عنها بالنار. والرابع المرة السوداء. وهي باردة يابسة. ويعبرون عنها بالتراب. ومن ثم قالوا إن كل واحد من هذه الأخلاط الأربعة مركب مما شاكله من الأركان الأربعة المذكورة وإليه ينتهي بعد انحلاله. وهي قائمة على التكافؤ بينها فإن فيها حارين يقاومهما باردان. ورطبين يقاومهما يابسان. ولكل منها مقدار معلوم في البدن فقد قدروا أن البلغم سدس الدم. والصفراء سدس البلغم. والسوداء ثلاثة أرباع الصفراء. فلو فرض أن في البدن من هذه الأخلاط مائة وخمسة وسبعين جزءاً مثلاً كان منها مائة وأربعة وأربعون دماً. وأربعة وعشرون بلغماً. وأربعة صفراء. وثلاثة سوداء. وذلك في المزاج المعتدل. فإن خرج أحد هذه الأخلاط عن وضعه الطبيعي بأن تكيف بكيفية ضد طبعه أو زاد عن قدره المفروض حدث هناك خلل في الترتيب فاختلَّ المزاج. وهذا الاختلال هو المرض. أما تولد الأخلاط في البدن فيكون من الكيلوس وهو خلاصة الطعام بواسطة فعل حرارة الكبد. فإنه قبل أن تدب فيه الحرارة وتنضجه يتولد البلغم. فإذا أنضجته تولد الدم. فإذا احترق تودَّلت الصفراء. فإذا ترمد تولدت السوداء. ولذلك قالوا إن البلغم كنيٌّ. والدم كنضج. والصفراء كمحترق. والسوداء كمتجاوز الاحتراق. والخلط المعتبر من هذه الأربعة هو الدم لأنه هو الغذاء الحقيقي للبدن وبه قوام الحياة. والثلاثة الأخر فضلات وتوابع له. ومحل الدم العروق. ومحل البلغم فم المعدة. ومحل الصفراء المرارة. ومحل السوداء الطحال. غير أنه لا بد أن يمازج الدم شيء من الاخلاط الأخر. قالوا إنه بالصفراء يتلطف. وبالبلغم يتسلس. وبالسوداء يتماسك. ولذلك إذا استفرغ دم في إناء طفا على وجهه رغوة هي الصفراء. ورسب في أسفله عكر اسود هو السوداء. وتخلله خيوط بيضاء متشبكة هي البلغم. وأما الأعضاء فتنقسم باعتبار جواهرها إلى مفردة بسيطة وهي التي كل أجزائها متشابهة كالعظام والغضاريف واللحم وما شاكل ذلك. وإلى مركبة آلية وهي عكسها الرأس واليد ونحوهما. وتنقسم باعتبار قواها ومفاعيلها إلى أربعة أقسام: وهي الأعضاء الرئيسة. والأعضاء المرؤوسة بخدمة الرئيسة. والأعضاء المرؤوسة بغير خدمة. والأعضاء التي ليست برئيسة ولا مرؤوسة. أما الأعضاء الرئيسة فهي أربعة: ثلاثة منها تتعلق بحفظ الفرد والنوع معاً. وهي القلب وهو مبدأ قوة الحياة والحرارة الغريزية. والدماغ وهو مبدأ قوة الحس والحركة. والكبد وهي مبدأ قوة التغذية. والرابع يختص بحفظ النوع وهو الأنثيان القائمتان بأمر التناسل. وأما الأعضاء المرؤوسة

بخدمة الرئيسة فهي الشرايين للقلب. والعصب للدماغ. والأوردة للكبد. والأوعية المنوية للأنثيين.
وأما الأعضاء المرؤوسة بغير خدمة فهي التي اختصت بقوى طبيعية ثم تنفذ إليها من الأعضا الرئيسة قوى أخر يتم لها بها أفعال أخر كالعين. وأما الأعضاء التي ليست برئيسة ولا مرؤوسة فهي التي اختصت بقوى طبيعية يتم بها تدبيرها في خاصتها فقط كالعظام وسائر الأعضاء المتشابهة الأجزاء. وأما القوى فهي ثلاث: إحداها طبيعية. والثانية حيوانية. والثالثة نفسانية. أما الطبيعية فمبدأها الكبد. وهي إما مخدومة. وإما خادمة. وإما مخدومة وخادمة معاً. أما المخدومة فهي المولدة. وأما الخادمة فهي ستة أنواع: وهي الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والمغيّرة الأولى والمصورة. وأما المخدومة والخادمة معاً فهي المربية والغاذية. فإن المربية تخدم المولدة. والغاذية تخدم المربية. ويخدم الغاذية الأربع الأول من القوى الست الخادمة المذكورة آنفاً. وأما الإثنتان الأخيرتان منها فتخدمان المولدة. وأما القوة الحيوانية فمبدأها القلب. وهي إما فاعلة وإما منفعلة. والفاعلة هي التي تحرك القلب والشرايين جميعاً انبساطاً وانقباضاً لتعديل الحرارة الغريزية. والمنفعلة هي التي تنبعث عندما يرد على القوى المدركة تأثير تكرهه أو توده فيعرض لها الانبعاث حينئذٍ فيحدث الغضب أو الفرح أو نحوهما. وأما القوة النفسانية فمبدأها الدماغ. وهي إما مدبرة، وإما محركة بإرادة، وإما حساسة. أما المدبرة فهي ثلاث قوى. إحداها قوة التخيل. والثانية قوة الفكر. والثالثة قوة الذكر. وأما المحركة بإرادة فهي القوة المنبعثة عن الدماغ إلى العضل المحركة فيتحرك حينئذٍ العضو المراد تحريكه باختيار. وأما الحساسة فهي خمس قوى: إحداها البصر ثم السمع ثم الشم ثم الذوق ثم اللمس. وأما الأفعال فهي الصادرة عن القوى الثلاث المذكورة وهي تنقسم باعنبار كيفيتها إلى نوعين: أولهما الأفعال المفردة وهي التي تتم بقوة واحدة كالهضم. والثاني ما لا يتم إلاّ بما فوق القوة الواحدة. وما يتم به من القوى إما أن يكون من قبيل واحد كما في نفوذ الغذاء إلى أعضاء البدن مثلاً فإنه لا يتم إلاّ بقوتي الدفع والجذب. وكلتاهما طبيعية. وإما أن يكون مختلف الجهة كما في شهوة الطعام فإنها لا تتم إلاّ بقوتي الجذب والحس. والأولى طبيعية والثانية نفسانية. وأما الأرواح فهي جواهر لطيفة منبثة في مسالك الأبدان تحمل القوى إلى جميع الأعصاب لتتأتى لها الأفعال. وهي على ثلاثة أنواع: أحدها طبيعي وهو ينفذ في الأوردة إلى الأعضاء حاملاً القوى الطبيعية المتصرفة في أمر الغذاء. والثاني حيواني وهو ينفذ في الشرايين إلى الأعضاء حاملاً القوى الحيوانية التي تقوم بها الحياة والحرارة الغريزية. والثالث نفساني وهو ينفذ في العصب حاملاً القوى النفسانية إلى البدن ليفيد الحس والحركة. وأما الأسباب فهي الأمور الموجبة كون البدن سقيماً أو صحيحاً. وهي إما مرضية وإما غير مرضية. والمرضية ثلاثة أنواع: وهي البادئة والسابقة والواصلة. أما الأسباب البادئة فهي أمور غير بدنية تؤدي إلى أحوال بدنية. وهذه التأدية إما أولية وهي الفاعلة بلا واسطة كقطع السيف واحراق النار ونحوهما. وأما غير أولية وهي عكسها كما يحدث عن بعض الانفعالات النفسانية من نحو الغضب والخوف وغيرهما. وأما الأسباب السابقة فهي أسباب بدنية تحدث عن الخلط أو المزاج أو نحوهما تؤدي إلى أحوال بدنية تأدية غير أولية كما في الحمى الصادرة عن الامتلاء الذي هو الواسطة المفضية إليها. وأما الأسباب الواصلة فهي أسباب بدنية أيضاً تؤدي إلى أحوال بدنية تأدية أولية وهي التي يوجد المرض بوجودها ولا يزول إلاّ بزوالها كالعفونة للحمى. والأسباب الغير المرضية هي الأسباب العامة المشتركة للصحة والمرض بناء على انها إذا جرت على مقتضى الواجب كانت أسباباً للصحة وإلاّ كانت أسباباً للمرض وأجلها. أما الغذاء فإنه إن كان صالحاً ولد كيلوساً محموداً تتولد عنه أخلاط صالحة. وإن كان غير صالح ولد كيلوساً رديئاً تتولد عنه أخلاط فاسدة. والمختار من الأطعمة ما كان لطيفاً معتدلاً يؤول أكثره إلى الدم دون بقية الأخلاط موافقاً في

كميته وكيفيته وترتيب أوقات تناوله، غير قليل المقدار فيؤدي إلى ذبول البدن، ولا كثيرة فيشق على المعدة ويحدث تخمة ولو كان جيداً. وكلما اشتدت شهوة الطعام حسن تناوله. ورفع اليد عنه قبل انقضاء الشهوة خير. والنوم قبل الهضم مضر لأنه يستوقف المعدة عن اتمامه فيفسد. وإدخال طعام على أخر قبل تمام هضمه مفسد لكليهما لأن الثاني يشغل المعدة عن إصلاح الأول فيفسد ويمتد الفساد إلى الثاني.

قال الشيخ الرئيس ابن سينا:

اجعل طعامك كل يوم مرةً واحذر طعاماً قبل هضم طعام

ولما كان البدن قائماً بالأخلاط والأخلاط قائمة بالغذاء كان للأطعمة أقوى تأثير في البدن وقلما حدث مرض إلاّ عنها. قال بعضهم:

عدوك من صديقك مستفادٌ فلا تستكثرن من الصحاب
فإن السقم أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

والأسباب كثيرة لا يسعنا أن نستوفيها فنكتفي بما ذكرناه. وأما العلامات فهي ثلاثة أنواع: أحدها أن يبطل فعل العضو المصاب أصلاً ككون المعدة مثلاً لا تهضم. والثاني ضعف ذلك الفعل ككونها يعسر هضمها. والثالث تغير ذلك الفعل وجريه على غير ما ينبغي ككونها تفسد الطعام وتسيء هضمه إلى الحموضة مثلاً. والعمل في الطب والقسم الثاني منه هو معرفة قوانين العلاج. وهو يكون بالدواء كالانضاج والاسهال والحبس إلى غير ذلك. أو باليد كالفصد والحجامة ونحوهما. وفي كل ما ذكرناه تفصيل طويل لا موضع له هنا. هذا ما أردت تعليقه في هذه النبذة من الطب القديم الذي آندرست آثاره في هذا الزمان. حتى أدخله تقلب الأيام في خبر كان. وصار كالكبريت الأحمر. الذي يذكر ولا يبصر. ولم أتعرض لذكر ما وقع من الخلاف بين المتقدمين والمتأخرين من الأطباء إذ لا يسعنا المقام لمثل هذا المبحث. وأنا أستغفر الله عما طغى به القلم، وزلت عنه القدم، وألتمس الإغضاء ممن شرّف بحضوره هذا المقام. فإن المعذرة من شيم الكرام، والسلام.

القصيدة التي أنشدها المعلم ضاهر خيرالله

[في الحث على الاجتهاد]

[المجموعة الثامنة من أعمال السنة الأولى. ص ٢٤٩ ـ ٢٥٢].

المرء يسعى في الحياة ويجهد ... إما لكسب أو لأمر يحمدُ

والناس في أهوائهم كنفوسهم ... عدداً ومنشأً الكل شيء مفرد

العقل أو يبغى المعالي في الورى ... فيجدُّ سعياً للعلا ويقصد

أو يرتضي بالحالة الدنيا ولا ... يعبأ أيسقط شأنه أم يصعد

فلذا يرى في الناس مَن يغشى الوغى ... طرباً ومَنْ مِنْ ذكرها يستنكد

ومَنْ اصطناع البر ينعشه ومَنْ ... كل ابتغاه حانةٌ أو مرقد

ومَنْ الغنيمة والفضيلة عنده ... ان يحتويه مكتبٌ أو معبد

ومَنْ ابتذال المال يطربه إذا آست ... دعاه كشفٌ محدثٌ أو مشهد

وتراهمُ كلٌّ يحدث نفسه ... إن الشقي سواه وهو المسعد

كلا فليس الحق أقساماً ولا ... كلٌّ يقال بقولهِ ويؤيد

بل إنما القول المسلم واحدٌ ... وسواه كلٌّ فاسدٌ ومفسد

قصد الفتى أمراً يؤمل نفعه ... ويعم خيراً في العباد ويرفد

نعم ان سعيت لخير نفسك جيدٌ ... لكن لخير الغير أيضاً أجود

فالفضل بل الفضل في الدنيا لمن ... مَنْ همهِ أي المقاصد أفود

كذوي المروءة والشهامة والسخا ... والغيرة الكبرى التي لا تجحد

شهب المعالي بهجة العصر الأولى ... جمعت بهم غرر النهى وتفردوا

العمدة الفضلى الذين لسعيهم ... شكرٌ وذكرٌ في الدهور يخلد

القائلين محبة الأوطان من ... شرف النفوس وفي الفعال تجندوا

قد أسسوا جمعية بنيت على ... نشر العلوم فنعم ذاك المقصد

ما ضرّها إنكار بعض فضلها ... أو هل يضر النور هاجٍ أرمد

ظهرت كشمسٍ والمعارف نورها ... أيظن أن الشمس تسترها يد

جعلت علوم الأولين صحيفةً ... لعياننا وكذاك ما يتجدد

فابلغ مميت العلم دفناً إنه ... لا يقهر الأعداء سيفٌ مغمد

وكذا لشاكي النقل في التأليف قل ... كثر المقال وأصل ذلك أبجد

أعلمت من هذي التآليف التي ... كتبت بها أو ذاك وهمٌ يبعد

محدثي أسلافنا أسلافنا ... هلا رأيت اليوم ينسخه الغد

هب كل علم كان فينا وانقضى ... أرأيت ضمن القبر طفلاً يولد

يا صاح ذكراهم بلا شبهٍ بهم ... بابٌ لمن يرمي بنا ويسدد

لا بالحري من ذاك ينتج حجةً ... تقضي بحكم خمولنا وتؤكد

والأصل يسعف من رعاه بحقه ... كالنار تعظم بالسكيب وتخمد

كانوا ينابيع المعارف والنهى ... لكن بحقك أين ذاك المورد

لا جحد في فضل الجدود وإنما   عيبٌ يهدم بيننا ما شيدوا

أو لم يقولوا والإشارة نحونا   عن صدفة إن قيل لم يتعمدوا

كل أمرٍ يا عمرو حاصد زرعه   ولكل ركب عيهم والفرقدُ

هل بعد قالوا إننا نبقى لكم   زرعاً لتجنوا فاستظلوا وارقدوا

والمجد موروث بإرث ظروفهِ   ويفقدها المظروف أيضاً يفقد

أخذ العلوم القوم عنا وأمعنوا   فيها وجلوا بعضها أو مهدوا

أنعدهم فعلوا قبيحاً إذ شروا   بنفوسهم ما كانَ فينا يكسد

درجوا على آثارنا فتقدموا   فلنتبعهم نقتبس ما أوجدوا

هذا طريق النُجْح مفتوحٌ لنا   ومعارج العلياء تدعونا اصعدوا

قد أوجد المولى رجالاً بيننا   سيف العزيمة للتقدم جردوا

صاروا بوحدة رأيهم شخصاً وفي   الأجسام طبقاً للنظام تعددوا

وتكلفوا كرماً فتوح محلةٍ   لقبول أهل العلم أن يترددوا

ودعوا جميع الراغبين ليقبلوا   لسماع ما يقرأ بها أو ينشد

وسعوا بطبعٍ للفوائد رغبةً   ببلوغ من لم يحضروا أو يشهدوا

ولحفظها تاريخ جدٍ عن من   يتذكر الآثار أو يتفقد

وكذا كرام الناس يمتازون في   ما أرجعوا مما مضى أو جددوا

فلكم جميل أيها الساعون في   خير العموم ومنةٌ لا تفسد

وثناء يباهيَ الصبح في اشراقه   لكنَّ لا يغشاه ليلٌ أسود

وعليكمُ أن تثبتوا لنجاح ما   رمتم وإن أبطأ الجني لا تزهدوا

كل ابتداءٍ ملتقىً بمشقةٍ   وبطول مس الحبل يبرأ الجلمد

تدرون كم من عشرة نصبت لمن   سبقوا فزادت جهدهم وتوطدوا

إن قلَّ ما شاهدتموه نتيجة   فالصبح بعد بزوغه يتوقد

وكفاكم فخراً بأنَّ صنيعكم   أضحت بهِ سحب الصحائف ترعد

وتشرفت أعمالكم إذ قد غدت   بسمات سادات الملأ تتقلد

أو ليس أفضل كل فخرٍ أنها   من جانب الملك المعظم تعضد

الناشر الإحسان والمالئ الورى   عدلاً وحلماً مثله لم يعهدوا

الواسع الملك المؤثل مجده   وسعوده ينحط عنها الفرقد

تاج المعالي والذي لسريره   تشدوا السعادة إنه لمؤبد

عبدالعزيز فلا يزال مؤيداً   تعنوا لهُ السادات وهو السيد

أعمال الجمعية العلمية السورية
في بيروت
المجموعة التاسعة من أعمال السنة الأولى

[بيروت: المطبعة العمومية، ١٨٦٨. ص ٢٩٢ - ٣٣٣].

إنه في مساء يوم السبت الواقع في ٢٠ شعبان سنة ١٢٨٥ هـ و٢٣ و٥ كانون الأول سنة ١٨٦٨ م صار فتح اجتماع من المشتركين ولدى المذاكرة في الأمور المقتضية لتنشيط أعمال الجمعية وتلاوة القرار الذي حصل من العمدة في المواد المرغوبة من التحسينات المطلوبة قوبلت بالسرور وأخذت دستوراً للعمل ولذلك توفيقاً لتلك الأصول التي ستجرى الهمة بإعلانها تولج الخواجا موسى فريج بخطاب موضوعه التجارة يتلى في الاجتماع العمومي الذي يفتح في ٣ و١٥ الجاري وتولج أيضاً الخواجا سليم البستاني بالرد على الخطيب ان وجد محلاً للاعتراض.

سر الغرام

تعريب سليم أفندي البستاني

[المجموعة التاسعة من أعمال السنة الأولى. ص ٢٩٣ - ٣١١].

الحمد لله الذي لا يحمد سواه، ولا يهتدى إلاَّ بهداه. أما بعد، فيقول الفقير الجاني سليم البستاني: إنني لما رأيت أن أبناء وطني يفضلون تعلم لغات الأعاجم على لغتهم العربية الشريفة، التي سلكت إلينا سبل الأجيال الماضية، ووصلت سالمةً رغماً عن طوارق الحدثان والعوارض التي عرضت عليها، وإن وجود تواريخ وروايات ونكت وحكايات مطبوعة في اللغة العربية هو مما يؤول إلى تكثير طلبتها، ورواج سوق بضاعتها، أخذت في تعريب بعض روايات من كتب الأعاجم وأفرغت الجهد في أن ألبسها ثوباً عربياً، مدبجاً أذياله بقليل من النقش الأعجمي، وذلك من قبيل المعاني والترتيب لا من حيثية الألفاظ والتركيب. ومن جملتها هذه الرواية التي بعدما فرغت من تعريبها وتبييضها وترتيبها سميتها سر الغرام. لما يرى فيها مطالعها من فعل ذلك العنصر المتسلط على الكون أجمع. هذا وإني أرجو المعاملة بالمعذرة والصفح الجميل. والله حسبي وهو نعم الوكيل.

المقالة الأولى

إنه لمن الأمور المقررة أن ما يكتبه الانسان بالقلم يؤثر في نفسه كما يؤثر في غيره. وهذا هو من أكبر أسرار ذلك الأصلع الذي تدور بنا الدنيا على رأسه النحيف. فلذلك نتقدم الآن إلى وضع حصى على جبال التصنيفات الغرامية. وفلكنا مظلل بالغيوم التي تروي أرضنا بالأمطار الغزيرة والعواصف تهب علينا وهي حاملة على أجنحتها برودة تلسعنا وتجعلنا نلتجىء إلى كنف النار المشبوبة في مخادعنا لتطرد عنا ضرها. حيث يلذ لنا الإصغاء إلى ما تلتذ به الأذن ويرتاح إليه الفكر. ونصبو إلى صرف تلك الساعات بما لا يفضي بنا إلى الملل. فبما إن الانسان يرغب أن يُشركَ معه أصحابه في ما من شأنه أن يؤول إلى انشراحهم، ويروق له ذكر أيام الصفاء في أحيان الكدر، نبادر في هذا اليوم الممطر إلى تأليف رواية كان ابتدأ حوادثها الغريبة في أوائل فصل الربيع، بعدما كانت شمسه قد هزمت جيوش سحب الشتاء المظلم، والدنيا تترآى لناظرها كأنها جنة أبوينا قبلما طردا منها، والنسيم المنعش يلاعب أغصان

أشجارها، ويصدر عنها مثقلاً بأحمال الطيوب التي تتضوع من أزهارها، النابتة حول أنهار يتلاعب الحباب عليها، وتستقي من زلالها أطيار تغرد على أغصانها، وتغتذي من لذيذ أثمارها. وكانت يومئذٍ الدنيا بهجة باسمة تلوح على سطحها علامات الهدوء والسلام، كأنها لم تكن مرسحاً رحباً تتلاعب فيه حوادث الدهر المزعجة مدة ستة آلاف سنة مضت كظل لا يبقى بعده أثراً.

ففي صباح ذلك اليوم البهج جلست إبنة صغيرة تدعى استلا برادرث. ذات قوام معتدل وشعر أشقر سادل على كتفيها ولونه الذهبي يحاكي الأشعة المنبعثة من شمس الربيع. وكان جلوسها قرب نافذة لقاعة المائدة في بيت أبيها الخواجا برادرث التي تشرف على حديقة صغيرة وراءها بقعة فيها طريق يأخذ إلى غابة قرب البيت المذكور. وكانت تصغي لتغريد الطيور المتلاعبة فيها وتسمع صوت حفيف أغصان أشجارها وتستدفىء بأشعة الشمس التي لم ترها عيناها لأنها كانت عمياء. وتتنشق روائح الزهور التي نبتت بين الأشجار الشامخة. فكان النرجس والخزام والورد نابتاً تحت ظل أغصان البان والحور والصفصاف يبعث روائح زهوره المنعشة إلى الأماكن المجاورة لتلك الغابة ويلوح بالنسيم فوق الخضرة والتي ألبست أرضها ثوباً أخضر ليزيد منظرها حسناً وجمالاً. وجلس إدموند أخوها الصغير بجانبها يلاعب نفسه بتنجير لعبة. وكان جميلاً يشبه أخته في لون وجهه ورقة شفتيه المتبسمتين. أما استلا فكانت غائصة في بحار التفكر. فدخلت وهما على هذه الحالة والدتها السيدة ماريانا، وكانت نحيفة الجسم لابسة ثياباً بيضاء، ثم دخل والدهما السيد برادرث ٠ وكان طويل القامة متوسط السن أجلح تلوح على وجهه لوائح الكبر ذا جبهة عالية وعقل ثاقب. فتقدم الولدان إليه ليسلما عليه. فقال لهما إنكما قد نهضتما باكراً من فراشيكما اليوم، ثم قبلهما. أما ابنه إدموند الذي كان يحبه حباً شديداً فأخذ يريه اللعبة التي صنعها. وأما استلا فتقدمت بهدوء إلى أمها وجلست عن ركبتيها.

فقالت لها السيدة ماريانا وهي تلعب بشعرها الجعد، ماذا كنت تفعلين يا ابنتي العزيزة.

فأجابتها: إنني كنت أسمع تغريد الطيور وأستدفىء بحرارة الشمس فإن ذلك مما يسرني جداً.

فتنهدت والدتها وقالت: إن ما يسرك يسرني يا عزيزتي.

وبعد ذلك جلسوا يتناولون الطعام، وكانت علامات السرور تلوح على أوجههم جميعاً. فابتدأوا يتكلمون عن أمور مختلفة مسرة حتى انتهوا من الأكل. فعند ذلك وضع باعتناء السيد براندرث أوراقاً كان يطالعها على المائدة وكان رجلاً عالماً بالجيوليجيا، أي طبقات الأرض والطبيعيات. فقيل لاستلا وأخيها أن يخرجا من هناك. فنهض إدموند وخرج بسرعة. أما استلا فخرجت رويداً رويداً مادة يديها لتجس بهما طريقها، فمالت عن الطريق وصدمت المائدة فرمت إلى الأرض الأوراق التي كان قد وضعها أبوها عليها. فلما رأى ذلك الخواجا براندرث جفل ونهض من مجلسه بغضب وقال لها: تباً لك يا قليلة الاعتناء، ودفعها فسقطت على الأرض وبكت بصوت منخفض على خلاف عادة الأولاد. فتقدمت إليها والدتها وأنهضتها ثم ضمتها إلى صدرها وعزتها. فقال أبوها يا ماريانا اخرجي هذه الابنة من هنا لأنها أتعبتني جداً. فنظرت السيدة ماريانا إلى زوجها نظرت موبخ وقالت له برقة: كفى، كفى، أما تعلم ان. . . . ثم ضمتها إليها ثانية فكفكفت حينئها أدمع استلا المتساقطة. ثم تقدمت إلى والدها بهدوء وقالت له بصوت ذليل: يا أبتاه، أطلب منك أن تغفر لاستلا الذليلة العمياء لأنها لم تقصد أن تزعجك وترمي أوراقك المرتبة. نعم، إن عينيها الجميلتين المرتفعتين حينئذٍ إلى وجه والدها لم تبصرا نور الشمس ولا جمال الطبيعة التي أحاطت بها منذ كان عمرها ست سنين لأن ظلمة كانت تأتي إليهما رويداً رويداً حتى هزمت النور منهما فأصبحتا في ظلام مدلهم. ومع ذلك لا يعرف الناظر إلى عينيها

الرائقتين أنها عمياء إن لم يلاحظ حركتها الغير المنتظمة. وكانت أحياناً تلوح على وجهها الجميل علامات الحزن التي طالما ظهرت على أوجه العميان. وما كان ذلك إلاَّ نتيجة الهم الذي ملأت قلبها به تلك المصيبة العظيمة. ومع ذلك لم تشعر كثيراً بها لأنها أتتها بالتتابع حتى انها إئتلفت على العيشة الهادئة التي اتصفت بها منذ صغرها بخلاف عادة الأولاد المتصفين بكثرة الحركة والجولان. ولم تعتن كثيراً بألعاب الأولاد بل كانت تجلس ساكنة متفكرة كما يناسب حالتها. ولا ريب ان الله علم ان حياتها تكون بالاتكال على شفقة ومحبة الغير فكساها ثوب حسن فائق يجذب إليها قلب كل من رآه. وغرس فيها لطفاً ووداعة يحركان عواطف قلب كل من نظرها للتقدم إلى مساعدتها وعضدها وإنه غرس لها محبة وحِنِّية عظيمتين في قلب والدتها التي أحبتها أكثر من نفسها وأكثر من إبنها اللطيف لا بل أكثر من نفس زوجها. فكانت تصبو إلى رؤيتها ليلاً ونهاراً وتنظر إليها بقلب يخفق بالود والشفقة حتى انها بذلك خففت كثيراً جرم مصيبتها. وربما الذي حمل والدتها على هذه المحبة الزائدة هو ضعف جسمها لأنها ربما افتكرت أن زمان وجودها مع ابنتها العمياء الذليلة قصير في هذا العالم.

فقصدت أن تدللها وتسعدها بمحبتها الحارة وأن تقيها من مصائب وشقاء هذه الدنيا الظالمة قبل أن يأتي اليوم الذي فيه يأتيها داعي البين ويفصلها عنها تاركاً استلا العمياء إلى العوارض التي تعرض لها في عالم يعثر فيه من أضاء سبيله نور عينيه.

فبعد ذلك أخذ جسم السيدة ماريانا بالضعف والانحطاط حتى أمست طريحة الفراش وكانت تنتظر حلول أجلها ساعة بعد ساعة بينما كان ينمو إدموند واستلا جسماً وعقلاً حتى إنهما بلغا من الجمال درجة عليا جداً. ففي إحدى الليالي تقدمت استلا ووقفت عند فراش والدتها التي كان قد هجرها ورد خدها وقاربت الانتقال من هذا العالم إلى عالم آخر وراء القبر. وكان زوجها حينئذٍ غائباً دون أن يعلم بالمرض الذي أصابها أو بخطر الموت الذي كان وقتئذٍ يتهددها. ثم تقدم إدموند ووقف بجانب اخته فأخذت والدته توصيه بالاعتناء بها بعد موتها وصية حفظها طول حياته. وبعد ذلك أخذت يد ابنتها وضمتها بيدها وأطبقت أجفانها فغفلت استلا وهي متكئة على فراش أمها فتقدمت خالتها لتأخذها وتضعها على فراشها فعارضتها أمها قائلة بصوت ضعيف: لا تزعجي ابنتي العزيزة بل دعيها تنام بالقرب مني، فإني قد ودعتها وداعاً لا يعقبه اجتماع إلى ذلك اليوم الذي به نلتقي في جنة الأبدية. ثم صمتت وأطبقت عينيها وبعد ذلك فتحتها لتنظر إلى وجه ابنتها المحبوبة ثم أطبقتهما ولم تفتحهما بعد ذلك لترى نور هذا العالم. وهكذا قضت تلك الأم الحنونة نحبها تاركة وراءها في هذه الدنيا المملوءة من الأحزان والأتعاب ولديها قبلما بلغا سن الشباب. فتقدمت عند ذلك خالة استلا وأخذتها إلى فراشها. فاستفاقت من غفلتها وطلبت بلجاجة الرجوع إلى والدتها لأن عينيها المظلمتين لم تنظرا تأثيرات الموت في جسد والدتها التي كانت منذ ساعة تسمع صوتها وتجسُّ يدها الضعيفة. ولذلك لم تصدق انها ماتت وأن غفلة ساعة أخذت أمها عنها إلى الأبد. فطلبت من أخيها أن يقودها إليها. فعند وصولهما إلى فراش والدتهما المائتة أخذت استلا تناديها ولكن ليس من مجيب فارتعدت إذ ذاك فرائصها والتفتت إلى أخيها قائلة: أين هي أين هي. فأخذ إدموند يدها ووضعها على يد أمه التي كانت قد ضمتها قبل أن تفارقها الحياة. فأجفلتها برودة تلك اليد فرجعت إلى الوراء وهي ترتجف وتتشبث بأخيها مستغيثة به وقالت بصوت ضعيف مرتجف: يا ادموند إني لا أستطيع أن أراها فأخبرني عن منظرها هل هو مخيف؟ فأجابها: إن لونها أبيض وجسمها لا يتحرك البتة وعيناها مطبوقتان وشفتاها مفتوحتان. ثم صرخ إدموند قائلاً: يا اماه، يا أماه، هذه ليست إياكِ ثم بكى بكاء شديداً.

وكانت واقفة حينئذٍ خالتهما وراء فراش أختها فقالت لهما: أأخبركما عن حالة والدتكما الحاضرة.

فقالا: نعم. فقالت: إنها قد صارت ملاكاً مجيداً لابسة ثياباً بيضاء كالثلج وهي بحضرة العزة الإلهية تسبح خالقها إلى الأبد بترنيمات سماوية وهناك لا بكاء ولا حزن ولا مرض ولا وجع غير اننا لا نعلم كل صفاتها ولكننا نعلم أنها حاصلة على الراحة والسعادة الأبدية. ثم دعتهما تلك الإمرأة البارة إلى جانبها وأخذت تقرأ لهما من كتاب الله عن الخلود ونصيب المخلصين في السماء وجثة والدتهما ملقاة على فراشها لتزيد تلك الكلمات والمواعظ التي يصعب على أعظم الحكماء إدراك حقائقها تأثيراً في قلبي اليتيمين اللذين لم يخامرهما شر ولا خطيئة. فعزتهما ومن تلك الساعة لم يحسبا والدتهما جثة مائتة في الأرض بل حسباها ملاكاً مجيداً في السماء.

المقالة الثانية

فأثر جداً موت السيدة ماريانا في قلب استلا الحزينة حتى انها لم تجد شيئاً يعزيها عن فقدها. فأخذ أبوها وأخوها يلاطفانها ويعزيانها واستعملا كل ما من شأنه أن يسليها وأظهرا لها حنية ومحبة لا مزيد عليهما. ولكن ذلك جميعه لم يعادل محبة ورأفة والدتها. وذلك لأن لطافة وحنية النساء لا توجدان عند الرجال. أما أخوها إدموند فلم ينس وصية أمه الأخيرة. فكان يعتني بها كثيراً ويترك الملاهي التي يحبها جداً ويأخذها إلى الغابة البهجة، حيث كانت تسمع تغريد الطيور وتتنشق روائح الزهور ومع ذلك كان الحزن مالئاً قلبها، وعلامات الكدر تلوح على وجهها، ولم تجد راحة في عالم لا تقدر أن تراه. وكانت كأن ملاك الموت واقف أمامها يذكرها تلك الوالدة التي كانت تحبها كنفسها. فكانت تتذكر برودة يدها التي جستها وجثتها الملقاة على فراشها. وكثيراً ما رأت ذلك في الحلم. فكانت ترتعد فرائصها منه وهذا هو كل ما تذكرته وعرفته عن التغيير الذي أحدثه الموت في جسد تلك الأم الشديدة الحنو. ولم يكن لها حينئذٍ ما يشغل أفكارها ويلهيها عن الماضي. فكانت دائماً غائصة في بحار التأملات في أمور ماضية. وكانت كأنها بمعزل عن اللذات والأفراح.

فبلغت سن الفتوة وهي على هذه الحالة، وهو السن الذي قالت عنه الشعراء إنه سن السرور والأفراح، السن الذي فيه تبتدىء تفتح أوراقها زهرة الحياة وهي تؤمل بارتقاء درجات السعادة. على اننا نرى أنهم لم يصيبوا في ذلك لأنه لا شيء يوازي أفراح وسعادة سن الصبوة التي طالما يتذكرها الانسان ولو بلغ الشيخوخة فإنها لا تحرك الأسف على الماضي ولا تنعش بالمستقبل. فكأنهم لم يعلموا ان ذلك السن هو سن الأحزان السن الذي تصبو فيه نفس الفتيات إلى الحصول على ما لا تملكه أيديهن وإلى القبض على سعادة لا يعلمن مقدارها وكيفيتها. فنرى هذه تحلم بالغنى والمجد وهاتيك بالتيه والتبرج وتلك بالحب والغرام وهي أشقاهن. وهكذا يصرفن أوقاتهن في التأملات الفارغة وبالبحث عن الوسائل التي توصلهن إلى الغاية دون راحة ولا سكينة وهن لا يعلمن حقيقة عواطفهن ولا يقدرن أن يدركن حقائق الحياة. فتقودهن أفكارهن الزائغة إلى ما لا يعلمن نتائجه. وشهوة النفس تخدع عقولهن حتى يأتي الزمان الذي به يدخلن على الحياة والواجبات التي لأجلها خلقن وحينئذٍ يستفقن من غفلتهن وينظرن إلى شقاء حالتهن.

أما استلا فلما وصلت إلى السن المذكور لم تكن لها أفكار وآمال بنات جنسها لأنها لم تر جمالاً ولا عرفت من الحب غير محبة والدتها الرؤوفة صرفت أيامها وأفكارها لم تتجاوز حدود نفسها حتى بلغت العمر المذكور. فابتدأت التصورات الطبيعية والإشعارات الجسدية تأخذ مركزاً في أفكارها ومسكناً في عواطف قلبها من دون أن تدرك حقائقها. ففي الشتاء كانت تصبو إلى الاختلاء والاصغاء إلى صوت هبوب الأرياح العاصفة حتى كادت تتصور أنها تكلمها. وفي الصيف كانت تجلس في مكان يهب فيه

النسيم المنعش ساعة بعد ساعة تتأمل في نوال السماء وفي الوقت الذي فيه يأتيها داعي البين ويذهب بها إلى والدتها حيث يزول الظلام من عينيها فتشاهدها عياناً. وإذا تغريد طير ونفحة طيب زهر يجذب أفكارها من تلك التأملات ويرجع بها إلى هذه الدنيا فتأخذ في التأمل في سعادة أولئك الذين يتنعمون بها. فيغلب عليها الحزن واليأس وتحني رأسها وتبكي لأنها لا تقدر أن تشترك معهم فيها. وكثيراً ما كانت تجلس وحدها ساعة بعد ساعة تضرب البيانو وتغني بعض ترنيمات قديمة وكان لها صوت جميل يخرق إلى داخل فؤاد السامع ويؤثر هناك تأثيرات محزنة جداً بحسب حالتها. لأنه كان يخرج من فؤاد عذراء طاهر مجروح بسهام مصائب هذا العالم. فلا يشبهه صوت العود ولا نغمة الطيور. فمن لا يصبو إلى استماع صوت نظير صوتها ومن لا يميل إلى من حوت هذه الموهبة الجميلة. وهكذا كانت استلا تطرد عنها بعض أحزان قلبها المملوء من الأكدار الناتجة من عدم حصولها على مقتضيات السن الذي بلغته.

إنه لمن الأمور التي لا ريب فيها ان الانسان يقف أحياناً وينظر شذراً إلى ما مضى من حياته فيرى أن مصائب شتى قد خامرتها فيقول في نفسه انني كنت أكون على خلاف ما أنا عليه لو لم يحدث لي كذا في الأوقات الفلانية. فإن الدهر يذهب بالانسان دون أن يشعر به إلى مراكز منها يقدر أن يلتفت إلى ما وراءه ويرى التقلبات التي حصلت له. فيقول الحكيم المتكبر بمعرفته إن مصدر ذلك جميعه هو النصيب والصدفة. وأما المتواضع صاحب القلب السليم فلا يحاول إدراك هذا السر العظيم الذي يفوق عقول حكماء هذا العالم غير أنه يكتفي أن يعلم أن لذلك جميعه مدبرا في الأعالي جلت حكمته عن إدراكه. وهكذا قاربت تلك الإبنة العمياء الوصول إلى ذلك المركز المحجوبة عن البشر معرفة حقيقته قبل الوصول إليه. وأما الانسان فلا يصل إليه أكثر من مرة واحدة في حياته وهكذا كانت تجري أحواله في الدنيا منذ اليوم الذي فيه هَوِيَ أبونا آدم أم الجنس البشري عندما رآها في جنة عدن. فإن الحب لا يتولى قلب الانسان أكثر من مرة وإن تولاه مرتين أو أكثر فلا بد من أن يكون اشتد عليه أمره في احدى هذه المرات أكثر من غيرها وقد يعرض له ما يكدره من نقض عهد أو تغيير اعتماد أو موت فيتعلق صاحبه بغيره غير أنه لا ينساه وحلاوته تبقى في فيه تأثيراتها. فهذا هو الحب الحقيقي الذي يحدث للانسان مرة واحدة والذي يخلد ذكره. هذا وإن الخواجا براندرث حدث له ما اضطره إلى ترك منزله حيث كان يصرف أيامه في الدرس والمطالعة فذهب من هناك قاصداً السفر في أواسط أوروبا وأخذ معه استلا مع انها كانت قد ألحت عليه أن يتركها في منزلها بقرب طيورها وزهورها. لأنها لم يكن لها ميل إلى الجولان في الدنيا لأنه لا يؤول إلى انشراحها لفقد بصرها بل يزيد همها وغصتها. ولم تعلم حينئذٍ انها بالسفر تقترب من الذي يخفف أثقال حياتها وينقي الهم والحزن عن قلبها الكئيب.

وحيثما ذهب الخواجة براندرث كان يجتمع بأصحاب المعارف ومحبي الآداب ويذهب إلى اجتماعاتهم. وكان يأخذ معه ابنته العمياء وربما ظن أن ذلك هو مما يسرها وأحب أيضاً أن يسمع كل من رآها يحمد جمالها وحسن صوتها الذي قلما أسمعته لأحد. ففي احدى الليالي بعدما كانت ضجرت من الحياة ومن الاجتماع بالناس رفعت صوتها وأخذت تغني. فكان كأنه يفصح عن حقيقة حاسياتها.

فقال أحد الحاضرين باللغة الانكليزية وهو واقف في الجهة الأخرى من المرسح من هي تلك التي تغني. فسمعت استلا كلامه الذي وصل إليها بعدما تجاوز جملة أشخاص يتكلمون بلغات مختلفة. ثم سمعت ذلك الرجل يقول بصوت عذب حلو محزن: اللهم ساعدها، اللهم ساعدها، إنه كان لي أخت عمياء. فجرحت هذه العبارات قلب استلا لأنها علمت ان مصيبتها عظيمة وإنها تستحق الشفقة والرأفة. ولكنها شعرت أن ذلك الصوت يداوي بعد أن يجرح.

فبعدما فرغت من ضرب البيانو قامت من مكانها فتقدم إليها ذاك الرجل الغريب وأخذ يدها وقال لها بلطف: أتسمحين لي أن أوصلك إلي أبيك. ثم طلب منها المعذرة على هذه الجسارة لأنه كان من أبناء وطنها. فبعد ذلك اجتمعا بأبيها فأخبره ذاك الرجل ان اسمه فيليب ارمتاج وانه انكليزي. ففرح به وأنس إليه. وصرف فيليب تلك الليلة في التكلم مع استلا فسرَّتها مسامرة أحد أبناء وطنها في تلك البلاد البعيدة عنه. ولا يبعد ان استلا كانت تحلم أنها تسمع صوته لأنه كان عذباً وحنوناً.

ولم يكن فيليب من أصحاب الثروة غير انه كان الوارث الوحيد لعمه المسن الذي علمه العلوم التي يتعلمها أولاد الأكابر لأجل تثقيف العقل والذهن. ولكنه طرده من بيته بعدما ترمّل لأنه أراد أن يتزوج ثانية. وكان عمر فيليب حينئذٍ خمساً وعشرين سنة. فتركه وحده غائصاً في لجة هذا العالم المخيف. وكان ذا عقل ثاقب وآداب كاملة وخصال حميدة. فلم توقعه تلك المصيبة في اليأس ولا أفضت به إلى الخروج عن دائرة الشرف والاعتبار. وما ذلك إلاّ لأن والدته قبل موتها وهو صغير السن كانت قد أحسنت. وأتقنت أمر تربيته. لكنه بواسطتها عرف بالاختبار الفرق الكائن بين عيشة الأغنياء والفقراء وعلمته التجلّد والصبر والاجتهاد والكد. ومع انها جردته من غناه المالي لم تقدر أن تجرده من غناه العقلي. فلم يتضجر من الحياة ولا مما حصل له لأن مصيبة واحدة كانت غير كافية لأن تستأصل زهور عقله وآدابه وتغرس مكانها أشواك الجهل والتذمر. فإن أمله كان قد خاب من الحصول على ثروة عمه ولكنه لم يخب من الحصول على ثروة بالكد والاجتهاد. وكان ذا حكمة ومعرفة جيدة فهذه هي صفاته الداخلية وأما صفاته الخارجية فيسوغ أن يقال فيها إنها كانت حسنة لأن هيئة وجهه واعتدال قامته كانا يرضيان كل من نظر إليه وكان ذا معان جميلة وحركات طبيعية وفصاحة بليغة. فهذه هي جميع صفات ذاك الذي أوصله نصيبه إلى قرب الابنة الجميلة العمياء التي كانت تشتهي أن تجد من تعلق عليه آمالها وتصوراتها التي كثيراً ما حلمت بها.

وكان فيليب أهلاً لأن تنزل محبته في قلب فتاة لم تدخله قط محبة سواه على خلاف عادة بقية العذارى فإنهن يحببن غالباً في أول أمرهن من لا يستحق تلك المحبة الحارة التي انهمكت بها قلوبهنّ. ولا ريب إن محبتها له كانت حارة وصافية لأنه مال قلبها إليه بحسن عقله وفطنته ورأفته من دون أن يساعده على ذلك شيء من محاسنه الخارجية لأنها لم تبصر منها شيئاً، والتي أسست محبتها على أساس طاهر نظير أساسها لا تزعزعها عوارض الدهر ولا طوارق الحدثان.

المقالة الثالثة

[المجموعة الأولى من أعمال السنة الثانية. ص ٢٦ - ٤٠].

إن أكثر الناس يسخرون بالذين يقولون إنه يوجد أسراراً طبيعية لا يتوصل الانسان إلى معرفة حقائقها تجعل ميلاً بين المتحابين في أول لحظة يتقابلان فيها. فإذا صح إنكار هذه الأسرار فما الذي كان يجعل في قلبي فيليب واستلا ميلاً شديداً إلى بعضهما عند مقابلتهما الأولى. ولم يجتمعا إلاّ بعض مرار قليلة حتى اشتدت الصداقة بينهما جداً وكانا يتسامران كصاحبين قديمين. ومع كونه قد صرف كل حياته في الاجتماع بأجمل وألطف نساء ذلك العصر اللواتي يترقبن فرصة ليرمين الشبان في شرك محبتهن بسحر دلالهن وحركاتهن الجاذبة ولم تؤثر في عواطفه شيئاً فما الذي جعل قلبه ينجذب إلى تلك الإبنة العمياء التي لا تعرف هذه الفنون ولم تعلم بمحبته لها. بل كانت تحسبه كأخ شفوق مخلص قد أنس إليها ليعزيها على مصيبتها وهي في بلاد أجنبية بعيدة عن وطنها ليس لها صديقة ولا أليفة تستأنس بها. فكانا يجلسان معاً مدة طويلة وفيليب يقرأ من كتب نفيسة وينثر عليها من بحر فصاحته درراً مرصعة في صفائح

الآداب والفضائل والنصائح مما يروق به الفكر ويصبو إليه العقل. حتى انها بمدة يسيرة اكتسبت ما زاد معارفها رونقاً وزين فضائلها بجواهر اختباراته العديدة وأيقظها من الغفلة التي أحدثتها لها الصبوة. هذا ولم يظهرا لبعضهما شيئاً من إمارات الهوى. فصرفا أشهراً وهما على هذه الحال وكانت الأيام تمضي عليهما بسرعة لما يجدانه من اللذة والسرور في مسامرة بعضهما. ولم يمض إلاّ برهة يسيرة حتى دخل الغرام في قلب فيليب فأصبح هائماً في هوى ابنة عمياء تفتقر في كل أمورها إلى من يعولها. وكان ذلك مما يزيده إشفاقاً عليها وتعلقاً بها حتى كان يود أن يفتح لها باباً تدخل به إلى فؤاده وتستظل هناك من جميع المشقات والأتعاب التي تتهدد من كانت نظيرها. غير أن قلة ماله أخرته عن إظهار ذلك لها لأنه يعلم انه لا اقتدار له على القيام بكل احتياجاتها. ولو عرف قبل تعلقها به انها ستحبه كما أحبها لكان يفضل الابتعاد عنها على أن يجلب لها الأحزان والمتاعب بواسطة هواها له. لأن مروءته لا تسمح له بأن يستميل إليه قلب إبنة لا يمكنه الحصول عليه بسبب فقره. فجرى الحال معهما على هذا المنوال وكل منهما ينغشّ في كيفية محبة رفيقه له. حتى أتى اليوم الذي قال لها فيه إنه سيسافر من هناك مع الأمير الذي استخدمه. فاستفاقت حينئذٍ من غفلتها وشعرت بشدة غرامها به وحبها له وأخذت تأثيرات الحزن تظهر على وجهها. وشعرت في قلبها بما تشعر به البنات اللواتي يحببنا نظيرها. غير أن ذلك لم يكن من قبيل الندامة والخجل لأن محبتها لرجل تحلى بحلى الفضل والجودة والأدب لم تكن مما تُعيَّر به. ولكنها استصعبت مفارقته والابتعاد عن مؤنس نظيره. فلما أتى في الغد ليودعها اندهش لما رأى أن رونق وجهها قد تبدل بالكمد وان تأثيرات الحزن قد ظهرت في وجهها. فقال في نفسه، إنها تحبني، ولكنه لم يجد ما يثبت له ذلك لأنها لم تظهر محبتها له ولم ير في وجهها وحركتها ما يدل عليها. فأخذا يتكلمان عن متعلقات سفره إلى إيطاليا وعن أحوال تلك البلاد ويتذكران الأوقات التي صرفاها سوية بالفرح والانشراح، ويظهران رغبتهما في قرب الاجتماع ثانية. فقال لها فيليب: إنني أؤمل مداومة صلة الأخبار عنك وانك لا تنسينني. فأجابته: كيف أنساك وأنت هو الذي أبدل حزني بفرح وعزاني على مصائبي، إنني لا أسلوك قط، وسأتذكر رأفتك طول حياتي. فخفق قلبه عند استماع هذه الكلمات وقال لها بصوت يرجف وهو يحاول التجلد: إن كلماتك هذه قد جرحت فؤادي. فأجابته وقد تبسمت كعادتها: إن ما يؤلمك يؤلمني، على انني أشكرك من صميم فؤادي على معروفك ومحبتك وخلوصك. فنهض عند ذلك ووقف وأخذ يدها وتفرس في وجهها مدة طويلة كأنه قصد أن يطبع في ذهنه صورة جمالها البديع. ولكنها وا أسفاه لم تقدر أن تبصر تلك النظرات التي لاحت منه وأفصحت عن شدة تعلقه بها وهيامه في هواها. فقال لها بصوت خرق إلى فؤادها: استودعك الله ثم رفع يدها إلى فمه ليقبلها. ولكنه ردها وخرج من المخدع دون أن يحصل على تلك القبلة التي طالما اشتهاها. فلما وصل إلى الباب الخارجي تذكر أنه لم يودع الخواجة براندرث الذي كثيراً ما أظهر له الود والخلوص. فانثنى راجعاً وقصد مخدعه. ولم يقصد أن يقابل استلا ثانية لأنه لم يكن له طاقة على ذلك بعد أن جرحت فؤاده بكلماتها المؤثرة وعباراتها المزعجة عند وداعها له. ولكنه سمع صوت نحيب منخفض في المخدع الذي ودعها فيه فتقدم إليه وإذا استلا جاثية على ركبتيها وهي محنية الرأس تنوح وتقول بصوت يجرح قلب سامعه: وا ذلّاه لقد هجرتني أمي وواحسرتاه قد فارقني محبوبي. فهاج في حشاه الغرام وشبت نار الحب في فؤاده ووثب إليها وجثا على ركبتيه بجانبها وقال لها بصوت يرتجف وقد ضمها إليه وقلبه يخفق هياماً: أنت لست وحدك يا حياتي ومنيتي فإني لا أفارقك مطلقاً. كيف يفارق الانسان قلبه. أما استلا فكانت تضطرب وتبكي فرحاً وظنت أن ما تراه حلم. فسألها عن سبب ذلك فأجابته لأنني لا استحق محبة فتى جليل نظيرك فإنني عمياء وجاهلة وصغيرة السن. فأجابها وقد قبَّل أجفانها المغطية عينيها المظلمتين: إنني بإعتنائي بك سأنير سبيلك. ثم أخبرها أن سلامة قلبها ولطفها وجمالها حركت فيه ميلاً شديداً إليها وانه كان قد

حاول التخلص من شرك الغرام لعدم اقتداره على أن يعولها ولكنه بعد ما شاهد ما شاهده منها اعتمد رغماً عن الموانع التي أخرته قبلاً عن تتميم مقصده أن يعاهدها على المحبة. وهكذا تعاهدا بأنهما يحبان بعضهما طول حياتهما. فسبحان من قدر لهما الاجتماع وغرس فيهما محبة شديدة نحو بعضهما.

وبعد ذلك رجع فيليب إلى بيته وهو غائص في بحار التفكر والتأمل في ما جرى له مع حبيبته فشددت تلك الأفكار عزائمه وملأت قلبه جسارة واعتمد على ارتكاب الأهوال والمخاطر لتحسين حالته المالية لأنه علم انه من ذلك الوقت وصاعداً يطلب منه الاعتناء بغيره وأن سعادة وراحة تلك التي سلمت أمرها إليه يتوقفان عليه. وتغيرت أفكاره واعتماداته وكان كأنه يرى نجم سعده يتلألأ أمام عينيه وأن مجرد محبته لاستلا تسكب عليه ميازيب السعادة والغنى. وأما فقره فكان يلوح له عن بعد كالخيال فقال في نفسه: إن تزوجت باستلا لا يصعب عليَّ إدراك شيء لأني أقدر أن أحصل على كل ما أشتهيه بالكد والاجتهاد. وهكذا كان يسهل له سحر المحبة كل المصاعب ويملأ كأسه بحلاوة الغرام. فأخذ قلماً وقرطاساً وابتدأ يكتب تحريراً إلى والد استلا به يطلب منه أن يزوجه بها.

فأتاه الجواب الذي به رفض أبوها قبول ما عرضه عليه لأنه لم يقدر أن يسلم بعقد زواج لا يناسب حالة المتزوجين مطلقاً. وأخبره أيضاً انه ندم على ما فرط منه من التغافل وعدم التعرض للمعاشرة التي حدثت بينه وبين استلا وجعلتهما يتعلقان ببعضهما. فكانت عبارته لطيفة مع انها عارية من التجملات التي تحسن تحريراً مثل هذا. فبعد أن فرغ من تكرار تلاوته وفهم عبارته وثب من مكانه وشعر بخفقان في فؤاده واعتراه الحزن وسرى الدم بارداً في عروقه وكاد يغشى عليه لأنه لم يجد فيه وعداً يعلق به آماله لأن ختام التحرير كان قوله: إنني لا أزوج استلا بمن تجرد من الغنى. فوضع يده على وجهه وأخذت أدمعه الحارة تتساقط من بين أنامله. وبقي وهو على هذه الحال حتى أظلم النهار ثم نهض وأخذ يتمشى في مخدعه واليأس قد ملأ قلبه المنكسر وهو يتفكر في ما جرى له وفي تلك التي أمالت إليها عواطف قلبه فاشتهى أن يرى وجهها مرة قبل أن يفارقها وأن يخبرها أنه لن ينساها وأن محبتها لم تزل متسلطة على فؤاده الذي لم يمل قط إلى غيرها. فخرج من مخدعه وقصد خدرها وظلام الليل يستره عن أعين الناس فوصل إلى القرب منه وتقدم بهدوء إلى نافذته ونظر من وراء ستارها. فرآها هناك جالسة وحدها، ولوائح اليأس والغم تلوح على وجهها الجميل. فعلم من ذلك انها قد علمت بما جرى بينه وبين أبيها فدخل إليها من النافذة ووقف أمامها. فجفلت ووثبت من مكانها وقالت له بصوت مرتعد: أهذا أنت يا فيليب. فأجابها: نعم، أتيت لأودع حشاشة نفسي. فلما سمعت هذه الكلمات ابتدأت أدمعها تتساقط كهطل السحاب حتى أن حجارة الخدر كادت تبكي حزناً وشفقة عليها. ثم صرخت قائلة: آه يا فيليب، آه يا فيليب، لا تتركني فإنه لا طاقة لي على مفارقتك، كيف أحيا وأنت بعيد عني، لا تتركني بل خذني معك لأنني إذا حصلت عليك لا أخشى شيئاً، ولا أندم على شيء، يا فيليب، أنت الذي بمسامرتك ولطفك ومحبتك ملأت قلبي سروراً وعيني نوراً، فأنت الوحيد الذي أحبني بعد والدتي. فلما فرغت من الكلام اعتنقته والتمست منه بلجاجة أن يبقى عندها رغماً عن إرادة أبيها وأن لا يبالي بأحد. وما ذلك إلاّ لأنها لم تطق أن تفارق الشخص الوحيد الذي مزج كأس حياتها بحلاوة وسلاها على فقد بصرها وأحبها كما يحب نفسه. وكانت استلا ذات قلب سليم ولم يكن لها اختبار في احوال هذا العالم لأنها لم تكن حينئذٍ قد تجاوزت سن الفتوة. فارتبك فيليب وحار في أمره ولكنه غلب أخيراً على عواطف قلبه واعتمد أن لا يفعل ما يجلب شقاء وهواناً على عذراء سليمة القلب فوضت إليه أن يتزوج بها دون إرادة أبيها. فقال لها بصوت رقيق وفؤاده أوشك أن يتقطع حزناً عليها وهياماً بها: يا مهجتي، لا بد من الافتراق لأن ما أشرت عليَّ به لا يناسب مطلقاً ولا يمكن اجراؤه، ألا

تعلمين ان الله لا يبارك من خالف والديه، أما أنا فحاشا أن أخطف ابنة من بيت أبيها ولو أحببتها مثلك. فصبغ الحياء بياض وجهها ووقفت منتصبة بعد أن كانت متكئة عليه وقالت له بصوت يرتعد: يا فيليب، أطلب منك أن تغفر لي لأن هيامي بك قد أنساني واجباتي نحو والدي ونحوك، وعدم اختباري يعذرني عندك، فاذهب بسلام فإن في ذلك حكمة منك، وتوكل على الله وهو نعم الوكيل، واعتصم بالتقوى وتسلح بالصدق وتسربل بالفضائل، غير أنني أطلب منك أن لا تنساني وأن لا تدع مهمات هذا العالم وزخارفه ولذاته الباطلة تنزع محبتي من قلبك. وأما أنا فسأعتصم بالصبر الجميل، وإني بمجرد التفكر بك وبمحبتك الفائقة التي لا أستحقها أجد معزياً يخفف نوعاً مصيبتي. فابتدأ فيليب يعزيها بكلمات يحلو استماعها. بأن حل في حشاه الغرام ووعدها أنه سيبذل الجهد في الحصول على ذلك الغنى الذي به يحصل على منيته الوحيدة ومهجة قلبه وانه يأمل أن يرجع بعد زمان يسير وقد أخضع المال لسطلته وحينئذٍ يتقدم بجسارة ويطلب أن تزف عليه عروسه. ثم قال لها: انني أحق الأركان في محبتك لي ولذلك لا أطلب منك تكرار تأكيد ذلك والمأمول انك لا تشكين في محبتي لك.

فأجابته: حاشا، حاشا. ثم قالت: أطلب منك أن تزورني ثانية قبل أن تذهب فلا حاجة إلى الوداع الآن.

فودعها بذلك وضمها إليه ثم وثب من النافذة وذهب ولم يخرج حالاً من الحديقة بل حاول أن يتزود لحظة من ذلك الوجه الصبوح حتى رآه وهي واقفة عند النافذة تتنشق النسيم البارد وقد علاه الاصفرار وأزال الحزن رونقه فبعد برهة ذهبت من هناك. وهذه هي المرة الأخيرة التي رأى بها وجه الفتاة العمياء. لأنه لما أتى إلى منزلها بعد أيام قليلة ليراها حسب وعده وجد أن أباها ذهب بها من هناك ولم يعلم أحد مقرها.

المقالة الرابعة

فذهب فيليب أرمتاج إلى ايطاليا وخيبة الأمل قد ملأت فؤاده حزناً وهماً وذكر هوى استلا كان كأنه طيب يتضوع من أزهار لا يغيرها حر ولا برد يجدد في حشاه لواعج الغرام القديم. لأن الحب المؤسس على أس صحيح ومباديء حسنة فاضلة يثبت فلا تنزعه من قلب العاشق طوارق الحدثان ولا تمادي الزمان بل يتمكن بطول التمادي ويملأ قلب صاحبه همة ونشاطاً وأملاً. فلا يندم عليه ولو دهم الموت المحبوب. فإنه طالما يلتذ بذكر الأوقات التي ملأها الغرام فرحاً. وكذا القول في المحبة التي يخامرها الهجر أو تكدرها الخيانة. فإن أتعاب العاشق لا تذهب سدى لأنه يتنشق طيب الهوى وهو غائص فيه ويتذكره بعد أن يخرج منه. فعلى كلا الحالين ينتج له منه فائدة.

وهكذا كانت محبة فيليب لاستلا لأنها جلت صدأ قلبه وأعلمته مقدار قوته وصبره وتجلده وحركت فيه نشاطاً وأملاً كان لولاها ربما تحول إلى كسل ويأس. فإن محبة امرأة فاضلة هي ترس يحتمي به الانسان من نبال الخطيئة ومحرك يحرك فيه النشاط والاقدام. فبعد أن استفاق فيليب من غفلة ألم الفراق اعتمد على اغتنام الفوائد التي يسعفه غرامه على تحصيلها. فإنه كان يعلم أنه بالتهاون والتكاسل والتغافل لا يحصل على استلا بل بالكد والجد. وذلك إنما يكون بتعاطي مهنة تتكفل له بالغنى والشهرة. غير أنه لم يعلم كيف يقدر أن يحصل على ذلك دون وجود الوسائل الموصلة إليه. فأتعبه ذلك جداً وتفكر فيه كثيراً حتى كاد يوقعه في اليأس. غير أنه رأى سبيلاً واحداً لإدراك الغاية وهو طلب الامداد من خاله الذي كان قد طرده من بيته كما تقدم. ولكنه استصعب أن يذل نفسه له. فكان متردد الأفكار. وإذا محبته لاستلا تنتصب أمامه وتقول له لا تتردد لأنك بذلك تنال مشتهاك. فذهب على

الفور إلى انكلترا ودخل دار خاله الذي كان يحبه كثيراً وهو صغير السن. وكان له حينئذٍ سنة لم يدخلها بعدما خرج منها طرداً. فقابله خاله سار فيليب هثكوت بالترحب والتأهل. وبعد أن جلسا وقلب فيليب يضطرب خجلاً لأنه تأثر جداً من المركز الذي أوصله إليه نحسه. طلب منه أن يمده بقليل من المال ليتعلم به الشرائع ووعده بوفاء الدين إن بقي حياً. فأثر جداً تذلله وانكسار قلبه في قلب خاله مع انه لم يكن ذا حاسيات لطيفة. وكان لما ينظر إلى عيني فيليب اللامعتين يتخيل له أن أخته المتوفاة أم فيليب قامت من الموت وكانت تنظر إليه نظرة مويخ على عدم اعتنائه بإبنها حتى أوصله الدهر الخؤون إلى ما وصل إليه من الذل والفاقة. فأخذ يده وضمها بيديه وقال له برأفة: يا ولدي العزيز أخبرني لماذا ترغب أن تتعلم الشريعة.

فتحركت في قلب فيليب محبة خاله القديمة وأزالت كل كبريائه وأخبره أنه يرغب ذاك لتحسين أحواله للحصول على محبوبة صبا إليها وأعلمه بكل ما حدث له وأخبره صفات محبوبته.

فقال له خاله: إن في هذا جهالة، كيف تقدر أن تصرف حياتك بالهناء والرغد مع زوجة عمياء؟ أما تعلم أن مصائب هذا الدهر كثيرة وأن حوادثه مخيفة.؟

فأثرت هذه الكلمات في قلب فيليب وحركت فيه حاسيات الكبرياء والتعظم وأجابه بغضب إنني طلبت منك معروفاً فإذا شئت أن تمنَّ عليَّ به شكرتك وإلاَّ فأذهب عنك بسلام.

فأجابه خاله يلزم أن نتبصر في . . . . وإذا صوت حفيف ثياب امرأته الشابة الجميلة طارق أذنيه. ثم دخلت وهي تجر أذيالها وتتيه عجباً ودلالاً لأنها كانت من أهل القصف والزيف فنهض خاله وأخذ يده ثانيا وقال له بصوت منخفض: لا تقل شيئاً على مسمع منها فإني أعطيك كل ما تريده. فالظاهر أن خاله الأمير الغني الكبير السن الذي كان حينئذٍ مغرماً بإمرأته الجديدة المدللة نظير كل من تزوج وقد أفنى الدهر أكثر أيامه لم يكن قد تجرد من كل الصفات الحسنة.

فأخذ فيليب في درس الشرائع باجتهاد شديد وإن يكن ذلك على خلاف مشربه لأنه لو عرض عليه أحد درسها وهو يتعلم العلوم الحكمية والتعليمية في المدرسة قبل خروجه من بيت خاله طرداً لأبى أن يتعلمها لأنه كان يحسبها من العلوم التي لا تلذ للمتعلم. ولكنه قصد درسها للحصول على غاية لا يتأخر عن بذل نفسه لأجلها. فبقي على هذا الحال أشهراً عديدة وكان كلما ضجر من الدرس تحول بينه وبين الصفحة التي كان يتصفحها معاني استلا الجميلة وثغرها المتبسم مسهلة المصاعب والمتاعب التي كان يتكبدها. ولم ينتبه كثيراً في النهار للتفكر في محبوبته لأن مهماته كانت تلهيه عن ذلك. ولكن افتكاره بها كان في الليل عندما كان يلقي جنبه إلى الفراش ليريح جسمه من أتعاب النهار. حتى انه قلما مضت ليلة دون أن يزوره فيها خيال استلا. فأخذت هذه الأفكار تتناقص مع تمادي السنين غير انها لم تذهب بالكلية ومما قلل آماله من الحصول على استلا هو عدم معرفته مقرها أو من يقدر أن يدله عليها. ومع ذلك كان له أمل وطيد بأنه يصدفها يوماً ما. فلم يتعلق بغيرها. بل كان يلوح له حبها عن بعد كالخيال.

وما زال على هذا الحال حتى بلغ درجة عليا من المعارف والفصاحة وهكذا تخلص من الإتكال على خاله وذاع اسمه في البلاد واشتهر. فكان أعظم الحكماء والبلغاء يقدم له الاعتبار والاحترام اللائق بذلك الذي كان قبلاً شاباً غائصاً في بحار الهوى والغرام وصار عالماً يدهش العلماء بفصاحة لسانه وبلاغة معانيه وعلو أفكاره وانتظام عباراته التي لم يخامرها لفظ ركيك ولا معنى سخيف. ولم يكن يتلفظ بما يشين رجلاً حكيماً عالماً نظيره. وكان ينتصر للحق والاستقامة ويظهر ببلاغته حسن الشرائع

ومناسبتها وبلاغتها. وليس ذلك فقط بل حصل على ما كان يصبو إليه منذ صغره وهو أن يكون مؤلفاً فبرع في هذه الصناعة وأجاد تحسينها وترتيبها وبلغ درجة لم يسبقه إليها غيره. فكانت مؤلفاته منتشرة في كل البلاد لتزيد اسمه شهرة وتكسبه اعتباراً لا يحصل عليه من ملأ الذهب خزائنه لأن اعتبار هذا إنما يكون خارجياً فقط وأما ذاك فيكون حقيقياً. وكانت قصائده تجوب البلاد فكان الرجال يصبون إلى استماعها والنساء يترنمن بها. ولم يسمعها أحد حتى يمدح ذلك العالم الشاعر الذي كان ينتصر للمبادىء الأدبية وللحق والذي كان نظمه إنموذجاً تقتدي به الشعراء. فإنه لم يكن مجرد تنظيم كلمات مع بعضها وانتساق أبيات وقوافٍ بل كان محتوياً على معان تكسب قارئه حكمة ومعرفة وأدباً.

المقالة الخامسة

[المجموعة الثانية من أعمال السنة الثانية. ص ٦٧ - ٧٥].

وكان فيليب أرمتاج يزور كثيراً الخواجا لِيل وامرأته لأنه كان ينشرح بمسامرتهما ويستأنس بمقابلتهما. وكانا قد تزوجا بعد أن شاخا، وأحبا التنزه والاجتماع بمن زين الأدب والعلم عقولهم وأفعالهم. أما السيدة لِيل فكانت امرأة لطيفة ذات آداب وأخلاق رضية يميل إلى محبتها كل من رآها. ولم تكن كاللواتي يتجنبن مجالسة الفتيان والفتيات بل كانت تحب مسامرتهم جداً وتتأهل بمن زارها منهم وأعدت لاستقبالهم قاعة مملوءة من التحف الجميلة والصور التاريخية والمصنفات النفيسة مما يروق به العقل ويلتذ به الجسم. ومما كان يزيد تلك الأشياء رونقاً وبهجة اكرامها ضيفها ورقة جانبها. وكانت ذات صورة حسنة وقلب سليم تحب الجميع وتصبو إلى كل ما كان جميلاً وتنشط من خيبة الأمل قللت همته وأنقصت نشاطه وتعزي الحزانى وتفرح مع الفرحين. وكانت تحب فيليب حباً شديداً وتعزيه على مصائبه وتنفي بلطفها أحزان قلبه.

ففي أحد الأيام أتى فيليب ليزورها فوجدها في حديقتها التي كانت تعتنى بها جداً. وكانت مملوءة من الأشجار المزينة أغصانها بأشهى الأثمار ومن الأزهار التي تنشر طيباً يدخل مخادع منزلها البهج. فقالت لفيليب تقدمني إلى القاعة وعن قريب أتبعك. فدخل القاعة وإذا فتاة جالسة في الجهة الأخرى منها وفي يدها كتاب تتصفحه وهي محولة قفاها إلى جهة الباب. فتردد فيليب عن الدخول وقد أدهشته رشاقة قامتها وحسن هيئة رأسها ولون شعرها الذهبي ورونق وجنتها المائلة إلى جهة الباب. فتفرس برهة فيها على انه لم يعرفها. فتقدم خطوة نحوها فالتفتت إليه وسلمت عليه كما تسلم على رجل غريب وذلك بإحناء الرأس قليلاً. فلما رأى وجهها أجمع عرف أنها محبوبته استلا بعينها. فأخذ قلبه يخفق وسرى الدم بارداً في عروقه وتردد عن أن يتقدم إلى تلك التي كان لا يتأخر قبلاً عن معانقتها عند السلام عليها. وخاصة لأنه رأى ان تمادي الزمان زادها رونقاً وجمالاً وأرجع إلى عينيها الزرقاوين النور الذي كان قد هجرهما وهي في سن الصبوة. فبعد أن وقف برهة يتعجب مما يراه قال لها بصوت مرتجف: أنسيتِني. فلما سمعت ذلك الصوت وثبت من مكانها وثبة مندهشة وتفرست في وجهه تفرس مضطربة، هذا وقد علا وجهها الاصفرار ثم الاحمرار.

فقال لها ثانية وقد ضم يديها بيديه: يا استلا أنسيتِ فيليب أرمتاج؟

فصرخت استلا قائلة وقد تفرست جيداً في وجهه وألقت رأسها على كتفه: كيف أنساه كيف أنسى حشاشة نفسي وغاية مطلوبي؟ فضمها إلى صدره الذي كان حينئذٍ يخفق فرحاً وبهجة فأذرفت عليه دمع سرور وحبور. ثم نهضت رأسها ونظرت إلى وجهه نظرة مشككة وسألته قائلة: يا فيليب ألم تنسني؟ ألم ينف الهجران وطول الزمان محبتي من قلبك؟

فنظر إليها نظرة مندهش وقال: حاشا، إنني أرى أن تمادي الأيام قد أحدث فيك أنت تغييراً وليس فيَّ.

فأجابته وقد لاحت على وجهها لوائح السرور: نعم، قد أزال الظلمة التي كانت تغشي عينيَّ.

فبعد ذلك جلس العاشقان وقد أخذ كل منهما يد رفيقه وابتدآ يتحدثان عما حصل لهما منذ افترقا. فأخبرته استلا انه بعد أن فرقتهما أيدي الزمان كانت تطوي الأيام والسنين دون أن تسمع خبراً عن الذي أحبته نفسها. وبعد مدة من الزمان رجع بها أبوها إلى انكلترا حيث طبب عينيها طبيب ماهر وأزال بحذاقته الظلام عنهما. فأبصرت جمال الطبيعة التي أحاطت بها واشتركت مع أهل هذا العالم باللذات والأفراح التي كانت محجوبة عنها. ومع ذلك لم تنسه. على أن محبته كانت تلوح أمامها كخيال ضعيف. فأوشكت أن تيأس من الاجتماع به ثانية. وبعد ذلك توفي أبوها الذي كانت تشتد محبته لها يوماً فيوماً حتى قضى نحبه. أما أخوها النبيل فذهب إلى الهند وتركها وحدها عند خالتها السيدة لِيل.

لا يخفى إنه من بعض خصال النساء الطبيعية أن لا يطلعن من يحبهن على حقيقة جميع أفكارهن وأميالهن وأحوالهن وهكذا فعلت استلا لأنها لم تخبر بأنها كانت تهيم بمحبته ليلاً ونهاراً مسلية نفسها بأمل التلاقي. ولا بأنها كانت أحياناً تتوهم أن طول الفراق نزع محبتها من قلبه وأدخل إليه محبة سواها ولا بأنها كادت تطير فرحاً لما كان يبلغها أخبار نجاحه وبلاغته وشهرته في كل البلاد. ولا بافتخارها لأنها ملكت عواطف رجل نظيره. وأخفت عنه أموراً أخرى كثيرة مما يفتخر بها النساء عندما يبلغ من يحبها درجة قصوى من الشهرة والمعرفة والمجد.

وبينما هما يتحدثان عن أمور مختلفة دخلت السيدة لِيل فوقفا عن الحديث الذي كان يطيب به قلبهما. وأطلعاها على جميع ذلك وقصا عليها أخبارهما. فسرها ذلك جداً وخاصة لأنها كانت تحبهما كولديها. فجددا عهودهما القديمة على دوام المحبة. ولم يؤخرهما حينئذٍ عن أن يتزوجا غير عدم حصول فيليب على المال الذي كان قد أفرغ جهده للحصول عليه. ولم يرد أن يعتمد في ذلك على استلا التي ورثت مالاً جزيلاً من أبيها. بل كان يشتهي أن يقوم بكل احتياجاتها دون أن يفتقر إلى مساعدتها. ففي أحد الأيام بينما كان يتكلم عن ذلك أجابته استلا وقد لاحت على وجهها لوائح الغرام والحب إن التي تملك قلبها لغيرها تملكه أيضاً كل مالها. ثم قالت له: يا فيليب ألا تذكر إنني التمست منك قبلاً أن تخطفني من بيت أبي ولكن شرفك وجودة عقلك منعاك عن ذلك لأنك لم ترد أن تجلب عليَّ شقاء. وكنت حينئذٍ فتاة صغيرة جاهلة. أما الآن فقد أرشدت وأقدم لك نفسي مع كل مالي وأعد من أكبر البركات الحصول على محبة رجل مثلك يفوقني في جميع ما يفتخر به الانسان من جودة العقل والفضل والعلم. وهكذا مكنا علائق الحب بينهما ولم يحصل لهما ما يكدر محبتها بل أخذ الوداد يزداد بينهما يوماً فيوماً. فكانا كأنهما شخص واحد يصرفان أوقاتهما بالفرح والحبور وهما مشرفان على حياة جديدة ينظران إلى مستقبلهما وينبوع أمل التوفيق والسرور يفيض عليهما أفراحاً كانت تجعلهما يؤكدان أفول نجم نحسهما واشراق نجم سعدهما. وكان فيليب ينهي أشغاله كل يوم قبل الغروب ويأتي إلى منزل السيدة لِيل. أما استلا فكانت تنتظر قدومه في ذلك المكان البهج الذي كان يشبه جنة عدن في حسن انتظامه وجماله. فكانا يذهبان إلى الحقول الخضراء المجاورة له ويتحدثان عن الماضي والمستقبل والفراق والتلاقي والحب والعلم والأدب والفضيلة إلى غير ذلك مما يروق به الفكر. وعند الغروب كانا يرجعان إلى المنزل. وكانت تلاقيهما إلى الباب السيدة ليل وهي تبتسم فرحاً وتتأهل بهما. وكانا يدخلان القاعة

ويصرفان الوقت إما بالقراءة وإما باستماع تلك الأغاني التي كانت تغنيها استلا لمحبوبها قبل أن أبصرت ولم تنسَ منها شيئاً حتى ولا تلك التي كانت سبباً لجمعهما في القاعة كما تقدم.

أما قوى استلا العقلية فكانت حينئذٍ على غير ما كانت عليه وهي في سن الصبوة فإنها تجردت من تلك التصورات الفارغة. لأنها كانت قد اكتسبت كثيراً من المعارف والآداب التي كان يفيضها عليها فيليب منذ صادفها. فبلغت درجة عليا من المحاسن والآداب التي تزيد اعتبارها في عيني خطيبها. أما فيليب فلم يعلم أنه كان ينبوع تلك الآداب والخصال الحميدة التي زينت بها محبوبته اللطيفة. لأنه مما لا جدال فيه ان الفتاة في الغالب لا بل على الاطلاق تكتسب خصالاً وطباعاً من الذي تنزل محبته في قلبها في أول الأمر وتطلعه على حقيقة أميالها. فإن حصل الاقتران بعد ذلك تفيض على المتزوجين بركات التوفيق، على انه ان لم يسبق تبادل الأفكار والاشتراك في الحاسيات الاقتران لا يمضي زمن طويل بعده حتى يكدر اختلاف الأميال وتباين الطباع حياة المتزوجين ولو أحبت استلا شخصاً دونها في الآداب والمعارف والعقل لما وصلت إلى ما وصلت إليه. بل كانت خسَّرتها معاشرة من هو دونها أدباً وعقلاً أكثر خصالها الحميدة ومزاياها الأدبية. ولكن مما تقدم يتضح أن معاشرتها لذلك الشاب الفاضل نزع منها الخصال التي تشين من ستكون زوجة رجل كريم نظيره. على انها لم تجردها من سلامة القلب والتواضع. هذا ولم تفتخر استلا بحسنها الفتان وجمالها البديع الذي فاقت به جميع أقرانها. ومع ذلك كانت تبدي من الدلال واللطف ما كان يزيد خطيبها تعلقاً بها. ويؤهلها لأن تكون زوجة له. فهذه هي صفات عروس فيليب التي زفت عليه في أوائل فصل الخريف بعدما حصل ما حصل لهما من المصائب والمشاق.

أعضاء غير محلية

[المجموعة التاسعة من أعمال السنة الأولى. ص ٣٣٣].

علي بك حماده

علي أفندي أبو خزعل

أعمال
الجمعيّة العلميّة السوريّة

١٨٦٩
السنة الثانية

المجموعة الأولى ـ السابعة
٨ و٢٠ ك٢ ـ ١٣ و٢٥ أيار

المجموعة الأولى من أعمال السنة الثانية

[بيروت: المطبعة العمومية، ١٨٦٩. ص ١-٤٠].

بناء على حلول السنة الثانية من أعمال الجمعية العلمية وتوفيقاً لأصولها المقررة حصل في اجتماع عمومي يوم الأربعاء الواقع في ٩ رمضان سنة ١٢٨٥ هـ و٨ و٢٠ كانون الثاني سنة ١٨٦٩ م انتخاب العمدة المنوطة بها إدارة أعمال الجمعية فكان حسين أفندي بيهم رئيس وسليم أفندي بستاني نائب رئيس والخواجا الياس كركبه والخواجا حنين الخوري وعبدالرحيم أفندي بدران مميزون والخواجا سليم شحادة والخواجا موسى فريج كاتبان. والشيخ ابراهيم اليازجي وسليم أفندي الخوري مصححان والخواجا عبدالأحد خضر أمين صندوق والخواجة جرجس الجاهل أمين مكتبة ويوسف أفندي شلفون مدير أشغال. ثم بعد ذلك الانتخاب العمومي المقرر عليه بأكثرية الأصوات تقدم جناب حسين أفندي بيهم وأتى بخطاب شفاهي على غيرة الأعضاء بتجديد اشتراكهم مع الحث على مداومتها في أثناء هذه السنة. ثم تقدم أيضاً سليم أفندي البستاني وأخذ بخطاب شفاهي يظهر للجمهور حالة الجمعية عن السنة الماضية وما تؤمله من النجاح هذه السنة مع تحريض الغيرة على أعضائها. وبعد ذلك تلى الخواجة حنين الخوري خطبة في الزراعة وفي هذه الجلسة تولج المعلم سليم كساب بخطبة في الصناعة وتولج الخواجة موسى فريج للرد عليه ان وجد محلاً للاعتراض.

ولقد تقدم في افتتاح هذه السنة تشخيص رواية نقض العهود المشتملة على فصلين تأليف الخواجة سليم شحادة فقوبلت بالسرور من الأعضاء والجمهور لما احتوته من المعاني والآداب اللطيفة وقد أحسن المؤلف في تأليفها على نسق الكومادية. وتقدم هذه الرواية خطبة وجيزة صرحت عن حالة الجمعية وأعمالها ستأتي في آخر هذه المجموعة.

الخطبة التي تلاها الخواجة حنين خوري في الزراعة

[المجموعة الأولى من أعمال السنة الثانية. ص ٢ - ١٤].

أيها السادة،

إن الزراعة كما هو معلوم لديكم هي صنعة حرث الأرض وإيراثها الخصب والصلاحية لانتاج النباتات النافعة للانسان وقد يضاف إليها أيضاً صنعة تربية وتكثير المواشي هذا هو تحديد الزراعة فيظهر من هذا التحديد ان الزراعة صنعة بسيطة جداً سهلة الممارسة وهو بالواقع كذلك لكن الأوروبيين الذين لم يمارسوا صنعة إلاَّ وَرَقّوها أوج الارتقاء قد وسعوا دائرة هذا الفن وجعلوا له جملة فروع.

الفرع الأول - زراعة البستان وموضوعه إتقان زراعة النباتات المعدة سواء كان للزوميات الضرورية أو للذاتنا ويتضمن: أولاً: معرفة الأراضي وأنواع السواد والأدوات المستعملة في زراعة البساتين. ثانياً: معرفة طرائق الغرس الاغتصابي أعني إجبار النباتات المزهرة والمعقدة لأداء محصولاتها قبل أوانها الطبيعي بوسائط عديدة منها استعمال المشتا للنباتات وهو بيت من زجاج والمشتا المسخن ويوقدون به ناراً تحت الأرض وكذلك استعمال سواد الخيل والغنم بحال خروجه من الاسطبل والصيرة. وسواد الخيل الممزوج بسواد البقر وورق العريش وتفل العنب المعصور وغيره والسواد

المطموم والسواد الموضوع ضمن صناديق خشب، الخ. ثالثاً: معرفة غرس النباتات التي للأكل والتي للزينة غرساً بسيطاً وغرساً اغتصابياً. رابعاً: معرفة ترتيب بستان الخضر وبستان الأشجار المثمرة وبستان الزهور والمشتا، الخ. ويوجد في باريس جمعية مخصوصة بهذا الفرع من الزراعة مؤسسة منذ نيف وعشرين سنة تفرق سنوياً جوائز على الذين يبرعون في هذا الفن في فرنسا حتى انه باعتناء هذه الجمعية قد حصل هذا الفن درجات عجيبة وقد شاهدت عياناً ما أذهلني من عجائب هذا الفن في فرنسا وانكلترا يكفاهم فخراً ان الانسان يجد هنالك كلما يشتهيه من الثمار والزهور بأوانها أو بغير أوانها ويمكنه أن يقطفها بيده عن أمها.

الفرع الثاني ـ زراعة الأشجار وموضوعه أنواع الاعتناء العمومي بالأشجار جملة كانتخاب الأراضي الموافقة وتأهيلها وطرائق تعيش الأشجار وتجديد نبتها بواسطة المزارع للبزورات أو المشاتل والتفريخ الذي ينقل ويزرع في مكان آخر والانسال أي تنيم الغصن في التراب لكي يفرِّخ من طرفه والتغريز أي قطع الغصن وغرزه في الأرض والتطعيم الذي له شروط خصوصية ويكون على أشكال عديدة أكثرها مجهول عندنا. وأنواع الاعتناء المخصوص بكل جهة من أجناس الأشجار بمفرده.

الفرع الثالث ـ زراعة الأحراج وموضوعه غرس الأحراج على الاستمرار.

الفرع الرابع ـ زراعة العنب وموضوعه الاعتناء بزراعة كروماً وعرائش عالية وواطية وغير ذلك وهو فرع مهم.

الخامس ـ علم تدبير البرية وتضمن معرفة أصول الزراعة الأصلية أي زراعة الأغلال وتربية المواشي والتوفير المختص بالزراعين والأخذ والعطاء بمحصولات الأرض، الخ.

وأما الزراعة فقديم عهدها جداً منذ كان الجنس البشري في مهده قيل أنها ابتدعت حينما المواشي لم تعد تكفي ولا الصيد لاقتيات الناس فكانت معروفة في أقدم الأعصر بآسيا ومنها امتدت إلى أقاصي الأرض واعتبرها الناس في كل مكان كمرضعة الجنس البشري وولية نعمته. وكان المصريون ينسبون ابتداعها إلى الإله أزيس واليونان إلى الآلهة فيريس وترتيوليموس ملهماً من الآلهة المذكورة. والطاليان إلى الإله ساتورن (زحل) أو إلى جانون أقدم ملوكهم ويزعمون أنه أضاف زحل في بيته فألهمه بالزراعة وأما أهل الصين فالزراعة عندهم من عهد لا يحصى كفرع من العبادة. وقد احتفل الرومانيون بالزراعة في أحسن مدات جمهوريتهم فكان أعظم الرجال قدراً يفلحون أراضيهم بأنفسهم. وقد أهملت الزراعة في أوروبا مدة طويلة في القرون المتأخرة حتى كادت أن تضمحل ولكن من نحو مائة سنة قد صار تجديدها وتنشيطها بواسطة اعتناء العلماء الفرنساويين والانكليزيين واكتشافات الكيمياء. واستمرت على التقدم والنجاح يوماً فيوماً حتى ارتقت إلى الدرجة الحاضرة. فقد صار استبدال الطريقة القديمة المخسرة بأن تريح الأرض عاماً فأقل بالطريقة الجديدة وهي تغيير أصناف المزروعات مع مداومة تشغيل الأرض بدون انقطاع فإنهم تأكدوا بالاختبار بأن الأرض إذا امتنعت عن إعطاء صنف ما على التكرار لم تمنع قط عن إعطاء سائر الأصناف. وقد اصطلحوا على طرائق حسنة للسقي وعلى أنواع جديدة من السواد ومما يكسب الأرض خصباً وقد أصلحوا وحسنوا أوائل الحراثة إلى أعلى درجة واخترعوا أوائل جديدة لأجل الزراعة وماكنات يطول ذكرها وجعلوا في أماكن عديدة من أوروبا قطعاً من الأراضي المتقونة الزراعة غاية الاتقان نظير مثال يذهب إليها الراغبون ليدرسون ويتعلمون فيها أن يتقنوا زراعة أراضيهم كاتقانها وفتحت مدارس للزراعة وتأسست شركات لتحسين وترقية كافة طرائق هذا الفن وهذا التقدم حصل بمساعدة الحكم واجتهاده وسعيه في كل مكان فإن حكومة فرنسا قد رتبت منذ سنة

١٨١٩ ديواناً للزراعة موكلاً بالفحص عن كلما يؤول لنموها مع تفريق جوائز للبارعين وفي سنة ١٨٣٠ قد صار ترتيب وزارة الزراعة وأخيراً في ٣ ت ١ سنة ١٨٤٨ م قد وضعت شريعة تأمر بتنظيم تعليم الزراعة وإيجاد أراضي مزروعة على شكل مدارس في جميع أقسام فرنسا التي هي تسعة وثمانون قسماً ومدارس إقليمية كبيرة وجمعية علمية للزراعة، الخ. فهكذا حكومة فرنسا لم تترك واسطة ما إلا واستعملتها لغاية نجاح وترقي الزراعة في بلادها. كيف لا والزراعة هي أساس نمو الشعوب وغناها ورأسمال الحكومة على نوع ما ولذلك ينبغي مراعاتها والاعتناء بترقيتها ونجاحها وبدون هذا تخسر عموم الأمة خسارة بليغة وعلى الخصوص إذا كانت الزراعة على الحالة القديمة ولم تنشطها الاكتشافات والاختراعات الجديدة وكامل الوسائط المفيدة التي تضاعفت مراراً محصولها مع وجود فائدة فاحشة للمال أيضاً فالزراعون إذ يرون أن أتعابهم تذهب سدى لدفع المرتب وفوائد الأموال التي يستقرضونها وأحياناً يرون الدين متراكماً عليهم أيضاً بالتتابع فيلتحق بهم العجز والتقصير ويقل عزمهم ويضعف أملهم وبدل أن تنمو وتكثر زراعتهم تضعف وترجع إلى الوراء وتكاد أن تتلاشى بالكلية.

ثم لا يخفى أن الزراعة هي أشرف وأحب صنعة على الانسان والأكثر إحساناً إليه. نعم انه يقتضي لها أعمال شاقة ولكن تلك الأعمال الشاقة نفسها تقوي الجسم وتحسن الصحة كما هو معلوم لديكم فضلاً عما يرافق هذه المهنة من راحة البال وعدم مكابدة الأخطار التي تلتحق بالتجارة وعدم الاحتياج كثرة الرأسمال الذي يحتاج إليه التاجر. فإن قليلاً من الرأسمال يكفيها لأجل المصاريف وربحها أرجح من خسارتها على الدوام حتى انني أقدر أن أقول بأنه إذا حصل الاعتناء اللازم والتوفير الضروري من قبل الزراع لا يمكن أن يوقع خسارة مطلقاً والمقصود أنه لا ينكسر شيء على الزراع ومع المثابرة والاجتهاد والتوفير لا بد من الحصول على الثروة بأكثر أمن إن لم يكن بأقرب وقت من التجارة فإن التاجر قلّ ما يصدفه بأنه لا يفقد رأسماله وينكسر عليه مالاً جزيلاً أيضاً وأما الزراع فإذا تداولته النحوس جملة سنين متتابعة وتراكمت عليه الديون، فجلّ ما هناك يبيع أرضه فيفي دينه وربما يبقى معه شيء ما يكفيه لاشتراء أرض صغيرة فيجدد العمل. وهذا على سبيل الافتراض فقط لأن هكذا ظرف نادر وقوعه جداً إن لم يتخلله أسباب أخر غير النحوسات كالاسراف وعدم الاعتناء الواجب وما شاكل ذلك. ويوجد بعض شواهد التي وان كانت نادرة في الوقت الحاضر لكنها لدى من يعتبر تكفي للاقناع بأن الزراعة تكافىء من يتعاطاها باعتناء واجتهاد أوفر المكافأة وبأن ثمرتها عظيمة جداً وتستوجب الالتفات وعدم الاستحقار. فعلى ظني إن أغلب الحاضرين هنا يعلمون جيداً كمية المدخول الذي تعطيه سنوياً إلى جناب الطبيب دومبروولسكي جنينته الصغيرة التي بلصق مسكنه فإنه يستغل منها نحو العشرين ألف غرشاً في كل عام. فهذا المدخول في بلادنا هو نادر وعجيب بالنظر إلى صغر الجنينة المذكورة وأجناس من النباتات المزروعة بها التي هي من الأشجار المثمرة والبقول والزهور فقط لا غير فما ذلك إلاّ من شدة الاعتناء والملاحظة وعدم التهاون وعلى الخصوص من المثابرة على العمل ومداومة الالتفات إليها بلا فتور فمن منا لا يشتهي أن يكون عنده بستان مثل هذا يحتوي على عدد مختلف من الأشجار والبقول النافعة والأزهار الزكية يمكن الافتخار به أمام الأقران وفي الوقت عينه يستغل منه عشرين أو عشرة آلاف غرشاً سنوياً؟ لا شك أن كلاً منا يرغب ذلك ولا ريب أننا أكثرنا نقدر على إتمام هذا المرغوب إذا قصدنا، أي إذا قصدنا أن يكون عندنا قليل من النشاط والهمة والصبر على مداومة العمل. ثم إن لا يخفاكم أيضاً ما قد حصل عليه (على ما أشيع) من الثروة في مدة أعوام قليلة أحد أبناء وطننا الذي ذهب منذ بعض سنين إلى أرض البقاع تاركاً وطنه مضحياً إلى الزراعة لذات العيشة المدنية ومشتغلاً بالفلح والزرع وتربية المواشي فإنه لم يلبث دون أن جنى ثمار أتعابه واجداً في الزراعة مع

الهدوء وراحة البال الرفاهة والغنى بدون مكابدة الأخطار التي تطرأ على التاجر. فهذان الشاهدان اللذان اقتصر على ذكرهما يظهران للعيان ما في الزراعة من الفوائد إذا حصلت معاطاتها مع الاعتناء والاتقان والمثابرة فيا للعجب مع جودة أرضنا أرض الميعاد وكثرة خصبها وغناء ترابها وصحة هواءها ومناخها، كيف الزراعة قد أهملت فيها إلى هذه الدرجة، فإن المحصولات التي تخرج من البلاد السورية ليست العشر مما كان يمكن اخراجه منها لو كانت الزراعة بحالة الرواج والاتقان. فكم وكم من السهول المتسعة والوديان والبقاع الخالية من النسمة الحية المتروكة لأعشاب البر يمر عليها المسافرون الأجانب فيتعجبون من إهمال أهل هذه البلاد وعدم اكتراثهم بالزراعة وتركهم هكذا أراضي واسعة غنية تسقيها الأنهار فضلاً عن الغمام لوحوش البر وطيور السماء. وقبل أن أنهي خطابي هذا الوجيز يخطر لي أن أقدم إلى الجمهور بعض أفكار ربما كان من شأنها أن تساعد في نمو الزراعة وامتدادها. وهي أن يحصل السعي من قبل أعضاء هذه الجمعية في تنظيم شركتين متألفتين ليس فقط من الأعضاء بل من بقية الجمهور في هذه المدينة أيضاً إحداهما لأجل تأسيس مدرسة للزراعة واستجلاب معلم ماهر من أوروبا والمباشرة بزراعة قطعة من الأرض بجوار المدينة على نسق الأماكن المقدم ذكرها في أوروبا، أعني لكي تخدم كمثال للراغبين من أرباب الزراعة، والحكومة السنية لا تتأخر عن إبداء المساعدة لهكذا مشروع فوائده تعم البلاد وتتوطد راحتها ورفاهيتها والسلام. ثانيهما شركة زراعية يكون لها عمدة ذات لياقة وكفاية لأجل إدارتها وتكون مؤسسة على عدد كثير من الأسهم قيمة كل سهم مثلاً خمسمائة غرش أو أقل يدفع منها النصف سلفاً من كل من المساهمين ويصير مشترى أو استئجار أراضٍ وزرعها لحساب الشركة ويصير تقويم الحساب السنوي إلى المساهمين من العمدة عن عموم المصاريفُ وأرباح الشراكة وتوزيع الأرباح عليهم فالمظنون أن شركة مثل هذه إذا كانت متقنة الإدارة ومبنية على الاستقامة والغيرة الوطنية لا بد من نجاحها فضلاً عن أنها تحرك عند بقية أبناء الوطن الميل إلى معاطاة الزراعة ويتولد منها تأليف شركات أخرى نظيرها. هذا ما رأيت أن أدرجه باختصار في ذيل هذا الخطاب مؤملاً استجلاب الأفكار إلى جهة الزراعة التي هي الأساس الأول لتقدم ونجاح الوطن. لأن البلاد التي تتقوى زراعتها ويكثر غناها ويزداد نموها فتسابق في ميدان التمدن بقية الشعوب.

قوميسيون لأجل الفحص عن أصول الزراعة

إنه في شهر آذار سنة ١٨٦٦ م قد صار عمل قوميسيونات في فرنسا لأجل الفحص عن أصول الزراعة في أقسام المملكة وانتهى ذلك في أوائل سنة ١٨٦٧ م وصار تسمية رؤساء القوميسيونات من وزير الزراعة وأكثرهم من أعاظم رجال الحكومة ومشيريها ووكلاء الشعب وقد تقدم إلى القوميسيونات المذكورة من عموم أهل الزراعة في فرنسا من ثلاثة آلاف وخمسمائة إلى أربعة آلاف تقرير شفاهي مما يتعلق بالزراعة وبمقدار ذلك خطاً وقد صار تلخيص المواد جميعها من مدير الزراعة في وزارة الزراعة والتجارة بكتاب مطبوع قطع ربع محتوٍ على ٣٥٠ صفحة وقد وجد ضرورياً إجراء جملة اصلاحات مهمة لنمو وتقدم الزراعة اقتصر على ذكر البعض منها وهي عمل بعض تغييرات في قوانين الشريعة المختصة بتقسيم الأرزاق في الإرث ومنع الاستقراضات العامة التي تضر بالزراعة بإبعاد الرساميل عنها ومنع كل العمليات التي من شأنها أن تسحب الدراهم من يد أربابها لمصالح غير مهمة وتأسيس بنكات لأجل امداد الزراعين مع التسهيلات بأكثر من السابق وإدخال بعض اصلاحات بقوانين الشريعة المختصة بالرهينات لأجل زيادة تسهيل إمداد أصحاب الأرزاق بالدراهم. وتنقيص العسكرية التي تختطف من الزراعة أنشط بنيها وتبطيل الأعمال والبنايات العامة في المدن التي بدون ثمرة مالية وعلى الخصوص في باريز وتوسيع دائرة تعليم مبادىء الزراعة في المملكة أن تعليم ذلك في عموم المدارس وتنشيط الأعمال

العامة النافعة في كافة أقسام المملكة وتنقيص تعريفة طرقات الحديد على الأغلال والمحصولات وتعديل رسم الحكومة على نقل الأرزاق من يد إلى يد مع عدد وافر من القضايا نظير هذه التي يتوقف عليها تنشيط الزراعة وتقدمها. فجميع ذلك مما يدل على الاهتمام والاعتناء الحاصلين في فرنسا بأمر الزراعة مع ما هي عليه تلك المملكة من النجاح والغنى. فالأمل أن بلادنا ستصل عما قريب إلى هذه الدرجة بظل ظليل الحضرة السلطانية أدامها ربّ البرية.

الخطبة التي تليت مقدمة لرواية نقض العهود

تأليف الخواجة سليم شحاده

[المجموعة الأولى من أعمال السنة الثانية. ص ١٥ - ٢١].

أيها السادة،

إن الغيرة التي أجريتموها من وقت الاهتمام على فتح هذه الجمعية إلى الآن تقتضي تقديم الثناء والتشكر لكم من كل محب لخير الوطن وبحمده تعالى وأنظار حضرات أولياء الأمور العظام ومساعيكم قد أخذت من حين افتتاحها بالتقدم والنجاح فإن الخطب العلمية الدورية التي عليها مدارها كانت في أوقاتها المعينة تتقدم مبهجة لسماع الحاضرين والروايات الأدبية والتاريخية تقدمت مقرة لنواظر المشاهدين والمجموعات بأعمال الجمعية تتابع خروجها بحسب الإمكان وتوزعت على المشتركين. نعم، انه حصل بعض فتور لا يخلو الأمر عنه غالباً في هكذا مشروعات مهمة وما ذاك إلّا من تفريق جملة من المشتركين خارج البلدة بمناسبة فصل الصيف. إلّا ان العمدة العاملة لم تهمل للنهاية واجباتها بل داومت حسب الإمكان على إجراء أعمال مهمة لثبات وقوة الجمعية. وحيث ان السنة الأولى للجمعية قد انتهت فبحوله تعالى بحسب أصولها سوف تطلعون على حساباتها وأعمالها وتسرون بذلك إذ الأمل أنها وفّت بما عليها من المصاريف اللازمة وبالاجمال نبين لكم أن مداخيل السنة الماضية قد تكلفت بما لزمها من المصاريف مع أن ما لزم في السنة الأولى من مصاريف فوق العادة كقيمة أثاث وأكلاف مرسح وملابس التي بلغ قيمتها من عشرة إلى اثني عشر ألف غرش لا تلزم في السنة الثانية ومن ثم بحوله تعالى يتيسر للعمدة أن تستحضر بما يتوفر جانباً من الكتب اللازمة المفيدة فتتم الفائدة المقصودة من تأليف مكتبة غنية فكاهة للجميع.

فيا معشر الأفاضل نتأمل منكم أن تداوموا مد سواعد الاجتهاد والإهتمام لدوام ترقي مقصودنا الخيري لأنه بكم ظهر وبهمتكم طيب ذكره بين العالم المتمدن انتشر وأثنت عليه الأفاضل المعول في المعارف عليهم واهتزت به سروراً الأماثل المنتمي كل علم وفخر إليهم. نعم، إنه حين ابتدأ الأمر صادفنا سماع بعض مقالات ليست لنا مرضية لكنها كانت مبنية من طرف على الشكوك والأوهام الفاسدة ومن جهة على الحسد والغايات الكاسدة. وما ذلك إلّا نظير ما يحصل في ابتداء هكذا مواد خيرية لكنها لا تلبث أن تزول بمجرد عرضها على ميزان السالم من العقول وقد شاهدنا في جمعيتنا ذلك وإن يكن لم يزل يوجد قليل من الكلام لكن لا تأثير لما هنالك فإنه قد اتضح صبح مقاصدنا في هذه الجمعية لذي عينين وتلألأ نور فضلها وظهر أنها منزهة عما رميت به من النقص والشين. فلم يعد علينا إلّا مداومة السعي لإتمام قصدنا من نشر المعارف العلية واستخراج كلما يمكن استخراجه من مخبأ زوايا الأفكار العلمية حتى يفوز نشر طيب فضلنا المأنوس وينادي منادي الاتحاد في ديارنا على عمار الوطن بنشر المعارف، لا عطر بعد عروس.

فثابروا وفق الله سعيكم على الحضور لهذا المحفل العلمي بحسب الامكان واسمحوا بفرصة جزئية من الوقت الكثير لتزيين العقل بالمعارف التي هي زينة الانسان وبادروا لإنشاء واستخراج الخطب المفيدة لتتلى على الحضور وتطبع فيها بعد وتوزع في الأقطار وغوصوا في بحار العلوم المفيدة إن كانت من العلوم القديمة أو المخترعات الجديدة حتى تستخرجوا درر اللطائف وتقلدوا بها جيد الزمان المنير بالمعارف وتحوزوا السبق في مضمار المعالي وحبذا ذلك المضمار الذي هو مركز اللطائف وجدوا على تلخيص ما ترونه في صحائف الأخبار من الفوائد. فإن من جد وجد. واستعدوا لتخليص النفوس بسطوة العلم من أسر الجهل الذي ليس يرضى به من العقلاء أحد ولا يلزم لكم زيادة حث لذلك فإن غيرتكم العربية شهيرة فأظهروها باسترجاع معارفكم وعمروا بها أوطانكم. فقد آن أن يرجع ذلك الغريب لأهله. فإن الدواعي بظلّ دولتنا العلية الأبدية القرار متوفرة والأسباب لترقي المعارف غزيرة. على اننا نتأمل أيضاً من كل من تهزّه أريحيّة حب الوطن ونشر المعارف وتكرّم بالاشتراك معنا في العام الأول أن يداوم غبطته ويجدد اشتراكه في العام الآتي بل ويرغب من يعزّ عليه ممن هو أهل لهذا الاشتراك حتى يشترك معنا ويبيّن له محسنات هذه الجمعية ومقاصدها الخيرية فإنها باتساع دائرة مشتركيها تتسع موارد ثروتها الأدبية والمادية ويستحضر لها صحائف أخبار غير موجودة وتطبع فيها كتب تحصل بها مع نشر الفوائد العلمية أرباح الجمعية مفيدة وبذلك يشاهد منها وفيها فوق ما يؤمل من الفلاح ونتقدم في مصاف التمدن فائزين بغاية النجاح.

ولما كان من مبادىء هذه الجمعية تقديم روايات أدبية في بعض الأوقات رأيتم اننا لم نقصر عن اتمام هذا القانون بل داومنا عليه كما داومنا على غيره. وقد تقدم في مدة السنة الماضية روايات جميلة مع انها هي السنة الأولى التي تمر بطريق الصعوبات ففاقت ما تعرض من ذلك وأوفت ولله الحمد بأكثر المقصود على أتم مرغوب. وعلى كل إن من عرف غير جمعيات حتى التي قامت وتقوم في غير بلدان ووقف على بدايتها يقر بصحة ما أوردناه. وبما إن النفس تميل طبعاً إلى المنزهات استخدمت الجمعية لتنزيه المشتركين واسطة لذلك تقديم الروايات التي لا يوجد واسطة أحسن منها تناسب المقام إذ إنها مع تضمنها تحت طي الهزل آداباً سامية واصلاحات لازمة تشتمل أيضاً في ظاهرها على فكاهة ونزاهة تشوق إليها الخواطر وتلذ بها النواظر فللّه درها من واسطة توصل إلى الجد بطريق الهزل فإن الأول لازم للهيئة الاجتماعية والثاني يوصل إلى اللازم بسهولة وما أحسن ما قيل بهذا المعنى:

يا أيها اللاعب فيما تملّ	مشخصاً للعين معنى النقل
أنعم مساء في ظلال الفضل	وأركب إلى الجد جواد الهزل

فهي أشبه ما تكون بالعلاجات القوية الفعالة التي تغطى من خارجها بثوب محلّى ومن داخلها تحتوي على تلك المادة النافعة.

ومع ما بهذا الفن من الدقة فقد تجرد إليه الكثير منا وبالنظر إلى الأحوال أجادوا في التركيب والتشخيص فالسير في هذا الطريق لا يعتبر إلاّ كالخطوة الأولى والمأمول بحوله تعالى أن الثانية تظهر بأكثر جمالاً من الأولى وهكذا بالتتابع وبما ان هذه الرواية هي الأولى من أعمال مؤلفها في هذا الفن وقد تألفت بعجلة كلية اقتضتها بعض الظروف وحتى تكون واسطة لاجتماع الجمهور إذ الاجتماع العمومي يخولنا فرصة لتوضيح بعض الأفكار اللازمة فيرجى ممن يشاهد قبول الاعتذار والتكرم بالأعذار عما يلاحظ من قصور أو خلل إن المقصود الافادة والتمدن لا إظهار البراعة والتفنن. وقد تعرض في أواخر هذه الروايات للكلام على الجمعية فإنه وإن لم يكن ذلك من متعلقات الرواية إنما أدخل اقتضاء للحال

وإغتناماً لوسع المجال فنرجو أن تسمعوا وتشاهدوا ما يتقدم لكم بنظر وسمع المحبة ولكم عن ذلك وعن تشريفكم الشكر نوبة بعد نوبة والسلام.

ومن الواجب أن يذكر انه ليلة تشخيص الرواية المذكورة قد شرف الجمعية حضرة صاحب الدولة نصري فرانقو باشا الأفخم وصاحب السعادة كامل باشا متصرف بيروت سابق مع جمهور من الأعيان فتقدم سليم أفندي البستاني في أثناء الرواية وأوضح شفاها بلسان التشكر والممنونية لكل من الذوات الفخام على تشريفهم تلك الليلة وعن العناية العليّة التي تكرّم بها كل من أصحاب الدولة راشد باشا والي ولاية سورية ونصري فرانقو باشا متصرف جبل لبنان الأفخمين لنحو الجمعية. ثم صرح عن حالة الجمعية المذكورة وعن أعمالها المتقدمة. وما تؤمله من النجاح والتقدم في السنة الجديدة من الحثّ على الاشتراك.

* * *

القصيدة التي تقدمت من المعلم شاكر شقير في أعمال الجمعية

[المجموعة الأولى من أعمال السنة الثانية. ص ٢١ - ٢٤].

قد ازدانت الأيام في ما تجددا
من الخير والآداب والعلم والهدى

فحق لنا فخرٌ على كل من مضوا
وما كان من أسلافنا قد تشيدا

فما كان في اعصارهم كان كالسهى
وما صار في أعصارنا البدر إذ بدا

فللبعض جد في الحياة إلى الغنى
وللبعض أن يجني بدنياه سؤددا

فذلك لا يرجى طويلاً ثباتهُ
وهذا لهُ ذكرٌ يدوم مخلدا

وأحسن شيء ظلَّ يحمد ذكرهُ
صنيع إلى خير العموم تجددا

فإن له الذكر ليس له يُنتسى
ولصانعيهِ أعظم الأجرُ للمدا

لذاك تلالا كالشموس انتشاره
بعصر الذي من ذكرهِ أودتِ العدى

هو المالكُ الأرواح في فيض لطفهِ
فدامَ على كل العوالم سيدا

فليس إلى عبد العزيز مضارع
بأمرٍ يرى ماضٍ وفعلٍ ممجدا

هو الباب للخير الذي دام عصرهُ
بهِ زاهياً والسعد يكسوه كالردا

وقد طوقت نعماه أعناقنا فقد
رأيناه في فعل الجميل تفردا
فلولاه لم تبدُ المعارف في الملا
ولم نلتق بيروت للخير موردا
قد اشتهرت جمعية العلم وازدهت
ومن نورها الجهل القديم تبددا
لبدرٍ إذا ما في الدجنة قد بدا
محا نوره الديجور إذ كان أربدا
وها قد مضى عامٌ وظل بهاءها
يزيد سناً والآن ثانٍ قد ابتدا
كزهرة روضٍ كلما طال وقتها
تزيد نمواً بالجمال مقلدا
بها افتخرت بيروت حتى لقد سمت
على كل مصرٍ وهي تشبه فرقدا
مؤلفة من كل صاحب غيرة
ذوات بنوا للخير بيتاً مشيدا
كواكب سعدٍ يسطع اليوم نورهم
ويهدي الذي في الجهل ضل إلى الهدى
سعوا بانتشار العلم والخير دأبهم
وبشرنا القمري بالسعد إذ شدا
وقد ألبسوا بيروت حلة سؤدد
تتيهُ بها إذ أصبحت منبع الندى
فكل لسان في ثناهم لاهجٌ
يصيغ بهِ لفظاً لدرٍّ منضدا
وكل جنان حمدهم فيهِ راسخ
وكل مديح في سواهم تفندا
وكل ذوي الفاقاتِ من شكرهم لقد
ينادون كل في الأهم قد ارتدى
وقد وجدوا للخير أسهل منهج
فكان إلى كل الفضائل منتدى
وصاح على الأغصان طير ثناهم
أجاب بوادي السعد من صوتهِ الصدى
وفاقت على الاهرام حسن فعالهم
نسينا بها قرناق تملأ أعمدا
فهم قد بنوا بيتاً على الهرم الكبيـ
ـر يعلو ولكن لم يمد لهُ يدا

سمعت بهم لكنني لم أراهم
فكان فؤادي للقاء متوقدا
تعطرت الأرجاء من طيب ذكرهم
وأصبح ما بين الأنام مرددا
فلا زال مسعاهم بذلك ناجحاً
ونالوا المنى ما الطير في الغصن غرّدا
ووافى بتاريخ هدي البشر قائلاً
قد ازدادت الأيام في ما تجددا

١٨٦٩

المجموعة الثانية من أعمال السنة الثانية

[بيروت: المطبعة العمومية، ١٨٦٩. ص ٤١ - ٨٠].

إنه في مساء يوم الخميس الواقع في ٢٤ رمضان سنة ١٢٨٥ هـ و٢٣ و٤ شباط سنة ١٨٦٩ م صار فتح اجتماع عمومي من المشتركين تلي به المعلم سليم كساب خطبة في الصناعة. وقد تولج في هذه الجلسة يوسف أفندي الشلفون بخطبة في جغرافية الولاية السورية والمعلم سليم كساب للرد عليه إن وجد محلا للاعتراض.

توقف نشر خطاب الخواجة سليم كساب لمجموعة أخرى

[الجمعية العلمية السورية]

[المجموعة الثانية من أعمال السنة الثانية. ص ٧٥].

إن ممن أظهروا الغيرة الممتازة بمساعدة الجمعية مساعدة مادية وأدبية وتكرموا بالاشتراك هم حضرة صاحب الدولة أفندم فرانقو باشا متصرف جبل لبنان الأفخم وحضرة مفتش الأحكام في ولاية سورية الأكرم، وحضرة صاحب المكرمة الفضيلة محمد بهجت أفندي ونائب بيروت المحترم، وجناب نصر الله أفندي كوسا الأكرم وجناب فيض الله أفندي كوسا الأكرم وجناب فتح الله أفندي كوسا الأكرم وجناب يوسف أفندي سعيد كوسا الأكرم وجناب فؤاد أفندي كوسا الأكرم.

سنذكر في المجموعة التابعة
أسماء المشتركين الغير محليّين

أسماء أعضاء الجمعية العلمية السورية المحلية
مرتبة على حسب ترتيب حروف الهجاء

[المجموعة الثانية من أعمال السنة الثانية. ص ٧٦ - ٧٧].

الشيخ ابراهيم اليازجي
الخواجة الياس كركبه
الخواجة اسكندر طراد
أحمد أفندي توفيق
اسبر أفندي شقير
الخواجة اسكندر مسك
حضرة الأب غبريل جبارة
الخواجة أيوب تابت
الأمير حمود رسلان
الأمير خليل رسلان
الأمير عباس رسلان
أمين أفندي جريديني
ابراهيم فخري بك
الخواجة ابراهيم زحلاوي
الخواجة بشارة أرقش
بشارة نحاس
الخواجة بطرس مسك
الخواجة جرجس تويني
الخواجة جرجس الجاهل
جرجس زوين
الخواجة جرجس كرمه
الخواجة حبيب بسترس
الخواجة حبيب خليل نصر
الخواجة حبيب دوماني
حسين أفندي بيهم
الخواجة حنا التيان
الخواجة حنين خوري
الخواجة حنا شحادة
خطار أفندي تابت
خليل أفندي الخوري
الخواجة خليل غانم
سعد الدين أفندي قبّاني
سليم أفندي بستاني
سيروفيم أفندي باسيلا
سليم أفندي الخوري
الخواجة سعيد شقير
الخواجة سليم شارل
الخواجة سليم فريج
الخواجة سليم كساب
الخواجة سليم شحادة
عبدالبديع أفندي اليافي
عبدالرحيم أفندي بدران
الخواجة عبدالأحد خضرا
عبدالرحيم أفندي الصلح
عبدالله أفندي الخوري
عثمان أفندي طرابيشي
علي أفندي سرعت
الخواجة فضل الله دباس
ملحم افندي فارس الطبيب
محمد أفندي بيهم
محيى الدين أفندي بيهم
الخواجة موسى فريج
الأمير مصطفى رسلان
الخواجة نصر الله مدور
الخواجة نقولا الدوماني
الخواجة يعقوب حلاج
الخواجة يوسف باخوس
يوسف أفندي الشلفون

حساب الجمعية العلمية السورية في بيروت
عن سنة ١٨٦٨ م

الدخل

١٣٠٥٠	مشتركين محلية
.٢٩٠٠	مشتركين غير محلية
٠٥٤٧٨	الروايات
٠٠٠٨٥	من جناب الارشمندريتي غبريل جبارة، إسعاف
٠٠١٠٠	من جناب الحاج عبدالرحمن العيتاني
٠٠٠٠٠	إسعاف للمكتبة
٢١٦١٣	

المصروف

٩٠٠٠	إجرة محل سنة
٣٥٠٠	طبع المجموعات الشهرية
١٠٩٧٩	ثمن أثاث المحل مع مصاريف المرسح والثياب والمواد النثرية والبوسطة
٥٠٠	ثمن المكتبة
٧٤٠	ثمن جورنالات فرنساوية
٢٧٢ ونصف	ثمن جورنالات عربية
١١٧٢	إجرة خادم للمحل
٢٥٤١٨ ونصف	

الموقوفات عند مذكورين

٧٥٠	مشتركين محلية
	مشتركين غير محلية

٧٥٠	اسكندرية
١٥٠	صيدا
١٥٠	جبل لبنان
٥٠	الآستانة
٥٠٠	شام وحماه وحمص تحت ورود إعلام من الوكلاء بتلك الجهات
٢٣٥٠	

[المجموعة الثانية من السنة الثانية] من ص ٤١ إلى ص ٨١ ومن ص ٧٦ إلى ص ٨٠

المجموعة الثالثة من أعمال السنة الثانية

[بيروت: المطبعة العمومية، ١٨٦٩. ص ٨١ - ١٢٠].

إنه في مساء الجمعة الواقع في ٦ شوال سنة ١٢٨٥ هـ و٧ و١٩ آذار سنة ١٨٦٩ م صار فتح اجتماع عمومي من المشتركين تلي به جناب يوسف أفندي الشلفون خطبة في جغرافية الولاية السورية. وقد تولج في نفس الجلسة جناب المعلم جرجس زوين بخطبة في تاريخ سورية وجناب ملحم أفندي فارس للرد عليه إن وجد محلاً للاعتراض.

الخطبة التي تلاها جناب يوسف أفندي الشلفون في جغرافية الولاية السورية

[المجموعة الثالثة من أعمال السنة الثانية. ص ٨٢ - ١٢٠].

أيها السادات

بعد حمد المولى المتعال. في كافة الأحوال. لا يخفى أن فن الجغرافية هو فن جزيل الإفادة للانسان حتى قدمه بعضهم على فن التاريخ لأن به ينظر المرء إلى أقسام الكون الذي هو منزله ويطلع على ما فيه وذلك يبحث عن أخبار وأحوال أهله وما كانوا عليه، ولذلك يقتضي له أن ينظر أولاً إلى بيته ثم يلتفت بعد ذلك إلى أهله وعشيرته. وإذ كنت داعيكم قد طالعت شيئاً في هذا الفن رأيت أن أتلو على مسامعكم الآن خطبة في جغرافية الولاية السورية التي الاطلاع عليها كما لا يخفى يهمنا أكثر من بقية أقسام الكرة الأرضية. لكنني اجتهدت كثيراً بالاختصار لأن ضيق الوقت لا يسمح لي بالتطويل في ذلك راجياً غض النظر عما ترونه من التقصير في المنقول. إذ إنني لم آتِ بشيء من عندي بل جميع ذلك التقطته من فضلات أصحاب الكتب الشهيرة بهذا الفن. وبناء عليه ليس لي الحق أن أدعي مؤلفاً بل أنا ناسخ ما أؤمل أن يكون به بعض الفائدة فأقول:

الفصل الأول
في الكلام على سورية بوجه العموم

سورية هي القسم السادس والأخير من أملاك الدولة العثمانية في قارة آسيا وكانت تقسم قديماً إلى قسمين سوريا وفلسطين لكن أطلق على الاثنين اسم سورية عند اضافتهما إلى المملكة الرومانية قبل التاريخ المسيحي وكان يقال لها قبلاً فينيقية وعلى ما يظن ان فينيقية هي ولاية الشام الآن كما سيأتي ولما افتتحها المسلمون سنة ٦٣٥ للمسيح أطلق عليها اسم الشام لوجود بقع بيض وحمر وسود بها تشبيهاً لها بالشامات على ما قيل. وتسمى أيضاً عرب بستان عند الأتراك.وحدودها: من جهة الشمال جبال طوروس الفاصلة بينها وبين الأناضول التي يقال لها آسيا الصغرى؛ ومن جهة الشرق الفرات وبادية العرب؛ ومن جهة الجنوب بلاد العرب والبادية أيضاً؛ ومن الغرب البحر المتوسط الذي يقال له بحر الروم. ومساحة أرضها تبلغ مقدار خمسين ألف ميل مربع. وأما الآن فقد انقسمت إلى ولايتين: ولاية حلب، وولاية الشام. وأطلق على ولاية الشام وحدها اسم سورية، وهي المراد في خطابي هذا.

الفصل الثاني
في حدود ولاية سورية وتقسيمها

ولاية سورية ممتدة من حدود العريش الفاصلة بين قارة افريقية وقارة آسيا في الجنوب إلى حدود ولاية حلب في الشمال من مدينة اللاذقية التي على ساحل البحر إلى مدينة حماه في البرية التابعتين لها. وتقسم إلى تسع متصرفيات كبار. وهي: متصرفية دمشق الشام التي هي مركز الولاية، ومتصرفية بيروت، ومتصرفية حمص وحماه، ومتصرفية عكا، ومتصرفية طرابلس، ومتصرفية نابلس، ومتصرفية حوران، ومتصرفية القدس الشريف، ومتصرفية لبنان المختصة بولاية منفردة كما يأتي ذلك في موضعه. وهذه المتصرفيات تقسم إلى قائمقاميات وقضاوات أو إدارات وسيأتي ذكر ذلك مفصلاً.

الفصل الثالث
في جبال ولاية سورية

يخرقها من الشمال بقرب عكار إلى الجنوب في نواحي صفد والناصرة سلسلة جبال أصلية تبتدىء من جنوب مصب العاصي وتسمى هناك جبال النصيرية. ومنها الجبل الأقرع إلى أن تنتهي جنوباً عند وادي قلعة الحسن. ومن هناك تقسم السلسلة إلى قسمين أحدهما الذي بقرب البحر يسمى جبل لبنان، أعلى رؤوسه مكان فوق جبة بشري يقال له فم الميزاب. وثانيه مكان بقرب بسكنتا يقال له صنين وهو يبتدىء من عكار في الشمال إلى وادي الليطاني عند نواحي قلعة الشقيف في الجنوب، وقسم منه يسمى جبل الدروز أيضاً، ومن هناك إلى نواحي صفد يقال له جبل عامل، ثم تنحرف السلسلة شرقاً إلى نواحي نابلس ويسمى هناك جبل الريحان، أما جبل الكرمل فيبتدىء من الشمال بقرب مدينة حيفا ويمتد إلى الجنوب الشرقي حتى ينتهي عند بداية جبال نابلس، ومن هناك تمتد السلسلة إلى جهة الجنوب وتنتهي عند بحيرة طبرية ويقال لها جبل الشراة، وهناك بقرب طبرية جبل منفرد يقال له الطور ولعله جبل التجلي. وأما القسم الثاني من السلسلة هو الجبل الشرقي المسمى انتيلبنان وأوله عند جنوبي حمص بمقابلة طرف جبال النصيرية، ثم يمتد إلى جهة الجنوب الغربي حيثما يوجد بينه وبين جبل لبنان سهل واسع يسمى البقاع، ثم يمتد إلى فوق حاصبيا لحدود وادي التيم ويسمى هناك جبل الشيخ، ثم تمتد منه شعبة إلى جهة الجنوب إلى حد مكان يقال له تل الفرس ويسمى هناك جبل حيش، وإلى جنوب هذه الشعبة جبل عجلون الكائن في شرقي الاردن، وإلى جنوبه جبل الصلت وجبال البلقاء والكرك المقابلة جبل الشراة في شرقي بحيرة لوط.

الفصل الرابع
في أنهر ولاية سورية

من أنهر هذه الولاية نهر العاصي مخرجه إلى جهة الشمال من بعلبك نحو ست ساعات من موضع يقال له نبع اللبنة ويصب في بحر الروم بقرب مدينة السويدية خارج ولاية سورية.

ثم نهر الكبير يخرج من جبال النصيرية ويجري إلى الجنوب مائلاً إلى الغرب ويصب في بحر الروم على مسافة ميلين من مدينة اللاذقية كان له جسر بخمسة قناطر من بناء الملك صلاح الدين الايوبي تعطل فأعاده السلطان عبدالمجيد العثماني.

ثم نهر الصنوبر مخرجه في جبال النصيرية ويمر على قرية يقال لها الصنوبر المسمى باسمها على مسافة ميل ونصف إلى جنوب النهر الكبير ويصب في بحر الروم وله جسر بقنطرة واحدة متينة البناء.

ثم إلى جنوب نهر الصنوبر على مسافة ميل نهر يقال له نهر المضيق يخرج من جبال النصيرية ويصب في بحر الروم، ثم إلى جهة الجنوب الشرقي نهر يسمى نهر الروس مخرجه من الجبال المذكورة يقوى كثيراً في الشتاء، ومنه على مسافة ميل نهر ابن برغل.

ثم على ثلاثة أميال منه نهر يقال له السن وهو نهر كبير جداً عند مصبه إلى جهة الجنوب آثار مدينة يقال لها بلدة مخرجه من أسفل جبل يبعد عن مصبه نحو ميل وهناك آثار بناية قديمة.

ثم نهر جوبر وإلى جنوبه نهر بانياس مخرجه بذيل جبل المرقب بعيداً عن البحر مقدار خمسة دقائق، وعند مخرجه آثار بلدة بانياس المسمى باسمها.

ثم إلى جنوبي هذا النهر أيضاً نهر الحسين يخرج من جبال النصيرية ويصب في بحر الروم.

ثم نهر عكار مخرجه من جبال النصيرية أيضاً ويمر في مقاطعة عكار ويصب في بحر الروم.

ثم النهر البارد مخرجه من مكان يبعد عن مدينة طرابلس مقدار خمسة أميال ومصبه في بحر الروم.

ثم نهر أبي علي وهو نهر كبير مخرجه من عين ماء تحت أرز لبنان ويجري في وادٍ يقال لها وادي قاديشا وهناك تجتمع إليه ينابيع عديدة ويمر ضمن مدينة طرابلس ويصب في بحر الروم.

ثم نهر الجوز مخرجه من عين ماء ضمن مغارة فوق قرية كفرحلدا ويجري في واد تسمى باسمه ويمر إلى جنوب قلعة المسيلحة حيثما تتفرع منه قناة إلى مدينة البترون ويصب في بحر الروم وطوله من مخرجه إلى مصبه خمسة عشر ميلاً.

ثم نهر ابراهيم وهو نهر كبير مخرجه من مغارة في الجبل يقال لها مغارة أفقا وكان يسمى عند القدماء نهر تموز باسم غلام جميل قتل في الصيد بالقرب منه، قيل إنه تأله بعد موته فسمي النهر باسمه، وتوجد صورة مقتله من أحد الوحوش الضارية في قرية هناك يقال لها قبعل، وهو على ما في الخرافات اليونانية أدونيس معشوق الزهرة، مصبه إلى جهة الجنوب من جبيل على خمسة أميال في بحر الروم طوله من مخرجه إلى مصبه ثمانية عشر ميلاً له جسر عظيم بقرب البحر من قنطرة واحدة هائلة ليس لها نظير في ارتفاعها بين قناطر هذه البلاد، قيل بناها أحد أمراء المردة في لبنان المسمى ابراهيم فسمي النهر حينئذٍ باسمه. ويوجد بالقرب منه رسوم قناطر متقنة البناء تسمى قناطر زبيدة كانوا يأخذون الماء بها قديماً إلى مدينة جبيل. وإلى الجنوب منه على مسافة أربعة أميال نهر شتوي يقال له المعاملتين له قنطرة جسر عظيمة مبنية بدون كلس أو طين البتة وهي تعد من غرائب صنعة البناء.

ثم نهر الكلب وكان يسمى عند اليونان ليقوس، أعني ذئب، أصله من عين ماء تخرج من مغارتين في مكان يقال له جعيتا حتى يصل إلى فم وادي وهناك تجتمع إليه مياه نبعين يقال لهما نبع العسل ونبع اللبن في أعالي الجبل على مسافة عشرة أميال من العين، ثم يمر تحت جسر طبيعي هائل يظن انه صنع بالأيادي يجتاز عليه الناس ويسمونه جسر الحجر، وهناك تجتمع إليه عيون ومناهل حتى يصل إلى مصبه في بحر الروم الكائن إلى الجنوب الغربي من مدينة جونية على مسافة ثلاثة أميال، ويوجد بالقرب من مصبه على الصخور جملة آثارات من نقوش وكتابة قيل إنها تاريخ فتح سوسستريس ملك مصر هذه البلاد، وقيل إنها تاريخ فتحها من سنحاريب ملك الأشوريين حيثما أمر بنقش صورته

وأخبار أعماله على تلك الصخور، وكان له جسر عظيم عند البحر بناه الملك انطيوخوس ملك سورية سنة ٢٥٠ قبل المسيح ثم هدم وجدد بناه الملك انطونيانوس قيصر ومهد طريقه بقرب البحر وكتب تاريخ ذلك على صخرة في جنوب الجسر سنة ١٤٧ للمسيح، ووضع الوثنيون عليه تمثال كلب من صخر وقيدوه بسلسلة من حديد في صخرة نقروا بها موضعاً للطعام زاعمين في ذلك انه إذا أتتهم الأعداء ينبح الكلب فيحذرهم ولذلك سمي نهر الكلب، ثم وقع ذلك التمثال إلى البحر فانكسر رأسه وهو باق إلى الآن هناك وهدم الجسر فجدد بناه الملك سيف الدين المنصوري الناصري سنة ١٢٩٢ ثم هدم فجدد بناه الأمير بشير عمر الشهابي والي جبل لبنان سنة ١٢٢٤ هجرية / ١٨٠٩ م، ثم هدم هذا أيضاً فبناه في غير الموضع الذي كان به قبلاً في مكان يبعد عن البحر قليلاً، وطوله من مخرجه إلى مصبه ستة عشر ميلاً وبينه وبين نهر ابراهيم نحو ثمانية أميال.

ثم نهر انطلياس وهو نهر صغير مخرجه من فوارين في واديه يلتقيان معاً فيصير منهما النهر وله جسر صغير عند دير مار الياس انطلياس يمر عليه الناس في أيام الشتاء فقط طوله ميلان وبينه وبين نهر الكلب ثلاثة أميال. وإلى جنوبه نهر أصغر منه يقال له نهر الموت يتجمع من نزازات في بقعة حواليه ويقوى في الشتاء قليلاً ويكون القطع به عند البحر بعض الأحيان مخطراً.

ثم نهر بيروت وهو مؤلف من نهرين صغيرين أحدهما يخرج من قرب قرية يقال لها كفرسلوان والآخر بالقرب من قرية فالوغا في الجبل من مقاطعة المتن ثم يتحدا مع نبع منفجر بين صخرين ويجري في وادٍ تحت دير القلعة ويسمى النبع نبع القصير، تصغير قصر، كان بالقرب منه قديماً وتتفرع منه أقنية تسقي بساتين ساحل بيروت. وكان له قديماً قناة جارية على قناطر تسمى قناطر زبيدة صاحبة قناطر نهر ابراهيم المار ذكرها. قيل إنها زوجة أطريفون ملك السريان المدعوة عند العرب زينب، وهذه القناة عجيبة البناء كان يجتاز منها الماء في ثقب صخر شاهق إلى قناة أخرى عظيمة البناء حتى يصل إلى مدينة بيروت. لكن الآن لم يبق إلاّ آثارها وهو يمر شرقي بيروت في خليج مار جرجس الملقب بالخضر ويصب في بحر الروم وله جسر طويل بالقرب من البحر له سبعة قناطر طوله من مخرجه إلى مصبّه عشرة أميال وبينه وبين نهر انطلياس ثلاثة أميال. ثم نهر الغدير وهو نهر شتوي يقوى كثيراً في أيام الشتاء حتى يتعسر القطع به أحياناً.

ثم نهر الدامور، أي المخرب، وهو مجتمع نهيرات صغار أحدها الغابون يخرج من نبع بقرب بحمدون يقال له بخشتيه، والثاني الصفا يخرج من مكان بقرب عين زحلتا ثم يضاف إليه ماء نبع خارج من كهف هناك يقال له نبع القاعة ويأتيه ماء آخر من نبع عين دارة فيصير نهر كبير يجري في واد لجهة الغرب الجنوبي ويصب في بحر الروم بالقرب من قرية يقال لها المعلقة، هناك تنسب إليه. وكان له جسران: الأول في واديه التي بين دير القمر وعبيه ويسمى جسر القاضي بناه قاضي من بني تنوخ ولاة جبل الدروز قديماً ولم يزل إلى الآن، والثاني كان بقرب البحر بناه الأمير بشير الشهابي سنة ١٢٣٠ هجرية / ١٨١٤ م فهدمته المياه ولم تزل حجارته ملقاة في مجراه كالصخور العظيمة. وفي هذه الأيام وضع له حضرة صاحب الدولة فرانقو باشا، متصرف جبل لبنان، جسراً من حديد طوله من مخرجه الأول إلى مصبه إثنان وعشرون ميلاً وبينه وبين نهر بيروت مقدار عشرة أميال.

ثم نهر الأولي وهو نهر كبير أصله نبع ماء قوي يسمى نبع الباروك في مقاطعة العرقوب من لبنان يجري إلى الجنوب الغربي ثم يرتد إلى الغرب ويصب في بحر الروم قرب مدينة صيدا، وتتفرع من أعلاه

قناة إلى صيدا فتستقي منها أهالي البلد وبساتينها، طوله خمسة وعشرون ميلاً وبينه وبين نهر الدامور عشرة أميال.

ثم نهر الليطاني وهو كبير أيضاً مخرجه قرب بعلبك ويجري في شرقي سهل البقاع إلى أن ينفذ بين جبل لبنان وجبل الشيخ وهناك تضاف إليه مياه نهر البردوني ونهر يقال له يحفوفة ونهر عنجر من جهة الجبل الشرقي ويمر تحت قلعة الشقيف ويصب في بحر الروم قرب مدينة صور، ويسمى هناك نهر القاسمية، طوله من مخرجه إلى مصبه مقدار خمسين ميلاً.

ثم النهر المقطع مخرجه في جبل عامل شرقي مرج إبن عامر ويجري إلى الشمال الغربي يصب في بحر الروم بقرب مدينة حيفا.

ثم النهر الأعوج مخرجه بقرب بلدة اللد ويجري إلى الشمال ثم يرتد إلى الجنوب الغربي ويصب في بحر الروم إلى شمال مدينة يافا.

ثم نهر بردى مخرجه بقرب الزبداني في جهات دمشق الشام ويجري إلى الجنوب الشرقي وتضاف إليه مياه عين قوية يخرج من سفح جبل يقال لها الفيجة، نسبة إلى قرية هناك، ويمر في غوطة دمشق ثم يقسم إلى سبعة أقسام على شكل هندسي قسم منه يتوزع بأقنية إلى دورها وشوارعها ومصبه في بحيرة المرج إلى الجنوب الشرقي من دمشق.

ثم النهر المسمى الأعوج أيضاً وهو غير المذكور آنفاً يخرج من عين دورية في سفح شرقي جبل الشيخ ويجري إلى الشمال الشرقي ويصب في بحيرة المرج الكائنة إلى الجنوب الشرقي من دمشق في طرف غوطتها.

ثم نهر الاردن وهو نهر كبير يتجمع من نهيرات منها نهر حاصبيا يخرج بقرب حاصبيا جارياً إلى الجنوب ويصب في بحيرة الحولة التي تأتيها أيضاً مياه بانياس وتل القاضي ثم تجري هذه المياه من بحيرة الحولة وتسمى نهر الشريعة وتصب في بحيرة طبرية ومنها يخرج نهر الأردن ويجري إلى الجنوب ويصب في بحيرة لوط وطوله نحو مايتين ميل.

ثم نهر اليرموك يخرج من جبال البلقاء ويصب في بحيرة لوط.

ثم نهر الزرقاء يخرج من جبالها ويصب في البحيرة المذكورة.

ثم نهر طفيله يخرج من جبال الكرك ويصب في البحيرة المذكورة أيضاً.

ثم النهر المعجب يأتي من الجبال التي تلي شرقي بحيرة لوط ويصب فيها.

الفصل الخامس
في بحيرات ولاية سورية

من بحيرات هذه الولاية بحيرة آفامية وهي إلى جهة الشمال الغربي من مدينة حماه تتجمع من عدة آجام وبرك وقد كانت قديماً أعظم من الآن، قيل كانت محاطة من كل جوانبها بالقصب والصفصاف وكان بها غابة جميلة جداً وهي تمر في نهر العاصي.

ثم بحيرة الكدس وهي إلى الجنوب الغربي من مدينة حمص على مسافات ساعات ويجوزها نهر العاصي، قيل إنها اصطنعت بسبب سدٍ بُني على هذا النهر كان عليه بروج لم يبقَ منها غير واحد فقط، يقال له برج بلقيس ويوجد بها سمك الحنكليس وكذلك العلق، طولها عشرة أميال وعرضها نحو ستة.

ثم بحيرة المرج وهي إلى الجنوب الشرقي من مدينة دمشق عند طرف الغوطة وهي التي تنصب إليها فضلة مياه نهر بردى وغيره.

ثم بحيرة ران إلى جهة الشمال الشرقي من بانياس وهي صغيرة يؤخذ منها شيء كثير من العلق.

ثم بحيرة الحولة وهي التي يصب فيها نهر حاصبيا ونهر الشريعة، أي مياه بانياس وتل القاضي.

ثم بحيرة طبرية وهي من أعظم بحيرات ولاية سورية تصب بها بحيرة الحولة ويخرج من جنوبيها نهر الاردن، طولها نحو ثمانية عشر ميلاً وعرضها ستة أميال.

ثم بحيرة لوط، ويقال لها البحرة الميتة أو المنتنة، وهي التي يصب فيها نهر الأردن وخلافه من الأنهر فيغور الماء فيها ولا يخرج منه شيء بل تفرغ كل تلك المياه العظيمة التي تجري إليها من كل النواحي وتصير مرة جداً وثقيلة للغاية فيعوم عليها ما يغرق في غيرها وهي أخفض من مساواة بحر الروم بأكثر من خمسمائة ذراع وطولها نحو أربعين ميلاً وعرضها إثني عشر ميلاً.

الفصل السادس
في هوائها

أما هواء ولاية سورية فمختلف باختلاف القطر فرؤوس جبال لبنان مغطاة دائماً بالثلوج التي تعود على وسط السواحل بالطراوة. لكن السواحل يشوب حرها نداوة البحر لكونها منخفضة فهي حارة رطبة وحيثما تكثر المياه في فصل الصيف تكثر هناك الأمراض كما يكون في دمشق وطرابلس وصيدا وبقية الأمكنة المجاورة المياه. وأما هواء الجبال فجيد مقوٍ للأبدان يشتد فيها البرد في الشتاء ولا يشتد الحر في الصيف. وأما السواحل فهواؤها معتدل في الربيع والخريف ويكثر بها الحر في أيام الصيف. ثم إنك إذا نزلت من الجبال في فصل الشتاء الشديد البرد إلى السواحل رأيت بها الشتاء كالربيع فمسافة ساعات بها تجعل الشتاء ربيعاً ولذلك يقال بالاجمال في هوائها انه جيد حسن.

الفصل السابع
في تربتها

تربتها جيدة مخصبة لكن بعض أراضيها مقفرة ولجودة هوائها تخرج بها زروع الأراضي الباردة والحارة. فيها نباتات مخصوصة بمحلات دون أخرى ولذلك ترى حواصلها متنوعة منها التوت والزيتون

والصنوبر والجوز واللوز والنخل والخرنوب والجميز والميس والصفصاف والحور والسنديان والسرو. وفي أراضي الحولة يوجد الأرز وقصب السكر في براري يافا وصيدا وبيروت. وتوجد النيلة بسواحل نهر الاردن وفي سواحل اللاذقية وجبال البترون وجبيل وبلاد بشارة. يوجد التبغ الجيد وفي سهول دمشق وحماه وحمص الفوة والزعفران والسوس، وبها من الفواكه العنب والتين والمشمش والتفاح والكمثري والجلنار والخوخ والرمان والقراصية والدراقن والكرز والعناب وأنواع الليمون والصبير، وبها من الحبوب القمح والشعير والعدس والحمص والفول والماش والذرة والكرسنة والسمسم ونحو ذلك كالخروع وشجر الحنا، ويوجد فيها كثير من الحشائش والعقاقير الطبية وأنواع الزهور كالورد والياسمين والزنبق والقرنفل والفل والنرجس وكثير من أنواع الخضر والبقول، ويوجد بها القطن أيضاً، ويستخرج فيها الخمر والدبس والزيت بأنواعه والشيرج والقطران والشمع، وبها غياض واسعة من الصنوبر والبلوط في السهول والجبال، وبها من المعادن الحديد في الجبل الأقرع وجبل لبنان وفيه أيضاً معدن فحم حجر والملح في بعض الأماكن، ويصنع بها أنسجة الحرير والقطن والصوف وقصب الفضة والذهب، وفي القدس وبيت لحم يصنع كثير من الصور من صدف يسمى عرق اللولو يجلبونه من البحر الأحمر ويرصعون به أيضاً الأسرة والموائد.

الفصل الثامن
في حيوانات ولاية سورية

أما حيوانات ولاية سورية فكثيرة جداً أليفة وبرية. فمن الأليفة: الخيل وهي في غاية الجودة والجمال والحمير والبغال والبقر وقليل من الجاموس في جهة البقاع وحوران وبلاد النصيرية والغنم والمعزى في الجبال.

ومن البرية الغزال والذئب والضبع والثعلب وإبن آوى والنمر والدب في جبل الشيخ وجبل موسى، المعروف بجبل صنين، وفي غيرهما. ويوجد الخنزير البري في جبل الريحان وفي بلاد بعلبك.

وفيها أنواع كثيرة من الطيور الأهلية والبرية وكثير من الدبابات المختلفة الأشكال.

الفصل التاسع
في سكان ولاية سورية

تقسم سكان هذه الولاية باعتبار المذاهب إلى خمس عشرة طائفة وهم: مسلمون، ومتاولة، ودروز، ونصيرية، واسماعيلية، وروم ارثوذكس، وموارنة، وكاثوليك، وسريان، ويعاقبة، ونساطرة، وأرمن، وبروتستانت، ويهود، وسامرة.

وهذا تفصيل عددهم بالتقريب:

مسلمون: ثمانمائة وعشرون ألفا. ويوجدون في كافة مدن ولاية سورية.

متاولة: خمسة وعشرون ألفاً، ويوجدون في بلاد بشارة وسواحل صور وصيدا وبيروت وغربي لبنان.

دروز: ثلاثون ألفاً. ويوجدون في الجزء الجنوبي من لبنان وفي جبل الشيخ وحوران.

نصيرية: مائة وعشرون ألفاً. ويوجدون في جبال النصيرية غربي ولاية سورية فوق سواحل اللاذقية.

إسماعيلية: ثمانون ألفاً. ويوجدون في بلاد الضنية الكائنة غربي ولاية سورية.

روم ارثوذكس: مائتان وخمسون ألفاً. ويوجدون في غالب جهات ولاية سورية.

موارنة: مائتان وعشرون ألفاً. ويوجدون في أكثر مدن ولاية سورية وأكثرهم في جبل لبنان.

كاثوليك: ثلاثون ألفاً. ويوجد منهم في كافة مدن ولاية سورية.

سريان ويعاقبة ونساطرة وأرمن وبروتستانت: إثني عشر ألفاً. ويوجدون في أكثر مدن الولاية ويوجد من السريان في جهات الناصرة.

يهود وسامرة: خمسة عشر ألفاً. وأكثرهم في بلاد صفد وفي نابلس. والمجموع مليون وستمائة وعشرون ألفاً تقريباً.

أما لغة سكان ولاية سورية فهي العربية، وتوجد السريانية في بعض الجهات، أما التركية واللغات الأوروبية فجميعها دخيلة ومستجدة.

أما العوائد فأكثرها إسلامية وغالبها مستحسنة ولكونها عوائد فهي معروفة لا لزوم لبيانها.

الفصل العاشر

في تفصيل ولاية سورية

ولنأتي الآن إلى تقسيم ولاية سورية. فمن ذلك متصرفية دمشق الشام ومركزها مدينة دمشق وهي من أقدم مدن العالم على ما قيل، استفتحها المسلمون في السنة الرابعة عشرة للهجرة / ٦٣٥ م. فيها قليل من الآثارات القديمة، أكثر بيوتها مبنية من اللبن خارجها لا منظر له وداخلها مزخرف بالنقوش والرصائف، أسواقها جيدة بالنسبة إلى أسواق غيرها من مدن الشرق، بها معامل للأقمشة الحريرية الشرقية كثيرة، أهلها نحو مائة وثمانون ألفاً يوصفون بالوداعة وسلامة الضمير غالباً، هواؤها رديء لكثرة المياه، وقيل في مائها سريرة لدفع مرض الجذام وهي في درجة ٣٠ ودقيقة ٣٦ من الطول الشرقي ودرجة ٢٠ ودقيقة ٣٣ من العرض الشمالي، وهي مركز الولاية كما تقدم. ويتبعها تسعة قضاوات، وهي: قضاء المرج والغوطة إلى الجهة الشرقية من دمشق فيه ثلاث وثمانون قرية منها الزبداني والصالحية ومعلولا، ثم قضاء وادي العجم وهو إلى الجهة القبلية من دمشق فيه احدى وخمسون قرية منها الجديدة وقطنا وعرطوز وداريا ودير علي والعادلية وصحنايا، ثم قضاء وادي بردى واقليم البلان وهو لجهة الغرب الشمالي من دمشق وفيه تسعة وأربعون قرية منها عرنة وبيت جن ودِربل وقلعة جندل، ثم قضاء جبل القلمون وفيه أربعون قرية وهو إلى جهة الشمال من دمشق، ثم قضاء راشيا غربي دمشق وفيه سبعة عشر قرية، ثم قضاء حاصبيا وهو إلى جهة الغرب الجنوبي من دمشق وفيه تسعة عشر قرية، ثم قضاء البقاع الشرقي وفيه احدى وخمسون قرية، ثم قضاء البقاع الغربي وفيه أربعة وثلاثون قرية، ثم قضاء بعلبك له قائمقام مركزه مدينة بعلبك وهي مدينة قديمة جداً شهيرة بقلعتها العجيبة البناء في أركانها وأعمدتها وحجارتها العظيمة الهائلة قيل إنها من بناء سليمان بن داود عليهما السلام فيها كثير من الأعمدة مسقوفة بألواح حجرية عليها نقوش كثيرة مختلفة الأشكال يصعد إلى سطحها بلولب من جوف أحد الأعمدة. قال بعض الذين يترددون إليها إنه كل مرة يدخلها يرى فيها شيئاً جديداً لم ينتبه له قبلاً لكثرة ما فيها من الصنائع والأعمال لكنها الآن قد تهدمت ومع ذلك لم تزل معدودة من عجائب الأبنية وفي قضاء بعلبك خمسة وسبعون قرية.

ومن أقسام ولاية سورية متصرفية **حمص وحماه** ومركزها مدينة حماه وهي مدينة قديمة بناها أحد أولاد نوح، أهلها نحو ثلاثين ألفاً وهي ذات نواعير وبساتين كثيرة لأنه يمر في وسطها نهر العاصي، ثم مدينة حمص وهي إلى الجنوب الشرقي من حماه على بعد خمسة وعشرون ميلاً أهلها نحو عشرين ألفاً ويتبعها أربعة وخمسون قرية منها ربلة وهي في سهل مخصب شرقي نهر العاصي ومنها الهرمل وهي كثيرة الماء بقربها بناية قديمة يقولون لها قاموع الهرمل عليها صور ونقوش، وفي تلك النواحي موقع مدينة تدمر وهي إلى جهة الشرق من حمص على نحو تسعين ميلاً قيل إنها من بناء سليمان أيضاً بها آثار هياكل وأبنية عظيمة جداً. ويتبع متصرفية حماه خمسة قضاوات وهي: قضاء جبل حذور، وقضاء جبل الكلبية، وقضاء جبل الحولة وفيها مائتان وستة عشر قرية، ثم قضاء معرة النعمان وفيه ثمانية وأربعون قرية، ثم قضاء حصن الأكراد وفيه مائة وأربعة وخمسون قرية.

ومن أقسام ولاية سورية متصرفية **طرابلس** وهي في شمال الولاية ومركزها مدينة طرابلس وهي شهيرة وقديمة جداً قيل سميت بهذا الاسم لتألفها من ثلاث محلات كما يدل اسمها نفسه فإن تأويله باليونانية ثلاث مدن واختلف في موقع هذه المحلات والأصح إن احداها كانت في محل الميناء الحالية والثانية في شرقي المدينة في مكان يقال له السرفتانية والثالثة كانت في جهة البحصاص. ويظهر أنها خربت بزلازل قوية كانت بالشام أخربت كثيراً من البلاد ولما افتتحها الإسلام أخربوا ما كان باقٍ منها وعمروا مدينة جديدة على نحو ميل من البحر. ولذلك هي قسمان: المدينة والميناء ويخرق المدينة نهر أبي علي ولها بساتين كثيرة تكثر فيها الأثمار والفواكه وهي مشهورة بطيب السفرجل والبردقال، أهلها نحو ثمانية عشر ألفاً يوصفون بشدة البأس وعزة النفس وأكثرهم يحبون العلم. موقعها في درجة ٣٤ ودقيقة ٢٦ من العرض الشمالي ودرجة ٣٣ ودقيقة ٣١ من الطول الشرقي. ويتبع متصرفية طرابلس ستة قضاوات وهي: قضاء اللاذقية وهي مدينة قديمة على ساحل البحر كانت ذات اعتبار في الزمن القديم، فيها آثار أبنية وخرابة دير يسمى الفاروص يقال إنه بني في الجيل السادس للتاريخ المسيحي، أهلها نحو خمسة آلاف وهم كرام الأنفس يحبون الغرباء. موقعها في درجة ٣٥ ودقيقة ٢٥ من العرض الشمالي ودرجة ٣٣ ودقيقة ٤٢ من الطول الشرقي. ثم قضاء جبلة وهي مدينة قديمة أيضاً فيها آثار مرسح من أيام الرومانيين على شكل قوس دائرة وفيها جامع عظيم بناه السلطان ابراهيم العثماني أهلها نحو ألف نفس. ثم قضاء طرطوس وهي مدينة صغيرة قريبة من الخراب أهلها نحو ستمائة نفساً. وعلى بعد ساعة ونصف منها إلى الشرق آثار مدينة قديمة يقال لها أمريت فيها آثار تشهد لقدميتها كأعمدة وخلافها ولا سكن فيها الآن. وإلى جهة الجنوب الغربي من طرطوس على نحو ثلاثة أميال أرواد الشهيرة في التواريخ وهي جزيرة صغيرة محيطها سبعة فراسخ فيها كثير من آثار أبنية الفينيقيين كقلاع وأسوار متينة، أهلها الآن قلائل. ثم قضاء المرقب وفيه تسعون قرية والمرقب قلعة هناك أحدثها المسلمون سنة ٤٠٤ للهجرة / ١٠١٣ م وهي على رأس جبل يرتفع نحو ألف قدم عن مساواة البحر فيها كثير من المخازن والآبار وتجاهها على شاطىء البحر مكان مدينة بانياس التي لم يبق سوى بعض آثار منها وإلى الجهة الشرقية من هذه الأماكن جبال النصيرية وهي تقسم إلى إدارات عديدة كإدارة القدموس والخوابي وسمت وحلة والمزيرعة وصهيون وفيها آثار قلعة حصينة على صخر أصم وفي هذه الجبال نحو ستمائة قرية ونيف، ثم قضاء صافيتا وفيه مائتان وستة وثمانون قرية، وهناك آثار برج على تل عال يظن انه من أيام الرومانيين، وهناك أيضاً عين دورية تجري منها المياه مدة ثم تنقطع مدة أخرى يقال لها النهر السبتي وقد ذكرها يوسيفوس المؤرخ اليهودي. ثم قضاء عكار وهو متصل بجنوبي قضاء حصن الاكراد التابع متصرفية حماه كما تقدم وفيه مائتان وخمس قرى منها عرقة التي كانت في الزمن القديم مدينة مشهورة

وإلى الآن لم يزل هناك بعض آثار من أبنية الفينيقيين.

ومن أقسام ولاية سورية متصرفية بيروت ومركزها مدينة بيروت. وبما انها مدينتنا لا بأس بإطالة الكلام عليها قليلاً فأقول: إن بيروت مدينة قديمة جداً وقد اختلف في مؤسسها فقيل إنه جرجسايوس أحد أبناء كنعان بن حام بن نوح بدليل اسمها القديم جاريس. وروى المؤرخ إسطفانوس البيزنطي ان بانيها ساتورنوس أحد آلهة اليونانيين، لكن هذا غير صحيح لاسناده إلى الخرافات، والمحقق أن مؤسسها مجهول. كذلك اختلف في اسمها فذهب بعضهم ان هذا الاسم من باريث أحد آلهة الكنعانيين الوارد ذكره في سفر القضاة من كتاب العهد القديم وأنه كان بها هيكل على اسمه وقال غيرهم ان اسمها من بيروتا ابنة الزهرة وأدونيس المشهورة حكايتها في الخرافات اليونانية وقيل إن الزهرة نفسها كانت تسمى بيروث وكان لها معبد فيها وقيل إنها سميت كذلك من باروث لفظة عبرانية أو فينيقية تأويلها بئر لأنه كان يوجد بها آبار كثيرة وقال ماريتي السائح في رحلته إلى قبرص ومصر وسورية من أكثروا البحث عن أصل هذا الاسم وان أحكموا فلا نفع من بحثها إلاّ زيادة الالتباس وكانت تدعى دربي أيضاً وقد اشتهرت بصناعة البحر نظير صور في زمن ولاية ملوك مادي وكانت تساس بشرائع وطنية وفي السنة المائة والأربعين قبل المسيح أخربها ديودوتوس تريفون قائد جيش اسكندر بلاس ملك سورية وبقيت خراباً خمساً وسبعين سنة إلى أن جدد بناءها الرومانيون وفي أيامهم عظم قدرها واتسع بناؤها وكثر سكانها وأضحت ذات شهرة كبرى وذلك إن اغوسطوس قيصر شرفها بإحسانات عديدة وسماها جوليا السعيدة باسم ابنته التي أزوجها بصاحبه أغريفا وأسكنه فيها وذلك قبل المسيح بثلاثين سنة وسمح أن يدرس بها علم الشريعة وكان هذا السماح نادراً في تلك الأيام فكان ذلك أساساً لمدرسة كلية لعلم الفقه فكان طلبة العلم يتقاطرون إليها من أكثر الأصقاع كبلاد اليونان والديار المصرية وخلافها. ولقبت حينئذٍ بمدينة العلماء. وقال أنياشيوس في تاريخ مدينة رومية إنه منذ الجيل الثالث اشتهرت ثلاث مدارس خاصة بتعلم أصول الشريعة الأولى في رومية والثانية في القسطنطينية والثالثة في بيروت حتى لم يكن يسمح بتعلم الفقه في أماكن غيرها. ولما أراد الملك يوستنيانوس أن يؤلف كتب الشريعة استدعى اليه من جملة العلماء دوروتاوس معلم مدرسة بيروت مع ثلاثة من تلامذته فيها وقد نالت لعظمة اعتبارها جملة ألقاب مشرفة فدعاها يوستنيانوس مرضعة الشرائع كما قدمنا وسميت أم النواميس وكرسي النعم ومرضعة الحياة بالراحة إلاّ ان تصاريف الدهور قد أصابتها في أواسط الجيل السادس فأخربتها بزلازل متتابعة في سنوات متقاربة حدثت في أكثر مدن فينيقية فقتل جم غفير من سكانها ومن الأجانب تحت الردم ونقلت المدارس إلى صيدا واستمرت هناك إلى أن رممت خراباتها التي كان يعسر ردها إلى عظمتها الأولى وفي الجيل السابع افتتحها المسلمون بعد فتح دمشق وحمص وحماه وأورشليم وذلك في خلافة عمر ابن الخطاب. وفي أواخر الجيل السابع حدثت فيها زلزلة شديدة فسقط منها جانب عظيم وفي أواسط الجيل التاسع أخذها نيكوفورس فوقا أحد ملوك القسطنطينية بواسطة وزيره زاميثاس المعروف عند العرب بالسمستق [يوحنا ابن الشمشقيق ٩٦٩ - ٩٧٦] إلاّ إنه بعد مدة وجيزة أي بعد ثلاث عشرة سنة استرجعها الاسلام مع ما كان أخذه سمستق في سوريا. وفي سنة ١١١٠ م حاصرها بلدونيوس الأول ملك القدس الافرنجي خمسة وستين يوماً حتى فتحها وفي سنة ١١٨٢ م أو سبعة وثمانين حاصرها الملك صلاح الدين الأيوبي براً وبحراً فأخذها من الافرنج واستمرت مدة سبع سنوات عاصمة سورية لحكومة الاسلام وفي سنة ١١٩٥ م تسلمتها الإفرنج عنوة واستمرت بيدهم إلى سنة ١٢٩١ م إذ أخذها منهم الملك الأشرف صلاح الدين خليل الثامن من ملوك الترك في الديار المصرية وهدم أسوارها ودك قلعتها وبقيت تحت ولاية الدولة

التركية بمصر إلى أن استفتح السلطان سليم الأول العثماني مصر وسورية فصارت تحت ولاية الدولة العلية. وأما خبر هدمها وحرقها من ملك البندقية بسبب قتل إبنه بها على باب القيسارية العتيقة من رجل أعمى فهذا غير محقق وفي زمن الأمراء التنوخيين جددت فيها عدة بنايات فبنى الأمير ناصر الدين داراً عظيمة على البحر وبنى تنكز نائب دمشق خاناً في الميناء وبنى الأمير منذر جامع النوفرة المعروف باسمه وبنى الأمير فخر الدين المعني برج الكشاف وخان الوحوش الذي كان جانب القشلة الصغيرة التي قرب السرايا الآن وبنى الأمير عساف سيفا جامع السرايا المعروف باسمه. وفي بداية الجيل السابع عشر انحطت حتى أصبحت كقرية إلى أن تولى عليها الأمير ملحم الشهابي سنة ١٧٤٩ فبنى خان الملاحة الذي تجاه الجمرك وبنى أخوه الأمير منصور خان ميزان الحرير السابق والقيسارية المعروفة باسمه وأخوه الأمير علي خان الصياغين وأخوه الأمير يونس القيسارية المعروفة باسمه والأمير يوسف ابن الأمير ملحم الوالي قيسارية الأرواام وزوجة الأمير أحمد المكناة بأم دبوس القيسارية العتيقة والبرج المستدير الذي كان بجانب السور مكان القشلة الجديدة وكانت للأمير سليمان اللمعي قيسارية البارود وكان للشيخ عبد السلام العماد قيسارية باسمه في رأس سوق العطارين وللشيخ شاهين تلحوق قيسارية باسمه قرب القيسارية العتيقة وكان لهم أبنية أخرى غير هذه أكثرها تهدمت وفي سنة ١٧٧٢ م تولى عليها أحمد باشا الجزار وفي هذه الأثناء حاصرتها عمارة مسكوبية وأطلقت عليها المدافع فهدمت جانباً منها وتسلمتها فصالحهم الأمير يوسف الشهابي على خمسة وعشرين ألف غرش وأخذها منهم. وفي سنة ١٧٧٦ م تولى أحمد باشا الجزار صيدا وأخذ بيروت من يد الأمير يوسف فأخرجه منها حسن باشا وزير البحر الذي كان حضر إلى عكا لإزالة ظاهر العمر عنها ثم تملكتها الافرنج بعد ذلك حتى أخرجهم منها الجزار سنة ١٧٩١ وهدم أكثر دور الأمراء وبنى بحجارتها السور. وفي سنة ١٨٢٥ قدمت إليها عمارة من الأرواام الذين كانوا حينئذٍ في الحرب مع الباب العالي لطلب الاستقلال فأطلقوا عليها المدافع ثم انصرفوا عنها. وفي سنة ١٨٣١ م تسلمها ابراهيم باشا إبن محمد علي باشا والي مصر ورصف حينئذٍ بعض أزقتها بالبلاط. وفي سنة ١٨٤٠ فتحها السلطان عبدالمجيد العثماني وطرد ابراهيم باشا منها بعد أن هدمت مدافع الدول المتحدة جانباً من أبراجها ودورها وصارت مقر وزير أيالة صيدا إلى أن قسمت عن قرب الممالك المحروسة إلى ولايات كبيرة فجعلت مدينة دمشق مركز ولاية سورية كما قدمنا. ومن سنة ١٨٤٠ م خاصة أخذت بالتقدم والنجاح أكثر مما كان يؤمل فتحسنت فيها الأبنية وانتظمت الأسواق والطرقات وكثر سكانها واتسعت دائرة التجارة بها والمعارف والعلوم وانشئت فيها المدارس والمطابع بكثرة والجمعيات المفيدة وزاد تمدن أهلها وبها جماعة من العلماء وعصابة من الشعراء وكثير من أصحاب الذكاء ذوي معارف وفنون ولأهلها رغبة في تعلم اللغات الأجنبية وعندهم حمية زائدة في الاقدام على صعاب الأمور وسكانها الآن يبلغون نحو ثمانين ألفاً من اسلام ونصارى ويهود وأكثرهم غرباء وفيها كثير من الآثار القديمة لكنها مردومة تحت الأرض فحيثما احتفروا في أرضها وجدوا كثيراً من الحجارة العظيمة والأعمدة والنواويس المنقوشة والمصورة والأشخاص الصنمية من الرخام وغيره. وقد وجد في بعض الأماكن أبنية لم تزل عامرة تحت التراب ووجد لدى باب يعقوب قناة للماء منحوتة في صخر شديد الصلابة متسعة يمشي فيها الرجل الطويل وذلك في أيام ولاية وجيه باشا سنة ١٢٦٢ هجرية / ١٨٤٥ م فأمر باستتباعها والتماس ينبوع مائها فاستتبعوها مسافة طويلة فلم يجدوا إلاّ مياهاً تتجلب إليها من فضلات المطر والجانب الأعظم من أبنيتها الآن خارج السور في البساتين. وماؤها جيد وهواؤها لطيف إلاّ في الجهة التي تشرف على نهرها حيث تكثر بها الأمراض في فصل الصيف. وأفضل جهاتها في الماء والهواء حي المصيطبة حيث توجد صخور رملية كثيرة تقطع منها أكثر حجارة المدينة.

وموقعها في درجة ٣٣ ودقيقة ٨٠ من الطول الشرقي وفي درجة ٣٣ ودقيقة ٥٠ من العرض الشمالي وهي على جانب الشمال الغربي من لسان طويل داخل في البحر نحو ثلاثة أميال.

ويتبع متصرفية بيروت ثمانية قضاوات، وهي: قضاء صيدا ومركزه مدينة صيدا وهي صيدون القديمة. قال يوسيفوس تسمت صيدون باسم أحد أبناء كنعان بن حام بن نوح. أهلها الآن نحو ثمانية آلاف نفساً لها بساتين وجنائن كثيرة واسعة خارجها وتتبعها إدارة جباع وفيها ثمانية وأربعون قرية، ثم قضاء صور وهي مدينة قديمة جداً كان لأهلها شهرة عظيمة في أيام الفينيقيين بمعرفة صناعة البحر كان بناؤها من بعض أهالي صيدا وذلك قبل بناء هيكل سليمان بنحو مائتين وأربعين سنة فيها كثير من الآثار القديمة كأعمدة وأقنية وأبنية متهدمة ومردومة وقد ورد ذكرها كثيراً في كتاب العهد القديم، أهلها نحو أربعة آلاف نفساً. ويقال في تاريخها وتاريخ صيدا من بداية الاسلام كما قيل في بيروت وموقعها على رأس لسان داخل في البحر قليلاً. وإلى الجنوب منها على مسافة ساعة مكان يقال له رأس العين يخرج من تنور فيه مياه غزيرة لا يدرك قرارها وتتبعها إدارة ساحل قانا وفيها نحو خمسين قرية، ثم قضاء هونين وقضاء تبنين وفيها مائة وثلاث قرى وفي هونين بقايا قلعة عظيمة، ثم قضاء مرج عيون في بلاد بشارة، وقضاء بلاد الشقيف وفيها سبعة وخمسون قرية.

ومن أقسام ولاية سورية متصرفية عكا، بالمد، ومركزها مدينة عكا كانت تسمى قديماً بطلومايس على اسم أحد بطليمسية مصر وهي محصنة بأسوار منيعة جداً واشتهرت كثيراً في الحروب. ففي سنة ١٧٩٩ م حضر إليها نابوليون الأول وحاصرها وذلك في ولاية أحمد باشا الجزار. وفي سنة ١٢٤٨ هجرية / ١٨٣٢ م أخذها ابراهيم باشا وكان واليها عبدالله باشا ثم حاصرتها مراكب الإفرنج في سنة ١٨٤٠ للمسيح. فيها آثار أقنية على قناطر كان يأتيها الماء بها من مسافة أربع ساعات. أهلها نحو ستة آلاف نفس وهي مركز تجارة تلك البلاد وحولها سهول مخصبة. ويتبع متصرفية عكا تسعة قضاوات، وهي: قضاء حيفا ومركزه مدينة حيفا وهي مدينة حقيرة أهلها قلائل فيها آثار قلعة قديمة، ثم قضاء الشاغور وفيه ثلاثة وثلاثون قرية منها المنصورة والمغار والرامة، ثم قضاء ساحل عتليت وفيه ثلاثة وعشرون قرية، ثم قضاء شفا عمر، وقضاء الناصرة وفيها ست وعشرون قرية منها صفرونية وأكسل وقانا الجليل وهي خراب، ثم قضاء صفد وهي بلدة كبيرة مشهورة، ثم قضاء جبل ترشيحا وفيه ثلاث وخمسون قرية، ثم قضاء طبريه وهي مدينة مشهورة بناها هيرودس وسماها على اسم طيباريوس قيصر بقربها مياه سخنة عليها حمام يغتسل به الناس وفي قضائها عدة قرى كالمجدل وعولم وسيرين وحطين.

ومن أقسام ولاية سورية **متصرفية القدس الشريف** ومركزها مدينة القدس وتسمى أورشليم وهي من أشهر مدن العالم لأسباب معلومة لكنها الآن قد انحطت عن عظمتها القديمة وهي مملوءة من الآثار القديمة كما لا يخفى محاطة بسور بناه السلطان سليم العثماني سنة ٩٤٨ هجرية / ١٥٤١ م له أربعة أبواب على الجهات الأربع وإلى جانب الباب الغربي قلعة قديمة جداً حولها خليج وعلى الجانب الغربي داخل السور الحرم الشريف. ويتبع متصرفية القدس الشريف خمسة قضاوات، وهي: قضاء بيت لحم وهي قرية داود الملك والنبي ومولد السيد المسيح وفي هذا القضاء مائة وثمان قرى منها بيت عنيا الشهيرة، ثم قضاء غزة، وهي مدينة متوسطة في العظم ذات بساتين على ساحل البحر وإلى جهة الشمال منها مدينة عسقلان الشهيرة بآثارها القديمة وفي قضائها نحو ستين قرية، ثم قضاء الخليل وفيه ثلاث وخمسون قرية، ثم قضاء الرملة واللد وهما مدينتان صغيرتان وفي قضائهما ثمان وسبعون قرية، ثم قضاء يافا وهي مدينة شهيرة أبنيتها جيدة متينة فيها آبار وبساتين كثيرة أهلها نحو عشرة آلاف نفس وفي قضائها نحو أربعة عشر قرية.

ومن أقسام ولاية سورية متصرفية نابلس ومركزها مدينة نابلس وهي مدينة قديمة ذات مياه وبساتين كثيرة ويتبعها ست وتسعون قرية. وفي هذه المتصرفية أربعة أقضية، وهي: جنين وفيه سبع وثلاثون قرية منها عرانة وجلبين ونورس وزرعين وسولم ونين وبيان وبرقين، ثم قضاء بني صعب وفيه إحدى وثمانين قرية، ثم قضاء السلط، وقضاء الكرك وفيهما قرى كثيرة منها جبع وسانور ذات القلعة المشهورة وهي قلعة متينة على رأس جبل لا يسلك إليها إلاّ من مضيق صعب جداً.

ومن أقسام ولاية سورية متصرفية حوران ويتبعها خمسة قضاوات، وهي: قضاء الجيدور وفيه مائة وست قرى، ثم قضاء جبل عجلون وفيه تسعون قرية، ثم قضاء اللجاه وفيه تسع وثلاثون قرية، ثم قضاء الحولة، وقضاء الجولان وفيهما نحو خمسين قرية. وفي أطراف هذه المتصرفية موقع قلعة صرخد المرتفعة التي ترى من مسافة بعيدة وقيل كان في اللجاه بركان أي جبل نار احترق قديماً بدليل الحجر الأسود الذي يجلب منها إلى سائر البلاد لارحية الطواحين وهناك يضعون في السقوف أعمدة حجرية مكان الجسور لصلابتها.

ومن أقسام ولاية سورية متصرفية جبل لبنان وهي منفردة عن الولاية بحكومتها، وآخر الأقسام، وفيها سبعة قضاوات، وهي: قضاء الكورة وفيه عدة مقاطعات كالزاوية والجبة وخلافها تحوي كثير من القرى وفوق الجبة مكان أرز لبنان الشهير بالقدمية ومن قراها أميون والبلمند وفيه دير عظيم لطائفة الروم الأرثوذكس وبشري وإهدن ووادي قاديشا وإلى شماليه دير قزحيا قاعدة أديرة الرهبان اللبنانيين، ثم دير قنوبين وهو قديم جداً من بناء الملك تلودوسيوس الكبير، ثم قضاء كسروان وفيه مدينة البترون على شاطىء البحر وهي صغيرة لكنها قديمة قيل بناها ايتوبعل ملك صور في عصر إيليا النبي أهلها نحو ٣٠٠٠ نفس، ثم مدينة جبيل وهي قديمة أيضاً فيها كنيسة قيل إنها من عهد رسل سيدنا المسيح وبها قلعة عظيمة وفيها آثار قديمة من أعمدة ونواويس وخلافه أهلها نحو ألف نفس، ثم جونية وهي مدينة صغيرة بين نهر المعاملتين ونهر الكلب. وفي هذا القضاء عدة مقاطعات فيها كثير من القرى أشهرها عمشيت وإهمج وقرطبة وتنورين والعاقورة ثم غزير والكفور ثم قرية غسطا والزوق وعينطورا وخلافها، ثم قضاء المتن وفيه عدة مقاطعات أيضاً فيها كثير من القرى أشهرها بكفيا وبيت شباب وبيت مري وصليما وبسكنتا والشوير وفالوغا وحمانا والعبادية وشويت وعاريا وعين الباردة وعين سعادة، ثم قضاء زحلة وهي أعظم قرى لبنان أهلها يبلغون نحو خمسة آلاف نفس وبقربها المعلقة وإلى الجنوب منها مكسة ومشغرة وصغبين، ثم قضاء الغرب وفيه عدة مقاطعات أيضاً وكثير من القرى والمزارع أعظمها دير القمر وبقربها بيت الدين التي هي مركز متصرفية لبنان، ثم قضاء جزين وفيه عدة مقاطعات أيضاً، ثم قضاء الشوف وهو الأخير. وفي جميع هذه القضاوات أربع وعشرون مقاطعة بها نحو ثمانمائة وخمسون قرية تقريباً ومن أراد الوقوف على تفصيل متصرفية جبل لبنان فعليه بمراجعة كتاب **أخبار الأعيان في جبل لبنان** [لصاحبه طنوس الشدياق]. وإلى هنا انتهى ما أمكن تحريره من الكلام على جغرافية الولاية السورية بالاختصار لأن كل إدارة أو متصرفية يمكن أن يؤلف فيها مجلداً كاملاً. وقد أخذت هذه التفاصيل التي ذكرتها وعدد القرى من دفاتر الحكومة السنية التي قد أغمرتنا بانعامها فأصبحت بلادنا السورية راتعة في ظلال المعدلة والامان ولذلك نراها تتقدم آناً بعد آن بمراحم واحسانات مولانا وسلطاننا الأعظم السلطان عبدالعزيز خان أبد الله سرير مملكته مدى الدوران. وبإلتفات وهمة حضرة صاحب الدولة والمجد والينا راشد باشا المفخم وبأنظار حضرة ولاة الأمور الساهرين على نجاحنا نسأله تعالى أن يؤيد ويحفظ لنا وجودهم الشريف مدى الدوام والسلام.

الخطبة التي تلاها الخواجة سليم كساب في الصناعة

[المجموعة الرابعة من أعمال السنة الثانية. ص ١٣٥ - ١٨٦].

الحمد لله صانع الكائنات والمبدع الفرد لكامل الموجودات، من بيده أزمة الحركات والسكنات والمركب الأصلي لدقائق ومواد الآلات، الذي رتب القوى وخواصها بحكمة تفوق عقل كل ماضٍ وآتٍ، وحدد الأوقات والفواعل والمؤثرات، ورزق الانسان عقلاً به يستطيع على إدراك بعض الخفيات ليزداد تمجيداً له تعالى ويتمتع بأعظم البركات، فأشكره شكراً يلهمنا الحسنات والسلام على أنبيائه أهل الفضل والكرامات. أما بعد، إن الصناعة حرفة الصانع وهي في عرف العامة العلم الحاصل بمزاولة العمل كالخياطة والحياكة ونحوهما مما يتوقف على المزاولة والممارسة، وعند الخاصة هي العلم المتعلق بكيفية العمل ويكون المقصود منه ذلك العمل سواء حصل بمزاولة العمل كالخياطة ونحوها أولاً كعلم الفقه والمنطق والنحو والحكمة العملية ونحوها مما لا يحتاج في تحصيله إلى مزاولة الأعمال. وقيل كل علم مارسه الانسان حتى صار كالحرفة له يسمى صناعة. وقيل الصناعة اسم للعلم الحاصل من التمرن على العمل أو هو ملكة يقتدر بها على استعمال موضوعات ما لنحو غرض من الأغراض صادراً عن البصيرة بحسب الإمكان وفي التعريفات: الصناعة ملكة نفسانية تصدر عنها الأفعال الاختيارية من غير رؤية. وقيل هي العلم المتعلق بكيفية العمل. وقال في الكليات: الصناعة، في الفتح، تستعمل في المحسوسات، وبالكسر، في المعاني وهي أخص من الحرفة لأنها تحتاج في حصولها إلى المزاولة. ويجوز أن تكون تغيير هيئة الأشياء بواسطة الأيدي أو الآلات أو بممارسة الأعمال والحصول على قيمتها لأجل تذييل الضروريات والحصول على كماليات المعاش. فلا ريب أن الصنائع والاختراعات هي من أنفع وسائط التمدن وأقواها والسلسلة التي بها تنتظم رباطات الهيئة الاجتماعية والآلة التي تضم شتات الأمم والأقاليم وتؤلف بين سكان المسكونة. وتقوي دعائم التجارة بتقريب أبعاد الأسفار وتسهيل وسائط النقل والارساليات واستخدام الموجودات للمنافع الانسانية. وعليها يتعلق نجاح الزراعة التي هي أم الثروة وينبوعها، نعم، وعلى تحسين هذا الفن وحده تتعلق رفاهية البلاد وثروتها واقتدارها ونجاحها وعمارها، الأمور التي لا يتم التمدن بدونها. وهي التي تعطي التمدن شوكة ليأخذ مفعوله بإخضاعها صعاب الأمور ومحاسن الموجودات واستخدامها لانشاء ما به لذة الحياة الانسانية وعمار واشتداد الهيئة وتوطيد أركان الوطن وانفتاح أبواب الثروة وإعطاء التسهيلات لعمل ومبادلة الأصناف التجارية وجلب ما يتعلق عليه مهام الاحتياجات الضرورية والكمالية. إذ لا بد في كل قنية من دخول قيمة العمل الذي حصلت به ولولا العمل لم تحصل قنيتها. وتكون ملاحظة العمل ظاهرة في الكثير منها فتجعل له حصة من القيمة عظمت أم صغرت. وقد تخفى ملاحظة العمل كما في أسعار الأقوات فإن اعتبار الأعمال والنفقات فيها ملاحظ من أسعار الحبوب. فإذن المكتسبات كلها هي قيم الأعمال الانسانية. واعلم انه إذا فقدت الأعمال أو قلت بانتقاص العمران زال الكسب وكذلك المدن التي يكون عمرانها أكثر يكون أهلها أوسع أحوالاً وأشد رفاهية ألا ترى إلى البلاد التي تناقص عمرانها كيف يقل رزقها وتنحل عقدة هيئتها حتى ان الأنهار والعيون ينقطع جريها في القفر لما ان فور الماء إنما يكون بالانباط والامتراء الذي هو العمل الانساني كالحال في ضروع الأنعام فما لم يكن أنباط ولا امتراء نضبت وغارت بالجملة كما يجف الضرع إذا ترك وانظر إلى البلاد التي تعهد فيها العيون بأيام عمرانها كيف غارت مياهها كأنها لم تكن وهكذا الحال في عمار البلاد بالنظر للعمران الناتج من تعاون الأعمال

الانسانية. ثم إن الصنائع منها البسيط ومنها المركب فالأول يختص بالضروريات والثاني بالكماليات. وتنقسم أيضاً إلى ما يختص بأمر المعاش وإلى ما يختص بالأفكار. فمن الأول النساجة والبناء إلى غير ذلك، ومن الثاني التعليم والخطابة والسياسة وما أشبه. وجميعها لا تكمل إلّا بكمال العمران وكثرته. وذلك لأنه متى ازداد التمدن في بلد أو مملكة ما ازدادت فيها الأعمال ووفت بالضروري. وعلى مقدار عمرانها تكون جودة الصنائع للتأنق فيها واستجادة ما يطلب منها. وكلما طالت الراحة والأمن والاشتغال بالأعمال الفكرية ترسخ الصنائع وتتمكن وتستجاد وتتفرع وتمتد. كما يظهر لنا من مراجعة التواريخ القديمة ومشاهدة آثار الأبنية والتأمل في أحوال الممالك الحاضرة. ومن جملة دواعيها أيضاً كثرة أهالي المملكة مع عدم وجود أراضٍ كافية للقيام باحتياجات المعاش فيضطر أهلها حينئذٍ لعمل ما يمكنهم به المبادلة واستجلاب ما ينقص عنهم. والصناعة لا تستجاد إلّا لكثرة طالبيها والدواعي الحاثة إليها كما تقدم. وهي كثيرة لا تكاد تدخل تحت الحصر وأهمها التعليم والسياسة والنساجة بأنواعها والبناء وعمل الأواني المختلفة والطب. وإذ قد تقرر ذلك أقول بأن هذا الموضوع مهم ومتسع جداً ويستغرق مؤلفات عديدة إلّا انني أتكلم عنه بكل اختصار. هذا، ولا يمكن لقاصر نظيري التوسع واستيفاء واجبات موضوع مهم كهذا فلذا أرجو غض النظر عن القصور. هذا، وإنني قد قسمت هذا الموضوع إلى ثلاثة أقسام: الأول في تاريخ الصناعة وامتدادها، الثاني في نتائجها وحالة بلادنا بالنظر إليها، الثالث في الوسائط اللازمة لاستحصالها. فأقول أولاً:

في تاريخ الصناعة (١)

إنه بما ان تاريخها مرتبط بالتمدن كارتباط النفس بالجسد ولا يمكن تمييزها منه إذ كلما ازداد التمدن في مملكة ما ازداد طلب أهلها للأشياء الكمالية التي تتكفل الصنائع بتجهيزها. فلذا لا بد من امتزاج أحوال الممالك بالنسبة إليها وحالة علومها التي هي الأم الأصلية لايجادها مع ذكر أسماء بعض من المخترعين فأقول؛ لا يخفى ان المصريين قديماً كانوا أول من أدخل الصنائع والفنون وأول من اشتهر بترقية التجارة والزراعة حتى ان اختراع آلة الحراثة ينسب إلى أحد مشاهيرهم القدماء المدعو أوزرليس: وكان لهم اليد الطولى بصناعة البناء والمساحة والفلك والنقش وفن السياسة وصناعة الحرب وغيرها. وأعظم زمان زهت فيه تلك المملكة هو عندما كانت تحت سلطة سوستريس الذي يظن انه كان معاصراً لموسى. ثم إن البعض من مهاجري المصريين دخلوا إلى مملكة اليونان في العصر التاسع عشر قبل التاريخ المسيحي وأدخلوا معهم تدريجاً المعارف ووسائط التمدن. وأول من اشتهر بذلك شخص يدعى ايناخوس في مدينة تدعى أرغوليس. ثم بالقرب من هذا الوقت تأسست اركاديا وميسينيا واسبرطه وتسمت بأسماء مؤسسيها. وأول من أسس حكومة وديواناً بتلك البلاد هو أمفكطيون سنة ١٥٢١ قبل التاريخ المسيحي الذي بواسطته قد اتحدت كل الأقاليم اليونانية لأجل المحاماة عن صالحها وتنفيذ شوكتها. ثم إن أثينا تأسست من كيكروبس في الجيل السادس عشر وثيبس من قدموس الفينيقي الذي أدخل خمسة عشر من الأحرف اليونانية وكثيراً من صنائع بلاده. وأول شارع للكريديين كان مينوس وعنه أخذ لكورغوس قواعده المعروفة وإدراكون وسولون كانا من أعظم مؤلفي شرائع اليونانيين. ثم إن ليكورغوس يجب أن يعد بين أول مراتب مدخلي التمدن حيث مزج إذ ذاك الأحكام بالآداب وقسم الأراضي والأملاك بالسوية وجعل الملوك والرعايا يأكلون على مائدة واحدة بدون توسع وتبذير ومرّن الأولاد منذ نعومة أظفارهم على التعلم والصناعة والشجاعة وشدد قصاص المجرمين إلى غير ذلك. ودامت مملكتا اليونان واسبرطة على غاية من التباغض والمحاربة مدة مستطيلة. وكان كل منها يخالف الآخر في الأطباع والآداب فأهل الأولى، أي أثينا، كانوا مولعين بالحرف

والصنائع والمعارف ومحبة الفخر والوطن، وأما الثانية فكانوا لا يهتمون بشيء أكثر من الحرب وتحصيل الشهرة وامتثال أوامر حكامهم. وأول من اشتهر من اليونانيين بالمعارف هو تاليس الملطي الذي عرَّف عن القوة الجاذبة التي للكهرباء بالحك. ثم إن فيثاغورس ألف مجموعاً جميلاً ذكر فيه عن السماع والتثاقل والأبصار والألوان: ثم إن ديموكريت ولوسيب تكلما عن الجوهر الفرد وشرحا نواميس سقوط الأجسام والخلو والهواء والضوء والنار. ثم إن أفلاطون اخترع طرقاً هندسية عديدة التي أعانت جداً على تقدم علم الطبيعة، وأرسطوطاليس ألّف عدة مؤلفات فيها وبالفلك. ولا يخفى أن أعظم مؤرخيهم هوهسيودوس وهيرودوتوس وأعظم شعرائهم هوميروس. وعصر التمدن والصنائع عندهم يحسب من زمان سولون إلى الاسكندر. وممن اشتهر بينهم بالآداب هو سقراط، في البناء برقليس، في الرسم فيدياس، في التصوير بوليكنتس، في الانشاء ثيوفكليس، في الألعاب أريثوفانوس، في الكتابة برغامس وهو الذي انشأ صناعة الورق، في الفصاحة ديموثينيس وغيرهم. ثم والفينيقيون ليسوا بأقل رتبة من الأمتين المار ذكرهما بالنظر لإدخال التمدن والصنائع. حيث إليهم ينسب أعظم وأهم شيء تتعلق عليه المعارف وهو الأحرف الهجائية المنسوب اختراعها إليهم. قد فاقوا أمم ذاك العصر بالفنون البحرية والتجارية وشغل الزجاج والأقمشة والصباغ حتى وصلوا إلى أعلى طبقة في الغنى والتمدن والشهرة الناتجة من توسعهم في الأسفار البحرية وامتداد التجارة واتقان الصناعة. ونزلاتهم في سيسيليا وقرطاجنة ورودس وسردينيا والأندلس تشهد لهم بالوصول إلى أعلى قمة الفخار. ثم إن المملكتين الفارسية والأشورية كان لهما من الرونق وسعة الحال مما لا يمكن استيفاء الشرح عنه. ونبغ بينهم أيضاً كثير من الأفراد والعلماء بالعلوم الفلكية والرياضية والصنائع. وآثار الأبنية والمشادات الباقي بعضها للآن تشهد لهم بالاقتدار. وقد مهر الفرس جداً بعلم الحراثة وكانوا يربون أولادهم تربية حسنة يؤهلونهم بها للشجاعة والفهم والحروب ومتى تم عمرهم سبعة عشرة سنة كانوا يسلمونهم لأرباب المعارف ليعلموهم كلما يكون به الانسان نافعاً لذاته ووطنه ولا يمكنون أحداً من وظيفة قبلما يكون متغذياً بالمعارف مشهوراً بعلمه وآدابه. هذا، والذي صير هذه المملكة مشهورة هو قوروس الذي طالت مدة حكمه وكان نجيباً شجاعاً مشهوراً بغزواته وفتكه وانتظام عساكره وجودة أسلحته التي كانت تعجل نصره وأوصل ملكه من جهة إلى الهند ومن أخرى إلى بحر الخزر والروم. إلّا أن الغنى والثروة سببا لأمة العجم التكسر والرخاء الذي أنتج لمملكتهم كثيراً من الفساد والانحطاط.

أما الصينيون القدماء كان لهم بعض علوم لكنهم لم يتقدموا بها من جيل إلى جيل فكانوا يصنعون الزجاج والآنية الخزفية واخترعوا صناعة الطبع وعرفوا البارود قبل التاريخ المسيحي فهذه الأشياء وما أشبهها كانت عندهم بحالة قاصرة. وأما صناعة الفلاحة فقد اشتهروا بها جداً وأعظم مشاهيرهم كان شخصاً يدعى كونفوشيوس ظهر سنة ٥٥٠ قبل المسيح وكان فيلسوفاً وشارعاً عظيماً ورتب لهم شرائع معتبرة منوطية على كثير من الحكم والآداب، ولا يزال الصينيون يتخذون أقواله كشريعة أو بالحرى كوحي.

ثم بعد وفاة الاسكندر لم تجد العلوم ملجأ سوى الديار المصرية تحت راية بطليموس أحد قواد عساكره الذي أنشأ مكتبة شهيرة احترقت فيما بعد. وقد اخترع أكزيبوس في مدرسة الاسكندرية طلونبة وآلة لرمي السهام. وتكلم هيرون عن تمدد الهواء من الحرارة واخترع الآلة المسماة بالمعيار لأجل رفع الأثقال العظام. وكذلك أرخميدس في جزيرة صقليا كان على غاية من البراعة في العلوم الهندسية والطبيعية وهو الذي اخترع معرفة الثقل النوعي مع عدة آلات يطول شرحها.

ثم فيما بعد زهت المملكة الرومانية ومع أن أهلها كانوا مشتغلين بمجد الحرب ولمعان السلاح فقد

نبغ بينهم عدة من المشاهير مثل مانيليوس وكالوس في الشعر والفلك والتاريخ وتيلسوس في الطب وفيتروفيوس في البناء وهيجينوس في الميثولوجيا وغيرهم في غيرها.

ثم لما وصل الأمر إلى الزمان الذي ابتدأ فيه العرب بالفتوحات هاموا إذ ذاك أولاً بالحروب وتتابع النصرات والتملك وقد تقدموا بذلك بدرجة تكاد أن تكون غير مصدقة. فعندما استقروا في البلاد وتمكنوا من الاستيلاء عليها بردت همتهم من هذه الحيثية وتنبهوا للعلوم والصنائع فاستجلب الخلفاء أرباب هذه الفنون وتُرجم بها مؤلفات عديدة. وممن اشتهر منهم بذلك الخليفة أبو جعفر وهارون الرشيد والمستنصر والواثق وبزمانهم نصبت العلوم سرادقها المنيعة ونمت واتسعت وسطعت أنوارها. ولا يسعنا الوقت أن نعدد أفراد علماء العرب بالنظر للعلوم اللغوية التي ألفوها وجمعوا قوانينها وشواردها وتوسعوا بها غاية ما يكون مقسمين إياها إلى عدة أقسام وفروع وفنون مستظرفة لا يحتمل المقام تعدادها. وكذلك العلوم الرياضية التي ارتقوا بها إلى أعلى درجة من الكمال واخترعوا بها فن الجبر، والطبيعة التي ترجموا بها عدة كتب من اللغة اليونانية واللاتينية وزادوا عليها محسنات شتى، والفلكية التي تبحروا فيها أيضاً وألفوا بها مؤلفات عديدة، والطبية التي مهروا بها جداً ورقّوها لأعلى طبقة من الكمال بالنسبة لذاك العصر، ومؤلفات أبقراط وإبن سينا والرازي وغيرهم التي أخذ الأوروبيون عنها وبنوا عليها طبهم الجديد تشهد لهم بإدراك كنه حقائق هذا الفن وجودة معاطاتهم له، والشعرية التي هي أعظم من أن يمكن تعداد أسماء فحول المؤلفين بها وتفصيل الفروع والبديعيات والقصائد الغراء والتقاطيع والمخمسات الحكمية والأدبية والغزلية وغيرها التي أوجدتها قرائحهم المتوقدة وسليقتهم الطبيعية وغنى لغتهم الشريفة. إلاّ ان مئات الكتب التي ألقتها لنا يد الزمان تكفي دليلاً على سمو مرتبتهم وطول باعهم بهذا الفن الجميل، والتاريخية التي رصعوها أيضاً بجواهر التآليف المفيدة وذلك كمؤلفات أبي الفداء وإبن خلدون وغيرهما إلى غير ذلك من العلوم. هذا، وقد حافظوا على الصنائع وتولعوا بها للغاية وقد اشتهروا بنساجة الأقمشة وعمل الأواني وفن البناء والصياغة والفلاحة وما أشبه حتى ان الأوروبيين أخذوا عنهم هذه الأشياء قديماً من الأندلس. وكانت أوروبا إذ ذاك على غاية من الجهالة والتوحش مغطاة بضباب هجوم القبائل البربرية والانقسامات السياسية والأهلية.

ثم عندما انقسمت المملكة الرومانية إلى قسمين أحدهما في الشرق والآخر في الغرب ظهر أيضاً في القسطنطينية وغيرها من المملكة الرومانية الشرقية كثير من الأفراد. ومن زمان قسطنطين الأول إلى ثيودوسيوس بعد العصر الذهبي نظراً لكثرة المعارف وامتدادها ومحاماة العلماء عن التعاليم الأدبية واتساع المدارس ونموها. ومن مشاهير علماء الشرق نونوس ياتايوليوس في الشعر، بيزانتين في التاريخ إسطفانوس في الجغرافيا، يونيسيوس في اللغة، هيبيانا إبنة ثيون في المساحة، ديوفانتوس في الجبر. وبينما كانت رومية أيضاً تنازع المدينة المار ذكرها شرفاً واقتداراً قد غصت الأخرى أيضاً بفحول المؤلفين كاميمانوس مرسيلتوس في التاريخ، بوئيثيوس في الفلسفة، اوغوسطينوس في الآداب، أوسينيوس وبرذتيوس في الشعر، وسيبوس سفيروس في الجغرافيا والفلك وغيرهم في غيرها.

ثم إن الانقسامات الأهلية والمنازعات الجنسية وغيرها التي كانت لا تزال تتوالى وتتكاثر بين الشرق والغرب قد انتجت ما لا مزيد عليه من الضعف والانحطاط للمملكة الشرقية إلى ان استفتحت بعد عدة وقائع وتفرقت العلوم وأهلها أيدي سبأ. بينما كان الغرب لا يزال يتمتع بشيء من علومه وراحته الماضية ثم آل الأمر إلى أن جرى به طوفان المعامع الحربية وتغطى بغيوم جهالة الأعصر المتوسطة من جري توالى هجوم القبائل البربرية وذلك يحسب من حين سقوط المملكة الرومانية إلى تأسيس الممالك الكبرى في القرب من الجيل الخامس عشر. فأعظم الممالك التي اشتهرت بالصنائع والعلوم في

الأجيال المتوسطة في الغرب هي إيطاليا إذ ان البناء وصل عندهم وقتئذٍ إلى أعلى درجة من الاتقان والتصوير كذلك والفخار الذي هو أقدم الاختراعات الانسانية كان أول اختراعه على ما يقال في بلاد العجم ثم في بلاد العرب الذي منها انتقل إلى الأوروبا وأول من اشتهر به هناك شخص جنويزي يدعى بيرنارد باليسي الذي كان ماهراً للغاية والمذكور كان في شبوبيته متقناً لصناعة التصوير وقد زين الأواني المختلفة التي كان يصنعها بصور أشخاص وحشرات وأسماك وطيور وزهور. وللمذكور جملة اكتشافات في أثناء خلواته الكثيرة تتعلق بالمياه والينابيع والمعادن قد عدلنا عن ذكرها. ثم إن مرايا القزاز الزئبقية اخترعت في فينيسيا من أعمال ايطاليا في الجيل الثالث عشر. والمرايا عند القدماء كانت عبارة عن قطعة معدن أو صفيحة مصقولة جيداً ولامعة حتى انه كانت تنطبع عليها صور المرئيات. والقزاز أدخل إلى فينيسيا أولاً من شخص عربي الذي ذهب إلى هناك ليشتغل بهذه الصناعة. وأصل اختراعاته ينسب إلى ثيوفراتس الفينيقي الأصل الذي كان متوطناً في مصر سنة ٣٧٠ قبل المسيح. ثم إن اليونان والرومان القدماء كانوا يستدلون على معرفة الأوقات بساعة مائية أي وعاء مصنوعاً من النحاس مملوءاً من الماء وبأسفله فتحة صغيرة التي منها كان يتساقط الماء قليلاً قليلاً إلى أن ينتهي بوقت معلوم ثم يعاد إليه مثله وهكذا. ثم فيما بعد اخترعت الساعة الرملية ويقال إن أول من اخترع الساعة الدقاقة شخص عربي. والخليفة هارون الرشيد أهدى واحدة منها إلى شرلمان ملك النمسا. ثم إن البلور وهو مزيج الرمل والمنيوم وكربونات البوتاسة المصفاة اخترع في بلاد العرب قريباً من العصر الثالث عشر. والبارود اخترع أولاً من انسان سوري في الجيل السابع وكان أولاً عبارة عن مادة مركبة من النفط والجير والملح والزيت والكلس ممزوجاً وكان يستخدم عند الصينيين والهنديين وأكثر بلاد المشرق لأجل الرمي على المحلات وإحراقها بوقت الحروب. والعرب أضافوا في الجيل الرابع عشر بعض أشياء على التركيب المتقدم كالكبريت والفحم وركبوا البارود المستعمل الآن. المدافع اخترعت في فلورنسا من إثني عشر رجل من أعمال ايطاليا سنة ١٣٢٥ م لأجل وقاية مدينتهم وقلعتهم التي كانت تخص الجمهورية وأمروا ضابطية بسبك مدافع لهذه الغاية. وأول ما ادخلت المدافع إلى فرنسا سنة ١٣٣٩ م وإلى انكلترا سنة ١٣٤٩ م البواريد اخترعت من شخص يدعى بيرابولد شوارتز في المانيا بالقرب من الجيل الخامس عشر. والخلاصة إن الأسلحة الحربية هي نتيجة أعمال جملة أشخاص في أوقات مديدة وأمكنة مختلفة.

ثم إنه منذ الجيل الخامس عشر إلى الآن ابتدأت تلك الغيوم الكثيفة ان تنقشع غن شموس القرائح المتوقدة وتندفق تيارات المعرفة والاختراعات والصنائع وتثور الهمم وتحيي المعارف وتتسع دوائرها إذ إن سقوط القسطنطينية كان سبباً لتشتيت كثير من العلماء اليونانيين في الغرب الذي نشروا به جزءاً عظيماً من المعارف والعلوم. على أن الحروب الصليبية كانت قد فتحت سابقاً باباً متسعاً لرواج سوق المعارف والمتجر في تلك الأقطار بإدخال الحرير والقطن والسكر إلى غربي أوروبا مع كثير من كتب العرب وآدابهم ثم إن التجار الجرمانيين والايطاليين أخذوا يتاجرون بالأصواف والأواني الخزفية من الشرق والنورمانديين والدانيمركيين أسسوا عدة معامل لشغل الأصواف والأقطان ومعادن مينيسيا واكتشاف وسفرات الدانيمركيين والهولانديين حول أفريقية والوصلة المتجرية التي تأسست بين الهند وبقية الممالك الأوربية جهزت كثيراً من الوسائط لتقدم الصناعة. على ان ازدياد الغنى والمتاجر الأجنبية واتقان فن الزراعة أتت بتسهيلات كلية لامتداد ما تقدم. وأعظم ما يفتتح به تاريخ الفخار للصنائع والعلوم وامتداد التمدن هو اختراع صناعة الطبع التي تنسب إلى هوتنبرغ في أواسط الجيل الخامس عشر ولا خفي إن ميخائيل انجيلو ورفائيل الايطاليين كانا من أعظم من اشتهر بصناعة التصوير. وأول مدرسة عليا ابتدأت في فرنسا كانت سنة ١٢٣٠ وأوكسفورد في انكلترا سنة ١٢٥٠ وحينئذٍ ابتدأت

اللغة الفرنساوية ان تحيى ويرتب لها قواعد وقواميس وجمعيات. ثم إن برلام الراهب كان من أشد المتعمقين باللغات القديمة وأول من أهتم بإدخال تعليمها في مدارس أوروبا. وأول مؤسس لأكدمية (أي جمعية الفلسفة) كان شخص يدعى كوسيموس الميسيدي في الجيل الرابع عشر وقد زاد امتداد المعارف ونموها بتحسين واتقان صناعة الورق في الجيل الثالث عشر. وأول من اخترع الكوميديات (أي الألعاب المشخصة) كان شخص ايطالياني يدعى بوكيو في أوائل الجيل الرابع عشر.

وإذا أردت أن أذكر أسماء المخترعين ومن اشتهر بترقية العلوم والصناعة منذ الجيل السادس عشر إلى الآن فيقتضي لي مجلد بل مجلدات بل أكتفي بذكر أشهرهم اختصاراً فأقول: إن اسحاق نيوتن الانكليزي يجب أن يعد بين أعظمهم لاختراعه معرفة قوتي الجاذبة والدافعة اللتين يتوقف عليهما ضابط انتظام العالم بأسره. وباسكال الفرنساوي الذي كان معاصراً للمذكور كان يساويه فضلاً وشهرة نظراً لاختراعه عدة آلات بخارية واكشافه بواسطة حدة ذهنه وتبحره على أشياء عديدة لا يستوفيها المقام. على أن فرانكلين الاميركاي الذي عرف عن الصاعقة واخترع لها الآلة المانعة أبان بياناً كافياً عن الكهربائية بالنظر للانجذاب ليس بأقل شهرة من الاثنين المار ذكرهما إذ كان هو أول من تجاسر على جذب الكهربائية من السحاب. ويجب أن نضع بين رتبة المذكورين المشاهير الآتي ذكرهم وهم هوجنس الجرماني الذي عرف خاصية البخار في أوائل الجيل السادس عشر وقد اخترع آلة عجيبة لذلك. ثم الشهير جيمس واط الايقوسي الذي كان متوطناً بانكلترا وكان أولاً صانعاً فقيراً في مدينة كرنيوك ثم بواسطة اجتهاده وحدة ذهنه توصل إلى اكتشافات عديدة في معرفة خاصية البخار وتحسين آلاته وأغنى مملكته وكل العالم بنتائج اختراعاته بهذا الخصوص وخاصة في آلات المعامل، ووفر كثيراً من النقود والمصاريف، بوضعه لذلك ميزاناً محكماً واتقانه كيفية وضع الآلات وتسييرها، حتى انه صار أهم شخص في تلك الديار. ودينس بابين ذو القريحة الوقادة المخترع آلات المراكب البخارية سنة ١٧١٧ وله قصة غريبة بل محزنة عدلت عن ذكرها. قد حسن بعده السفن المرقومة ديكنيس وجوناثان هولس الانكليزيان. وروبين فولتن الأميركاني كان أول ممن حاز المجد والشهرة بممارسة تسيير السفن البخارية بحراً. وبلانطا السويسراني كان أول مخترع لتمشية العربات النارية سنة ١٧٦٩ م إلاّ أن تمشيتها كان أولاً على الطرق الاعتيادية. ثم إن لوكونت الفرنساوي قد وسع هذا المشروع وصنع بذاته عربة بخارية ومشاها بحضور وزير ملك فرنسا المدعو لويز الخامس عشر. وترينتيك وفيفيان الانكليزيان كانا أول من حاز الشهرة باختراع السكك الحديدية سنة ١٨٠٤ م وقد حسن ذلك جداً بلاكيت الانكليزي.

وأعظم شخص ارتقى لآخر درجة في علم الفلك هو هرشل الفرنساوي المخترع للنظارة المعظمة والمكتشف لعدة كواكب وأشياء كثيرة تتعلق بهذا الفن. وغاليلوس الايطالياني الذي كان أول من قال بحركة الأرض. ومن جملة من اشتهر في الجغرافيا كريستوفورس كولومبس المكتشف الأول لاميركيا. المكرسكوب اخترع من زخاريا زانس في هولاندا سنة ١٥٩٠ م والبعض يقولون من كرنيليوس دربيل. والبارومتر أي ميزان الحرارة من توريشللي سنة ١٦٣٠ م. والتيلسكوب من زوتشي في ليون سنة ١٧٦٠ م. ثم إن أعظم مؤلف في التوفير السياسي هو بلاك سميث. وفي الأمور الطبية هارفي وهو أول من عرف عن كيفية دوران الدم، واكتشف كثيراً من خواص النبات لأجل العلاج لورد شافيسيري في النباتات. وأشهر المؤلفين بالفصاحة والمعاني البديعة الشعرية وغيرها .شكسبير وميلتون الانكليزيان وراسين وفنيلون الفرنساويان.

وأعظم من رفع راية اللغة الفرنساوية وزينها بإبداع ألعاب التياترات هو ماليرب وكورنيل، وأعظم من اشتهر بالخطب بوسوي وبوردالو، وبمحاسن النوادر لافونتين. وأول من اشتهر بإنشاء

جرنالات الأخبار في أوروبا بوالو وسالو. وبالرسم البديع المتسع الخيالي سالفاتور روزا، وبتهذيب الشرائع بلاك ستون، وفي آلات الأنوال والمغازل واختراع تمشية المعامل نيوكومين وكلولى في دارموث وكرومبتون في الفلسفة الطبيعية والتاريخ فولتير ورولين، في الإنشاء روسو، في الآداب مارمونتيل في الرياضيات ديدورت ودالمبير، في الكيميكا لافوازين، في التصوير رينولدوس، في الزراعة كينسبورو، في الصناعة كروز، في النقش فيرنيت، في كيفية التعليم فيين، في الألعاب البدنية ميتاستاسو، في الآلات البزقية كالافاني وفولتا، الخ. هذا وأول من عرف أن يستخدم الشريط البرقي هو جيورج لويس ليزاج الجنويزي، وقد صنع بيده تلغرافاً سنة ١٧٧٤ م، ولا يسعنا الوقت أن نشرح كيفية ذلك. وأول من عرف خاصية الغاز شخص فرنساوي يدعى فيليب ليسبون سنة ١٧٨٧، وأول من استعمله شخص الماني يدعى وينسر. وأول من صنع فورتغرافاً هو يوسف ينيس الايطالياني سنة ١٨١٣ م وأول من صنع القبة الطيارة راهب يدعى بالاب فرانسو، وذلك في القرن الثامن عشر. وأول من ركب شمع من السمك هو براكونو البروسياني سنة ١٨٣١ م.

ولا تزال الاختراعات تتوالى وتزداد وتتحسن ليومنا هذا فإننا كثيراً ما نسمع بمخترعين واختراعات جديدة وعجيبة. هذا ولا يمكن لانسان أن يتصور عظمة الآلات وكثرتها وعملها وسرعتها العجيبة بدون أن يراها عياناً وحينئذٍ لا يتمالك من الاندهاش والتعجب عند مشاهدته المعامل والآلات البخارية التي تعمل ما لا يستطيع على عمله ألوف وملايين عديدة من أيدي فعلتها بأزمان طويلة ومصاريف باهظة وكم تفيض أبحراً من البضائع والأواني لأجل تكميل وترقية وتوسيع ورفاهة احتياجات الحياة. كما انه ينذهل أيضاً عند تأمله بهذه القدرة التي منحت من العناية الإلهية للعقل الانساني التي بواسطتها اتصل لهذه الدرجة السامية من المعارف باخضاعه العناصر والقوى الطبيعية لقيام ما به رفاهة حياته. وإذ قد تقرر ما ذكر عن تاريخ الصناعة اختصاراً وحالتها في عصرنا الحاضر أتقدم إلى القسم الثاني، وهو:

نتائج الصناعة وحالة بلادنا بالنسبة إليها (٢)

إنه مما تقدم ومما قد عدلنا عن ذكره خوف الإطالة حسب التواريخ الشهيرة ومما نشاهده عياناً يظهر جلياً عند أول وهلة بأن الصنائع هي الواسطة الأعظم والأقوى لعمار الممالك ونجاحها واليد الضامة لنظام مفردات الوجود وابراز محاسن الطبيعة للفعل والتمتع بلذة الحياة بالنظر للرفاهة والثروة والفخر إلى غير ذلك أفراداً وعموماً. ولا خفي إن محور الصناعة هو العلوم وبالأخص العلوم الطبيعية والكيماوية والرياضية والجيولوجية والميكانيكية. لأن عليها تتوقف كل محسنات الصنائع وتسهيلاتها ونتائجها المختلفة. ألا ترون كيف انه بواسطة اتقان الفنون المار ذكرها في الثلاثة الأجيال الماضية وبالأخص منذ الجيل السابع عشر قد تفتحت الصنائع والآداب عن أزهار بديعة وابتدأت ان تتدفق أبحر الاختراعات من ينابيع القرائح المتوقدة. وثارت الهمم لاكتشاف بدائع الطبيعة وتسهيل واتقان ما يعطي البلاد الرونق والنشاط والتمدن، فتمهدت أصول السياسة وانتظمت المجالس والمحاكم وترتبت شرائع الممالك وحقوقها بالنظر لبعضها واتجدت التعاليم العسكرية واتقنت السفن الحربية والتجارية، وامتدت الأسلاك البرقية، وفتحت المعامل العديدة، وتأسست البوسطات لأجل سهولة إرسال التحارير، ووضعت قوانين التجارة والزراعة تحت أحكام عادلة، والتأمت الجمعيات العديدة العلمية والخيرية وتزينت بخطباء مشهود لهم بالبلاغة ومحبة الوطن، وأقيمت البيمارستانات العديدة لأجل المرضى والمنصابين والعاجزين من كل الأنواع، واتسعت دائرة المدارس العليا وازدحمت أفواج الطلاب

بأبوابها، وتقدمت الأوقات والقوة والثروة ضحية على مذابح الاجتهاد والثبات فكفرت عن ظلمة جهالة تلك الأعصر الماضية، ومتعت مقدميها بفردوس تناغي به بلابل المنابر وتتساقط منه أثمار التآليف والاكتشاف وتفرش أرضه بأزهار المكاتب والمعارض، وتحف الكائنات وتجري به مياه التمدن والانسانية، وتتلألأ به مياه الزراعة والصناعة معطية حياة لجسم التجارة المهم، وفتحت قاعات الخطب، وجمعت أنواع النبات والحيوان وبواقيه بمحلات معلومة، وحوفظ على قديم الأشياء المفيدة، وتترجمت وتألفت كتب عديدة بكامل أصناف العلوم، وتمهدت أصول التجارة بإتقان الصناعة وتزينت المعامل والقطع البحرية بآلات تدهش الناظر. نعم، وأكثر من ذلك إذ من يتأمل يرى بأن الأبنية والنقوش والتصاوير نادت أيضاً بلسان البهجة والحبور ورتعت فرسان الطلاب بميادين الكرة فاستخرجت مكامنها وكنوزها وأسرارها وحددت جهاتها وخطوطها ودوائرها وضمت شتاتها بسلك البرق والبخار وفتشت على ما يزيدها لذة وشجاعة فعثرت على عرائس الأفلاك فأدارت عليها مدام غرابة أجرامها وحركاتها وتأثيراتها وساحت بها في فضاء لا نهاية لاتساعه وتمتعت بحسن مجالسة معرفة النوع الانساني وتركيبه ووسائط تملكه وسيادته على ما سواه وتنقلت بأطايب التاريخ والشعر والموسيقى. فهنالك مزقت أزرارها عن عشق صورة الآداب المحبوبة وما تمالكت أن بثت بشائر الطرب في أفق العالم المتمدن وفتحت حصون الجهالة والعبودية وتساقطتا مملكة الرذيلة والقساوة وتتوجت الحرية والحكمة والإدارة في قصور المدارس وحفت بجنود الأمن والسلام والاجتهاد.

والخلاصة من أين اتحدت الوسائط لمعرفة وانتظام حال الشعوب وأساس ارتباط علاقاتها، أليس من الصناعة؟ من أين تمكنت البشر من إنشاء الأبنية الجميلة وتطقيمها بأمتعة وأوان مستظرفة لأجل رفاهية ولذة سكانها؟ أليس أيضاً من الصناعة؟ من أين تردت البشر بالملبوسات والحلي الفاخرة؟ أليس من محاسن الصناعة؟ من أين أقيمت المدارس العليا وخلافها وأنشئت الأمكنة الخيرية والمكاتب العديدة والمعارض الكلية والبواخر والأسلاك؟ أليس من نتائج اتقانها من أين تحسنت حالة الزراعة وأعطت الأرض أضعاف غلتها واستخرجت معادنها لأجل إثراء وتقوية وتشييد سكان البسيطة؟ أليس من مفاعيل قواها؟ من أين وجدت الآلات الموصلة البصر الانساني لمشاهدة الأجرام السماوية العظيمة وإدراك حقائق حركاتها وحجمها وضابط حفظها في مراكزها واكتشاف ما لا يقدر النظر المجرد على الوصول إليه واخضاع العناصر العظيمة وجذبها وتحليلها لقضاء الحاجات الانسانية؟ أليس من التبحر بقواعدها وأصولها؟ من أين تمكن الانسان من استخدام الحيوانات والانتفاع بأصوافها ولحومها وألبانها وتمييز أنواعها وأصنافها جواً وبراً وبحراً ومشاهدة أدقها وأصغرها في المياه وغيرها ومن تحديد جهات المسكونة وخطوطها ودوائرها من معرفة تركيب الجسم الانساني العجيب واتخاذ الوسائط لايقائه وصيانته وتوفير الأمراض والآلام الطارئة عليه؟ أليس من الارتشاف من ينابيع حقائقها البهية وبكلمة واحدة على أي شيء يدور محور سعادة الكون ولذته ورفاهته وانتشار جمال العقل الانساني والتوسع في معرفة حكمة وعناية ورحمة المبدع والصانع الأكبر الحكيم بتركيبه دقائق الموجودات والأكوان العديدة الفائقة الإدراك إلاّ من المحافظة على فنونها وأصولها التي هي نعم مرتكزة على العلم، إلاّ أن العلم لا يكمل ولا يقوم إلاّ بالعمل الذي هو نتيجته الأصلية بل الوحيدة. فيا أيتها الصناعة ان العقل واللسان لعاجزان عن استيفاء شرح محاسنك ونتائجك فهنيئاً لمن تدانيه وتمتعيه بلذة منادمتك وأثمارك الغضة وويحاً لمن تجانبيه وتحرميه من سعادة معاشرتك والارتشاف من مدام أسرارك.

والآن لنتقدم إلى شرح حالة الصناعة في بلادنا ونسبتها إلى البلاد الأجنبية فأقول: وا أسفاه، اننا بحالة محزنة ومكدرة جداً من هذا القبيل إذ إن الصناعة تكاد أن تكون معدومة من بلادنا هذه ومتعرية

من محاسنها ونتائجها ومطروحة بزوايا الإهمال والنسيان. بلادنا التي كانت بوقت ما مقراً ومركزاً للصناعة وينبوعاً تفيض منه مياه أطايبها العذبة قد أضحت قفراً وبلقعاً منها تنبت بها أشواك الخمول والحاجة والفاقة. بلادنا التي كانت أم الصناعة وكنزها وسندها بل ومدرستها أصبحت تئن تحت نير العوز والاحتياج تائهة في وادي الاضطراب والاختلال. أين المدارس الموجودة لتعليم أصولها وفروعها؟ أين المعامل لشغل الأقمشة والأمتعة والأواني؟ أين سككها الحديدية أين سفائنها البخارية؟ أين آلاتها الزراعية؟ أين جمعياتها المنعقدة لهذا الشأن؟ أين معلموها المشهورون؟ أين كتبها المتقنة المعرفة عن حقائقها؟ أين المهندسون الماهرون، أين الآلات اللازمة والوسائط لاكتشاف معادنها واستخراجها؟ أليس أنها بحالة التي لا تقدر معها أن تدعي بلادنا بأقلها الزراعة التي هي أم الصنائع وأهمها متروكة لرحمة التسليم والنقل. النساجة التي هي ثاني الزراعة عدم أو ما أشبهه. عمل الانية النحاسية الحديدية والخزفية يكاد أن يكون لا وجود له.فن البحارة المهم أي صناعة تسيير السفن مهمل. عمل الساعات والأوائل المختلفة للمعامل وخلافها مجهول بالكلية فن الرسم والتصوير قاصر جداً استخراج وتركيب وتحليل الأشياء الكيماوية المتعلقة بالعلاجات والصبغ والمعادن ملقى على جانب معرفة جر الأثقال وكيفية التوفير والإدارة منبوذ ومنسي وهكذا. أين مجد فينيقية أم الصنائع والفنون؟ أين هي صنائعها ومتاجرها أين سفائنها واختراعاتها وشهرتها القديمة أليست في حالة العدم والانحطاط الكلي وإذا سألنا أي البلاد أكثر اقتداراً فالجواب من التي أهلها منكبون على ممارسة الصناعة واستجادتها واتقانها أي البلاد أشد ثروة ورفاهية وشهرة من التي الصناعة راقية بها إلى أوج الكمال وآخذة في الزيادة أي المحلات أعمر وأكمل تمدناً من التي الصناعة ممتدة ونامية فيها، الخ. إننا إذا نزلنا إلى الأسواق فنراها مشحونة بالبضائع والأواني والأوائل المختلفة ولكن عمل من البلاد الأجنبية إذا تأملنا ببيوتنا فنراها مفروشة ومطقمة بأطايب الأقمشة العديدة والأدوات والأوعية الجزيلة ولكن من أين من الخارج إذا تأملنا بالملبوسات التي على أجسادنا رجالاً ونساءً فنراها مكتسية بالأقمشة الجيدة ولكن شغل من الأجانب. وهكذا ولذا ترون بلادنا راكضة نحو الفقر والانحطاط بسرعة عجيبة. نعم، إننا نراها بحسب الظاهر متقدمة وناجحة وبالنظر للمدارس والعلوم والمطابع وامتداد المتجر واختلاطها بشعوب متمدنة وتحسين حالة الأبنية والطرقات وإقتناء الآنية الفاخرة والعربات وما أشبه لكنها مع ذلك مسرعة نحو التأخر والفاقة. ولماذا؟ لأن الصناعة التي هي أصل وينبوع الثروة الموصلة لاكتساب العلوم واقتناء الكتب وتسهيل التجارة وما أشبه معدومة منها. على أن الأشياء المار ذكرها جيدة ومفيدة إلاّ ان فائدتها بدون الصناعة واهية جداً. فلماذا هذا التأخر والانحطاط؟ أما يوجد ببلادنا محصولات كافية من الأقطان والأصواف والحرائر والجلود وأصناف الصبغ لتشغيل معامل تقوم باحتياجات أهاليها وتغنيهم عن استجلابها من الخارج؟ نعم، وأكثر من الكفاية وتزيد عنهم جداً. وأما يوافق مناخ قطرنا السوري للصبغ؟ نعم، بل وأوفق كثيراً مما سواه إذ إن الصبغ باللون الارجواني لا يستجاد في البلاد الأجنبية كاستجادته بهذه البلاد. أما يوجد عندنا عقول قابلة لتعلمها وإتقانها؟ نعم، يوجد عندنا كغيرنا من الأمم الأوروبية إذا كنت لا أقول أرفع وأكثر قابلية. فلماذا، إذن، هذا التقاعد؟ إننا نرسل الحرائر والأقطان والأصواف والجلود والفوة والخرق وغير محصولات ويرجع إلينا بعضها بأثمان مضاعفة جداً؟ فما هو الذي كثر قيمتها وضاعف أسعارها؟ أليس الصناعة؟ إننا قد سمعنا من جناب الخواجا فريج بموضوعه المستوفي المتقدم منه على التجارة عن تعديل خارجية وداخلية بيروت الذي وإن يكن لا يعم كافة الأقاليم السورية بالنظر لقلة الأول (أي الخارجية) وكثرة الثاني (أي الداخلية) في كل البلاد إلاّ انه يصح أن يقاس على أكثرها. إذ إنه لربما يوجد بعض مدن التي ربما ترسل أكثر مما يرد لها إلاّ انه إن

وجدت فتكون قليلة ونادرة. بل إنه يمكن أن أقول عموماً بل وبكل تأكيد إن الواردات لسوريا من الخارج أكثر من خارجيتها جداً. فأين دفنت نقود هذه البلاد التي هي قمة هذه الواردات المرسلة؟ أليس إنه في الأوروبا؟ وهكذا سنة بعد أخرى على التوالي تتصل بلادنا لدرجة عميقة من الفقر ونحن بغاية الغفلة والتشاغل فبالحقيقة إنه لأمر محزن ومكدر بقاء بلادنا بهذه الحالة التعيسة. وإذا كنا لا ننتبه لمداركة وملافاة ذلك وإلاّ سنصبح ونرى ذواتنا على حافة العدم أو بالحري واقعين به.

إنه لمن المعلوم كما تقرر حالة الصناعة في بلادنا وضعفها الكلي من هذا القبيل. أما أشهر صنائعنا الحالية فهي الزراعة ولكن بطرق قاصرة ومعرفة واهية، النساجة وذلك بنوع قديم قاصر لا يفي بالمطلوبات من جهة الربح ولا يضاهي أقل منسوجات أوروبا بالنظر للكثرة والسرعة وقلة المصاريف وجودة الأجناس واختلافها، البناء والنجارة وهذان يمكنني أن أقول بأنهما متقنان أكثر مما سواهما إلاّ ان معرفتها منحصرة بالتقليد ويوجد بهما محل للتحسين والإصلاح، الخياطة وهذه يوجد بها في بلادنا من يقوم باحتياجات أهلها وينوف، الصياغة النحاسة الحدادة الصبغ عمل الأحذية الحجامة ولكن جميعها قاصرة وضعيفة فهذه تقريباً أشهر صنائع اليد الموجودة في بلادنا. فالأغنياء مثلاً يضعون أولادهم في المدارس مدة وجيزة لتعلم بعض العلوم واللغات ويخرجونهم منها غالباً قبل ما يتمكنون من معرفة حقائقها جيداً لدرجة يستطيعون بها على الترجمة والتأليف. فلعدم وجود صناعة تناسب حالتهم إما يأتون بهم لمخزنهم ليساعدوهم في الأشغال المتجرية أو يمدونهم ببعض رساميل ليشتغلوا بها على خاصتهم وذلك بطرق قاصرة. أما المتوسطون الذين هم الجانب الأكبر يضعون أولادهم في المدارس وقتاً ما فالبعض يخرجونهم عند تعلمهم القراءة والكتابة فقط ليضعوهم في احدى الصنائع المار ذكرها التي بالكاد تكفيهم للقيام باحتياجاتهم الخاصة نظراً لقلة ايرداتها، والبعض يكابدون بعض مشقات ويبقونهم لحينما يتقدمون نوعاً في العلوم مؤملين أنهم يرتقون بذلك لدرجة أعلى من جهة الأسم واكتساب المعاش بناء على أنهم سيكونون فيما بعد معلمين مترجمين كتاباً وما أشبه. حال كونه من الجهة الواحدة لا يتقنون العلم جيداً لدرجة تصيرهم أهلاً للتعليم ومن الجهة الأخرى لا توجد محلات فارغة وكافية لكي يشغلوها ويشق عليهم حينئذٍ تعليم أولادهم الصناعة لدنائتها عندهم وعدم وفائها بالمطلوب فيصبحون في حيرة واحتياج. وأما الفقراء فيعلمون أولادهم غالباً الصنائع الطفيفة السهلة المأخذ القليلة الايراد طمعاً بعاجل الربح نظراً لعدم قدرتهم على إعالتهم لحين تعلم العسرة. وبالاجمال إن أرباب الصناعة في بلادنا صاروا يزيدون عن احتياجات الأهالي نظراً لقلة الصنائع وكثرة أربابها والاستغناء بواردات البلاد الأجنبية عن كثير من الذي كان يشغل في هذه البلاد. فلذا عند اخراج الوالد ولده من المدرسة وعدم وجدانه محلاً لوضعه ككاتب أو معلم أو ترجمان (وذلك بقطع النظر عن أصحاب الأموال الذين هم الجانب الأصغر) يغدو محتاراً بماذا يضعه فحينئذٍ يبتدىء يقول لذاته هكذا: هل أضعه بالنساجة إلاّ ان هذه صنعة حقيرة ذات إيراد جزئي ومع ذلك لا يوجد بها أشغال كافية لتشغيله شغلاً متواصلاً فلا يمكنه أن يحصّل منها معاشه؟ أفهل أضعه إذن بالنحاتة وهذه أيضاً مهنة متعبة ودنيئة؟ وكم من الأيام يلزم أم يتعطل لسبب قلة الأبنية الحاصلة وكثرة الشغالة بها؟ كيف وقد تعلم العلوم واللغات؟ فكيف اسخي على وضعه بكذا عمل شاق ودنيء؟ أبالنجارة إذن وهذه أيضاً عدا أنه يلزمه مدة طويلة لتعلمها لا يوجد بها إيراد كافٍ للقيام بحاجته كما أرغب له؟ أو بالخياطة وهذه صار بها عدد وافر من المعلمين والصناع رجالاً ونساء وكل منهم له زبائن تكفيه أو تنقص عنه بحسب المهارة والتوفيق؟ فكم يلزم له من الأيام لكي يتعلم ويفتح دكاناً ويصير قادراً على انتاج معاشه؟ أيعمل الأحذية وهذه مهنة غير شريفة وأصحابها قدتكاثرت حتى انها صارت تنوف عن احتياجات الأهالي؟

وهكذا ثم يضيف قائلاً: من هم أصحاب الصناعة المتمولون من صناعتهم الحاصلون على نوع ما من الرفاهة والذين اتصلوا لمركز مهم في الجمعية الانسانية؟ أليس إن أكثرهم يتشكون من قلة الايراد وعدم اقتدارهم على القيام باحتياجات العائلة إلاَّ بكل جد وجهد وكثير منهم يقصرون عن ذلك أيضاً؟ فإذن صار من أضر وأهم الأشياء المتعلقة بصوالح بلادنا المادية والأدبية هو المبادرة لإصلاح حالة الصناعة وتوسيع دوائرها. فهنا أتقدم إلى القسم الثالث من هذا الموضوع وهو الوسائط اللازمة لاستحصال الصناعة، فأقول:

وسائط استحصال الصناعة (٣)

إنه لربما أن يقول قائل: إن ضعف الصناعة في بلادنا أمر مسلم، ولكن ما هي الوسائط لايجادها وتوسيعها ونموها؟ إن ذلك لأمر مستحيل. أولاً: من جهة عدم وجود ثروة كافية في بلادنا لاستجلاب أوائلها والمعلمين الماهرين بأصولها. ثانياً: لعدم وجود معرفة كافية تمكن أهلها من تحصيلها. ثالثاً: لتشعب أغراض سكانها وصوالحهم وعدم اهتمام أغنيائهم بما من شأنه ترقية الوطن وانتشاله من وهدة الانحطاط والاضمحلال. رابعاً: لكون مركز وطننا لا يوافق للصنائع والمهن إذ إنه لا يوجد به معادن كافية لشغل الأوائل ولا فحم حجري للوقود ولا أرباب خبرة باستخراجه إن كان موجوداً. فأقول: نعم، إن هذه من جملة الصعوبات بل بالحري أسباب كافية للتحريض على المبادرة لمعالجة هذا المرض العضال الذي اعترى جسم بلادنا وأدخله في حالة الهزال والذبول ويكاد أن يلاشيه ويتلفه فاسمحوا لي أن أبسط لدى سيادتكم بعض أفكار تتعلق بالوسائط اللازمة لعلاج هذا المرض المسم التي إن استعملت على حقها يؤمل أنه بمساعدة العناية الإلهية تنتشل بلادنا تدريجاً من حضيض المسكنة والفاقة وتحصل على شيء من الترقية والإصلاح من هذا القبيل. وهي، أولاً: انتشار العلوم والمعارف لدرجة كافية والولوج إلى أحشائها والاختمار بكنه حقائقها وفروعها العديدة. وذلك يقوم بالاجتهاد والثبات والصبر والمواظبة واستدامة المطالعة والتفتيش وتلقيها عن معلمين مشهود لهم بالحذق والبراعة في الفنون المقصود تعلمها منهم. وإن الوالدين يستغنون عن أولادهم بالمدارس العليا مدة كافية ولو بمكابدة بعضاً من الصعوبات والمشقات من جهة طول المدة والمصروف لكي يبلغوا الغاية المطلوبة متنقلين تدريجاً من العلوم الأدبية واللغوية والرياضية والتاريخية إلى الطبيعية والكيماوية والجيولوجية، ومنها إلى الفلكية والآلية والزراعية والشرعية، ومنها إلى التوفيرية والبحرية والمتجرية، الخ. ولو استغرق ذلك عشر سنوات أو خمسة عشر مع ترجمة أفضل الكتب المهمة وطبعها واستجلاب الآلات اللازمة للفنون المذكورة ووضعها بكذا مدارس لافادة وتنوير الطلبة نظراً وعملاً. ثانياً: فتح مدرسة صناعية خصوصية وطنية تدفع مصاريفها من جانب الوطن لأجل تعليم الصناعة خاصة علماً وعملاً مجهزة بالمعلمين والآلات والمواد اللازمة لتعليم مبادئها وأصولها موضوعة تحت قوانين وشرائع عادلة ونظار ذوي حماسة وإدارة ومهارة بسياستها غيورين على صوالح الوطن ونجاحه. لكي من بعد الاغتذاء بالمدرسة المار ذكرها واستيفاء شروط التعليم المتقدم أو بعضه (ولكن بشرط اتقانه لدرجة قصوى كافية) تنتقل التلامذة إليها وتعطي الخيار بما ترغب أن تتعلمه من فروع الصناعة حسب الميل والملكة المتمكنة بها. ثالثاً: إقامة جمعية أو جمعيات خصوصية صناعية تحت شروط وقوانين راهنة من أهل الثروة والاقتدار محركة من روح محبة الوطن، متعاضدة ومرتبطة برباط الغيرة على صوالحه لأجل إرسال عدد معلوم من الشبان النجباء الأذكياء المتمكن فيهم روح محبة الصناعة والمشهود لهم بالحذق في بعض الفنون إلى البلاد الأوروبية ليتعلم كل منهم فرعاً خصوصياً من الصنائع المختلفة بحسب مقتضيات بلادنا وحواصلها وامدادهم بالمصاريف اللازمة لكذا عمل مهم، مع احضار بعض من المعلمين والآلات

اللازمة مؤقتاً مثل دبغ الجلود مثلاً عوضاً عن إرسالها إلى البلاد الأجنبية لهذه الغاية التي عند ذلك يأتينا بأثمان مضاعفة بالنظر لخسارتنا إجرة عملها ومكسب تجارها وشحنها ورسومها إلى غير ذلك، أو عمل بعض معامل للورق عوضاً عن إرسالنا الخرق إلى البلاد الأجنبية التي منها تأتينا ورقاً، وحينئذٍ نلتزم أن نخسر ما تقدم ذكره، أو للسكر إذ يوجد عندنا من القصب والشمندر ما يكفي لتجهيز بلادنا من هذا الصنف بل سيزيد عن احتياجهم، أو للطرابيش أو للقزاز والبلور وما أشبه. كذلك يكون من قوانين هذه الجمعية الفحص والتفتيش عن الأشغال الموجودة الآن في بلادنا كالأقمشة الحريرية مثلاً واجادتها واتقانها وتوسيع دوائرها بإيجادهم بها أنواعاً جديدة مستظرفة تناسب احتياجات الأهالي ومشرب هذا العصر وإعطائهم قدوة للغير بلبسهم هم ذواتهم وأهل بيوتهم منها وإذاعتهم نشرات مطبوعة التي تحتوي على تحريض الأهالي أن يعدلوا عن مشترى المخمل مثلاً لأجل الصداري وخلافها أو عن الألاوظ الرقيق القليل الاقامة المضر جداً بمالية هذه البلاد واستبداله بالأقمشة الحريرية المذكورة موضحين لهم بالنشرات المرقومة بأن ذلك مبني فقط على مجرد خير الوطن ونفع العموم. ثم ويكون من قوانينها أيضاً الاستئذان من جانب الحكومة السنية للمساعدة بكذا مشروع ضروري وإعطاء التسهيلات اللازمة مع إلتماس الرخصة بالفحص عن معادن هذه البلاد وحواصلها واكتشاف ما عساه أن يزيدها رفعة وتقدماً من هذا القبيل. ولا بد إن عدالة ومرحمة الحكومة السنية ومقاصدها الخيرية نحو صوالح الوطن وأبنائه رعيتها تقابل مشروعاً كهذا بالقبول والاسعاف.ثم ومن بعد تعلم الشبان المرسلين لهذه الغاية تستجلب الأوائل للفنون التي يكونون قد تعلموها وتقام لهم معامل بحسب عددهم واحتياجاتهم ولو أولاً بدائرة ضيقة لكي تكون كخميرة صغيرة التي تمتد وتسري في هذه الأقطار. إذ إنهم هم يعلمون غيرهم والأخر يعلمون سواهم وهكذا تنمو الصناعة وتنتشر وتعم أطراف هذه الديار وضواحيها. وعلى ما أظن إن جمعية مهمة كهذه لا تلبث أن تكون الواسطة الكبرى الفعالة لانتشار ونمو الصناعة التي عليها تتعلق صوالح الوطن كما تقرر. إن كما لا يخفى أن كل فرد عاجز بذاته عقلاً وقدرة ومالاً عن إجراء شيء من الأشياء الكبرى المهمة فهي إذن منوطة بالجمعيات. رابعاً: عمل مدرسة وجمعية زراعية كما قد قرر حضرة الخواجة حنين الخوري في خطابه المتقدم عن الزراعة إذ هاتان الواسطتان ستكونان من الوسائط القوية المساعدة على اتقان الصناعة ونموها. ولقائل أن يقول إنه سهل على الانسان أن يتكلم، ولكن أين من يصنع ذلك، وهذا جميعه يقتضي له مصاريف باهظة وأتعاب شاقة التي لا تحتملها حالة بلادنا، فأين الاغنياء أصحاب الثروة الكافية الذين يمكنهم تضحية أموالهم وصوالحهم لكذا مشروع تجهل نتيجته؟ فالجواب، نعم، إن ذلك أمر شاق ومخسر، ولكن متى رأيتم نتيجة حميدة أو صالحاً مهماً أو خيراً عمومياً للوطن يأتي بدون خسارة وكد ومخاطرة وسعي؟ وهل يمكن لانسان أن يحصد أو يتأمل بالانتاج بدون القاء البذار ومشترى الأوائل اللازمة للزراعة؟ وهل وصلت أوروبا لهذه الدرجة الحاضرة من العز والغنى والنجاح بدون إلتئام كذا جمعيات ومساعي وأتعاب شاقة عدة سنين بل مئات؟ هذا ولا أشك بأن الذين يخاطرون بأموالهم ولو جميعها لكذا مشروع حميد سوف يحصدون أضعاف ما زرعوه بكل فرح وابتهاج ويكون لهم الفضل والمنة على الوطن مؤبداً، والعناية ستكلل أتعابهم بالنجاح والتوفيق، فقط يلزم صبر وثبات ومداومة بكل تبصر وحزم وانضمام وترتيب واتقان. على انه يوجد عندنا بعض من الذين هم من الثروة والاقتدار على جانب عظيم ويمكنهم اجراء ذلك فعلاً. كما إنه يوجد عندنا عقول كافية جيدة لإدارة كذا مشروع وشبان ذوو قابلية ونباهة لاتقان ما يرغب تعلمه مما تقدم. خامساً: استعمال الحكمة والتدبير من جهة المصروف وعدم الإسراف أو الخروج عن دائرة اقتناء الضروري بالنظر للأمتعة والأواني والملبوسات. إذ إنه يوجد عندنا محل متسع للإصلاح من هذا القبيل. إذ كم من

الدراهم التي تصرف على الحلى والجواهر الثمينة وعلى الأدوات والأواني التي يمكن الاستغناء عنها وفي الألعاب الغير الجائزة أو على المشروبات الروحية المضرة بالصحة والآداب أو على التأنق في المحافل والولائم الغير الضرورية وما أشبه التي لو كانت توفرت كم كان يقابلها من النتائج الحميدة الآيلة لخير العموم بالنظر لإقامة المدارس والمحلات الخيرية وترجمة الكتب وطبعها وتحسين حالة الصناعة، الخ. نعم، إن روح التقليد والتفاخر والتوسع بأمر المعيشة قد أضر جداً بمالية وصالح بلادنا. سادساً: تعليم البنات من الأمور الضرورية جداً بهذا الباب إذ إنه كما لا خفي إن المرأة هي أم الكون والمدرسة الأولى لأولاد الجيل وبترقية وتهذيب عقلها وآدابها وعواطفها تتحسن وترتفع حالة الجيل والعكس بالعكس. وإذا قيل: ما هو مدخل الإمرأة من جهة الصناعة؟ فأقول إنه إذا شحن عقل الإمرأة وتحلى بمبادىء وأصول المعرفة والصناعة فتقتدر حينئذٍ على إرضاع ولدها منذ نعومة أظفاره من لبن المعارف وحقائق الموجودات وعلى تأسيسه بمبادىء الصنائع بإفهامها إياه عن الأشياء المتركبة منها المواد وكيفية موافقتها لبعضها وتركيبها وحركتها ولزومها إلى غير ذلك. كما إنها تغرس بأرض ذهنه اللينة روح الآداب وكيفية التوفير ومعرفة قيمة الوقت والاجتهاد وتطبع وتنقش به أصول محبة الوطن والقريب والسعي بصالح العموم. سابعاً: عدم استنكاف الأغنياء والمعتبرين من تعليم أولادهم الصنائع والمهن إذ إن هذا يكون فخر الوطن وحياته حيث إنهم بذلك يقتدرون أولاً على إدارة أشغالهم الخصوصية وملاحظة أعمال المعامل وتمييز جيدها من فاسدها وتحسينها واختراع ما عساه أن يزيدها رونقاً وجمالاً وتوفيراً إلى غير ذلك. كما إنهم يعطون بذلك قدوة جيدة لباقي الشبان لتحريضهم على تحصيل الصنائع واكتسابها بكل واسطة ممكنة. ألا ترون ان هذا كان من أعظم الوسائط لترقية انكلترا وشهرتها من جهة الصنائع والفنون وصيرورتها بمركز مهم في الجمعية الانسانية؟ إذ إن ابن الأمير مثلاً عندهم، كما أخبرني أحد معتبريهم شفاهاً، لا يستنكف من تعلم أصول شغل المعامل أو صنعة البحارة أو النجارة وما شاكل ذلك، حتى إن أولاد عظمة الملكة لا يستنكفون من تعلم أصول بعض الصنائع، بل قد تعلموا جانباً عظيماً منها، وهكذا إبن التاجر أو الأمير مثلاً إذا أراد تعلم النجارة لا يحتسب أمراً دنيئاً أن يمسك وعاء الغراء لمعلمه النجار لكي يتعلم منه كيفية إلصاق وإحكام القطع المقصود تركيبها. وهكذا في كل مملكة متمدنة نرى أن أكابرها يرغبون أن يعلموا أولادهم شيئاً من الصنائع حتى لا أقول بأنهم يحتسبوه من الأمور الضرورية والشريفة.

الخاتمة

فإذ قد تقرر ما ذكر أختم كلامي قائلاً بأنه كما تقدم إن الصنائع من أشد وأهم أركان التمدن وأقوى بواعثه، وإنها لا تشترى إلاّ بالاجتهاد والمهارة في العلوم والتعمق بها، وإنشاء مدارس صناعية خصوصية، وعقد جمعية متقنة ذات مبادىء وأصول قد تقررت، واستعمال الحكمة والتوفير من جهة المصروف، والاجتهاد بتعليم البنات لدرجة تصيرهن قابلات تربية وتغذية أولادهن بروح الآداب ومبادىء العلوم والصناعة، وعدم استنكاف الأكابر من تعليم أولادهم أصول وفروع الصنائع الضرورية. هذا، وإن الصناعة لا تقوم إلاّ بالاجتهاد والانضمام والثبات واستعمال القوى العقلية والجسدية وانكباب الجمهور على رفع عوائق مجاريها. وأليس ان أحدهم كان ينفرد ويتبحر ويتفكر ويسافر ويطالع ويفتش ويجرب ويكتب لكي يدرك مسئلة أو مسائل بها أو يخترع شيئاً طفيفاً أو كلياً؟ أو هل يظن إنها وصلت لدرجتها الحاضرة إلاّ بعد أن استغرقت حياة وأموال مئات وألوف في ممالك وأقطار عديدة؟ فما بالنا متقاعدين عن استقبالها ومصافحتها بيد البشاشة والمحبة؟ أما هي قادمة إلينا مترديه بأثواب محاسن الاكتشافات ومزينة بجواهر الآداب؟ وأما لنا بلذتها وصفاء طلعتها داعياً يجذبنا للثمها

ومنادمتها ومندوحة عن التعلل بأسباب وموانع يتوهم عدم امكان إزالتها؟ وأما يوجد عندنا إمكان وأوقات وعقول قادرة على إدراك كنه حقائقها؟ وألّا تطلب منا واجبات العناية والانسانية وحالة العصر الحاضر سرعة المبادرة لإحراز غنائمها؟ نعم، أيها الأسياد إن أسباب وعوائق امتداد الصناعة في بلادنا قوية وأعظم من أن تنكر إلّا ان جوهرة العقل التي ميزنا بها من باري الأكوان ووضع قطرنا السوري وارتفاع شأنه القديم والوصلة المتجرية التي متعتنا بها يد العناية وكثرة وسائط المعرفة وسهولة اقتناء الكتب وحالة تمدن العصر ومساواة وعدل الحقوق السياسية والوقت الثمين جميعها أسباب كافية تنادينا للمبادرة لملافاة ما فرط تحت ظل عدالة ومرحمة عظمة سلطاننا الأكرم وخاقاننا الأفخم عبدالعزيز خان أقرن مساعيه السامية وذاته الملوكانية بالنصر والتوفيق مدى الدوران، آمين.

شموسُ العلم تعلنُ بالمعالي ... وليل الجهل مجلبةُ الضلال
وكنزُ الكون معرفةٌ تنادي ... هنيئاً للذي يبغي نوالي
وفخرُ المرءِ بالدنيا احتواءٌ ... على حسن المحامد والخصالِ
ومحورُ صالح الأوطان علمٌ ... يدورُ به هدىً ونظامُ حالِ
وجلُّ نصيب كل أخي حياةٍ ... نوالُ حقائقٍ لا كسب مالِ
وغاية خلق بارينا لعبدٍ ... إذاعةُ مجده السامي الجلالِ
فبالآداب تبتهج البرايا ... وتسفر عن محياً ذي جمالِ
فهيا يا بني الأوطان نسعى ... إلى روضِ المعارف والكمال
ولا تأذن قوانا بالتراخي ... ولا تشكُ النفوس من الملالِ
ألم تكُ أرضنا للعلم قطباً ... وللآداب في الحقب الخوالي
فشادت بالمعارف كل صرحٍ ... ترفّع عن نظير أو مثالِ
وكم فاقت مدارسنا قديماً ... بجمع مكاتبٍ مثل الرمال
وكم تاهت منابرنا وباهت ... بأرباب الفصاحة في المقال
فبالعرب الحماسة قد تعالت ... كذا كرمُ السجايا والخلالِ
فمن بحرٍ لسائله هباتٌ ... ومن بدرٍ محا ظلم الليالي
فسوريا رقت قدماً لعزٍّ ... يقارنهُ النجاحُ على التوالي
حبتها منة الباري بقطرٍ ... خصيبٍ ذي بهاءٍ واعتدالِ
ولكن الزمان بغى عليها ... فأذنت المعارف بالزوال
وأبرزت الجهالة كل كفٍ ... تراشقنا بسموم النبالِ
فسار العلم يبغي قطر غربٍ ... فقابله ببشرٍ واقتبالِ
وحييتهُ عشائره بجهدٍ ... ترفّع عن فتورٍ أو كلالِ
وقالت ها جوانحنا فهيّا ... لتسكن في ضواحيها الخوالي
مدارسنا لعزك قد أقيمت ... مطابعنا لنشرك في اشتغال
وأسرارُ الطبيعة قد تجلت ... عرائسها تنادي للوصال
وكم طرحت معادنها إليهم ... كنوزاً في الوهاد وفي الجبالِ
وكم ولجت عقول في أراضٍ ... وعادت بالجواهر واللآلِ
عناصرها تجارت طائعاتٍ ... لترقية الصناعة للكمالِ
غدت سبل البحار له شهوداً ... كذا طرق القفار مع التلالِ

تطيرُ بها طيورٌ من بخارٍ   تجول لنشر أشغال الأهالي
تفيض بضائعاً من كل جنسٍ   تقوم برفع أثقال ثقالٍ
وكم طرحت معاملهم قماشاً   بأبخرة وآلات عجالٍ
وكم ربحت نتائجها نقوداً   تقوم بعز أوطانٍ غوالي
وسلكُ البرق ضم شتات بعدٍ   فقرَّب بينهم بعد المجالِ
وبات النور يجري في قناةٍ   وحاكى المرءُ طيراً في الأعالي
أطباءٌ سمت بشهير فضلٍ   فلاسفةٌ رقت أوج الجلالِ
فأينعت العلوم رفاه حالٍ   غدا يطأ الجهالة بالنعالِ
وها هي قد أتت تسعى إلينا   تنادى في الحمى يا للرجالِ
تمتع صاح بي وتولَّ مني   زمامَ سعادةٍ وصلاح حالِ
ودونك في ابتغائي حسن جهدٍ   تنالُ به وبي حسن المآلِ
ودع ما كنت تألف من خمول   سقطت به وأخلاقٍ كسالِ
فقوموا يا بني الأعراب نلقى   صديقتنا القديمة باحتفالِ
وننر لها الغداة قلوب قومٍ   لفرقتها تلظت باشتعالِ
وجدوا في العلوم لتحرزوها   فما تبقى العلوم على الوبالِ
ودونكم الصنائع إن فيها   نجاحاً للعبيد وللموالي
أما بالغرب للشرق إقتداءٌ   أما بجدودنا الغرّ الأوالِ
بعينك هل رأيت ربوع قومٍ   تطيب بلا اجتهاد واشتغال
فأزمان الجهالة قد تقضت   وعصر العلم أقبل كالهلال
فقط يا قوم يلزمنا ثباتٌ   وكدٌّ مع سخاءٍ واحتمالِ
عسانا نسترد فخارَ قطرٍ   لأن الدهر كالحرب السجالِ
كأنا بالمدارس قد تنادت   تبشر بالشفاء بعد الهزالِ
كذا نشر الصحائف واختلاط   بأقوامٍ وتقريب المجالِ
وترجمةٌ لتأليفٍ مفيدٍ   ومركز قطرنا مع عدلٍ والي
وذي الجمعية الفضلى استقامت   لإبراز المعارف والمعالي
بساحتها نذيع نبات فكرٍ   كغاداتٍ خرجنَ من الحجالِ
ونقطف من حدائقها ثماراً   سقين الشهد لا صافي الزلالِ
فسوق عكاظ في بيروت قامت   تحركنا لفخر وارتجالِ
فلا نرضى لموطننا مقاماً   سوى أوج التمدن والجلالِ
فصالحنا يشيده انضمامٌ   وبذلٌ مع خلوصٍ وامتثالِ
لنرفل في برود الأمن دوماً   بظل مليكنا مولى الموالي
مليك في عدالته أضاءت   كواكب رحمةٍ أبداً تلالي
وأحيى في مواطننا علوماً   فعادَ الجهلُ يبشر بالنكالِ
وراشدنا الحليم أقام حقاً   وأقرنهُ بحزمٍ مع نوالِ
كذا كمل النجاح وكل فضلٍ   بهادي قطرنا فخر الكمالِ

المجموعة الرابعة من أعمال السنة الثانية

[بيروت: المطبعة العمومية، ١٨٦٩. ص ١٢٣ - ١٨٥].

إنه في مساء السبت الواقع في ٢١ شوال سنة ١٢٨٥ هـ و٢٢ آذار و٤ نيسان سنة ١٨٦٩ م صار فتح اجتماع عمومي من المشتركين تلى به جناب المعلم جرجس زوين خطبة في تاريخ سورية وقد تولج في نفس الجلسة جناب عبدالرحيم أفندي بدران بخطبة في تاريخ هارون الرشيد وتعين جناب المعلم جرجس زوين للاعتراض عليه إن وجد محلاً لذلك.

الخطبة التي تلاها جناب المعلم جرجس زوين في تاريخ سورية

[المجموعة الرابعة من أعمال السنة الثانية. ص ١٢٣ - ١٣٤].

وعرمرم الطوفان غرق الأرض فبادت كل نسمة حية خلا من ضمهم فلك استوى على الجودي جفَّت الأرض فخرج من الفلك من فاز بالنجاة. وعبر آرام أبونا نهر الفرات وحل في بقعة آرام سورية بلادنا فكثرنا ونمونا وأصبحنا نسلاً مباركاً لسام جدنا.بنينا حماه على العاصي واستقللنا فيها سرنا موقعها وراقت لنا مياهها فعضدناها بحمص جارتها حيث انعكفنا على الصنائع فأفلحنا. وشيدنا أركان دمشق ذات الرياض أم المدن لأنها أقدمها راق لنا هواءها وقرت بها أعيننا فأظهرنا فيها فراستنا وبسطنا فيها ذراع همتنا نسجنا فيها الخز والديباج فحسدنا من لم يكن منا على مصنوعاتها الشهيرة وحاول اقتفاء آثارنا فخابت منه الآمال. ولنا في دمشق في كل عصر وزمان علائم تنبيء عن علو همتنا ففيها اصطنعنا الأسلحة المرهفة الضاربة بها الأمثال فاغتالت بنا الأيام وسطى علينا تيمور ذلك المقدام نقل عامليها إلى بخاري فأبدعوا بالأسلحة الدمشقية.

فلم تقف همتنا عند دمشق بل ازدادت رغائبنا فبنينا مدناً استقلت بذاتها وضاقت الأرض على أطماعنا فاتقدت بيننا نيران الخصام.

وقد كنا بنينا صور ملكة الأبحار أول من اقتحمت ركوب الأهوال وداست الأخطار وهناك خضنا حلبة ميدان الترقي والفلاح. فمنها الأرجوان وشاح الملوك وفيها أوصلنا الصنائع إلى أعلى مقام وبلغنا التجارة ذرى الارتفاع، وإذ لم يكن لظمأ رغائبنا من إرتواء خضنا البحار وملكنا الأقطار فما قرطجنة إلاّ صنعة يدنا وما قارىء إلاّ ثمرة أتعابنا. مددنا أقوامنا المهاجرة بأموال تشرد فقابلونا بأموال ترد أتتنا الأجانب بالفضة والذهب وأهدونا ما كرم من معادنهم فحكنا لهم ما سترنا به سترهم وصغنا ما كللنا به هامهم وأبدعنا بما تحلت به نساؤهم ونشرنا في الأرض أثمار الصنائع وأبدعنا بغرائب وفنون خففت أثقال الحياة ومهدت مصاعبها. ولما افترست سفننا بعد المسافات وقربت بعد الأشساع وكانت أجمل وسيلة لتقرب الأجسام اضطررنا إلى ما نقرب به الأقطار وتخاطب به صور أبناءها النازحين عن أحضانها وإلى ما به يبلغونها مرامهم. تسلحنا بالقلم وكنا نحن الفينيقيون أول من ألقى على الطروس مداداً فخففت أقلامنا أثقال بعادنا وأخذت بالوصل حبال أفكارنا فجرت المخابرات وسرت المراسلات. ولما كان لكل صعوبة استقرابات رقمنا الأرقام تسهيلاً على التجار ولم تزل بلادنا تتماوج في الأبحار وتزدري بقوى أمواج طالما هاجت فأخضعناها وجمحت فروضناها. هذا ونحن في عز وجلال وملكة البحر جالسة في عرشها وطرابلس وبيروت وصيدا وعكا كجوار تقوم بخدمة ملكتها الرائعة في ظلال العز

والافتخار. وسماء لبنان يخيم عليها وأزهاره تكلل هامها وأثماره تلذذ حواسها يحجب عنها حرارة الشمس بظل ذراه الشامخة ويكيف هواءها بنسيم الصبا المتأرج عن نشر بياض ملابسه الغراء.

وكان ابراهيم خليل الصفات العلوية نجى من طوفان ظلام الجاهلية ولم تجث ركبته لصنم الجهل والفساد ولما لم يطب له العيش بين بني أمه هجر وطنه وعبر الفرات وجاء يسجد في سورية هيكل الفضل والفضيلة فمر بالشهباء ذات الآبار ذات القلعة الشهيرة مركز المعارف والفنون حبل وصال المشرق بالمغرب ملكة البادية فخر سورية ومجدها شهباء لشهاب أنوارها المجملة بما تسامي من اللطف والآداب. قطع ابراهيم العاصي ومر بدمشق فاستقر في جنوبيها وأرزق ولدان أحدهما من هاجر وهو اسماعيل جد العرب والثاني من سارة وهو إسحٰق وهذا أرزق غلامين: عيسو وذهب مذهب اسماعيل ويعقوب اسرائيل أب لأسباط وأمم كثيرة،فحارب ابراهيم ملوكاً واستقر في أرضه مع لوط ابن أخيه.

وسورية إذ ذاك ترتع في ميادين النجاح ومدن شهيرة في جنوبيها منها صادوم وعامورة مركز وصال تجارتنا بين المصري والكلداني والأشوري نجحت وتقدمت وأفلحت وأزهرت فتاهت في اقتدارها وازدهت بغناها تنعمت فانفسدت فهلكت تحت ردم خلاعتها حيث تحولت إلى بحيرة الموت اسمها.

وفي تلك الأيام استولى القحط على أرض يعقوب فأرسل بنيه ليبتاعون حنطة من مصر فعرفهم أخوهم الذي قد كانوا باعوه يوسف الذي أسيق أسيراً فاعتلى في ذله أصبح وزيراً لفرعون فأحضر أباه واخوته وبقي اسرائيل في مصر إلى أن جاء موسى فأخرجهم بيد قوية وقطعوا القلزم ودخلوا التيه وفي سينا سُنت السنن. مات الكليم ودفن في حوريب ودخل الاسرائيليون ديار أبيهم واتقدت نيران الحروب فأبادوا العاموئي والحثي والعماليقي وأخذوا أريحا ذات الأسوار واستقلوا في اشخيم وقسموا الأراضي على عدد الأسباط وتولى أمرهم جبابرة وقضاة إلى أن جلس على تخت الملك من بمقلاع أخمد قوة فلسطين فبنى داود أورشليم مدينة السلام وحصنها بالأبراج وبشرت سورية بعصر النجاح فخلفه سليمان مستودع الحكمة من لم يقم قبله ولا بعده مثله حكيماً فبنى وعمرو شيد واشتهر حصن المدينة وجمل الشوارع فأصبحت به مدينة السلام دار الحكمة وبنت الحكمة لها بيتاً وكان هيكل سليمان من بدائع الزمان وملح العصر والأوان وازدان بالفضة والذهب وبأرز لبنان العديم الفناء رمزاً لتأبيد ذلك البناء.

ولنا نحن بنو آرام مآثر كثيرة وآثارات شهيرة وبنايات غريبة وابداعات عجيبة تقصدها أهل الأعصار من سائر الأقطار فما نظروها إلّا وأثنوا بالمديح علينا. ودّع أورشليم وسر شمالاً تحظى بروضة لبنان فترى بعلبك هيكل الشمس وشرقيها تدمر ذات النخل، ولم يتعرض قلمنا لفض بكارة وصف صفاتها تعالتا من أن يصفها لسان أو أن يحرك يراعنا لذلك بنان.

ولما بلغت سورية أوج العظمة والافتخار وتسامت بالعز والاقتدار أوجدت الصنائع وأتقنت العلوم وأخذ الطير يترنم بمديحها على الأغصان شاعت أخبارها في الأقطار فحركت إليها الأطماع ركائب أهل الاطماع داسها المصري فطرده الكلداني أتاه الأشوري فطرده المادي وأتى الماكيدوني فطرد الجميع ونكس رأس صور ملكة الأبحار.

ولما سكن ضمن لحد من قد كانت الأرض سكنت أمامه قامت على العاصي انطاكية العظمى ملكة سورية وعاصمة ملكها فأحنوا لها الرقاب بالاكرام وحيوها بالسلام فامتثلت لها الشهباء ومدن العاصي ودمشق ذات الرياض وخضعت لها صور وكل مدينة على رصيف البحر واستقلت البلاد وارتاحت العباد وازهرت الصنائع وأينعت أغصان العلوم. ولما لم يكن لحال من ثبات سطا الشمال على

شماليها والمصري حل في أراضيها واتقدت نيران الخصام بين أهاليها فثارت اليهودية وظهر المكابي ولما كان لا بد لانقسامه من خراب ظهر حينئذٍ الروماني فتلقته بالترحاب وبدلت سلطتها بسلطته فخضعت له السكان وتحالف معه ملك تدمر النخل فراقت نحوه الخواطر توفي فقامت زبيدة زوجته ونادت بأنها ملكة الزمن فمحطت عظمتها وبادت مدينتها فارتاح الروماني وراقت الأحوال وانتشر الأمان فظهر ملك السلام. أتى الحمل فرعى الذئب مع الحمل فعمل وعلم وأنذر وبشر وأوصى إبن البشر البشر أن أحبّوا بعضكم، أحبّوا أعداءكم واحسنوا لمن أساء إليكم فذاعت شرائعه في الآفاق ولم تزل إما مورداً لمستهام أو هدفاً لسهام.

فبدلت قياصرة رومية كراسيها ولم تبدل سورية الخضوع لها وبقيت الأحوال على هذا المنوال إلى أن ثارت حروب الأقلام وهاج اضطراب بحر الآراء فهذا مبدع وذاك داحض ففسد هواء آفاق الأفكار واستولى الظلام بعد الأنوار كثر الانشقاق وتجندت الأحزاب. أفل نجم يعقوب ولاح نجم اسماعيل فجرد الحسام وحرك يراع الأقلام فعلم وأدب وسطا وهذب حارب فانتصر قهر فظفر غزا الغزوات وفتح الفتوحات فدخل دمشق الخطّاب فقبلته بالترحاب علا نجم الاسلام فهديت سورية في سلام وحق بدمشق الافتخار كيف لا وأصبحت عاصمة الملك وسدة بني أمية الفخام. انتقلت الخلافة إلى دار السلام فأشرقت علينا شموس العصر الدري كفاك بالرشيد ذكراً وفخراً وبجعفر جوداً وكرماً. ولما لم يكن لحال من قرار ولت عنا أعصر الأنوار وآلت أحوالنا إلى دمار فأضحينا فريسة لمماليك وأخذنا بالانحطاط وناهيك.

وفي الغرب كثر الفساد ونار الوغى الأهلي خربت البلاد وأفنت العباد فذكروا إذ ذاك إن الشرق هيكل فضيلتهم ومعبد أفئدتهم فهجروا الأوطان وودعوا الخلان وجاءوا برايات الصلبان فاستولوا على انطاكية واللاذقية وطرابلس وبيروت مدينة العلوم ومسقط رأس ذلك المؤرخ الشهير، مدينة لا تزال فرسانها قاحمين ميدان العلوم إلى أن صارت لذلك مركزاً ففيها حطت ركائب علماء العصر ولجمعية علومها المنة والفضل ولما أثنى علينا بالمديح من كان خارجاً عنا سكتنا وقلنا لفضلنا يفصح عنا دخلت الصليبيون دمشق واستولوا على عكا ذات الحصون المنيعة ومرغوا جباههم بأعتاب القدس الشريف فملكوا وسادوا إلى أن أتاهم ذلك الايوبي صلاح الدين الشهير فكان الغرب مأواهم.

انحطت الروم وتقهقرت منهم الأحوال وآلت مملكتهم إلى الدمار وإذا بمن غار من أقصى المشرق فأطلق لجواده العنان ولم يوقفه إلى أن دخل قره حصار استقر لحظة فعلا تخت القسطنطينية فشاد وساد وأخضع العباد. ومن الشمال لاح من جانب عثمان إلتفاتة نحو التيمن، وطيء أرضنا السلطان سليم فقبلناه بإكرام وتعظيم وأصبحنا شعوبا نستظل بظل دولة مؤبدة القرار ندعو لها بدوام العز والانتصار.

ولم تخل البلاد من ثورات ففي عكا عصى الجزار وفي طرابلس استعصى بربر ثم أتانا ابراهيم باشا المصري البطل الهمام فطردته سفن الأبحار.

أما لبنان فضاقت رباه على همة رجاله ولهؤلاء المردة في كل عصر وزمان بأس وشجاعة يستغنيان عن التبيان. ولما لم يكن قطر خلا لبنان يشبع رغائب هؤلاء السكان ارتفعت أفكارهم نحو العلا مركز تلك التي هبطت إليك من المحل الأرفع لكنه إذ لم يكن للأطماع البشرية من قرار اختلفت الأهالي واختصمت ودافعت القوة القوة فسطا فخر الدين وكان فخراً للأهلين جاء الشهابي وساد وأفل شهابه عن البلاد وانفتح ميدان الاطماع فثارت الثورات وانتشبت نيران الخصومات فبادر الغرب والشمال وسكن تلك الإحوال ووضعت التنظيمات وانقسمت البلاد إلى ولايات ومتصرفيات، ولما كانت أحوال سورية ظاهرة الآن للعيان اغتنينا عن كل تبيان.

هذا ولكل بلاد تواريخ، أما سورية فيخدمها كل تاريخ فهل من شاعر ولا يترنم بها؟ وهل من نبي ولم يتكلم عنها؟ وهل من سائح ولا يلهج ببهاء جمالها؟ وهل من ذي أطماع ولا يتعرف إليها؟ تصفح صفحات تواريخ الرومانيين تأمل تاليف اليونانيين وسائر كتب الغربيين أقدمين كانوا أو متأخرين إلق ألحاظك على صحف الفرس والمصريين فترى سورية نقطة في مصاحفهم فهي للعلوم قاعة وعساء وللقلوب كعبة الآمال وكل البلدان قلاع حصينة وجبال شامخة منيعة، أما سورية فمفتوحة الأبواب فسيحة الرحاب مهد الجنس البشري وأمه فتفتح له الأحضان تسوقه إليها الأطماع يدخلها بقوة وجبروت فتقبله بحب ووداد ويخرج منها والقلب معلق بها. تضيق البلدان على سكانها، أما سورية فرحبة حتى وعلى من لم يكن منها ولما لم يكن ما يجلي قلوب أهاليها سواها رضوا بها وجادوا على غيرهم باستنشاق هواءها.

شرائعنا سلك الانضمام بين العباد وتعاليمنا سلك الإشارة بين العبد والمعبود. إن انحططنا فالناس دوننا وإن علونا فعنا قد قيل إننا آلهة كيف لا وديارنا مسقط رؤوس الأنبياء وميدان فضل الأولياء وينبوع علم العلماء.

قل لمن نسب التمدن لسواها. وما هو التمدن؟ أما هو حسن التهذب والآداب. وهل من آداب ولم تأخذ مبدأها عنا؟ فبروح تمدنا يحيى التمدن في الآفاق. فمنا تنفجر ينابيع حسن الشيم وعلو الهمم نحن أهل العرض، نحن أهل المروءة، نحن نصبنا للقرى أعلام،كل فضل هو عنا وإذا ما غيم سماءنا غبار شأن فقل هذه أهوية وبائية قذفتها إلينا الأرياح، بنورنا استنارت الأمم. فقل لمن نظر إلى عرانا ما تجردت الأثمار عن الأوراق إلّا ليظهر بهاء جمالها. وقل لمن توهمنا على حالة رثة إنما في الأقفار تكنز الكنوز الثمينة.

كل العوائد تتغير ولكل ما آدعته الناس من التمدن أعصار أما عصر تمدننا العاري عن كل تمويه فهو ربيع دائم لا يشوبه أغيار. غيَّرت الغزاة عوائد بلدان فتحوها لكنهم سجدوا لعوائد سورية حين دخلوها، بنوا على شرائعها واتصفوا بصفاتها.

تمسكوا بني أمي بعوائد بلادكم فدونها كل ما تطلبون، شدّوا بني أمي صدور مطيكم نحو العلوم فشادت الحكمة في دياركم أركانها، حافظوا على ما تملكون فكل ماء دون ماءكم سراب. فعن مدح سورية يقصر اللسان وإذ لم يدرك فضلها سوى بنيها فأشاروا عنها وحاشا من أن يكونوا تغالوا بالافتخار فيها.

المجموعة الخامسة من أعمال السنة الثانية

[بيروت: المطبعة العمومية، ١٨٦٩. ص ١٨٩ - ٢٢٤].

إنه في مساء الاربعاء الواقع في ٩ محرم سنة ١٢٨٦ هـ وفي ٩ و٢١ نيسان سنة ١٨٦٩ م صار فتح اجتماع من المشتركين تلى به عبدالرحيم أفندي بدران خطبة في تاريخ الخليفة هارون الرشيد، ثم تبع هذه الخطبة تشخيص رواية تمدن العصر تأليف الخواجة سليم شحادة. فإن هذه الرواية المشتملة على فصل واحد قد أسَّرت الجمهور وقد أحسن تركيبها. فهي تنبيء عما قد تبعه البعض جهلاً من العوائد والخصال الخارجية الغير موافقة للهيئة الاجتماعية في هذه البلاد.

الخطبة التي تلاها عبدالرحيم أفندي بدران في تاريخ الخليفة هارون الرشيد

[المجموعة الخامسة من أعمال السنة الثانية. ص ١٩٠ ـ ٢٠٦].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لولي الحمد الحري بالثناء والمجد، الأول بلا ابتداء الآخر بلا انتهاء، خصص من شاء بما شاء واختص بالديمومة والبقاء، قيد كل زمان بحال ومكن به من شاء من الرجال، وقسمه إلى ليل ونهار وجعل لكل مكان اقبالاً وأدبار، رتب لكل قطر دولة تقوم بسياسته وقدر لمن يشاء حق المقام برئاسته، جعل أحاديث من تقدم من الأمم واخبارهم تذكرة لمن تأخر عن زمنهم وتفقد أحوالهم والصلاة والسلام على من أدّى رسالته كما أمر من جنسي الملائكة والبشر، وعلى آلهم وأصحابهم ومن تمسك بهم وعمل بأقوالهم. وبعد، فهذا خطاب يتضمن خلافة هارون الرشيد على وجه مختصر وذكر أيام دولته الغرر وبعض غزواته وأخلاقه الحسنة ونوادره وآرائه المستحسنة. جمعته مستعيناً بالملك القادر معتمداً عليه أولاً وآخر، فأقول: إعلم إن هارون الرشيد هو إبن المهدي الملقب بأبي جعفر المنصور وجده محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب بن هشام القريشي. وهو خامس خليفة من الدولة العباسية بويع له بالخلافة بمدينة بغداد دار السلام في شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة من الهجرة وكان ذلك في الليلة التي توفي أخوه فيها وولد بتلك الليلة ولده المأمون وكانت ليلة عجيبة لم ير مثلها في بني العباس حيث مات فيها خليفة وولي فيها خليفة وولد فيها خليفة. وكان عمر الرشيد في ذلك الوقت احدى وعشرين سنة. فلما أفضت الخلافة إليه دعا يحيى بن خالد [البرمكي] فأقبل عليه فلما رآه قال له: يا يحيى، طلبتك الآن وأحضرتك لدي لأمر بدا لي، وهو إني أقلدك الوزارة لعلمي بدرايتك وحسن سياستك. فقال له: يا سيدي، الأمر كله إليك، وها أنا مستعد لخدامتك وتحت أمرك وطاعتك، جعل الله أيامك سروراً وإقبال، وستنظر عبدك في الاستقبال. فالرشيد عند ذلك أقامه وزيره ومدير ملكه ومشيره. فقيل في ذلك:

الم تـر أن الشمس كـانت سقيمـة	فـولي هـارون فـأشـرق نـورهـا
بيمن أمـين الله هـارون ذي النـدى	فـهـارون واليـهـا ويحـيـى وزيـرهـا

ثم بعد اتمام هذا الأمر العظيم والخطب الجسيم باشر باجراء مهام المواد الكلية وتنفيذ الأوامر القطعية خوف الخلل في دولته العلية وممالكه المحروسة السنية كي تتجه دولته للاقبال ورعاياه لرفاه الحال. فأول شيء صرف أفكاره إليه وجعل معوله عليه النظر من شرطته ومن حواليه وعمال البلاد والأمصار وخدمة المملكة بسائر الأقطار. فعزل لأول خلافته عمر بن عبد العزيز حاكم المدينة في ذاك الزمان وولى مكانه اسحاق بـن سليمان. وصار ينظر من يستحق العزل يجريه عليه ومن يستحق الاستخدام وجهه بأمره إليه ويوصيه بتحسين سياسته للرعية وملاحظة موادهم الكلية والجزئية واجراء أوامر دولته حسب ما يقتضيه الحال بلا توانٍ ولا إمهال إلى أن تمم هذا المقصد على أحسن نظام فصار بهجة لجميع الأنام فغدت الألسن تلهج بذكره وتقر بأنها تحت نهيه وأمره. وبعد ذلك اتجه لعمار البلاد وترتيب ما يوجب راحة العباد فعزل الثغور كلها من الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزاً واحداً وسميت العواصم بذاك الحين واشتغل بهذا الأمر بهمة قويمة وآراء مستقيمة حتى انتهي على أحسن اسلوب وأجلّ مطلوب. ثم أمر ببناء مدينة طرسوس ونزلها الناس برضا طائعين ولأعماله وأفضاله شاكرين. ثم

إلتفتت لبناء المساجد والمدارس وإحياء ما كان من العلوم دارس. أظهر محبته لذوي العلم والأدب موضحاً إهتمامه بهذا الباب وجعل إكرامهم من الواجبات حتى أسرعوا بالمثول لديه من كل الجهات فرفع مقامهم وأزاد لهم الإكرام وصدرهم بالمجالس ولينٌ لهم الكلام وأمر عماله بمساعدتهم فيما يحتاجونه من التسهيلات ومقابلتهم بالإكرام ومواصلتهم بالاحسانات. فعند ذلك تزاحمت الناس لطلب العلم برغبة عجيبة وهمة غريبة واشتغلوا بالمطالعة بأكثر الأوقات وظهر للنجاح والتقدم علامات حتى لمعت في جبين الأذكياء جواهر التقدم فتأكدوا خيري التعليم والتعلم فحينئذٍ طلعت العلوم في أفق ذاك العصر كالكواكب وسرى نورها في جميع الجوانب وطرد ظلمة الجهل من تلك الآفاق فأثرت المعرفة وتحسنت الأخلاق فتقلد ذاك العصر بالمعارف السنية والعلوم العربية الفنون. ظهر لها في جيده لمعان الصنائع أضحت في غاية من الاتقان ابتدرت العلماء لتأليف الكتب المفيدة والتصانيف السعيدة. أخذوا بتأليف كتب علم التفسير والحديث والقراءات كما إنهم اسرعوا لتعليم الهندسة، الهيئة، المنطق، الطبيعيات، الفقه، الفرائض، التصوف، التعبير على الكلام، الحساب، الجبر والمقابلة على أحسن نظام، الطب، علم الالحان، وعلوم اللسان، النحو، الصرف، اللغة، علم البيان، وباقي العلوم كالوضع والعروض المستبكر بذاك الزمان، أضحت في صدور الرجال، لا بين دفتي الكتاب كما نحن الآن، ترى البيوت مزينة بالكتب والآلات وأهلها مشتغلين بالتصنيف والتأليفات مهتمين لتقديم وطنهم على وجه الكمال، وغيرهم منذوٍ بزوايا الاهمال. افتخر جنس العرب على سائر الأجناس وغدا محسوداً من جميع الناس ومع هذا نجد التجارة والزراعة والصنائع ضوء نجاحها في ذاك العصر ساطع. فكان الرشيد، رحمه الله، يحث ذوي الصناعة على تحسينها طبق المراد وينعم على من تفنن في صناعته ليعظم الاجتهاد فأضحت أهل الصناعة بغيرة عظيمة وهمة قويمة بتحسين الصنائع وإظهار البدائع وبقوا على هذا النمط مشتغلين حتى ظلوا بالنعم رافلين فحسنت الصناعة وتقدمت وعمرت محلاتها واتسعت وظهرت الأقمشة للعيان من حرير وصوف وقطن وكتان واجتهدوا لاختراع بعض أشياء في الصناعة حتى اخترعوا النظارة والساعة وغير ذلك من الأشغال المتقنة والأمتعة المثمنة. فعندها بادرت التجار للمعاملة والأرباح وقام مؤذن النجاح ينادي في كل صباح «حيا على الفلاح» فجاوبه خطيب الاسعاف على منبر الانصاف مر نسيم العدل على غمام الظلم فمحاه وظهر بدر الراحة في سماء الأمن كاشفاً غطاه فتحقق نوره في روابي السعادة الفيحاء صارخاً بألفاظ فصحى «ها ربيع الزمن قد فتحت أزهاره وعقدت أثماره وكثرت شاكروه وقلت شاكوه، مروج الرفاهية تموج باخضرار غريب وعشب المسرات تنبت من كل نوع عجيب، الهدوء ظهر للعيان واستأنس به كل انسان، التوحش جهز نفسه وانهزم وفقد خبره وانكتم وتولى مكانه التمدن ونصب خيامه واستوزر المعارف والنجاح واجلسهما أمامه».

فعرف الناس فضل الرشيد ومحبته لوطنه السعيد فمدوا أكف الدعاء لخالق الأرض والسماء أن يطيل عمره ودولته ويبقى همته وصولته. وخلاصة الحال إني تتبعت غالب الأخبار والسير فوجدت أيام الرشيد، رحمه الله، كلها درر. هذا، وأما اشتغاله في الجهاد وتسيير الجيوش لافتتاح البلاد فإنه لأول خلافته بعث إبنه العباس إلى كابل وسابهار فافتتحهما وغنم منهما غنيمة عظيمة المقدار وكان الغزو بالصائفة وهي غزوة الروم أقصى مراده. وإذا لم يغزو بنفسه بعث من كبار أهل بيته وقواده. فأول من أرسل للغزو بالصائفة سليمان البكائي ذا العزم المتين وكان ذلك في السنة التي بويع له فيها وهي سنة السبعين [بعد المئة هـ/٧٨٦ م] وبعده أرسل البطل الهمام ذي الرأي الجلي اسحاق بـن سليمان بـن علي فكانت الغلبة له وغنم الغنائم والسبي الفاخر وفاز المعسكر الأول منهم والآخر. وفي سنة أربع وسبعين [بعد المئة هـ/٧٩٠ م] غزا بالصائفة عبدالملك بـن صالح وكانت الغلبة له وبلغ مأموله بفكره القادح. وبعده في كل سنة يرسل واحداً من المعتمدين إلى أن دخل في سنة الاحدى وثمانين [بعد

المئة هـ/٧٩٧ م] فجهز نفسه للسفر وانتخب للحرب كل شجاع مشتهر وسير الجيوش بين يديه وأبقى مكانه من يعتمد عليه وسار مستصحباً بعض العلماء بفن الحروب راجياً انجاز هذا الأمر ونوال المطلوب. إلى أن وصل محل القتال وبحبوحة المطالبة والنزال فاصطفت الجيوش كجناح العقاب الكاسر وشدوا شدة الضيغم الخادر فما ثنوا أعنتهم وما كفوا أسنتهم حتى هزموا الأعداء وافتتحوا حصن الصفصاف وبعدها المطمورة وكان بينهم وبين الروم الفداء وتولاه القاسم بن الرشيد من دون الناس وهو أول فداء في دولة بني العباس. ثم صار الحرب يتجدد عاماً بعد عام بإرسال الجيوش من مدينة السلام إلى سنة التسعين بعد المائة [هـ/ ٨٠٥ م] فسار الرشيد قاصداً هرقله والسبب بذلك أن الروم خلعوا ملكتهم زيني وملكوا بدلها نقفور فلما استقر به الملك وعلم أن عليه خراج يحمله في كل سنة لملك العرب استعظم هذا الأمر وجمع بعض من يعتمد عليهم في الأمور وتداول معهم في هذا الخطب العظيم فقر رأيهم على أن يخاطب ملك العرب باسترجاع ما حمل إليه فكتب إلى الرشيد: «من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد، فإن الملكة التي كانت قبلي اقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت لك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أضعافه إليها لكن ذلك من ضعف النساء وحمقهن فإذا قرأت كتابي هذا أردد ما حصل لك من أموالها وإلاَّ السيف بيننا وبينك». وختم الكتاب وأرسله مع من يعتمد عليه ويعلم بجودة همته وأمره بأن يوصله إلى ملك العرب ويستنظر الجواب ويأتيه به فأخذ الكتاب وسار حتى دخل بغداد وسأل عن ديوان الملك هارون الرشيد فأهدوه إليه واستأذن بالدخول فأذن له الرشيد فدخل وناوله الكتاب فأخذه منه وقرأه فاعتاظ من تجاسر نقفور ومخاطبته له بهكذا خطاب. فما وجد الجواب له إلاَّ إنه قلب الكتاب نفسه وكتب على ظهره: «بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور قائد الروم، قد قرأت كتابك والجواب ما تراه لا ما تسمعه». وأعطاه للرسول وقال له: قل إلى نقفور إني مقبل عليه. وقام الرشيد من ساعته وأخذ معه جيش عظيم وسار إلى أن حازى هرقله فحاصرها ثلاثين يوماً على الدوام إلى أن افتتحها وبلغ المرام وغنم منها غنائم جليلة وكسب ذخائر غير قليلة. فعند ذلك ندم نقفور على ما فعل ووقع في الخجل فسأل الرشيد المصالحة وتذلل لديه، وإنه يحمل الخراج في كل سنة إليه فأجابه الرشيد إلى ما طلب وعامله بالاكرام ورجع مع من معه لبغداد دار السلام. وبعدها تتابعت الفتوحات إلى ان افتتح حصن الصقالبة وقونية روضة تلك الجهات وبعدها أمر ببناء مدينة طرسوس فتم بناءها في سنة اثنتين وتسعين [بعد المئة هـ/٨٠٧ م]. هذا بعض ما نسب إليه من الغزوات والبنايات واطلعت عليه في جملة كتب وترجمات. -وأما ما نسب إليه من الأخبار والذكاء ومحاسن الأخلاق وإدراك العواقب فإنها أكثر من أن تذكر أو يخبر عنها بخبر. فمن جملتها، قال الكسائي: دخلت على الرشيد فلما قضيت حق التسليم والدعاء وثبت للقيام فقال: إقعد، فلم أزل عنده حتى خف عامة من كان في مجلسه ولم يبق إلاَّ خاصته فقال: يا علي الا تحب أن ترى محمداً وعبدالله، أي أولاده، قلت: ما أشوقني اليهما يا أمير المؤمنين وأسرني بمعاينة نعمة الله عليك فيهما، فأمر بإحضارهما فلم ألبث أن أقبلا ككوكبي أفق يزينهما هدوء ووقار وقد غضا أبصارهما وقاربا خطوهما حتى وقفا على باب المجلس فسلما على أبيهما بالخلافة ودعوا له بأحسن الدعاء فأمرهما بالدنو منه فصيرا محمداً عن يمينه وعبدالله عن يساره ثم أمرني أن استقرئهما وأسألهما ففعلت فما سألتهما عن شيء إلاَّ أحسنا الجواب فيه والخروج منه، فسر بذلك الرشيد حتى تبينته فيه. ثم قال لي: يا علي كيف ترى مذهبهما وجوابهما؟ فقلت: يا أمير المؤمنين هما فرع ذكاء أصله وطاب مغرسه وتمكنت في الثرى عروقه وعزبت مشاربه أبوهما أغر نافذ الأمر واسع العلم عظيم الحلم يحكمان بحكمه ويستضيئان بنوره وينطقان بلسانه ويتقلبان في سعادته فامتع الله أمير المؤمنين بهما وأنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما، فما رأيت أحداً من أولاد الخلفاء وأغصان هذه الشجرة المباركة أذرب ألسنا ولا أحسن ألفاظاً ولا أشد

اقتداراً على تأدية ما حفظ منها. ودعوت لهما دعاء كثيراً وأمن الرشيد على دعائي ثم ضمهما إليه وجمع يده عليهما فلم يبسطها حتى رأيت الدموع تنحدر عن صدره ثم أمرهما بالخروج فلما خرجا أقبل عليَّ فقال: كأنك بهما وقد حما القضاء ونزلت مقادير السماء وبلغ الكتاب أجله قد تشتتت كلمتهما واختلف أمرهما وظهر تعاديهما، ثم لم يبرح ذلك بهما حتى يسفك الدماء وتقتل القتلى وتهتك ستور النساء، ويتمنى كثير من الأحياء أنهم في عداد الموتى. قلت: أيكون ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، وكان ما كان.
قال الأحمر النحوي: بعث إليَّ الرشيد لتأديب ولده محمد الأمين فلما دخلت قال: يا أحمر ان أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعتك عليه واجبة فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين إقرئه القرآن وعرفه الآثار وفقهه في الدين وعلمه السنن وبصره مواقع الكلام وأمنعه الضحك إلاَّ في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا إليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمر به بك ساعة إلاَّ وأنت مغتنم بها فائدة تفيده إياها من غير أن يخرق بك فتميت ذهنه ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن إياهما فعليك بالشدة والغلظة، وأوصاه بوصايا كليه. وحكى الأصمعي قال: بينما أنا أساير الرشيد ذات ليلة إذ رأيته قد قلق قلقاً شديداً فكان يقعد مرة ويضجع مرة ويبكي. ثم أنشأ وقال:

قلد أمور عباد الله ذا ثقة ... موحد الرأي لا نكس ولا برم
واترك مقالة أقوام ذوي خطل ... لا يفهمون إذا ما معشر فهموا

فلما سمعت ذلك منه علمت أنه يريد أمراً عظيماً، ثم قال لمروان الخادم: عليَّ بيحيى، فما لبث أن أتاه فقال: يا أبا الفضل إن رسول الله عليه الصلاة والسلام مات في غير وصيته والإسلام جذع والإيمان جديد وكلمة العرب مجتمعة قد آمنها الله تعالى بعد الخوف وأعزها بعد الذل فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبي بكر وكان من خبره ما قد علمت، وإن أبا بكر صير الأمر إلى عمر فسلمت الأمة له ورضيت بخلافته، ثم صيرها عمر شورى فكان بعده ما قد بلغك من الفتن حتى صارت إلى غير أهلها، وقد عينت بتصحيح هذا العهد وتصييره إلى من أرضى سيرته وأحمد طريقته وأثق بحسن سياسته وآمن ضعفه ووهنه وهو عبدالله وبنو هاشم مائلون إلى محمد بأهوائهم وفيه ما فيه من الانقياد لهواه والتصرف مع طويته والتبذير لما حوته يده ومشاركة النساء والإماء في رأيه، وعبدالله المرضي الطريقة الأصيل الرأي الموثوق به في الأمر العظيم، فإن ملت إلى عبدالله اسخطت بني هاشم وإن أفردت محمداً بالأمر لم آمن تخليطه على رعيته فأشر عليَّ في هذا الأمر برأيك مشورة يعم فضلها ونفعها فإنك بحمد الله مبارك الرأي لطيف النظر. فقال: يا أمير المؤمنين إن كل ذلة مستقالة وكل رأي يتلافى خلا هذا العهد، فإن الخطأ فيه غير مأمون والزلة فيه لا تستدرك وللنظر فيه مجلس غير هذا. فعلم الرشيد انه يريد الخلوة فأمرني بالتنحي فقمت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامهما فما زالا بمناجاة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل وافترقا على أن عقد الأمر لعبدالله المأمون بعد محمد الأمين. وقال الأصمعي أيضاً: دخلت على الرشيد ومجلسه حافل فقال: يا أصمعي ما أغفلك عنا وأجفاك لحضرتنا؟ قلت: والله يا أمير المؤمنين ما لاقتني بلاد بعدك حتى أتيتك. قال: فأمرني بالجلوس فجلست وسكت عني فلما تفرق الناس إلاَّ أقلهم نهضت للقيام فأشار إليَّ أن اجلس فجلست حتى خلا المجلس ولم يبق غيري ومن بين يديه من العلماء. فقال: يا أبا سعيد، ما معنى قولك ما لاقتني بلاد بعدك؟ قلت: ما أمسكتني، وأنشدت

كفاك كف ما تليق درهماً ... جودا وأخرى تعط بالسيف دما

فقال: هذا أحسن وهكذا فكن وقرنا في الملأ وعلمنا في الخلاء فإنه يقبح بالسلطان أن لا يكون عالماً. أما أن أسكت فيعلم الناس إني لا أفهم إذ لم أجيب، وأما أن أجيب بغير الجواب فيعلم من حولي

أني لم أفهم ما قلت. قال الأصمعي: فعلمني أكثر مما علمته. فهذا بعض ما اطلعت عليه من قصصه اللطيفة واستدراكاته المألوفة وحدّه للمواد، وإنه كان رحمه الله دأبه تقديم وطنه وتنشيط العلوم ومصاحبة العلماء الذين كانوا بذاك الوقت كالنجوم. فمن جملة علماء الفقه والحديث والتفسير الذين كانوا بذاك العصر:

أبو بكر سالم بن العياش بن سالم الخياط كان من أرباب الحديث والعلماء المشاهير وهو أحد راويي القراءات عن عاصم وأبو محمد سفيان بن عينية، وأبو عبدالله شريلة بن عبدالله، وأبو عبدالرحمن عبدالله بن المبارك، وأبو محمد عبدالله بن وهب القريشي، والنضر أبو الحسن، وأبو البختري وهب ابن كثير، والقاضي يحيى بن أكثم، والقاضي أبو يوسف صاحب أبي حنيفة الشهير بعلم الفقه، وأبو محمد يعقوب بن اسحاق.

وكان من علماء النحو والمنطق والهندسة والموسيقى والفلك وباقي العلوم العقلية أبو الفضل العباس بن الفرج الرياش، أبو سعيد عبدالله بن قريب الشهير بالأصمعي، والأخفش أبو الحسن سعيد بن مسعده، والكسائي، وأبو عبدالله محمد بن موسى بن شاكر وله مؤلفات كثيرة بالهندسة والموسيقى وكان بارعاً بهذا الفن للغاية، ومعاز بن مسلم، وأبو عبيده معمر بن المتني وأبو زكريا يحيى ابن زياد الشهير بالفرا، وأبو محمد يحيى بن المبارك، وغيرهم ومن الشعراء والندماء ابراهيم الموصلي، وإسحاق بن ابراهيم، وحسن بن هاني الشهير بأبي النواس وكان عالماً ذكياً لبيباً قيل إن بعض الشعراء سأل أبا النواس عن نسبه فقال له أدبي أغناني عن نسبي. قال اسماعيل بن نوبخت: ما رأيت قط أوسع علماً من أبي النواس ولا أحفظ منه مع قلة كتبه ولقد فتشنا منزله بعد موته فما وجدنا عنده ولا كتاب ولا حاجة لذكر شعره لاشتهاره بكافة الأمصار، وسالم بن عمر بن حماد بن عطاء الذي مات وخلف بواسطة شعره وأدبه ستة وثلاثين ألف دينار في ذلك الوقت، وأبو الفضل العباس بن الأحنف بن الأسود اليمامي وكان رقيق الحاشية لطيف الطباع ومن جملة أقواله:

يا أيها الرجل المعذب نفسهُ	أقصر فإن شفاءك الأقصار
تزق البكاء دموع عينك فاستعر	عيناً لغيرك دمعها مدرار
من ذا يعيرك عينه تبكي بها	أرأيت عيناً للبكاء تعار

وأبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت صاحب المصنفات الكثيرة بعلم الأدب، ومروان بن أبي حفصة، وأبو منذر هشام بن أبي النصر، وغيرهم من المشاهير الذين مصنفاتهم ملئت الأرض، ولا يمكنني أن أعدد أوصافهم الآن نظراً لضيق الوقت. ولنرجع إلى ما كنا بصدده من أحوال الرشيد، رحمه الله، فأقول: إنه بقي بهمته واجتهاده لحين وفاته فلما حضرته الوفاة وذلك في جمادىالأولى سنة ثلاث وتسعين ومائة هـ/شباط ٨٠٩ م استحضر بعض بني هاشم فقال لهم: إعلموا ان كل مخلوق ميت وكل جديد بال وقد نزل بي ما ترون وأنا أوصيكم بثلاث: الحفظ لأمانتكم والنصيحة لأمتكم واجتماع كلمتكم، وانظروا محمداً وعبدالله فمن بغى منهما على صاحبه فردوه عن بغيه وقبحوا له بغيه. فهذه كانت آخر نصائحه وكانت مدة خلافته ثلاثة وعشرين سنة وثلاثة أشهر. والله أعلم بالصواب.

رسالة وردت من جناب الأديب الأريب
موسى أفندي خوري في حماه
إلى الجمعية العلمية السورية في بيروت

[المجموعة الخامسة من أعمال السنة الثانية. ص ٢٠٦ - ٢١١].

لما تشرفت بمطالعتي بنسخ أعمال هذه الجمعية الأدبية العلمية وارتأيت أساس مضمونها الفريد الموقع باتحاد أصحاب الفراسة مؤلفيها محبي الخير والوطن تشكرت صنيعهم، هذا الوحيد الواقع في رؤوس منابر عصرنا، هذا الجديد الذي منه فوائد الجمهور تنجم ولذلك مجاسرة بتقديم تشكرات الثناء لما تكرموا به على الفقبر من سجاياهم المخلدة بالذكر الحسن راجياً من عفوهم بعد الصفح درج النبذة الآتية وذلك مما ارتأيته من اللوازم الوطنية الضرورية لعله يكون سبيلاً لقبوله بأفكار أصحاب الخبرة والسعي من أهل العلوم والعقول لأكون بذلك مشتركاً في جملة خاصيات فضيلة مؤلفيها الواثقين في حب الوطن فقلت:

بدولتنا العلية كل نادي	بدا من وفدها حسن الرشادِ
لها جمعية بالعلم فاقت	ببيروت على كل العبادِ
وعمتنا بفضلٍ أيِ فضلٍ	وفخر قائد طرق اعتمادي
ومز تاهت بها حسناً وباهت	بوالٍ راشدٍ للخير هادي
وعز عزيزها ملك البرايا	همام الكون من قاصٍ وبادي
برشد الهدء أرخ في سعودٍ	زهت تيهاً على كل البلادِ

سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩ م

إن أفخر مزايا العقل بما فاقت فطانته هو منطوي على حسن نوايا الجمهور واتحاد الأخوية والمحبة بين العموم هي روابط القلوب واجذابها إلى مقر المحبة الأساسية الوحيدة وهي التوصية كما تأكدناها من الكتب القديمة الإلهية ولذلك دليل واضح إلى تقدم الأوروبا في العصر الأخير عن أولاد العرب هو اتحادهم الوحيد الفريد واجتهادهم وغيرتهم المنطوية على الحماسة إلى من كان بخطوة الاختراعات اللائقة أديب وإذ كان أولاد العرب بالعصر القديم بهذه الصفة الممدوحة والحب والاتحاد فاقوا على قطر الدنيا في العلوم والفنون والصنائع التي بددت آثارها تسلسل الأيامباضطرابهاالسالف كما تؤكد ذلك التواريخ القديمة والأسفار المسجلة، وبحمده تعالى لم يفقد من أحسن مزاياهم وسجاياهم الفريدة رونق العلوم والفراسة والشعر والفصاحة حتى تجدد في عصرنا هذه الفريد وأشرق في قبة أفلاكه قمر جديد بعز ونصر حضرة صاحب الخلافة العزيز سلطاننا الأعظم أبّد شوكته وأدام نصرته وبسياسة أصحاب الهمم حضرات أولياء النعم وكلاء دولتنا العلية التي أغمرت الجميع باحسانها الوافر العديم الزوال باعطائنا التسهيلات الغزيرة بوجه العموم ولا سيما في بلادنا هذه السورية لما تؤكد من تقدمها الأخير بهمة واليها الفريد حضرة صاحب الدولة محمد راشد باشا أدام الله دولته بالعز والاقبال حتى ازدهت مدينة بيروت وأزهرت بالاجتهاد لوضع مجمع مآثر العلوم الوطنية والأجنبية على أساسها وأصلها المتين وغدا منها لكل فنٍ خبر علاوة على اتحادنا هذا في حب الوطن. وإننا متشكرون لجميع مؤسسي هذه الأعمال الحسنة التي ظهرت فوائدها عن زمنٍ قريب من مآثر العلوم واللغات الأجنبية. نعم، إن هذه تمام المحظوظية والشكر والثناء وهي الأسباب الوحيدة لتفرس العموم ومطالعتها والاكتشاف على تقدمها

الزمني كما يدون لا يبلغ العموم مداومته ولا يتصور إدراكه لديهم ولا إلى غيرهم حيثما من الواجب التأمل والاجتهاد والتفرس بتجديد الصنائع واختراعاتها والأعمال وأداواتها إذ بذلك يكون تمام غنا الشعب المجتهد بحسن الأفكار الواضحة لتمام السعادة والتقدم حيثما هو أهم مادة من تكتفي بمعرفة تعليم اللغات والمعارف. ومن المعلوم أن أهم مهام الانسان لراحته واستراحته استحصاله المعيشة الضرورية وايجاده تسهيلاتها أمر مستثنى يوجب عليه التحري واشراكه أول الأمر مع العلم والتعليم وهذان متى اجتمعا في الصحيح يؤكد بهما تمام سعادة الانسان. ونظراً لضعفي في المواد حلم الجمهور يصفح لكن بطريق التأكيد والمشاهدة لخلاف ديار وشعوب ترى أن جميع لوازمنا واحتياجاتنا الضرورية هي من البلاد الأجنبية من طقم الملبوسات حتى أغلب المأكولات. وعلى المؤكد ما يسعى لربحه كل قاصد من ديارنا السورية لا يوازي له تلك المهامات اللازمة الاحتياجية، حاشا، إن تكن تلك البلاد زاهرة وناتجة بتجارتها أوفر من بلادنا السورية نظراً لمركزها وعدالة هوائها ومناخ شرابها الجيد. وعلى ما علم من الزائرين المسافرين مديحهم هذه القطعة دون غيرها تؤكده الكتب المقدسة القديمة لما تشاهده بأرضنا هذه أرض الميعاد. وبالحقيقة إن هذا الصرف العظيم الذي يختطفونه من أيدينا أهل البلاد الخارجية هو من أعظم خسائرنا الجسيمة لعدم تصورنا، والجهد لاتقان الصنائع واختراعها في بلادنا الداخلية ننال غنا ما نالته القطعة الأوروبية من زمن وجيز. الأمر الأهم هو التشبث بالإصلاح واتقان فن الزراعة وتوسيعها ودونها التجارة وتنشيطها وعدالتها الصنائع واختراعها وزينتهما العلوم والمعارف وما يليهما بذلك يكون تمام محظوظية الوطن ورفاهية أهله بيدٍ واحدة. والمؤكد لنا ذلك مما يضاهينا من البلاد خيرات مصر المحمية حينما غدت أهاليها على قدم السعد والاجتهاد بمداركة صناعة الزراعة واتقانها فتمتعت بثمرات خيراتها الوافرة وغدت تشبع أكثر البلاد الخارجية من محاصيلها وتجارتها وليس ذلك التقدم والثروة دون جيلنا هذا. ولما اجتهدت الحكومة السنية في هذا الصنيع الخيري غدونا نستقطف لذة أثماره الواضحة. فإذاً هذا منوط بهمة أصحاب العقول والغنى بأن يمارسوا السعي والاجتهاد في موضوعنا هذا الوحيد علاوة على ما تفقدته تقدم البلاد الآن بازدياد العلوم والمعارف لتنالِ سعادة الوطن معاً. وإن يكن قصور هذا الفقير واضح وعدم اقتداره للدخول في ميدان بلاغة أصحاب الأفكار الرقيقة غير أنه على طريق المحبة الوطنية وميقنا أن حضرتكم تأخذون في يد القوة لضعفي وعن مجاسرتي تعفون والأمل بالله تعالى حسن المأمول بسياسة أنبيائه ورسله الأولين والآخرين، آمين.

الجمعية

[المجموعة الخامسة من أعمال السنة الثانية. ص ٢٢٣ - ٢٢٤].

من الواجب على الجمعية أن تقدم الثناء والشكر إلى كل من إدارتي **وادي النيل والمبشر التونسي** اللتين تكرمتا على الجمعية بإرسال صحيفتيهما إليها. ولا شك إن ذلك ينبيء عن الحمية والغيرة العربية التي امتازتا بهما ولذلك بادرنا بتسطير ذلك إشعاراً للممنونية. كما أننا نقدم الشكر إلى إدارة حديقة الأخبار مكرراً لمداومتها بإرسال صحيفتها أيضاً.

بيان الصحائف الموجودة في قاعة الجمعية لافادة ولتفكهة أعضائها

حديقة الأخبار الجوائب وادي النيل المبشر التونسي	عربية	انديباندنس بلج ريفو ديدوموند ايللوستراسيون شاريواري	فرنساوية

وكذلك نعلن أن الجمعية مهتمة باحضار صحائف خلافها.

المجموعـة السادسـة مـن أعمـال السنـة الثانيـة

[بيروت: المطبعة العمومية، ١٨٦٩. ص ٢٢٥ - ٢٦٤].

إنه في مساء الأربعاء الواقع في ٩ محرم سنة ١٢٨٦ هـ وفي ٩ و٢١ نيسان سنة ١٨٦٩ م صار فتح اجتماع من المشتركين تلى به الخواجة سليم فريج خطبة في الجمعية وفوائدها والأسباب التي تؤول للتقدم والنجاح.

الخطبـة التـي تلاهـا الخواجـة سليـم فريـج في الجمعية وفوائدها والأسباب التي تؤول للتقدم والنجاح

[المجموعة السادسة من أعمال السنة الثانية. ص ٢٢٥ - ٢٣٧].

أيها السادة

إن أحد الشيوخ دعى أولاده الثلاثة وهو ملقى على فراش الموت ثم أخذ حزمة قضبان قائلاً لهم: من منكم يقدر على قصف هذه الحزمة؟ فأخذ كل منهم الحزمة وعاقب بها قاصداً قصفها ولكن باطلاً. فأخذ حينئذٍ الشيخ الحزمة من بنيه وفك بيديه المرتجفة الأربطة التي كانت حازمتها قاصفاً كل قضيب بمفرده.

ما أجمل هذه الوصية التي أشار هكذا عنها هذا الشيخ الأديب لأولاده الأعزاء!! فإن ما هو حقيق في المادة هو أيضاً حقيق في الانسان. لأن ليس للانسان بمفرده سوى أثر ضعيف على أمثاله. وأما عند اجتماع أفراد البشر تلتئم آثار كل منهم فتغدو جسيمة: أفليس لهذه الغاية الوحيدة تتألف الجمعيات وتألفت هذه؟ ولكننا نرى أن عدداً غفيراً من الجمعيات لا بل أن الثمانية أعشار منها قد سقطت. فإنه سهل على كل منا الاجتماع في أوائل الأمر، ولكننا نجد أقل سهولة في حفظ عهود تلك الاجتماعات. كل منا يرى نفسه منقاداً عند ابتداء الأمر إلى هذه الاجتماعات تحت أمل ما سواء كان لمعاشرة ذوي الاعتبار أم لإظهار ما عنده من الأفكار التي يظنها عين الصواب. ولكن غب مدة وجيزة يظهر لنا اختلاف أفكار رفاقنا مع عدم امكانية اقناعهم بأفكارنا، فنشرع أن نسأل ذواتنا: ماذا تفيد تلك الجمعية التي يحكم بها ان لا نصنع شيئاً مفيداً؟ وحينئذٍ يهجر رويداً رويداً كل منا محل الاجتماع والجمعية تسقط.

إغربي عني أيتها الغرور المتسلطة على العـامة فأؤمل ان هذه الجمعية لا يكون حظها كحظ أولئك الساقطات. بما إن قصد أعضائها الاستفادة بمباحثات نافعة ساكنة مع نشر أنوار العلوم المكتسبة إلى ما حولهم، فإنهم لا يشتغلون بأمور غير نافعة، أو بالحري لا يرغبون ذلك، فإن بحثوا في التاريخ مثلاً لا يكتفون بمطالعة أخبار أسلافهم وبمعرفة ما أصابهم من النجاح والخراب بل ينظرون إلى أسباب ذلك النجاح والخراب، وعند ذلك يكونون قد عرفوا ما يجب ويليق أن يُعرَف من التاريخ، الذي يفيد في جميع الأجيال، بخلاف الأخبار لوحدها فإنها لا تفيد إلاّ أشخاص ذلك الجيل الذي حدثت فيه.

إن في جميع الحوادث التاريخية الظروف كانت مختلفة. ولكن الانسان كان دائماً محورها الوحيد، ولهذا إذا عرفنا الانسان كما هو نجد أسباب هذه الحوادث، وبالنتيجة نتنبأ عنها بقدر الامكان. هكذا مثلاً عند دفع حجر ما إلى العلا ولزوم سقوطه تبعاً لشرائع الطبيعة، لا يهم معلم الطبيعة إلاّ معرفة تلك الشرائع التي عنها نتج هذا العمل، دون الحوادث الكلية الاختلاف التي يمكنها أن تتعلق بدفع

الحجر وسقوطه. فقس على ذلك معرفة الشرائع التي تحكم البشرية. فإنها هي التي يلزم ان تهم من طالع في التاريخ، دون معرفة الحوادث المتعددة والكلية الاختلاف.

سنرفض إذاً كل ما لا يفيدنا في دروسنا. كل ما من شأنه أن يمرّن الذهن فقط. غير طالبين ما يمكّن الانسان تحصيله بواسطة ذهنه وصبره فقط. فإن جمعيتنا لا تثبت إلاّ بهذا الشرط، سيمل عما قليل من طلب هذه المعرفة وأبداً من طلب العلوم، هذه المعرفة تسرّ من يطلبها في الابتداء بجعلها إياه متعظماً على الآخرين في الأمور المجهولة الفهم. ولكنه يملّ عن قريب بما إنه يضحى لوحده مفتخراً بذاته عارفاً قيمة ما حصّله حاملاً كنزاً لا ينفع لأدنى استعمال. أما العلم الذي يستعمل في كلٍ برهة ككنز يسعدنا بالحقيقة فإنه بخلاف ذلك. هكذا بمعرفة علم التدبير المدني يمكن للانسان أن يتجنب غلطات كثيرة في أمور المعيشة. وبمعرفة علم التدبير المالي يمكنه تجنُّب غلطات عديدة في المالية وهلّم جراً. فإن العالم يفيد أكثر من الحاصل على تلك المعرفة. يكرَّم هذا ولكن يُمَلّ من سمعه. وبالعكس يستشار ذلك ويقتدى به.

لا يجب أن نتوهم من لفظة عالم قاطعين الأمل، وذلك لا لأني أدعي بهذا اللقب، لا لعمري، ولكنني محب للعلوم مثلكم وهذا يكفي. الاجتهاد والإرادة يولدان العلم أكثر من علو العقل. أأهالي فرنسا هم أجود عقلاً من أهالي سوريا؟ لا أظن. مع هذا نرى عدد العلاّمة في فرنسا أكثر بما لا يفوق من عددهم في سوريا. وهذا ينتج عن زيادة عدد طلبة العلم في فرنسا. فإن أكثر الناس في سوريا يتعاطى المتجر. لماذا لا يخصص السوريون جزءاً طفيفاً من زمانهم للعلم مع معاطاتهم التجارة، نظير أهالي انكلترا ليكتسبوا معارفاً نافعة حتى لتجارتهم؟ فإننا نرى بأسف في بعض البلاد من جملتها هذه توهماً باطلاً وهو أن العلم لا يلزم لأجل اكتساب المال. وكما هو مسموع أن الانسان يلزم أن يكون جاهلاً لمعاطاة التجارة. المطالعة قليلاً في التاريخ تكفينا كي نحكم أن هذا الاعتقاد هو باطل وخالٍ من الأساس. إذ إننا نرى فينيقيا مثلاً فاقت قديماً على غير بلدان في العلوم. وبرهاناً لذلك نرى انه لما عزم سليمان الحكيم على بناء الهيكل طلب من حيرام ملك الفينيقيين فعلة ومهندسين. وذلك مما يدل على مجد الفينيقيين في ذلك الحين وسموّهم على ما سواهم في صناعة البناء واتقان الهياكل اللذان يستلزمان معرفة علوم كثيرة. كما ويُنسب إلى الفينيقيين اختراع الكتابة وعدة أشياء لا يسعنا لذكرها هذا المقام. ومع ذلك كانت فينيقيا محور ومركز متجر ذلك الحين. إذ إن الفينيقيين هم الذين أسّسوا مرسيليا وقاوموا مدة ثلاثة عشر سنة بختنصر الملك ومدة عدة أشهر اسكندر ذا القرنين. فإن الأرجوان كان يستحصل من صور والعاج والزجاج والأقمشة كانت تستحصل من فينيقا. محاصل نينوى العظمى وبابل كانت تمر في فينيقيا لتغيير هيئتها قبل إرسالها إلى الأوروبا. هكذا العلوم والثروة كانت تتعاون على هذه الأرض التي تطأها أرجلنا. لماذا إذاً تغيّر الحال وبطل ذلك التعاون؟

فمما تقدم ينجلي لنا كيف أن العلم يفيدنا في حياتنا لكامل أعمالنا. وهو ككنز نحصله ونستعمله لأشغالنا، وإن ما يقوله البعض عن عدم دخول العلوم في التجارة هو فاسد وتوهم بدون أساس البتة، كما وأن العلم هو الذي ينفعنا واللازم أن يهمنا خلافاً لتلك المعرفة المكتسبة بواسطة الذهن والصبر فقط. إذ إنها تسبب لنا الملل وبالتالي خراب جمعيتنا.

أما الآن فمن المتوجب عليّ أن أظهر الطريقة التي يلزمنا اتباعها لاستحصال العلوم فأقول: إن العقل البشري يبحث دائماً على اكتشاف الحقيقة، سواء كان في العلوم الرياضية أم في خلافها كالعلوم الفلسفية والطبيعية. لأن الانسان لا يفتش إلاّ على تلك الحقيقة الأبدية التي إليها نوجّه كافة أعمالنا

نظراً للزوم طبيعتنا إليها والتي لا نجدها تماماً إلاّ بعد الموت. لا يُعرف إلاّ بعد الموت يقول أفلاطون الشهير.

أنظروا هذا المعلم كيف إنه يقضي الليل بملاحظة الأجرام السماوية والنهار في الحساب. هل تظنون أن لذّته قائمة في عدم نومه، أم في رقم الأرقام التي يسود بها القرطاس؟ لا لعمري. إنما شيء واحد يثبته في أتعابه وأشغاله، أمله أن يجد إحدى الشرائع الحاكمة تلك العوالم البعيدة. ما هي إذاً الشريعة؟ الشريعة هي الأوامر الإلهية، هي ذات الحقيقة. فإيجاد جزء صغير من هذه الحقيقية الأبدية هو السرور الوحيد للانسان، أو بالحري كما قال المعلم لايلاس الفرنساوي: هو نعيم الكائنات الناطقة الباحثة.

وجود الشرائع لا ينحصر في العلوم الرياضية كالفلك والجبر والهندسة ولكن في كافة العلوم. الأجرام السماوية لا تخضع وحدها إلى القوانين الغير المتزعزعة، ولكن الحيوانات والطبيعة أيضاً حتى الانسان نفسه يخضع لإرادة الخالق الأزلي، ليس للبحر فقط قيل لا تخرج عن حدّك. إنما الذي يلذ في العلوم، الذي لا ينجم عنه أدنى ملل هو الحقيقة إحدى الشرائع الحاكمة العالم، هي التي تثبّت أعمال الانسان في هذه الدنيا وتكلل كافة أتعابه باللذة الناجمة عن معرفتها. في جميع العلوم يستلزم الأمر لمعرفة احدى هذه الشرائع، ويخرج عن دائرة العلوم كلما ينفي ذلك الاكتشاف الشرائعي. فعلينا إذاً مطالعة التاريخ كعلمٍ لا كمعرفة بسيطة فإنه لا يدخل في دائرة العلوم الحقيقية إلاّ إذا أطلقنا فيه العنان لأفكارنا، وتمعّنا في الانسان الذي هو أصل ومحور هذا العلم.

إذا فحصنا تواريخ كافة الشعوب نتحقق أنهم قد خضعوا جميعاً للشرائع نفسها. أظن يقول المعلم مونتين الفرنساوي: إن الانسان هو شبيه بالماء المنحدر من أعلى الصخور، فإنه يظهر عند انحلال أمره المتنوّع متروكاً للصدفة، ومع هذا كله نقطة منه لا تنحل في الخضوع إلى شرائع المائعات. فقس على ذلك الانسان في حوادث حياته المختلفة فإنه يخضع لشرائع البشرية. انتهى. وكما إن نظر إنحدار الماء يجر الانسان لاكتشاف البعض من شرائع المائعات، هكذا تاريخ الشعوب يجره لاكتشاف البعض من شرائع البشرية. لكن إذا أردنا أن نشتغل في العلوم دون أن نعرف الطريق المؤدي إليها نزيغ هائمين في بحور الغلط. ما هو إذاً الطريق الذي يلزمنا اتباعه عند تفكّرنا وتمعّنا في العلوم؟ هذا الطريق إنما هو المنطق، فإنه بدون المنطق لا نقدر أن نخوض في بحور التمعن والأفكار، كما انه بدون البوصلة لا يمكن للنوتي السفر في البحور والوصول إلى الشطوط المقصودة. فإنه الواسطة التي بها يرتفع الانسان إلى أعلى الطبيعية موجهاً نظره إلى تلك الحقيقة الأبدية التي تأمر جميع الكائنات، ولهذا ارسطو طاليس وأفلاطون الشهيران مبدعا هذا العلم قد اتكلا ووضعا كل اعتمادهما عليه.

ثم بما أن قصدنا درس العلوم كما يظهر من اسم جمعيتنا هذه فلنبادرنَّ إلى المنطق ولنتسلحنَّ به لأنه الواسطة الوحيدة المؤدية إلى ديار العلوم. فإنه لأجل السفر إلى محل ما للوندرة مثلاً لا يكفينا القصد على ذلك فقط بل يلزمنا أن نعرف الطريق المؤدي إليها، وإلاّ نكون تحت خطر عدم الوصول إلى تلك المدينة المقصودة. وهكذا إذا أردنا الوصول إلى علم ما يلزمنا معرفة الواسطة المؤدية إليه. أما هذه الواسطة فهي المنطق.

أما بعد، فإذا رمنا أن نبحث في العلوم، أول شيء يطرق نظرنا وأفكارنا هو الانسان، إذ إننا قبل أن نبحث عما حولنا يلزمنا البحث عن ذواتنا. فالتاريخ هو الذي يبين لنا أعمال الانسان والحوادث الطارئة عليه من جراء الشرائع البشرية التي سبق القول عنها. والتمعن في هذه الحوادث يلزم أن يكون

مقاداً بالمنطق. واضعين القياس لجميع هذه الشعوب المختلفة الانسان نفسه. لأن المركب يخضع للشرائع التي يخضع لها كل من أجزائه. وهكذا الشعوب فإنها بالضرورة يلزمها الخضوع للشرائع الحاكمة الانسان الذي هو أصلها ومحورها ومفردها. فإن الانسان مثلا لا بد له من زمان يلد به ثم يصبو به ثم يشتد به في نحو منتصف عمره. إن كان في القوى العقلية أم المادية ثم يشيخ به. فقس عليه الشعوب التي يلزم أن يكون لها أيضاً وقت تلد به وآخر تبلغ به أشدها وذلك يكون في منتصف حياتها ووقت آخر تموت به في سن الهرم، إلاّ إذا طرأ عليها عارض من العوارض الطبيعية الغير المنتظرة، فإنها تهلكها قبل هرمها كما إن الأمراض تهلك الانسان قبل أيام انحلاله. وهكذا تكون الشرائع الحاكمة ذات الانسان هي التي تحكم ضرورة حياة الشعوب. من منا يتجاسر أن ينكر فضل المنطق في تلك الأقيسة وجودة هذا الاسلوب لدرس التاريخ؟ أما بعد تقديم البرهان العقلي بواسطة المنطق لتلك الشرائع يؤتى ببعض حوادث تاريخية لبيان حقيقة تلك الشرائع ولرفع الشك في صحتها، وحينئذٍ نكون اكتسبنا معرفة هذه الشرائع الحاكمة البشرية التي هي تمشية أوامر الباري تعالى. عارفين بطريق البرهان لتلك الشرائع الحوادث التاريخية التي نكون طالعناها في هذا الصدد معلّلين عن الحوادث المذكورة متنبئين على نوع ما عن تلك التي سوف تقع قياساً على التي وقعت في ما سلف. على المنوال الذي به معلم الطبيعة يتنبأ عن الحوادث الطبيعية أحياناً بمعرفة الشرائع الحاكمة الطبيعة. ومع ذلك لا يلزمنا أن نظن انه يمكننا معرفة جميع الشرائع البشرية. كما انه لا يلزم لمعلم الطبيعة أن يعد ذاته عارفاً جميع شرائع الطبيعة. لأنه كما لا يخفى الحوادث الغير المعلل عنها في علم الطبيعة تفوق بمرّات التي عُلّل عنها لحد الآن. ومعرفة كهذه تكون عمت حقائق عديدة معروفة من الخالق وحده والتي يخفيها عنا لأسباب لا تدرك والمأمول إدراكها منا بعد الموت. ولا يلزم أن نقطع أملنا في طلب الشرائع الحاكمة الكون بل لنكتف بما نقدر أن نحصّله، لأنه إذا حصّلنا البعض من هذه الشرائع نكون ارتقينا إلى درجة ليست بدنية من درجات التمدن. بما إن معرفة هذه الشرائع تقتضي معرفة العلوم وهذه هي علة التمدن كما ظهر ذلك جلياً في خطاب أخي أحد أعضاء هذه الجمعية. ولأجل بيان ما تقدم ذكره إنني مزمع أن أقدم لكم أيها السادة خطاباً في حياة الشعوب، أبرهن فيه عن بعض الشرائع الحاكمة حياة الشعوب من جهة ابتدائها وانتهائها وتقسيمها إلى أعمال متتابعة قد استنتجتها بواسطة المنطق، وأسرد فيه أخيراً جملة حوادث تاريخية برهاناً لتلك الشرائع العقلية.

أما الآن فإني أرجو كافة الحاضرين الاعتراض عما قدمته لربما أكون في غلط من هذا القبيل أو إن ملاحظتي هذه عن أعمال الجمعية تكون بغير محلها. فإن بيّن لي أحد عدم إجابة هذه الملاحظة فتكمل حينئذٍ ما ابتدأت به جمعيتنا سواء كان من ترجمات قصص عشقية أو من ترجمة حياة بعض الأبطال والمعلمين الشهيرين وتشرع في ترجمات أخرى كحياة بعض الملوك مثل لويس الرابع عشر وإسكندر ذي القرنين ونابليون الأول وكارلوس الخامس وهارون الرشيد وهلمَّ جراً، وإلاّ فلا حاجة إلى رفض ما أبديته. وحينئذٍ تشرع جمعيتنا في مطالعة العلوم الفلسفية والطبيعية والرياضية مظهرة للجمهور شرائع مفيدة للهيئة الاجتماعية وتنوير العقل. ونكون نحن أعضاؤها قد سلكنا حينئذٍ في الطريق الذي تقتضيه جمعية كهذه. هذا وإني أطلب الصفح عما تجرأت على إبدائه لديكم، أيها السادة. ولو لم أر من المتوجّب عليَّ كعضو يغار على صوالح الجمعية إعراض الملاحظات التي تطرق فكري لما كنت تجرأت على الوقوف أول مرة من حياتي أمام محفل كهذا مؤلف من أفطن وأعقل أبناء الوطن. انتهت.

الجمعية

[المجموعة السادسة من أعمال السنة الثانية. ص ٢٦٣ - ٢٦٤].

إنه في مساء يوم الثلاثاء الواقع في ١٥ محرم سنة ١٢٨٦ هـ و١٥ و٢٧ نيسان سنة ١٨٦٩ م حصل فتح اجتماع عمومي في الجمعية ألقى به جناب العلامة الدوقتور يوحنا ورتبات خطاباً شفاهياً في الهواء والتنفس مع إجراء الامتحانات الكيماوية المتعلقة به وقد أحسن المومى إليه في سبك مقالته العلمية المقرونة بفصاحة العبارة فسرت جميع المستمعين وأثنوا على بلاغة ورقة ما أبداه. وبياناً لممنونية الجمعية لما تكرم به جناب الدوقتور المومى إليه حصلت المبادرة بإعلان ذلك. وإننا نتأسف لعدم إمكان الجمعية على طبع ونشر هذا الخطاب الشفاهي النفيس لتعمّ فائدته الجميع.

كما انه في مساء الثلاثاء الواقع في ٢٩ محرم سنة ١٢٨٦ هـ و٢٩ و١١ أيار سنة ١٨٦٩ م حصل فتح اجتماع عمومي آخر ألقى به جناب العامل العلامة المعلم بطرس البستاني خطاباً في الهيئة الاجتماعية والعوائد وقد أجاد المومى إليه فيما أبداه من فوائد هذا الموضوع الأدبي الذي أتى على أحسن نمط من الفصاحة والبلاغة. ولا بدع من ذلك لما اشتهر به فأصبح الجميع مسرورين يثنون على ما أبداه وإظهاراً لممنونية الجمعية لما تكرم به جناب العلامة المومى إليه وللتشكرات الوافرة لتقديمه عدة نسخات من خطابه لتتوزع على حضرات المشتركين جرت الهمة بإعلان ذلك.

[لم ترد ضمن المجموعة. لقد أضيفت في نهاية المجموعة السابعة من السنة الثانية]

إنه في هذه الأثناء حصل تشخيص رواية قيس وليلى تأليف سليم أفندي البستاني المشتملة على ستة فضول وقد أجاد المومى إليه في تأليف هذه الرواية نثراً ونظماً على نوع الغناء المعروف بالأوبرا وأصبحت كدرة تلألأ لما احتوته من المعاني البديعة والآداب اللطيفة الزاهية. وهي تنبيك عن عوائد وآداب حميدة كانت أو مستنكرة جرت عليها أجدادنا في القفر والبيداء فيتوهم الحاضر كونه في الحقيقة ويلبث تحت ظل هذا الوهم المستظرف إلى أن ينتهي المرسح. وقد أصبح الجميع مسرورين متشكرين من همة المومى إليه الذي اكتسب مسبقاً ميل وخاطر الجمهور لتأليفه الأول وقد شرف إلى هذه الرواية حضرة صاحب السعادة عبدالهادي باشا متصرف لواء بيروت ومدير أمور أجنبية ولاية سورية مع جمهور وافر من الذوات والأعيان.

الأعضاء

في الاسكندرية: **الخواجة حبيب عرزوزي** وكيل الجمعية.

أعضاء غير محلية في زحلة: **سليم أفندي أيوب**، **أمين افندي بحمدوني**.

في البقاع: **نجيب أفندي** مأمور رسومات. في راشيا: **مصطفى رفقي أفندي بيك** باشي الطليعة. **خورشيد آغا** قائمقام قضاء راشيا. **محمد أفندي** كاتب الطابور.

المجموعة السابعة من أعمال السنة الثانية

[بيروت: المطبعة العمومية، ١٨٦٩. ص ٢٦٥ - ٣١٤].

إنه في مساء الأربعاء الواقع في ١٤ صفر سنة ١٢٨٦ هـ و١٣ و٢٥ أيار سنة ١٨٦٩ م صار فتح اجتماع عمومي من الأعضاء تلى به جناب يوسف أفندي الشلفون خطبة في الخرافات اليونانية وهي هذه:

خطبة جناب يوسف أفندي الشلفون
في الخرافات اليونانية والمصرية

[المجموعة السابعة من أعمال السنة الثانية. ص ٢٦٥ - ٢٩١].

الحمد لله الذي لا يعبد سواه المتفرد في عزه وعلاه.

وبعد، فهذا خطاب أردت إعراضه على مسامعكم أيها السادة يتضمن ذكر الخرافات اليونانية والمصرية على سبيل الاختصار وذلك لاشتمالها على دقائق خفية ونكات أدبية يتوقف فهم التواريخ القديمة لا سيما تاريخ اليونان والرومانيين على معرفتها. كذلك لما كانت الآداب اليونانية مبنية على مثل هذه الأشياء وحذت الإفرنج حذوها في آدابها واتخذوها في ذلك قدوة وأسوة فكانت معرفة آداب اللغة الفرنساوية على الخصوص متوقفة على معرفتها لأنها شاربة من مشربها ومرتبة على ترتيبها. فأقول: إنه جرت عادة اليونانيين في تلك الخرافات التي صدرت منهم في زمن جاهليتهم قبل اتصافهم بالعلوم والمعارف وكتابة التواريخ الصحيحة وتدوين السير والوقائع الموثوق بها أنهم كانوا يفرطون العبارة في وصف من زاد بشيء عن أبناء جنسه من البشر حتى أنهم لم يكونوا يتحاشون عن اطلاق لفظ الإله على كل من اشتهر بوصف من الأوصاف. مثلاً لما اشتهر بخوس بكونه أول من اعتصر الخمر أطلقوا عليه لفظ الإله. ونظير ذلك كما سيأتي وربما كان لهم في ذلك إشارات. كما في ذكرهم الزمن الذي يعنون به زحل وذلك من حيث تسلطه على الأشياء ودوامه وفتكه بأهله وغدره فهذا هو المقصود الآن في ذلك، وإن كان عند القدماء كفراً صراحاً لأنه كان منشأ لاعتقاداتهم الفاسدة إذ إنهم كانوا يعبدون المخلوقات بما حقه أن يكون لله عزَّ وجلّ.

وذكر بعض المؤرخين أن نينوس هو أول من فعل ذلك نحو سنة ١٩٤٥ للخليقة، فإنه صنع صنماً لأبيه وأظهره للناس وأمر بعبادته والابتهال إليه فاقتدى به في ذلك من قاربه من الأمم فصاروا يعبدون ملوكهم وأمرائهم وشجعانهم ولذلك نظموا في سلك الآلهة ساترن وجوبتير وسبيلة وغيرهم كما سيجيء وجعلوهم من آلهة السماء وعبدوهم ورضي بذلك جميع الأمم. وتسمى هذه الخرافات المثولوجيا وينحصر الكلام عليها في قسمين: القسم الأول في الآلهة اليونانية وكيفية اعتقادهم بها؛ والقسم الثاني في آلهة المصريين ومعبوداتهم وهيئاتهم وكيف كانوا يصورونهم وما يعنون بهم.

فمن آلهة القسم الأول، أي آلهة اليونان «ساترن» المسمى كيوان، أي الدهر، وهو إبن الفلك الذي يزعمون انه أقدم الآلهة وكان لساترن أخ آخر يسمى «تيتان» أكبر منه وبمقتضى ذلك كان له الحق في التسلطن على الدنيا ولكنه تخلى عنها لساترن إجابة لطلب أمهما «وستا» وهي الأرض بشرط انه كلما ولد له ولد يقتله من ساعته فصار لا يربي أولاداً ذكوراً عملاً بهذا الشرط فأضحت زوجته آيسة من بقاء إبن لها حتى ولدت ذات يوم ولدين توأمين أحدهما يسمى «جوبتير» وهو المشتري والثاني أنثى وتسمى «يونون» فأخفت الذكر وأظهرت الأنثى. فلما علم تيتان بذلك حارب أخاه ساترن فهزمه وأسره وكبله بالحديد فبقي حتى كبر إبنه فخلصه فنهضت عليه أولاد تيتان وجددوا الحرب بينهم وبينه انتقاماً لأبيهم فغلبهم جوبتير فلما رأى ساترن من إبنه ذلك سأل إله المقدور المسمى «الدستين» عنه فأخبره أنه سيأخذ منه المملكة فصار يحاول إهلاكه وهدده بالقتال فغلبه جوبتير وطرده من السماء إلى الأرض فنزل في محل من إيطاليا اسمه لاطيوم أسست فيه مدينة رومية فيما بعد. فتلقاه ملك هناك في ذلك الوقت يقال له «يانوس» بالبشر والترحيب وأشركه معه في الحكومة فكافأه «ساترن» بمنحته إياه بمحفوظة عجيبة بها

يتفكر في الماضي ويتبصر في الآتي ولهذا قالوا إن «يانوس» له وجهان ينظر بهما خلفه وأمامه، أي يتبصر في الماضي والمستقبل. وكانوا يصورونه بصورة شخص بإحدى يديه مفتاح وبالثانية قضيب. فالمفتاح لاعتقادهم أنه مخترع الأبواب والأقفال والقضيب لأنه يحكم به في الطريق ليأمن به أهل السياحة. ويسمون زمانه بعمر الذهب، أي زمن الهناء والسرور، لأنها كانت زاهية مزهرة مبهجة. ثم من هذه الآلهة «سبيلة» وهي على زعمهم آلهة إنثى وهي الأرض الزراعية وكانت زوجة «ساترن» ولها أسماء كثيرة عند شعرائهم وكانت تدعي بالجدة لأنها أم أغلب الآلهة لا سيما آلهة الرتبة الأولى. وكانوا يصورونها إمرأة قابضة على طبل إشارة إلى أنه كما إن الطبل ممتلىء بالهواء كذلك الأرض مشتملة على الرياح في جوفها ويسمع منها قعقعة ويصورون البهائم حولها. ويصورونها أيضاً محمولة على عجلة مجرورة بالأسود والسباع وعليها بعض الأحيان تاج من الأزهار والنباتات.

ومن هذه الآلهة «سريسة»، أي السنبلة، وهي بنت «ساترن» وأمها «سبيلة» المار ذكرها. وكانت آلهة محصولات الأرض على زعمهم وهي التي أحدثت زراعة القمح ولذا كانت تصور مكللة بتاج من السنابل وبثديين غليظين، ولذلك تسمت ذات النهود الكبيرة. وتسمى أيضاً الماء، أي التي تقوت وتغذي، وذلك لأنها هي التي أحدثت القمح ولا شك إن القمح هو قوت جميع الناس. وكانوا يصورونها أيضاً ماسكة بيدها مصباحاً تبحث به عن إبنتها التي أخذها منها «ابلوطون» إله النيران. ويقال إنها لما تحسرت على بنتها ذهب عنها النوم فكان أخوها «جوبتير» يطعمها الخشخاش لأن من خواصه أنه ينوم الانسان ولهذا تصور أيضاً ماسكة بيدها هذا النبات.

ومنها «جوبتير» وهو المشتري إبن «ساترن» و«سبيلة» كما تقدم فهذا لما طُرد أباه من السماء قسم ملك الدنيا بينه وبين اخوته فأخذ لنفسه القسم العلوي، أي السماء، وأعطى سلطنة المياه لأخيه المسمى «نبطون» وأعطى سلطنة الجزء السفليّ المعبر عنه بالنيران لأخيه «ابلوطون» ثم اختل حكمه بعد قليل من الزمن وذلك إن الأرض التي هي زوجة «تيتان» لما يئست من بقاء أولادها حيث كان يقتلهم كما كان يفعل «تيتان» مع أخيه «ساترن» ولدت رجالاً طوالاً جداً جبابرة فوضعوا الجبال فوق بعضها ليصعدوا عليها إلى السماء ويطردوا منها «جوبتير» لكنهم أصيبوا بالصواعق فوقعوا منكبين على وجوههم تحت هذه الجبال ففسد تدبيرهم لكن «جوبتير» علم انه لا قدرة له على مقاومة هؤلاء الأعداء الكثيرين وحده فاستعان بغيره من الآلهة ليقاتلوا معه لكنهم بمجرد نظر هؤلاء الجبابرة انهزموا وتشتتوا في بلاد مصر وتشكلوا بأشكال الحيوانات المختلفة وهذا في الميثولوجيا أصل عبادة المصريين للحيوانات. وكان من جملتهم «بخوس» وهو أشجعهم فتشكل بصورة أسد وتجلد في مصادمة هؤلاء الجبابرة مدة طويلة وكان «جوبتير» يحرضه على القتال حتى غلبهم. فلما استقل «جوبتير» في الدنيا وصار مستولياً عليها شرع في صُنع النوع البشري على ما في هذه الخرافات فأرادت إحدى بنات أولاد الفلك المسماة «ابروميته» أن تقتدي به في ذلك فعملت من الطين بعض أصنام على صورة الرجال ونفخت فيها الروح فغضب «جوبتير» من عملها هذا وأمر أحد الآلهة أن يربطها في جبل كوه قاف ويضع بجانبها عقاباً ليمزق أحشاها فكان كلما تمزقت أحشاء تبدلت بأحشاء جديدة ليدوم عليها العذاب. فغضب بقية الآلهة من فعل «جوبتير» هذا حيث تبين لهم أنه أراد أن ينفرد بصنعة الانسان واتفقوا على ان يشتركوا في خلق امرأة فخلقوها وسموها «بندور»، يعني المصنوعة من الآلهة. فأمالها إليه «جوبتير» وأعطاها علبة لينتقم من هؤلاء الآلهة فكانت هذه العلبة هدية مشؤومة لأن جميع أمراض الطبيعة كانت مخزونة فيها فأعطت «بندور» هذه العلبة إلى أخ «ابروميته» ففتحها لتشوقه إلى ما فيها على ما قاله بعضهم. وقيل إن الفاتح

لها إمرأته فبمجرد فتحها خرج منها جميع الأمراض التي كانت فيها وانتشرت على سطح الأرض ولم يبق في العلبة إلّا الرجاء ومن ذاك الوقت ابتدأ عمر الحديد والمصائب ونحوها.

ثم من الآلهة «يونون» وهي إنثى ويقال لها «جونون» كانت أخت «جوبيتر» وزوجته معاً وهي آلهة الزواج والولادة وكان لها بنت تسمى «هيبة» وهي آلهة الصبا والشبوبية. ومن أولادها «مارس»، أي المريخ، وهو إله الحروب القاهـر. وولدت أيضاً «بركان»المار ذكره وكان قبيح المنظر ممسوخاً فكرهه «جوبتير» وأظهر انه ليس أهلاً لأن يكون من أولاده فضربه ورماه فانكسرت إحدى رجليه في حال سقوطه فصار أعرج فجعله «جوبتير» إله الحدادين الذين يعملون الصواعق ليسليه على هذه المصيبة التي نكبته ثم غضب «جوبتير» على «يونون» فعشق إمرأة تسمى «لاطون» فولدت له «أبولون» و«ديانة» فغارت «يونون» منها وترجت من الأرض أن لا تعطي لها مأوى تستقر فيه فوعدتها بذلك إلّا إنها قالت لها إنني لست ملكة على جزيرة ديلوس لأنها الآن في وسط البحر تحت الأمواج فهي من متعلقات إله البحر الذي هو «نبطون». أما «نبطون» فأخذته الرأفة على «يونون» فثبت لها تلك الجزية ورفعها فوق الماء فوضعت فيها «أبولون» و«ديانة» ولهذا سمي «ابولون دليان» باسم هذه الجزيرة ويسمى إله الرعاة لأنه كان يرعى المواشي ومن وظائفه أيضاً تفريق النور على أهل الدنيا. وكان على اسمه صنم رودوس الشهير الذي صنعه رجل يقال له شاروس من النحاس ودام في عمله إثنتي عشرة سنة وكان نصبه سنة ٣٧٠٠ للعالم وهو من عجائب الدنيا السبع، ثم وقع بزلزلة بعد ستين سنة من أقامته وبقي ملقي على الأرض إلى أن باعه الخليفة معاوية سنة ٦٧٢ للمسيح لرجل يهودي حمّل قطعه على سبعمائة جمل. أما أخته «ديانة» كانت تسمى بالقمر ولما كانت تحب الصيد جعلوها آلهة الصيادين وعاشت مدة حياتها بتولاً وكان لها هيكل مشهور في مدينة أفسوس وهو أحد عجائب الدنيا السبع أيضاً. وكان لها مذبح أيضاً في بحر جزيرة القرم جهة بحر البنطش وكانوا يقربون فيه قرباناً من الآدميين لا سيما ممن كانت تنكسر سفنه على تلك السواحل.

ومنها «بخوس» وهو ابـن «لجوبتيـر» من إمرأة تسمى سميلة بنت قدموس ملك طيوة اليونانية. ويقال إنه أول من اعتصر الخمر وكانوا يقربون له التيوس لأن من دأبها اتلاف شجر العنب ويقال أيضاً انه أول من علق العجول في العربات وكانوا يصورونه بقرون في رأسه إشارة إلى القوة والجسارة العادية للسكران. وكانوا يصورون وجهه على هيئة وجه صبي، لأن الانسان في حال سكره تكون حالته كحالة الصبيان. وكانوا يصورونه مجرداً عن الملبوس لأن السكران يفشي ما في ضميره وكانوا يصورونه مع ندمائه على هيئة إناس معربدين من شدة الغضب ويصورون له عربة تجرها نمورة وذلك إشارة إلى أن الشارب إذا أكثر من الشرب يذهب عقله ويعربد من شدة غضبه ويصير كالبهائم الوحشية.

ومنها «مركور» وهو عطارد وكان ترجماناً للآلهة وسفيراً لهم ولذا جعلوا له أجنحة في رأسه يسرع في قضاء حوائجهم. وكانوا يصورونه قابضاً بيده على عصا وذلك على ما حكي أنه رأى ثعبانين يتقاتلان ففرق بينهما بتلك العصا فلذا كانوا يصورونها ملفوفاً عليها ثعبانان وكانت صورتها علامة عندهم على الصلح والتعاهد.

ومنها «وينوس» وهي الزُهرة. قيل إنها بنت الفلك وآلهة النهار. وقيل يوجد زُهرة غيرها وهي آلهة المودة الصادقة. ويوجد أيضاً زُهرة أخرى تسمى «أبوستروفيا»، أي التي تصرف القلوب عن صدق المودة، وأما المشهورة فهي «وينوس» كانت آلهة المحبة الشهوانية وهي آلهة العشق عند اليونان. وقيل كان لها معبد في مدينتنا بيروت وكان لها معشوق يسمى «أدونيس» كان معبوداً من سكان مدينة جبيل

القدماء وكانوا يسمونه «تموز». ومن حكاياتهم عنه أنه خرج يوماً ليصطاد في غاب في البرية فقتله وحش ضارٍ فبكته الزهرة ثم أقامته من الموت. ويوجد صُور منقوشة على صخر في قرية يقال لها الغينة في معاملة الفتوح من كسروان تمثل قتل الوحش لأدونيس وبكاء الزهرة عليه. وفي محل آخر يقال له المشنقة من أعمال بلاد جبيل يوجد نقوش تمثل حكاية عوده إلى الحياة وقد نظرت المكانين وكان لقدماء الجبيليين عادة أن تجتمع النساء في كل سنة فينحنَ على «تموز» الذي هو «أدونيس» وذلك بقرب نهر ابراهيم الذي كان ينسب إليه. وقد امتدت عبادته إلى مصر وغيرها. قيل إن المصريين كان من عادتهم أن يلقوا في كل سنة في عيده علبة في البحر مصنوعة على هيئة الرأس ويضعون ضمنها رسالة يوجهونها إلى سكان مدينة جبيل زاعمين أن هذه العلبة تصل من ذاتها إلى جبيل في مدة سبعة أيام ويكتبون في الرسالة تسليمات على «أدونيس». وكانت صورة الزهرة على هيئة امرأة جالسة على عربة مجرورة بالحمام والبجع والعصافير.

ومنها «نبطون» وهو أخو «جوبتير» الذي أخذ البحر من نصيبه عند تقسيم المملكة. كان له عصا على شكل جديلة شعر وكانت عربته صدفة كبيرة تجرها خيول البحر التي ليس لها إلَّا رجلان من مقدمها، وأما المؤخر فليس فيه إلَّا ذنب كذنب السمك وكان له ولد يسمى «الأوقيانوس» الذي هو البحر المحيط وتأويله أبو الأنهر تزوج بامرأة تسمى «تيتيس» فولدت الحور اللاتي هن عرائس البحر وآلهات الأنهر والعيون.

ومنها «ابلطون» وهو إله النيران وكان تحت حكمه ثلاثة أنهر من النيران لكل واحد آلهة مع كل واحدة منهن ركة غزل عليها في بعض الأحيان صوف أسود فيغزلن منه خيوطاً بقدر أعمار الناس فمتى انقطع خيط الانسان انقضى أجله وكان عطارد يأخذ أرواح الموتى التي يأتي بها قارون إلى الشاطىء فيوصلها إلى قضاة النيران وهم «ياقوس» و«مينوس» و«رومنت» فيحاسبونها ثم يبعثون أهل الجنة للجنة المسماة عندهم «اليزة» وأهل النار للنار المسماة عندهم «ترتار».

وكانوا يجعلون لليل آلهة أنثى وللنوم المسمى أيضاً مرفه إلهاً وكانوا يزعمون أن والد هذين الالهين هو «مومس» إله الألعاب واللذات والضحك والمزاح وبنوا أيضاً هياكل الشهوات الشنيعة كالحسد والتدليس والكذب والغيبة والشقاق وشدة الغضب وأسسوا أيضاً هياكل للأمراض كالحمى والوبأ وللخوف والفقر والاحتياج والقضاء المبرم والأرياح والعواصف. وكذلك كانوا يعدون من جملة الآلهة الفضائل والخصال الحميدة كالأمانة والعدل والتقوى والصدق والاتفاق والعافية والحرية وغير ذلك وكذلك السكوت الذي يسمى عند المصريين «هربقراطس» وعند اليونانيين «سيفاليون» كان كل من هاتين الملتين يصوره واضعاً إصبعه السبابة على فمه إشارة إلى طلب السكوت، وكانت شجرة الخوخ منذورة له لأن ورقها على صورة اللسان وثمرها على صورة القلب. وكان المصريون يصورون آلهة السكوت أيضاً صنماً بفم مختوم مطبوع عليه الشمع.

أما المصريون فأشهر آلهتهم المعبودة وأكثرها احتراماً هي «اوزريس» و«ايزيس» و«انوبيس» و«كانوب» و«ابيس» و«سيربيس» و«افنيف». فأما «أوزيس» فهو إبن «جوبتير» تزوج بامرأة تسمى «ايوحين» هاجرت إلى مصر خوفاً من «يونون» واسمه هذا كلمة عبرانية معناها روح الدنيا أو مدبر جميع الكائنات. والظاهر أنهم كانوا يعنون به الشمس وكانوا يصورونه بصور مختلفة على حسب الأوقات فكانت أشكاله متنوعة عند غروب الشمس وعند الشفق وعند طلوع الفجر وشروق الشمس باختلاف تلك الأوقات. فتارة كانوا يصورونه في وقت الظهيرة وفي وقت المطهر وفي الأيام الصيف على هيئة شاب

لابس خرقة قماش ساترة لجميع بدنه وعلى رأسه كرة سماوية. وتارة على شكل أحد الرعاة على رأسه قلنسوة قابضاً على عصا وبجانبه كبش. وأحياناً يجعلون تمثاله عند غروب الشمس على شكل سائق عربة بيده سوط جالساً على زهر شجرة السدْر.

وأما «ايزيس» فكان أشهر معبوداتهم بعد «أزوريس» وهو عندهم كناية عن «ديانة» و «السنبلة» عند اليونان وربما إن «ايزيس» هي القمر زوجة «اوزريس» الذي هو الشمس. وكانوا يصورونها حاملة على رأسها أوراقاً كبيرة أو قدراً أو دواليب أو كرة أو صورة هلال. وكثيراً ما كانوا يصورونها واضعة طفلاً على فخذها ترضعه ثدييها وفي رأسها قرون كقرون شاةٍ أو ثور أو تيس وكانوا يقربون لها رؤوس البقر والذئاب كما كانوا يقربون لزوجها «اوزريس» رأس البازي. وكانوا يصورونها قابضة بيدها على منجل.

أما «انوبيس» الذي بنى له المصريون هياكل ومحاريب كثيرة فذكر بعض العلماء أنه «عطارد» ولكن الأصح أنه كوكب الشعري وربما سماه المصريون «طوطاطيس». وكان يزعم بعضهم أنه «طوت» إله الغلبين أي الفرنساويين القدماء. وقيل إنه تغير إلى صورة كلب «لايزيس» المار ذكرها وسافر معها في أغلب أسفارها. وكانت عادتهم في تصويره أن يجعلوه على شكل شخص رأسه كرأس الكلب معلقاً في ذراعه إناء ذا حلقة وبيده اليمنى يراع وله أجنحة في رجليه وخلفه صورة بجع وسلحفاة. وجددوا له مدينة كانت تسمى سينوبوليس، أي مدينة الكلاب، ووضعوا فيها كلاباً كثيرة وسموها الكلاب المقدسة.

أما «كانوب» فكانوا يعبدونه مصوراً بصورة إناء كبير عليه صورة رأس امرأة وبازي مرسوم عليه حروف هيروغليفية وهي القلم الفرعوني القديم وكان أتباعه أشد الناس سحراً وكهانة.

وأما «أبيس» فاضطربت فيه أقوال القدماء فقال بعضهم: إنه ابن «نيوبة» بنت «فرنه» زاعماً أنه حكم في مورة المسماة بالأقطار الأبيسية مدة خمس وثلاثين سنة. وذهب آخرون إلى أن المصريين كانوا يعنون به شعاع الشمس والتحقيق أنهم كانوا يعبدونه ويصورونه على شكل ثور. وأصل ذلك أنهم رأوا في مدينة منفيس ثوراً أسود في رأسه بعض نقط فزعموا إنه إله وعبدوه وسموه «ابيس» معتقدين انه صورة «اوزريس» بعثها إليهم بقصد الزيارة وكانوا يصورونه بصورة عجل أسود على ظهره صورة حداة وعلى لسانه تمثال خنفساة وشعر ذنبه على نوعين وفي أضلاعه شكل هلال.

وأما «سيربيس» فذكر العلماء أنه هو و «اوزريس» و «ابيس» شخص واحد وإنما صورهم المصريون بصور متعددة وسموا كل صورة منها باسم من تلك الأسماء. فظن الذين بعدهم أنهم آلهة متعددة. وشوهد في بعض عمارات المصريين القديمة تمثال «سيربيس» على صورة شخص هرم في رأسه ست ضفائر مثل قرون السلقة التي هي أنثى الذئب مستور بخرقة قماش طويلة عريضة منقوشة ببعض علامات من علامات منطقة البروج، قابض بيده اليسرى المطلوقة دون غيرها من سائر اجزاء جسمه على ثعبان محيط بجميعه.

وأما «افنيف» فكان يعتقده المصريون أنه الخالق للدنيا وحده وكانوا يصورونه على شكل شخص خارج من فيه بيضة. وذلك ان البيضة كانت عندهم علامة على العالم وبنوا له هيكلاً في مدينة أسوان التي هي آخر بلاد القطر المصري.

ثم يوجد أسماء آلهة كثيرة غير التي ذكرتها لم أتعرض لبيانها حباً بالاختصار ولقلة شهرتها نظير «كستور» و«بولكس» المعبر عنهما عند الفلكيين بالجوزاء والتوأمين و«هرقول» المعروف عند الافرنج بذي القرنين وقيل إنه غير اسكندر الرومي بن فيليبوس لتأخره عن ذي القرنين بمدة طويلة كما دل على ذلك صاحب كتاب **نشق الأزهار في عجائب الأقطار** وغاية ما هناك أن الملائكة السماوية في اعتقاد العرب هم آلهة في اعتقاد اليونان يسمون كل واحد باسم خصوصي وذلك إنما نشأ للناس من رداءة قلوبهم وضعف عقولهم وفساد أوهامهم وتخيلاتهم وقصور أذهانهم لما شوهد من وجود عبادة الأصنام في امريكا عند اكتشافها مع أن أهلها لم يروا «نينوس» ولا غيره ولم يسمعوا به. فسبحان الإله الحقيقي المتعال، رب الكائنات، الإله الصيد ذي القدرة والكمال. انتهى.

التحفة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك الأوروبية

تأليف نادرة الزمان

موسيو كيزو*

الوزير الفرنسي الشهير والعالم النحرير

ترجمة حنين نعمة الله خوري

[المجموعة السابعة من أعمال السنة الثانية. ص ٢٩٢ - ٣١٣].

مقدمة المترجم

إنني كنت قد باشرت بترجمة هذا الكتاب منذ جملة أعوام رغبة بالاستفادة ولكونه مشحوناً بالفوائد التاريخية والأدبية. فالآن بما إنه قد انطلب مني إلى الجمعية العلمية لأجل طبعه في المجموعة الشهرية فقد عزمت على تتميم ترجمته رويداً رويداً وسميته **التحفة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك الأوربية**. راجياً من ذوي العلم والعرفان غض النظر عن تقصيري لأني لست من فرسان هذا الميدان.

[اقتصرنا على نشر مقدمة المترجم، لأننا سننشر الكتاب بكامله على حدة]

(*) هو: فرانسوا غويزو ١٧٧٨ - ١٨٧٤ François Guizot
والكتاب المقصود: General History of Civilization in Modern Europe 1829 - 1832, 3 vols.

أعضـاء غيـر محليـة

[المجموعة السابعة من أعمال السنة الثانية. ١٨٦٩. ص ٣١٤].

اسكنـدريـة

جرجس كرم
سابا دباك
مخائيل مقصود
سليم زغيب
نجيب زغيب
نعوم لفلوفة
مخائيل صوايه
القس نلسن الامركاني
الخواجا الياس نوفل
بشارة شديد
الوكيل حبيب غرزوزي

رشـيـد

متري موسى

مـصـر

محمد بك سراج معاون ضابطيه
اسماعيل افندي جوده معاون ضابطية
علي أفندي مظهر في ديوان الداخلية
الخواجة رزق جرجس

جـبـل لـبـنـان / عـبـيـه

سعيد بيك أبي نكد

طـرابلـس

الخواجة قيصر كستفليس

الـشـام

علي بك حماده
الخواجة مخائيل مشاقه

خطاب في الهيئة الاجتماعية
والمقابلة بين العوائد العربية والافرنجية
للمعلّم بطرس البستاني
عفي عنه

[بيروت: مطبعة المعارف، ١٨٦٩. ص ١ - ٤٢].

إن خطابنا هذا يحتوي على ثلاثة أقسام: القسم الأول: الهيئة الاجتماعية. الثاني: العادة. الثالث: مقابلة عادات العرب والافرنج.

القسم الأول
الهيئة الاجتماعية

إن الهيئة الاجتماعية عبارة عن سكان بلاد أو مدينة لهم صوالح مشتركة أو هي بالأحرى الحالة الناشئة من الاجتماع البشري. وأساس الاجتماع البشري الحقيقي الطبيعي إنما هو احتياجات الأفراد ومخاوفهم، وعلى ذلك بقدر ما تكون تلك الاحتياجات متسعة ومهمة والمخاوف متنوعة وقوية يكون ذلك الأساس متيناً ورباطاته وأسبابه شديدة. ومن ثم كان أساس الاجتماع البشري بين القبائل الهمل الخشنة ضعيفاً وبسيطاً وما ذلك إلّا لأن احتياجات أفرادهم قليلة في عددها دنية في قيمتها فتراهم يجوبون الفيافي والقفار كلاً على حدة في طلب القوت والكسوة من أجسام الحيوانات التي يصطادونها بواسطة آلات بسيطة يصطنعها كل منهم لنفسه مما ألقته أمامه الطبيعة من المواد المناسبة. وفي هذه الحالة الخشنة لا يكون فرق كبير بين الانسان وأعلى طبقة من الحيوانات. ولكننا نرى هذا الأساس أقوى قليلاً في القبائل التي ابتعدت قليلاً عن حالة الخشونة كعرب البادية مثلاً فإن لهم احتياجات كثيرة من جهة القوت والمأوى والملبوس ولهذا نرى بعض الانتظام في هيئتهم الاجتماعية وقد اصطلحوا على عادات وشرائع لأجل المحافظة على ذلك الانتظام على قدر الامكان وإذ كانوا منقسمين إلى عشائر وقبائل متفرقة بعضها لبعض عدو كانت مخاوفهم قوية. ولهذا نرى الاجتماع البشري المحفوف بحراس العصبية في أعلى درجة من القوة. وهكذا كلما ابتعد قوم درجة عن حالة الخشونة ترى احتياجاتهم ومخاوفهم تزداد شيئاً فشيئاً بقدر ذلك الابتعاد إلى أن نصل إلى درجة التمدن التام الذي تصل فيه الاحتياجات والمخاوف إلى أعلى درجاتها. ولما كان أساس الاجتماع البشري الحقيقي الطبيعي احتياجات أفراد البشر ومخاوفهم كانت الهيئة الاجتماعية في الكمال والنقص بحسب درجة ايفاء تلك الاحتياجات ودفع تلك المخاوف فإن كان الايفاء والدفع مساويين للمطلوب من دون زيادة أو نقصان كانت الهيئة الاجتماعية في حالة الكمال. وهذا لا يؤمل الحصول عليه في عالم ساقط كعالمنا وطبيعة فاسدة كطبيعة البشر وإلّا فإن زادت على المطلوب أو نقصت عنه تولد لا محالة خلل في الانتظام وعدم راحة ورفاهية في المعيشة وذلك بقدر النقص أو الزيادة. وعلى ذلك يكون إيفاء تلك الاحتياجات ودفع تلك المخاوف دستوراً يمكننا أن نتوصل به إلى معرفة حالة كل جماعة منتظمة. هل هي وافية بالمقصود، أو زائدة عليه أو ناقصة عنه، ومعرفة مقدار النقص والزيادة؟ لأن سعادة الانسان تقوم بنوال مرغوباته على أتم منوال بحسب درجته من التمدن.

ثم ان احتياجات الانسان على أقسام: منها احتياجات طبيعية وهي ما يلزمه لقيام وجوده من القوت والكسوة والمأوى ولوقاية ذلك الكيان وتلك اللوازم. وهذه الاحتياجات تزداد عدداً وأهمية كلما

تقدم درجة نحو كمال التمدن لأن الذين يكتفون في أمر المعيشة بحلة من الدقيق وثوب من الجلد وبيت من الأغصان أو قبة الفلك تكون احتياجاتهم أقل جداً من احتياجات الذين وصلوا إلى درجة من التمدن بحيث لا يمكنهم أن يحافظوا على وجودهم إلاّ بأطعمة ألطف ومأوى أحصن وملبوس أكمل. وكذلك الأقوام الذين لم يزالوا في حالة الخشونة تكون قلوبهم فارغة على الأكثر من المطامع والخداع وصوالحهم متوحدة لا اشتراك بينها البتة أو لها اشتراك قليل لا يلزمهم لوقاية أنفسهم من المخاوف بقدر ما يلزم الذين وجدت في قلوبهم هذه المحركات من الأدوات الحربية. ومنها احتياجات عقلية وهذه تقوم بما من شأنه أن يجتذب عقول الناس إليه ويوجد فيها تياقة ولذة ومعرفة من شأنها أن تمكنهم من قضاء واجبات الحياة بأكثر نجاح وذلك كالكتب والآلات الفلسفية. ومنها احتياجات معشرية وهذه تقوم بما يخولنا قدرة على مساعدة اصحابنا في أمر الضيافة وما أشبهها وبذلك نقوي الأسباب والعلائق التي تربطنا بالجنس البشري. ومنها احتياجات أدبية وهي تقوم بما يخولنا رغبة وقدرة على عمل الخير نحو الآخرين وبهذه الواسطة نربي في أنفسنا تلك الخصال التي تجعلنا أكثر أهلية لاعتبار من يشاركنا في الطبيعة. ومنها احتياجات دينية وهي تقوم بما يساعدنا على تأدية تلك الواجبات التي يطلبها منا خالقنا والمعتني بنا وذلك نحوه ونحو القريب لكي نكون مرضين له عزّ وجلّ. ومنها احتياجات سياسية وهذه تقوم بمركز القوة الذي يفرغه الجمهور في عدد معين من أفراده من أصحاب القوة الأدبية والطبيعية والأمانة لأجل حفظ نظامه ووقايته من الخلل والمحافظة على دمه وماله وعرضه. ومنها احتياجات اكمالية وهي تقوم بأمور لا يضطر الانسان إليها غير انها تكون ذات منفعة لرفاهية جسمه ورياضة عقله والحصول على شهواته الطبيعية التي غرسها فيه باريء الطبيعة وذلك كالفُرَج وآلات الموسيقى والملابس الفاخرة والأطعمة اللذيذة وشرب الدخان والقهوة إلى غير ذلك من النوافل مما يمكن الاستغناء عنه في أمر المعيشة إلاّ انه إذ كان مباحاً للانسان ومحبوباً عنده في ذاته فحالما تنفتح عيناه إليه بواسطة التمدن الكثير الاحتياجات لا يلذ له عيش ولا يحسب ان احتياجاته قد قضيت على حقها إذا لم يتيسر له الحصول عليه

فها قد رأينا ان احتياجات الانسان أجناس وتحت كل جنس أنواع وتحت كل نوع أفراد ولكل فرد منها خاصيات وكيفيات وأحوال مختلفة بحيث لا يتيسر أمر ايجادها لفرد أو جماعة أفراد بل يستلزم اشتراك كثيرين في الغالب في ايجادها لأنه لا يمكن لانسان واحد مثلاً أن يكون زراعاً وحصاداً ودراساً ومذرياً وعتالاً ومغربلاً ومكربلاً ومكارياً وطحاناً وعجاناً وخبازاً وان يصطنع ما يلزم لكل من هذه الأعمال من الأدوات لأجل ايجاد صنف واحد من جنس واحد من قسم واحد من احتياجاته الطبيعية وهو الخبز الذي هو من أهم أصناف قوته المناسب له. ومَن طالع قصة روبنصن كروزي واطلع على ما كابده من المصاعب وصرفه من الوقت في ايجاد الخبز عندما ألقته التقادير في الجزيرة المعروفة باسمه يتضح له ما تقدم بأجلى بيان. وكذلك لا يمكن لانسان واحد أن يكون زراعاً وحلاجاً وغزالاً وبراماً وحائكاً وخياطاً ولا قطاعاً ونحاتاً وبنّاءً وكلّاساً ونجاراً ولا تلميذاً ومعلماً ولا رعية وملكاً وشيخاً أو قسيساً لأجل ايجاد باقي احتياجاته الطبيعية والعقلية والأدبية والدينية والمدنية والاكمالية، بل يحتاج بالضرورة إلى من يساعده في ايجاد تلك الاحتياجات. وهكذا نتج الاجتماع البشري وإذ كانت منافع هذا الاجتماع لا تنال على أتم مرام إلاّ بواسطة القرب والاختلاط نتج من ذلك عمار المزارع ثم القرى ثم المدن ثم العواصم. ولما كانت هذه الاحتياجات لا توجد كلها في مكان واحد من بلاد واحدة نتج بالضرورة اتصال قرية بقرية ومدينة بمدينة. وهكذا حصل الاجتماع المدني وإذ كانت الاحتياجات المذكورة لا توجد جميعها في بلاد واحدة لأن باري الكون لأجل كمال الاتصالية والالفة بين الجنس

البشري بحيث يصير الجميع كعائلة واحدة جعل بحكمته الباهرة لكل بلاد أو اقليم خاصيات ومواد لا توجد في غيره حتى صار العالم بأسره نظير سلسلة تعددت حلقاتها. كانت كل واحدة منها مفتقرة إلى أختها بحيث لا يتيسر حفظ تركيبها ونظامها بدونها ومن ذلك نتج اتصال البلدان واختلاط أهاليها معاً لاشتراكهم في الصوالح. وإذ كانت بيروت التي هي محل إقامتنا ووطننا حلقة من حلقات تلك السلسلة العظيمة وكان مركز هذه الحلقة مهماً لنا ولسورية بلادنا لأنها موصلة بين بلادنا وبين نفسها وبينها وبين البلدان الأجنبية رأينا أن نخصها بالذكر لتكون مثالاً يقاس عليه. وعلى ذلك لنا أن نسأل: **ما هي حالة الهيئة الاجتماعية في بيروت؟** وإذ قد تقدمنا فقلنا إن أساس الاجتماع البشري هو الاحتياجات والمخاوف وان إيفاء تلك الاحتياجات ودفع تلك المخاوف يكونان بحسب درجة التمدن يلزمنا أن نذكر ثلاثة أمور قبل الجواب عن هذا السؤال.

الأمر الأول: ان أكثر أهالي بيروت هم من محبي السلامة والراحة العمومية وأصحاب صوالح مشتركة وهم مؤلفون من أرباب الصنائع والتجار وأصحاب الأملاك وولاة الأمور وعدد الأوباش فيها قليل جداً إذا قابلناها مع مدن أخرى.

الأمر الثاني: إنه يوجد في بيروت أشخاص من بلدان وأجناس مختلفة أو من أكثر الأجناس الذين تحت قبة الفلك يجمعها فريقان أبناء الشرق وأبناء الغرب وهم وان اختلفوا في أمر الجنسية والمشرب يشتركون في الصوالح ولا سيما التجارية والمدنية والأدبية. وإذا شاءوا يمكنهم ان يعيشوا معاً بالأمن والراحة والرغد والسعادة. نعم، انه يوجد أوقاتاً بعض من الأوباش، الذين قذفتهم طهارة بلادهم أو صرامة شرائعها أو أسباب أخرى إلى هذه البلاد، لأجل الافساد ونزع الراحة والأمنية العمومية التي ربما شاركهم فيها البعض من رعاع بلادنا. ولكن ما نراه من صحة الارتباط والألفة بين باقي الأهالي من أبناء وطن وأجانب من شأنها أن تصلح أو تمنع وقوع ما كان يمكن وقوعه من الأضرار على بلادنا هذه من أمثال هؤلاء الأشرار.

الأمر الثالث: إن أكثر سكان بيروت متمدنون وعواطفهم جميعاً متجهة نحو التمدن ومائلة إليه وهم شديدو الاهتمام في توسيع دائرته في بلادهم وانتشار فوائده في جهات أخر ومن ثم كانت احتياجاتهم احتياجات قوم متمدنين وكذلك مخاوفهم ولهذا لكي تكون هيئتهم الاجتماعية موافقة لاحتياجاتهم ويكونوا هم متمتعين بنتائج تلك الحالة لا بدّ لهم من ايفاء تلك الاحتياجات على حقها ودفع تلك المخاوف قاطبة. وإذ قد عرفنا ذلك نقول:

أولاً: إن احتياجات الاجتماع البشري الطبيعية في هذه البلدة من القوت والكسوة والمأوى وأسباب وقايته من المخاوف بإعطاء الأمنية التامة على دم الأهالي ومالهم وعرضهم تكاد أن تكون مساوية للمطلوب ولا تزال بهمة وعناية أولياء الأمور آخذة في النشاط والنمو والقوة والقرب من درجة الكمال يوماً فيوماً. حتى يمكننا أن نقول بالصدق والافتخار ان هذه المدينة هي آمن مدينة في العالم وذلك مما زادها عماراً وجعل الناس تتقاطر إليها من كل جهة وما نراه من اتساع دائرة الأبنية وتوسيع الأزقة والشوارع واصلاح الطرقات وتيسير وسائط الاتصالية والانتقال والحركة براً وبحراً يقوي أملنا بأنه سيكون لهذه المدينة مستقبل سعيد ويحمل كل من اطلع على التقدم والنجاح اللذين حصلا لها في مدة يسيرة على الاقرار بأن من بها من السكان هم أصحاب همة ونشاط ونباهة واقدام لا يفوقهم فيها أحد من سكان الكرة الأرضية واقناع من يعتد باقناعه من أصحاب روح العصر الجديد بأنها كما كانت

مرضعة للفقه والآداب في الأزمان السالفة ستكون كذلك في ما يأتي وتكون موصلاً بين الغرب والشرق في كل أمر مفيد.

ثانياً : إن احتياجات بيروت العقلية مع ما نراه فيها من امتداد المعارف وتكثير عدد المدارس والمطابع لا تزال قاصرة كثيراً عن المطلوب لأنه لا يوجد فيها ما يطلبه روح العصر من الكتب المناسبة لأجل فائدة وتسلية معاشر الذين يعرفون القراءة وتوليد الرغبة في تعلم القراءة في معاشر الأميين ولا محلات تحتوي على ما تلذ مطالعته من الكتب والكازتات التجارية أو الجرنالات الصناعية. ومع ما نراه من الهمة والنشاط في أعضاء الجمعية العلمية السورية وغيرهم في إيجاد ذلك نرى انه لم يزل باب واسع جداً للاصلاح والتقدم من هذا القبيل ولهذا يمكنا أن نقول بالصحة والأسف ان موجوداتها من هذا القبيل هي دون مطلوبات أهلها الذين قد أطلع كثيرون منهم على فوائد ذلك وانفتحت أعينهم نحوه. ولا ريب ان تعذر هذه الوسائط هو من أكبر الأسباب التي تملأ القهاوي من الشبان والشيوخ الذين يترددون إليها لأجل قتل الوقت نهاراً وتملأ البيوت من الدومينات والشدّات [ورق اللعب] والطاولات لأجل قتله هناك ليلاً.

ثالثاً : إن احتياجات بيروت المعشرية هي قاصرة أيضاً فإنه لا يوجد فيها قاعات خطب ولا مراسح لعب ولا تحف معتبرة مما من شأنه أن يوسع دائرة العقل ويقوي عناصر الألفة ويحسن حالة الهيئة الاجتماعية. ولهذا نرى أكثر الأهالي لا يعاشرون إلّا دفاترهم ومخازنهم ودكاكينهم وصنائعهم وملاعبهم وعماراتهم نهاراً والتأمل بها والكلام عنها ليلاً. وهكذا نرى الأكثرين قد ولدوا وشبوا وشاخوا ثم ماتوا ولم يعرفوا من الدنيا إلّا تلك الأعمال ولا التفتوا إلى ايجاد أو تدبير شيء يكون نافعاً لذريتهم أو قريبهم أو وطنهم، ولهذا ترى المصالح العمومية التي يتوقف عليها نمو الهيئة الاجتماعية وراحة العموم وخير أبناء الوطن متأخرة كل التأخر، وقلما يوجد لها محامٍ أو نصير.

وكل أمرء لا خير فيه لغيره   فسيان عندي فقده ووجوده

وهذا على اننا نقول إن الاهتمامات الحاصلة من طرف هذه الجمعية وغيرها في هذا الأمر يقوي أملنا بأنه بهمة ونشاط أعضائها ومعاضدة سكان البلدة وتنشيطاتهم ستتيسر الوسائط المذكورة ومع التمادي تصل إلى درجة تنبه أفكار الجمهور إلى الاضطرار إليها ومعرفة قيمتها ووجوب الاعتناء بإيجادها وايصالها إلى أسمى درجاتها،ولأبناء الوطن القوة الكافية أدبياً ومادياً على إيجاد ذلك بأقرب وقت وأيسر مرام وأتمّ منوال.

رابعاً : إن احتياجات هذه المدينة الأدبية والدينية ليست في حالة أحسن من الاحتياجات المعشرية. فإن حالة الذين من واجباتهم إيجاد وتيسير تلك الاحتياجات ظاهرة لا تحتاج إلى دليل وليس من مقاصدنا ولا نريد ان نتعرض للكلام عنه أو البحث فيه لأنه موضوع طويل عريض. والأمنية التجارية التي هي من أعظم احتياجات مدينة كهذه والتي هيْ الدولاب والمحور الذي تدور عليه أشغال أكثر سكان هذه البلدة قد وصلت إلى درجة أوجبت خللاً في الأعمال وبطئاً في الحركة وضيقة عمومية. ولكن لنا الأمل انه مع التمادي ستزول الأسباب التي أوجبت هذه الأحوال ويرجع دولاب الاشغال إلى مركزه السابق ويجتهد الأهالي في اتخاذ التدابير والوسائل الفعالة لحفظه في ذلك المركز، وذلك بواسطة اكتساب رضى وأركان من بيدهم زمام الأمور ودفة الأعمال ومفاتيح القوة والغنى والأمنية **وبواسطة تقوية رباطات الاتحاد الذي هو أعظم قوة خسرتها العرب وقهرتهم بها الافرنج.**

القسم الثاني
العادة

إن العادة مأخوذة في الأصل من العَود ومعناه الرجوع والمراد بها ما تعوده الانسان من فعل قبيح أو عمل مليح وذلك مع التكرار والمواظبة. وهي قد تكون ملكة راسخة في النفس وتعرف حينئذٍ بالخلق. فإذا كانت مما لا يمكن ان يفارق صاحبه فتشبه بالغرائز المركوزة في البدن حتى يقال إنها طبيعة خامسة وعلى ذلك يقال: عادة في البدن لا يغيرها إلاّ الكفن، ومنه قول الشاعر:

السطبع شيء قـديم لا يحس بـه وعـادة المرء تـدعى طبعـه الثـاني

وإذا كانت مما يصعب تركه، إما لائتلاف الطباع عليه أو لموافقته ذوق الأكثرين، فيراد بها حينئذٍ مصطلحات قوم في أمر الأكل واللبس والمعاشرة وما أشبه وهذه هي المقصودة هنا.

ولا يخفى ان أساس العادة إنما هو الاحتياج، والاحتياج العادي قد يسببه مزاج الهواء أو الذوق أو الديانة أو ما أشبه. وربما نتجت العادة من مصدر آخر كطلب المشابهة والتقليد مثلاً وهذه ربما وافقت الهواء والذوق والديانة أو خالفتها. وعند النظر في عادة قوم يمكننا أن ننظر إليها باعتبارها في نفسها مع قطع النظر عن ذوق أهلها أو من يخالفهم ونحكم بجودتها أو رداءتها من حيث نفعها الذاتي أو ضررها. ويمكننا أن ننظر إليها باعتبار من هي جارية عندهم ونحكم بجودتها ورداءتها من حيث مطابقتها لهيئتهم الاجتماعية أو عدم مطابقتها أو من حيث سدها لاحتياجاتهم أو عدمه. ومن ثم كان قبول عادة عند قوم أو عدم قبولها لا يجوز أن يتخذ دليلاً على حسنها أو رداءتها لأننا نرى كل فئة ترضى بعاداتها وتفضلها على عادات تخالفها عند غيرها. ولا ريب انه مما يسبب هذا الاختلاف بين الفئتين الموافقة أو ائتلاف القوم على هذه دون تلك. ولهذا لكي يمكننا أن نحكم حكماً صائباً من جهة جودة عادة أو رداءتها يجب أن نجرد تلك العادة عن ذوق أهلها أو من يضادهم. فإن البوذينو والكوستيد اللذين يحسبهما بعض الافرنج من أفخر مآكلهم هما من أكره المأكولات عند العرب حتى انه يسهل على كثيرين منهم تناول دواء مهما كان كريهاً أكثر من تناولهما. ومن ثم لا يجب أن نسلم لأبناء العرب بأن الافرنج لا يميزون بين الطيب والخبيث من الأطعمة لأنهم يكرهون الكبة واللحم النيء الذي يأكله بعض العرب أكثر مما يكرهون هم البوذينو واللحم المنتن والجبن المدود الذي يأكله الافرنج ولا يتقذرون منه. لأن ذلك ليس ناشئاً عن شيء ذاتي يوجد في طبيعة ذلك الشيء المخصوص لأن الشيء الواحد لا يمكن أن يكون طيباً وخبيثاً أو مكروهاً ومحبوباً معاً من حيث هو هو في ذاته وإلاّ فإننا نلتزم أن نسلم باجتماع الأضداد وذلك محال بل انما هو مسبب عن قوة العادة واختلاف الذوق. ولذلك يقال: إن الذوق لا جدال فيه لأننا نرى من أهل البلاد الواحدة شخصاً يحب ما يكرمه الجمهور ويكره ما يحبونه.

ومن الأمور البديهية ان اختلاف أمزجة الناس والبلدان والأزمنة يوجب اختلافاً في العادات ولهذا يلزمنا أن لا نغفل عن ملاحظة ذلك. واعتباره عند النظر في العادة وإلاّ فإننا نقع في خطأ بَيِّنٍ في الحكم عليها أو لها. وهو من الأمور المسلم بها أن أكثر العادات وعلى الخصوص المسببة عن الهواء والذوق اضطرارية لا اختيارية لأننا قلّما نرى عادة جرت بين قوم بعد الاتفاق عليها في جمعية يعقدونها لذلك، بل انما أكثر العادات تدخل بين الناس بغتة فيضطر الواحد إلى اتباعها جبراً عنه خوفاً من مخالفة الجمهور فيها. على أن احداث العادة يكون في الغالب تدريجياً لا دفعة واحدة. وأما العادة الناتجة عن التقليد فهي على الأكثر اختيارية تنتج تارة من استحسانها وتارة من طلب التشبيه بين شخص وآخر أو

فئة وأخرى وأحياناً من طلب المضادة وذلك كمن يترك عادة قديمة بسبب استعمال شخص لها أو جماعة هم أدنى منزلة منه فيجتهد في اتخاذ عادة غيرها جديدة تجعل الفرق بين الفريقين ظاهراً جلياً. فإننا مثلاً نرى كثيراً من العادات الجارية في بيروت ناتجاً عن التسليم الأعمى وذلك كبعض عادات أخذوها عن الافرنج ولا يعلمون سبباً حملهم على التمسك بها إلاّ مجرد كونها افرنجية غير ملتفتين إلى كونها مفيدة لهم أو غير مفيدة مقبولة عند أبناء وطنهم أو مكروهة لديهم. وما أكثر العادات التي يتركها أهالي بيروت وليس ما يحملهم على تركها إلاّ اتصالها إلى أهالي الجبل وذلك لما تقدم أو لأنهم يرون قبحها حالما يرونها عند غيرهم. وهذه الأسباب توجد عند الافرنج أنفسهم. ثم لما كان لا بد من اختلاف في الهواء والذوق وأسباب التقليد وغيرها كان لا بد من الاختلاف في العادات المسببة عنها، أو من هنا ينتج كثير من الاختلاف بين العادات الافرنجية والعادات العربية لاختلاف أمزجتهم وبلدانهم وشرائعهم وأديانهم. ولذلك يسوغ لنا أن نقول إنه ليس كل ما عند الافرنج من العادات يوافق العرب ولا كل ما عند العرب من ذلك يوافق الافرنج وانه لا يحق لأحد الفريقين أن يلوم الآخر أو يكرهه لأنه لا يرتضي بعاداته ولا يتمسك بها، ولكن يجب الاجتهاد في كل مكان وزمان في إبطال ما كان من العادات مضراً بآداب الجمهور أو صحتهم أو مالهم.

ثم ربما كانت عادة مقبولة عند قوم ونافعة لهم في وقت ما ثم صارت مكروهة عندهم أو مضرة لهم في وقت آخر. فإن لبس الطربوش ذي الزاف المعروف بالدلح مثلاً كان في أيامه مما يتفاخر به أجدادنا وربما البعض من آبائنا وكذلك الطرطور والزربول وما أشبه. وأما الآن فإن من ظهر بين الجمهور بهذه الملابس يجعل نفسه عرضة للاستهزاء ويعد من القدماء وأصحاب الخشونة حتى ان الأكثرين في هذه الأيام يتعجبون كيف أمكن الأقدمين أن يتخذوا كذا ملابس أو يقبلوها. ومن ثم لا يليق بنا أن نجعل أنفسنا عبيداً للعادة بل بالحري نجعل العادة عبدة لنا نتركها متى شئنا. ولهذا لا يكون أمراً غريباً إذا كان أولادنا ينظرون في ما يأتي إلى عاداتنا وملابسنا كما ننظر نحن إلى الذين تقدمونا أو إذا رأينا البعض من أكبر المحامين عن العادات القديمة والمتمسكين بها يتركون عاداتهم ويتخذون عادات جديدة ترونهم مزمكين أو كما يقال مكيسين.

ولا ريب ان العادة من شأنها ان تكون من حيث خشونتها أو لطفها بحسب درجة تمدن أهلها. وكلما ابتعد قوم عن حالة الخشونة تبعد عاداتهم عن حالة الوعرية وتتهذب، أي ان العادات تتمدن بتمدن أهلها. على اننا نقول بالاجمال إنه لما كان الانسان غير كامل كانت عاداته غير كاملة وكان فيها دائماً عيوب كثيرة ونقائص شتى وان يكن قد ارتقى إلى أسمى درجة من سلم التمدن.

وهو أمر واضح انه لما تقدم من الأسباب يوجد اختلاف كبير بين عادات العرب والافرنج. حتى انه لدى اعتبار ما بين عادات الفريقين من التباين والتضاد يمكننا أن نقول إن الافرنج لم يتعبوا في إيجاد عاداتهم بل عكسوا عادات العرب فكان من ذلك عاداتهم ومع أن ذلك يكاد يطابق الواقع تماماً كما يظهر لمن تتبع عادات الفريقين لا يطابق الحقيقة لأن مصدر عادات الافرنج ليس هو طلب معاكسة عادات العرب بل ما ذكرناه قبلاً من الأسباب. حتى اننا إذا نظرنا إلى عاداتهم في أجيالهم المظلمة نرى انها كانت من البربرية والخشونة على جانب عظيم ثم خرجت في الأجيال المتوسطة من حالتها البربرية واتخذت هيئة متمدنة نوعاً فصارت على الأكثر كعادات العرب الحاضرة ثم أخذوا في تغييرها وتحسينها وتهذيبها شيئاً فشيئاً حتى وصلت في مدة نحو ثمـان مائة سنة إلى ما وصلت إليه الآن. وهم لا يزالون يغيرون ويبدلون حتى يخيل انهم سيرجعون إلى كثير من العادات القديمة التي تشبه عاداتنا. وكأنّي بهم في أمر العادة يمشون على محيط دائرة حتى يصلوا كل مدة إلى النقطة التي خرجوا منها ثم يقطعون ذلك المحيط ثانية وهكذا إلى ما شاء الله.

القسم الثالث
مقابلة عادات العرب والافرنج

أولاً : إنه يوجد اختلاف واضح بين الفريقين من جهة إرخاء الشعر وحلقه فالافرنج ترخي شعر الرأس وتحلق شعر الوجه وأما العرب فبالعكس. فأما إرخاء الشعر عند الفريقين فهو جارٍ على وفق الطبيعة فإن شعر الرأس وجد قبل وجود الطربوش والبرنيطة وشعر الشاربين واللحية وجد قبل وجود المقص والموسى ووجوده لم يكن عبثاً بل قصد به الوقاية أو الزينة أو التمييز بين جنس وجنس. فهو الكساء الطبيعي الذي جعله الله لخلائقه الحية الحساسة كافة كلا على قدر حاجته. وقد وجد العرب منذ عهد مجهول لزوم إرخاء شيء من شعر رأسهم كالناصية والقنزعة ورأى بعضهم في هذه الأيام لزوم إرخائه كله اقتداء بالافرنج وقد زادوا على ذلك شعر الشاربين عموماً وشعر اللحى خصوصاً. ومعلومكم ان شعر الشاربين واللحية فضلاً عن فائدته في كونه كمصفاة تقي آلات التنفس من المواد الهبائية والحلقوم والمنخرين من الأهوية الباردة الرطبة تميز جنس الرجال من جنس النساء ولا سيما عند من كان غريباً منهم. وإذ كان بعض العرب قد ابتدأوا في حلق الشاربين واللحى نرى ان الافرنج قد رجعوا إلى عادتنا في ذلك. فإن اللحية عندهم ليست إلاّ كالأظافر يحلقونها متى شاءوا ولا جناح عليهم. وأما ما نراه من الاختلاف بين الافرنج أنفسهم من جهة كمية المرخى من شعر الوجه حتى نرى بعضهم بلحية كاملة وشاربين وبعضهم بلحية بلا شاربين وبعضهم بشاربين بلا لحية وبعضهم بعارضين وبعضهم بعنقفة، فهو مغاير على خط مستقيم للذوق العربي وذوق بعض الافرنج أيضاً. وليس بعجب أن نرى بعضهم يحلق جانباً من الشاربين واللحية ويطلق الجانب الآخر لكي تكون في وجوههم كل الأشكال التي يمكن العقل أن يتصورها. ولعل لهم في ذلك حكمة ومقاصد لا يقدر العقل العربي أو الشرقي على التوصل إلى ادراكها.

ثانياً : مما اختلفت فيه العرب والافرنج أمر الملبوس. وعلى الخصوص من جهة ضيقه عند الافرنج واتساعه عند العرب ولا يخفى ان المقصود الأصلي من اللبس انما هو وقاية الجسم الانساني من البرد والحر وستره عن النظر. ولهذا كان لكل بلاد وفصل ملبوس يوافقه وربما كان ملبوس كل فريق أكثر موافقة لبلاده من ملبوس الفريق الآخر. وملبوس الافرنج الضيق يوافق حركتهم السريعة الناتجة من شدة اعتبارهم لقيمة الوقت أو حرصهم. وملبوس العرب الواسع يوافق حركتهم البطيئة الناتجة من عدم اعتبارهم لقيمة الوقت وقلة مطامعهم أو من تعليقهم أمر الرزانة الأدبية على الرزانة الطبيعية. ولولا ذلك لما رأيناهم يصرفون جزءاً كبيراً من حياتهم على الطريق. ولكن مزاحمات الافرنج ساعية في أثرهم وستعلمهم بعد قليل انه يفوتهم منافع ومكاسب كثيرة من بطء حركتهم. وقد ورد في التواريخ ان الملوك القساة كانوا إذا أرادوا قهر رعاياهم وإذلالهم يلبسونهم اللبس الطويل الواسع لكي يفقدوا بذلك حمية الرجال ونشاطهم وشجاعتهم. ثم مما خالف فيه الافرنج العرب في أمر الملبوس هو انهم يعتنون اعتناء تاماً بتدفئة أيديهم بلبس الكفوف وأرجلهم بلبس الجوارب ويتركون رؤوسهم مكشوفة لعناية الطبيعة خلافاً للعرب فإنهم يدفئون رؤوسهم بلبس العَرْقية، ثم اللبادة ثم الطربوش ثم العمامة ويتركون أرجلهم مجردة تهتم بنفسها. ولهذا نظن ان النزولات تأتي الافرنج من رؤوسهم والعرب من أرجلهم. وربما كان ما حمل الافرنج على عادتهم معرفتهم ان القلب الذي منه يتوزع الدم مصدر الحرارة إلى باقي الأعضاء هو أقرب إلى الرأس من الأطراف وأقل احتياجاً إلى التدفئة فضلاً عن الكساء الطبيعي الذي كساه الله به. وبناء على هذه العادة نرى الافرنج يدخلون البيوت بأحذيتهم مكشوفي

الرؤوس، خلافاً للعرب، فإن الأمر هو بعكس ذلك عندهم. ولا ريب أن عادة الافرنج تنافي مبادىء النظافة ولا سيما عند العرب الذين من عاداتهم الجارية الجلوس على الأرض في المكان الذي يطأونه بأقدامهم فضلاً عن أن أكثرهم يحسبون النعل مع ما يحمله من الأقذار ينجس ما لامسه. وهو أمر واضح أن ملبوس رجال الافرنج ليس في شيء من الظرف، وما تجاوز منه حدود الاعتدال في القصر والضيق بحيث لا يستر من الجسم إلاّ لونه، شنيع في الغاية ومضاد للحشمة والأدب لأنه يفي بحق الوقاية ولا يفي بحق السترة خلافاً لملبوس العرب. وكنت أريد أن أقطع عرضاً من جبّة العرب فاصل به طول جبة الافرنج التي لا تصل عند البعض إلاّ إلى ما فوق العجز وان افتق عرضين من سروال العرب لأصل بهما عرض البنطلون الافرنجي لعلنا حينئذٍ نصل إلى ملبوس معتدل وموافق للفريقين. على اننا نقول: إن اللبس في نفسه ليس شيئاً بالنظر إلى حقيقة الانسان. وأحب إليَّ أن أرى افرنجياً في تمدنه بلبس عربي من أن أرى عربياً غير متمدن بلبس افرنجي. وهو ظاهر ان أعظم أكابر الدنيا والذين أعطوا العالم الشرائع والأديان والذين ألهم العالم من عظمائه كانت ملابسهم محتقرة في أعين الافرنج والعرب في هذه الأيام وهي مع ذلك لم تمنع تقدمهم ونجاحهم ولا تقلل اعتبارهم في أعيننا الآن.

ثالثاً: من جملة الاختلاف بين الفريقين أمر الأطعمة وأدوات الأكل. فأما الأطعمة فإن الافرنج يقصدون في أكثرها النفع أكثر من اللذة ولا سيما حلوياتهم لأنها تكون في الغالب لطيفة خفيفة على المعدة بخلاف العرب فإنهم يقصدون على الأكثر اللذة ولهذا تراها في الغالب غليظة وثقيلة على المعدة وذلك لكثرة آدامها. غير أنه من شأن أطعمة العرب أن تقوي المعدة وتعودها منذ الصغر على الكد في هضم ما يتناولونه من المواد الغير الناضجة والكثيفة. ولهذا نرى معد الذين لم تلتهم تلك الأطعمة في سن الطفولية قوية جداً حتى صار يشكل على أطباء الافرنج أن يعرفوا سبباً يحملون عليه عدم تأثيرها في متناولها فحكم بعضهم على أن صحناً من المجدرة مع فحل من البصل كافٍ لأن يقتل عربياً وبالأحرى افرنجياً.

ثم إن عادة الافرنج الأكل جلوساً على كراسي حول مائدة عالية مغطاة بغطاء من كتان أو قطن أو ما أشبه واستخدام السكين والشوكة لتناول الأكل ومناولة من يؤاكلهم، بخلاف العرب، فإنهم يأكلون جلوساً على الأرض حول خوان من الجلد أو صدر من النحاس أو طبلية من الخشب يفرشون الغطاء تحتها لا عليها، مضادة للافرنج، ويتناولون الأطعمة بأيديهم التي يلقبونها بشوكات آدم. ومن هنا جرت عندهم عادة الغسل قبل الأكل وبعده بخلاف الافرنج الذين حرمتهم الشوكة والسكين هذه العادة فأوقعت خللاً في مبادىء النظافة عندهم كما لا يخفى وتأكّلا في أسنانهم. ومع أن الافرنج لا يشتركون في الأكل من صحن واحد ولو كان من الأرز المفلفل ربما أكل العرب بملعقة واحدة واشترك عشرة منهم في أكل المرقة من قصعة واحدة. ولا ريب أن ذلك من شأنه أن يحدث تقززاً في من لم يعتده وربما دبت بواسطته أمراض معدية بين أصحاب هذه العادة. ولعل ما حمل العرب على هذا الاشتراك تعليقهم على المؤاكلة سراً أدبياً يسمونه بالممالحة واعتقادهم أن زيادة الاشتراك يتولد منها زيادة الالفة وتقوية رباطات المحبة. ثم إن العرب يحسبون الطعام ولا سيما الخبز الذي يسمونه بالعيش مكرساً ولهذا كثيراً ما يتعجب الافرنج عندما يرون عربياً يرفع كسرة من الخبز سقطت بالصدفة على الأرض فيقبلها ويضعها على رأسه مستغفراً الله عن ذلك، بخلاف الافرنج، فإن اعتبار الخبز عندهم إنما يقوم بما ينالونه منه من الغذاء وربما كان شدة اعتبار العرب للعيش يعفيهم عن القيام لاستقبال من أتاهم زائراً على الطعام معتذرين عن تأدية هذا الضرب من الاعتبار للضيف بحرمة العيش. وأما الافرنج فإذا اتفق أنه دخل عليهم أحد وهم على الطعام فإنهم ينهضون عن الأكل لا لاستقباله أو عزيمته بل لكي

يدلوه على محل الاستقبال حيث يلتزم أن ينتظرهم إلى أن ينتهوا من الأكل. ثم إن العرب من عادتهم أن يدعوا كل من حضر للأكل معهم مهما كان عدد الحاضرين ومقدار الطعام وربما دعوا عشرة على رغيف من الخبز وقطعة من الجبن تجملاً. وإلحاحهم بالعزيمة على الأكل مجاوز حدود الاعتدال وإذا لم يقدروا أن يقنعوا الواحد على الأكل معهم بالكلام فربما أمسكوه وأجلسوه على المائدة جبراً عنه وتراهم بعد أن يشبع يلحون عليه أن يأكل ولو فوق طاقته لأنهم يقولون: إن الأكل هو على قدر المحبة. وإذا كثر عدد المعدودي الخاطر في المحل فإنهم يلزمونه أن يأكل لأجل خاطر فلان وفلان إذا كان الضيف عربياً ولأجل خاطر فلانة وفلانة إذا كان افرنجياً. ولا يخفى الأوقات التي تصرف في كذا تجملات والتخمات التي تحصل من كذا الحاحات. وأما الافرنج فإنهم في الطرف الآخر من هذه المسئلة لأنهم لا يتكلفون في أمر العزيمة إلّا إلى قولهم: تفضّل كُل معنا، ولا يكلفون الضيف إلّا إلى جواب قصير جداً وهو: نعم أو لا. ولا يطلبون منه إذا قبل عزيمتهم أن يأكل ما لا يحب أو فوق طاقته، وكلمة المجابرة في الأكل لا وجود لها في لغاتهم والقول: «ان الأكل على قدر المحبة» هو من أغرب الأمور عندهم لأن القول الصحيح عندهم هو إن الأكل في وقت الحاجة وعلى قدر الحاجة.

قيل: إن أحد الأفرنج دعي إلى بيت أحد أكابر لبنان، وفيما هم على الطعام أخذوا يناولونه من الخمر حتى روي، ثم أخذوا يلحون عليه أن يشرب إكراماً للست فلأنه ولأجل خاطر الست فلانة حتى سكر. فنام تلك الليلة في بيت ذلك الشيخ وفي الغد ركب حماره راجعاً في طريقه فمرّ على عين ماء فعرض الحمار على الحوض فبعد أن شرب رفع رأسه مرتوياً، فأخذ يلح عليه ويضربه ويقول له: اشرب لأجل خاطر الست فلانة وإكراماً لخاطر الست فلانة، فأجفل الحمار راجعاً إلى الوراء ولم يشأ أن يشرب فوق طاقته فقال الافرنجي في نفسه: حقاً إن الحمار هو أحكم مني في صالح نفسه. وهكذا انصرف وقد استفاد مثالة معتبرة من حيوان هو مَثَل في الجهل وعدم المعرفة.

إني منذ نحو ثلاثين سنة سافرت مع تلميذ لي افرنجي طلباً للسياحة فأوصلتنا التقادير إلى مدينة شمالي بيروت فنزلنا في بيت أحد معتبري البلد والظاهر انه كان من جماعة المتفرنجين إلّا انه لم يتعلم من عادة الافرنج إلّا انهم لا يعزمون على الأكل ولأجل تعاسة رفيقي الافرنجي كان قد تعلم في مدة إقامته في لبنان عادة العرب في الالحاح على الضيف بعد الشبع حتى تعود أن يبقي دائماً في معدته زاوية فارغة لكي يذخر فيها تلك اللقيمات الخاطرية. فلما حضر الطعام جلسنا على الأرض حول السفرة فلما تناول رفيقي المذكور قليلاً من الطعام تحرك وأبعد قليلاً منتظراً العزيمة لكي يكمل عشاءه فسأله صاحب المحل: ما بالك توقفت عن الأكل. فقال: الحمد لله شبعنا. وعوضاً عن أن يثني عليه العزيمة قال: أنا أعلم أن الافرنج لا يحبون العزيمة على الأكل. ودعا الخادم أن يأتيه بالطشت والابريق ليغسل يديه، فالتزم المسكين أن يقوم عن العشاء جائعاً. ومما يناسب هذا المقام أبيات قالها جناب الشيخ ناصيف اليازجي الشهير الذي لا نشك بأنه من أكابر المحافظين والمحامين عن العادات العربية يصف بها نفسه بينما كان مرة على سفرة أحد الافرنج وذلك في أيام شبابه وهي الآتية:

ولدي طاولة يلوح بصدرها
سنيورة نسبت إلى الغزلان
تجد استتار الرأس عيباً مثلما
يجد الخضوع لها من الايمان
فكأنهم في المرء رأس المرأة الـ
مكتوب ضمن صحيفة الرحمان

قــرأوا لــعــكــســهــم الــقــراءة انها
رأس لــه فــأتــوا عــلى بــرهــان
والــسيــخ يــزحــم في يــدي فــرتــيــكــة
أبــداً تــدب كــأرجــل الــسـرطــان
أهــوي بهــا فتكــاد تــسقط مــن يــدي
لــو لم أدركــهــا بــكــفّــي الــثــاني
فــكــأنــي بــدويــة نــجــديــة
تمشي عــلى الــقــبــقــاب بــالــفــسـطان

رابعاً: إن الاختلاف بين الفريقين من جهة الأمور المتعلقة بالمعاشرة كثيرة ومتنوعة، وذلك أولاً: من جهة التعرف. فإن العادة العربية تعطي حقاً لكل عربي أن يمسي أو يصبح كل من صادفه ولو لم يره قط حتى أنهم يحسبون ترك هذا الفرض من أكبر علامات الجفوة والخشونة، أو كما يقولون: ضرباً من التَيْسَنة. وعلى ذلك قول بعض عامتهم:

مــرّ الــتّــيس ومــا سَــلّم فــكــأنــه خــنــزيــر مــبــلّم
شكّــوا مسمــار بــين عينــيــه مــرة أخــرى يــتــعــلم

وربما قال له إني ذبت شوقاً إليك مع أنه لا يعرفه وليس عنده شيء من المحبة نحوه. وجميع بيوت العرب مفتوحة لكل زائر غريباً كان أو قريباً. وإذا كان افرنجياً فلا يحتاج الأمر إلى توصية أو واسطة معرفة بل يكتفون بأن يروه يلبس افرنجي، وحينئذٍ يصير البيت والأمر والنهي له وهو عندهم قنصل أو طبيب أو شريف أو غني. وإذا لم يتوسموا تحت برنيطته شيئاً من هذه الصفات، فعلى الأقل يتوسمون أن عنده معرفة بكشف المخابىء ومعه دلائل عليها. وأما الافرنج فإن عادة أكثرهم أن لا يكلموا من لا يعرفونه أن تكون واسطة ثالثة لتعريفهم به. ويقال إنه إذا اتفق أن غريباً حيّى بعض أممهم بالسلام فالجواب الوحيد عندهم: لماذا تسلم عليَّ ولا معرفة بيننا. ثانياً: من جهة السلام فإن السلام عند الافرنج قصير مفيد فإن كلماته من المسلم: أوقاتكم سعيدة، كيف حالكم. وجوابه من المسلم عليه: وأوقاتكم سعيدة، أنا طيب أو منحرف المزاج، أنا ممنون لكم. ثم يأخذون في الحديث والأخبار والاستخبار، بخلاف سلام العرب فإنه طويل عريض عديم الفائدة وذلك لأن اصطلاحات التحيات والتسليمات عندهم ربما أشغلت ربع ساعة أو أكثر من الوقت. وأما عدم فائدته فإنما ينتج من فراغ أجوبته من الإفادة بالمقصود. فإنك إذا سألت الواحد مرة بعد أخرى عن حاله فيجيبك بقوله: الله يسلمك، الله يخليك، الله يحفظك، تحت نظرك، وهلمّ جراً. وليس شيء منها حاله. وقد بلغني انه اتفق أن أحد الافرنج سأل بعض العرب عن حالة ابنة له عزيزة كانت مريضة ومع شدة شوقه إلى معرفة حالها عجز عن استخلاص جواب مفيد من المخاطب ومع انه حصل على أجوبة كثيرة لاسئلته فارق المخاطب ولم يعلم هل ماتت المريضة أو طابت وهل هي أحسن في صحتها أو أردأ. وكذلك الاختلاف في أمر الكتابات ليس بأقلّ منه في أمر المخاطبات. فإن الافرنج يفتتحون كتاباتهم بسيدي أو سيدي العزيز ثم يأخذون في الأخبار أو الأشغال. وأما العرب فإن الأخبار والأشغال عندهم تغرق في بحار التحيات والوجد واللواعج والهيام وما أشبه مما قد ورثناه من المرحومين ولو كانت الكتابة من عدو إلى عدوه. حتى إنه في الغالب لا يمكنك أن تستفيد من رسالة طويلة حالة الكاتب أو خبراً تطلبه أو مكانه. وهذا مما يجعل كتابات العرب عديمة القيمة عند الافرنج وغيرهم من أبناء العرب المتمدنين. ويحق لنا

أن ننبه أبناء بلادنا إلى اصلاح تحياتهم وكتاباتهم من هذا القبيل والاقتداء بالبدو الذين قد سبقوا الحضر في هذا المعنى لأن ذلك عندهم مختصر في الغاية. ومما يليق ذكره بهذا المقام اعتماد العرب في مخاطباتهم على أمرين: أحدهما إرداف ما يقولونه بأجلّك أو بلا معنى أو بلا قافية وما أشبه وبذلك ينبهون أفكار السامعين إلى معانٍ رديئة قبيحة لو لم يردفوا كلامهم بهذه الكلمات لما انتبهت الأفكار إليها.

والأمر الثاني: تحاشيهم ذكر شيئين معاً بينهما تباعد من جهة الرفعة والحطة كالرأس والرجلين مثلاً والطربوش والحذاء. وأما الافرنج فليس عندهم شيء من ذلك، فإن الواحد منهم ربما ذكر رأسه مع رجليه وصرمايته مع لحيته من دون أن يحط بشأن شرفهما أو ينسب إليه أدنى خلل في أمر الآداب وذلك مما يجعل لغتهم بسيطة نظيفة ومعاشرتهم هنية نقية. ثم إن الافرنج من عادتهم عند السلام أن يهزّوا اليد ويرفعوا البرنيطة للرجل أو المرأة وأما أمر التقبيل فهو غير دارج عند أكثرهم إلاّ بين مرأة ومرأة وأحياناً بين رجل ومرأة. وتقبيل الرجال عندهم للنساء عند السلام نلحقه بأبواب الخلاعة التي يصلون بها إلى حد التناهي ولا سيما في مراسح الرقص التي أعمالها وحركاتها كافية لان تخنق عربياً مهما كان متفرنجاً. والأمل ان أبناء العرب لا يصل بهم تمدنهم إلى هذه الدرجة من الخلاعة، على أن العرب متطرفون في هذه المسئلة من الجهة الأخرى لأنهم لا يلتفتون إلى النساء بالكلية ولا يتنازل رجالهم إلى إعطاء المرأة حقها من الاعتبار المعطى لها من بارىء الطبيعة والاشتراك معهم في المعاشرة الذي يكون منه فائدة للفريقين. ولهذا نرى النساء عندهم في حالة يرثى لها من الجهل والمسكنة مع أننا إذا راجعنا تاريخ التمدن والتقدم في أوروبا نرى انه لم يبتدىء إلاّ بعد رفع درجة النساء والاعتناء في تهذيبهن. وما يظهر لنا انه إفراط عند الافرنج من جهة إكرام النساء وتفضيلهن في بعض الأمور ليس هو إلاّ واسطة من جملة الوسائط التي استخدموها لرفع شأن هذا الجنس وتقليل المضار التي تلحق بالجمهور من اختلاطهن به لو تركن في حالة الجهل والانحطاط كما بيّنّا ذلك بالاسهاب في خطابنا عن تعليم النساء.

خامساً: إن الافرنج من شأنهم الثبات على كل شيء والتدقيق في الأمور وهم لا يعملون شيئاً من دون قاعدة أو قانون فتراهم قد جعلوا قوانين وأصولاً لجميع الأمور من كلية وجزئية رفيعة ووضيعة حتى الفلاحة والزراعة والطبخ والسفر براً وبحراً والخياطة والبناء لها جميعاً قوانين مكتتبة لا تتعداها. وكلما كشفوا شيئاً جديداً يضعون له قوانين ويتركون ما تعطل من الأمور القديمة ويغيرون ما كان منها أقل موافقة بالأوفق. بخلاف العرب، فإن أكثر الأمور عندهم تؤخذ بالتسليم. وكذلك الافرنج لا يتمسكون بعاداتهم تمسكاً أعمى بل نراهم دائماً يغيّرون كثيراً من عاداتهم من الأحسن إلى الأردأ أو بالعكس ولا يحافظون عليها بناء على مجرد كونها قديمة بل يبدلون ما ظهر ضرره منها بما هو أنفع. ومَن لاحظ عاداتهم في أجيالهم المختلفة يرى انها كانت في الجيل الرابع عشر مثل أقدم عادات العرب. وهكذا نكون نحن متأخرين عنهم نحو أربعمائة سنة في هذا المعنى. وأما العرب فإنهم يتمسكون بعاداتهم كل التمسك مع علمهم بوجود عادات أحسن منها مدّعين بأن عاداتهم هي الأقدم، وهم يميلون طبعاً إلى القديم ويحبون أن يبقوا القديم على قدمه. وما أشد ضرر هذا المبدأ لهم، ولهذا ترى العالم يتقدم وهم باقون مكانهم ومتشاغلون في مدح عاداتهم وذم ما يخالفها، إذ يحسبون أنفسهم أنهم هم الأصل وأن بقية الشعوب متفرعة منهم وآخذة عنهم. وإذ كان هذا دأبهم ينبغي لهم أن لا يأخذوا شيئاً من الشعوب المجاورة لهم بل يقرأوا كتب أقدم المؤرخين لينظروا ما هي العادات الأكثر قدمية في الدنيا ويتمسكوا بها لكي يكون لهم زيادة فضل.

سادساً: من جملة ما اختلف فيه الفريقان نظر أحدهما إلى الآخر ويغمنا أن نقول إن أكثر الافرنج الموجودين في بلاد العرب ينظرون إلى العرب نظر الاستخفاف والازدراء ويعاملونهم معاملة من شأنها

أن تدقر حاسيات العرب من الجهة الواحدة وتحط شأن الافرنج من الجهة الأخرى. ولا نرى تلك المعاملة غالباً إلاّ من أدنياء الافرنج الذين لم يتيسر لهم التربية اللازمة، وأما أكابرهم فلا يأتون أعمالاً كهذه لأنهم يعلمون أنها تهين شرفهم وتغاير مبادىء التمدن وحقوق الانسانية والأدب الذي يطلب ممن كان ضيفاً أو غريباً. وإننا لا نبرىء أبناء بلادنا من إتيانهم أموراً من شأنها أن تجلب عليهم هذا الاحتقار ومن أكبرها عدم محافظتهم على شرف النفس واعتبار الذات الذي لا بد منه لكل انسان يريد أن يكون معتبراً من الآخرين. وأما العرب فإن نظرهم إلى الافرنج يختلف كثيراً عن نظر الافرنج إليهم، فإنهم في الغالب يقدمون لهم كل اعتبار وربما أضروهم بذلك ويجتهدون في أن يكرموهم كضيوف. على اننا نقول إن جميع ضيوفنا من الافرنج إلاّ ما ندر هُم من أهل الاعتبار وأصحاب المقامات السامية من سياسية وتجارية ودينية، وإننا مديونون لكثيرين منهم من جهات مختلفة. وربما كان مما يحمل الافرنج على احتقار العرب والعرب على اعتبار الافرنج هو أن نظر أولئك يقع بالجملة على عموم الأهالي وغالباً وضيعها لأن معاملاتهم ولا سيما المسافرين منهم تكون في الأكثر مع بحري ثم عتال ثم مكاري ثم ترجمان سياح. ولا تخفى حالة هؤلاء في الدنيا قاطبة، أو على قوم تكون يدهم ممدودة للبخشيش أو الصَدَقة أو معاشرتهم تكون مع أقوام من العرب الذين دناءتهم تحملهم على القذف في جنسهم كأنهم قد نسوا أن الطاعن في جنسه كالطاعن في نفسه ونظر هؤلاء لا يقع إلاّ على أصحاب الرتب والاعتبار والثروة وهلمَّ جراً ممن يستحق الاعتبار أينما وجد. ومما يجب أن يسلي ابناء العرب لدى هذه المعاملات أن العرب الذين يتوجهون إلى بلاد الافرنج ينالون من أهلها الاعتبار التام والمساعدة الكاملة ويحسبون هم وكل مالهم مقدسين ولو كانوا من عامة الناس عند العرب. هذا وإن كل من حقق النظر في الفريقين يحكم أن العرب هم خارجون من تمدن والافرنج خارجون من خشونة ولا بد أن تظهر آثار ذلك في بعض الأوقات في كل منهم.

سابعاً: إن اختلاف كثير بين الفريقين من جهة الآداب فإن الافرنج يخالفون العرب في جلوسهم ومشيهم وحركاتهم ومعشرهم واجتماعاتهم ووسائط الانتقال والحركة وأعراسهم ومآتمهم إلى غير ذلك مما لا يسعنا الوقت لاستيفائه. وإذا شئتم ضابطاً عمومياً لمعرفة تفصيل الاختلاف فخذوا عادات العرب القديمة وأعكسوها فتكون منها عادات الافرنج إلاّ فيما لا يمكنهم أن يخالفونا فيه. أما من جهة الطبيعة كالمشي على الرجلين مثلاً فإننا لا نقدر أن نعكس فنقول إن الافرنج يمشون على رؤوسهم وإن كان يوجد بيننا وبينهم اختلاف من جهة هيئة المشي. وأما من جهة الديانة فإننا نحن نقر بوجود الله فلا يصح أن نقول إنهم هم ينكرونه لأننا نحن نعتقد به. وأما من جهة المبادىء العلمية فإن أربعة وأربعة عندهم تساوي ثمانية كما هي عندنا وهكذا في باقي الأمور. ومما نتفق نحن وإياهم فيه هو أننا جميعاً ذوو طبيعة واحدة بشرية مائلة إلى الفساد والشر وبيننا وبينهم قرابة أولاد الأعمام. فإن الافرنج هم أولاد يافث والعرب أولاد سام وكلاهما من أب واحد وهو نوح. ولو ذكر الفريقان هذا الاتفاق في الطبيعة والقرابة العصبية لغرق فيه ما يوجد بينهم من الاختلافات العادية وما ينتج منها من حركات النفور. ولو علموا أن لهم أباً واحداً وهو آدم وأماً واحدة وهي حواء وإلهاً واحداً وهو مالك السموات والأرض ومآلاً واحداً وهو التراب وآخرة واحدة وهي الثواب أو العقاب، لكانوا يعيشون معاً بالمحبة والالفة ومساعدة بعضهم بعض مدة غربتهم على الأرض سواء كانوا على سطحها الغربي والشرقي.

هذا وإني في مقابلة العادات يتجه كلامي إلى عادات العرب الأصلية التي لم يدخلها شيء من عادات الافرنج الجديدة، وإلى عادات الافرنج الحاضرة، لأن عادات العرب الحالية تختلف كثيراً عن عاداتهم الأصلية التي دخل كثير منها في خبر كان وقد دبَّ في كثير منها مرض عضال لا يرجى شفاؤها

منه. وكذلك القول في عادات الافرنج القديمة. وإذا بقي الحال كما نرى فعلينا معاشر العرب أن نهيىء أكفاناً لما بقي من عاداتنا القديمة لأني أرى جيوش عادات الافرنج هاجمة عليها بكل قوة وعزم. وإذ كانت رجالها أكثر عدداً وقوة من رجال عاداتنا وهي محفوفة بقوة العصبية القائمة على مباني وأسس حب الوطن الراهنة والحذق في الصنائع والتدبير والآلات والثروة يخشى من أن تقع الكسرة في آخر الأمر على عاداتنا وتدور عليها الدوائر. وبناء على ذلك رأيت أن أختم خطابي بنصيحة لأبناء الوطن قدمتها في الوطنية الحادية عشرة من وطنياتي المعروفة بنفير سورية [«في التمدن». نفير سورية أو الوطنية الحادية عشرة. بيروت في ٢٢ نيسان سنة ١٨٦١. سطر ٣٦ - سطر ٥٧] فأقول:

«يا أبناء الوطن ان كل شيء ثمين في هذه الدنيا قابل التقليد والتزوير، وبمقدار ما يكون الشيء غالي الثمن ومرغوباً يجتهد أصحاب التزوير في تقليده وعرضه على الجمهور نظير خالص، وكما يدخل التزوير في البضائع والمأكولات والأدوية يدخل أيضاً في بضاعة التمدن التي هي غالية القيمة وجليلة القدر ومرغوبة جداً. وإننا نرى جيلنا الحاضر في خطر واضح لأجل أسباب متنوعة من الاعتماد على ضرب من التمدن لا يستحق الاسم ولا يأتي بأثمار التمدن الحقيقي. ولشدة إركانهم به واعتمادهم عليه يخشى من أن يكتفوا به فيتوقف النجاح بسببه. فإنه إذ كان الافرنج على جانب عظيم من التمدن وهم إذا أخذوا بالجملة في درجة من التمدن أعلى من أبناء الشرق وبالتالي من أبناء هذه البلاد التي كانت في دورها في الأزمان السالفة سريراً للتمدن ومركزاً للذوق والرونق، ولما كان لكل غريب بهجة ولكل جديد رهجة وكان الدهر افرنجياً وكانت العادات والذوق الافرنجي أشد سطوة مما لأبناء الشرق من ذلك ولا بد من أن تغلب عليه، يخشى من أن الأكثرين من أهالي بلادنا الذين هم من أميل الناس إلى التقليد وأقدرهم عليه يكتفون من التمدن بتقليد ما أمكنهم تقليده من عادات الافرنج وملابسهم ومزاياهم متوهمين أن ذلك كافٍ لأن ينظمهم في سلك المتمدنين ويجعلهم أعلى من أبناء جنسهم وأهالي بلادهم وقد فاتهم أنه إنما يجعلهم غرباء في أعين أبناء وطنهم ومحتقرين كمتقلدين أو منتحلين عوائد أو لابسين أثواباً لا يستحقونها في أعين الأجانب. ومع اننا نعتقد بأن اكتساب الفوائد من أية جهة أو أمة كانت هو من الأمور المستحبّة والمسلّم بها عند كل عاقل وبأن أكثر فوائد التمدن تأتينا من الجهة الغربية وبأن كثيرين من أهالي أوروبا يستحقون الاعتبار التام، لا يمكننا أن نسلّم تسليماً مطلقاً أعمى بأن كل ما يأتينا من هناك هو مفيد في ذاته وموافق لنجاح الشرقيين وهواء بلادهم الذي هو من أكبر المؤثرات في الانسان، وعلى الخصوص بهذا الاعتبار، بل نعلم أن الذين يقبلون متمسكين بكل ما أتاهم من الديار الافرنجية من دون فحص مدقق وانتقاد صحيح وانتخاب ما جل منها فقط مما يفيدهم تقدماً وتهذيباً نظير الافرنج طالما يخدعون أنفسهم ويقبضون الدرهم الزائف مع الدينار الخالص ويرقعون أثواباً بالية بخرق جديدة. وهكذا القول في الأشخاص. ولا يخفى أن من استهجن كل شيء لأجل مجرد كونه افرنجياً واستحسن كل شيء لأجل مجرد كونه عربياً وبالعكس يقع في تطرف مضر. ولما كان الناس يميلون طبعاً إلى الأشياء الظاهرة أكثر من الباطنة وإلى التمسك بالعَرَض أكثر من الجوهر ولا سيما في ما يستلزم سياحة الفكر وتروّي الذهن ودقة النظر كالعلوم والديانة مثلاً كان هذا دأبهم في أمر التمدن أيضاً. فيظنون أن التمدن يقوم بنظام العيشة وترتيب البيوت وظرافة الملابس والأكل على الطاولة ولطافة الأحاديث واختلاط النساء مع الرجال واكتساب لغة أجنبية وما أشبه ذلك من الصفات والأعمال والمزايا التي لا فائدة منها في الغالب إلاّ الأضرار بالصفات الأهلية

والفضائل التي يمتازون بها نظير أمة مخصوصة ممتازة عما سواها. مع أن هذه ليست بأكثر من قشور أو أوراق شجرة التمدن ومن أبعد نتائجه وأزهد فوائده أو هي أثمار أجنبية علقت وقتياً على أذيال شجرة التمدن. قال الشاعر:

لا يعجبنك أثوابٌ على رجلٍ
دَعْ حسنَ أثوابهِ وانظر إلى الأدَب

فالعودُ لو لم تَفُحْ منه روائِحه
لم يفرقِ الناس بين العودِ والحطبِ»

[طُبع في مطبعة المعارف
في بيروت سنة ١٨٦٩]

أعضاء الجمعية العلمية السورية كما وردت في مجموعاتها (١١٦ عضواً)

[غ. م. = عضو غير محلّي؛ اش = اشتراك]

الاسم	ملاحظة
أبو حمد، سليم	
أبو خزعل، علي	غ. م.
أبو نكد، سعيد	(عبيه)
ارسلان، محمد أمين	
أرقش، بشارة	
أيوب، سليم	(زحلة)
أيوبي، عبدالنجيب	(الشام)
باسيلا، سيروفيم	
بحمدوني، أمين	(زحلة)
بدران، عبدالرحمي	
البستاني، بطرس	
البستاني، سليم	
بسترس، حبيب	
بيهم، حسين	
بيهم، محمد	
بيهم، محيى الدين	
تابت، أيوب	
تابت، خطار	
توفيق، أحمد	
تويني، جرجس	
التيان، حنا	
الجاهل، جرجس	
جبارة، غبريل	
جرجس، رزق	(مصر)
جريديني، إسكندر	
جريديني، أمين	
الجلخ، حبيب	
الجلخ، يوسف	

الاسم	ملاحظة
جوده، اسماعيل	
حلاج، يعقوب	
حمادة، علي	غ. م
حمادة، محمود	(الشام)
خضرا، رزق الله	
خضرا، عبد الأحد	
الخمري، عبدالله	
خورشيد، آغا	(راشيا)
خوري، حنين	
الخوري، خليل	
الخوري، سليم	
خوري، موسى	
خيرالله، ضاهر	
دبّاس، بولس	
دبّاس، فضل الله	
دبّاك، سابا	(الاسكندرية)
دوماني، حبيب	
الدوماني، نقولا	
راشد باشا	(والي ولاية سورية)
رسلان، حمود	
رسلان، خليل	
رسلان، عباس	
رسلان، مصطفى	
زحلاوي، ابراهيم	
زغيب، سليم	(الاسكندرية)
زغيب، نجيب	(الاسكندرية)
زوين، جرجس	
سراج، محمد	(مصر)

الاسم	ملاحظة
سرسق، ديمتري	
سرعت، علي	
سوكه (الحكيم	
شارل، سليم	
شحاده، حنا	
شديد، بشارة	(الاسكندرية)
شقير، إسبر	
شقير، سعيد	
شقير، شاكر	
الصلح، عبدالرحمي	
صوايه، مخائيل	(الاسكندرية)
صوصه، عبدالله	
طرابيشي، عثمان	
طراد، إسكندر	
عبدالنور، جبران	
العيتاني، عبدالرحمن	
عبدالهادي باشا	(متصرف لواء بيروت)
غانم، خليل	
غرزوزي، حبيب	(الاسكندرية ـ وكيل)
فارس، ملحم	
فخري، إبراهيم	
فرانقو أفندي	(مدير جمرك الغلطة)
فرانقو باشا	(متصرف جبل لبنان)
فراندل (سفير دولة بلجيكا، غ . م)	
فريج، سليم	
فريج، موسى يوحنا	
قباني، سعد الدين	
كركبه، إلياس	
كرم، جرجس	(الاسكندرية)
كرمه، جرجس	

الاسم	ملاحظة
كساب، سليم	
كستفليس، قيصر	(طرابلس)
كوسا، فتح الله (اش)	
كوسا، فؤاد (اش)	
كوسا، فيض الله (اش)	
كوسا، نصر الله (اش)	
كوسا، يوسف سعيد (اش)	
لفلوفة، نعوم	(الاسكندرية)
محمد أفندي	(كاتب الطابور)
محمد بهجت أفندي (اش)	
مدور، نصر الله	
مرزا حسين خان	(سفير دولة ايران)
مسك، إسكندر	
مسك، بطرس	
مشاقة، مخائيل	(الشام)
مصطفى رفقي أفندي	(بيك باشي الطليعة)
مصطفى فاضل باشا (غ . م)	
مظهر، علي	(مصر)
مقصود، مخائيل	
موسى، متري	(رشيد)
نجيب أفندي	(البقاع ـ مأمور رسومات)
نحاس، بشارة	
نصر، حبيب خليل	
نلسن (القس)	(الاسكندرية)
نوفل، إلياس	(الاسكندرية)
ورتبات، يوحنا	
اليازجي، ابراهيم	
اليافي، عبدالبديع	
يني، انطانيوس	
يوسف كامل باشا	(رئيس المجلس العالي)

ملاحظة: يقول جرجي زيدان في **تاريخ آداب اللغة العربية**، (ج ٤، ص ٦٧) ان عدد اعضاء الجمعيّة لسنة ١٨٦٨ بلغ نحو ١٥٠ عضواً أكثرهم في بيروت. ويذكر ٤٥ اسماً فقط. أما طرازي في (**تاريخ الصحافة العربية**) فيذكر ٧٢ اسماً، بينهم اسماء القناصل الأجانب في بيروت وسواها من الولايات والحواضر.

ترقيم مجموعات أعمال الجمعية العلمية السورية
كما وردت بالأصل

١ - أعمال السنة الأولى: ١٨٦٨

مجموع واجبات الأعضاء والعمدة	ص ١ - ١٥
المجموعة الأولى	ص ١ - ٥٨
المجموعة الثانية	ص ١ - ٤٦
المجموعة الثالثة	ص ٤٧ - ٨٦
المجموعة الرابعة	ص ٨٧ - ١١٤
المجموعة الخامسة	ناقصة
المجموعة السادسة	ناقصة [من ص ١١٥ - ١٧٠]
المجموعة السابعة	ص ١٧١ - ٢٣٤
المجموعة الثامنة	ص ٢٣٥ - ٢٩١
المجموعة التاسعة	ص ٢٩٢ - ٣٣٣

٢ - أعمال السنة الثانية: ١٨٦٩

المجموعة الأولى	ص ١ - ٤٠
المجموعة الثانية	ص ٤١ - ٨٠
المجموعة الثالثة	ص ٨١ - ١٢٠
المجموعة الرابعة	ص ١٢٣ - ١٨٥
المجموعة الخامسة	ص ١٨٩ - ٢٢٤
المجموعة السادسة	ص ٢٢٥ - ٢٦٤
المجموعة السابعة	ص ٢٦٥ - ٣١٤

الفهرس

ـ ب ـ

ـ ت ـ

- ث -

- ج -

- ص -

- ط -

- ع -

- غ -

المحتويات

الصفحة